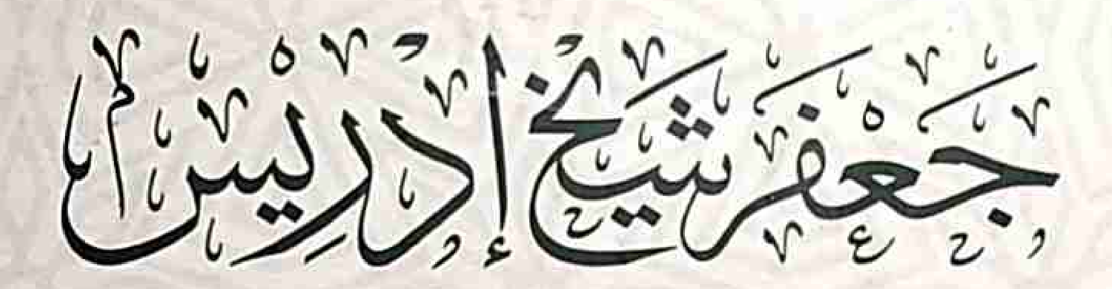


سيرته · مقالاته · محاضراته · بحوثه

جمع وترتيب

الدكتور مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الثاني

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته – محاضراته - بحوثه

[٢]

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، مبارك حمد آل حامد

جعفر شيخ إدريس: مجموعة مقالات ومحاضرات وبحوث.

مبارك آل حامد الشريف - الرياض، ١٤٣٩هـ (٢مج)

٤٤٤ ص ١٧×٢٤؛

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٩٦-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١. المقالات العربية أ. العنوان

ديوي ٨١ ١٤٣٩/٢٢٦٨

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٢٦٨هـ

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٩٦-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

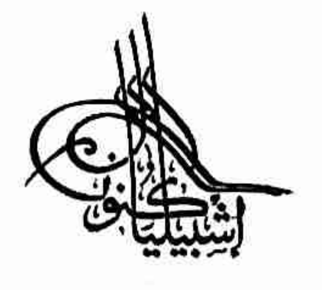
المملكة العربية السعودية

ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ ٩٦٦١١ +

٤٩٦٨٩٩٤ ٩٦٦١١ +

فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣ ٩٦٦١١ +



Dar Kounouz Eshbelia

For Publishing & Distribution

Kingdom of Saudia Arabia

P.O. Box 27261 Riyadh 11417

Tel.: +96611 4914776

+96611 4968994

Fax.: +966114453203

E-mail eshbelia@hotmail.com

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه

جمع وترتيب

د. مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الثاني




بسم الله الرحمن الرحيم


الحضارة الغربية

مقالات عن الحضارة الغربية

للدكتور جعفر شيخ إدريس؛ مقالات عديدة ومتنوعة نشرت في عدد من المجلات والصحف العربية والإسلامية، تحدث فيها الشيخ عن الحضارة الغربية والفكر الغربي، وسأذكر المقالات التي تمكنت من الحصول عليها، أما المقالات التي كتبها الشيخ ونشرتها مجلة البيان فسأكتفي بذكر عناوينها وبالتعريف بكل مقال بشكل موجز.

أولاً: المقالات

إطلالة إسلامية على الحضارة الغربية

جريدة المسلمون السعودية العدد ٤٣٢ في ١٤١٣/١١/٢٣هـ

نتشدكم الله أن تفعلوا شيئاً افعلوا شيئاً ! هكذا سمع صوت المذيع ينادي الناس في العالم مستغيثاً في مدينة سرابرنيتسا البوسنية بعد أن انهارت كل دفاعاتها الإسلامية، وبات اجتياح الصرب لها وشيكاً.

إنها استغاثة ملهوف يعرف ما معنى ذلك الاجتياح، إنه قتل الرجال والتمثيل بالأطفال واغتصاب النساء وتهديم المساجد، وإجلاء الناس عن ديارهم، وفتنة المسلمين في دينهم.

لقد حركت هذه النداءات كما حركت الصور البشعة على التلفاز المشاعر الفطرية في قلوب كثير من الناس في العالم الغربي. فراحوا يطالبون حكوماتهم بأن تتدخل عسكريا لإنقاذ المسلمين فهل تفعل هذه الحكومات شيئاً ؟ وهل نحن فاعلون شيئاً ؟

إن الذي يمنع الدول الغربية من الإقدام على التدخل العسكري أمور:

أولها: أن هذه الدول تبني سياستها في الغالب على ما تعده مصلحة وطنية اقتصادية، أو سياسية أو استراتيجية، أو حزبية انتخابية، او غير ذلك. وهي لا ترى لها مصلحة كهذه في مناصرة المسلمين في البوسنة.

وثانيها: أن كثيراً من الغربيين يعتقدون -في دخيلة أنفسهم -كما يعتقد إخوانهم الصرب -أن وجود المسلمين في أوروبا أمر شاذ، فلا يبالون إذن من غض الطرف عن إخراجهم منها.

ذلك سببان لا يصرح بهما، بل لا يقر بهما، بل قد ينكران إذا ما ذكرا إنكارا شديداً ولا سيما الثاني منهما لكن هنالك سببين أخرين يذكران صراحة.

أولهما: أن الحكومات الغربية تحذر حذرا شديداً من تعريض مواطنيها للموت، خصوصاً بعد التجربة الأمريكية في فيتنام، لذلك تراهم حريصين على الاكتفاء ما استطاعوا باستعمال القوات الجوية، وعدم اللجوء إلى استعمال القوات الأرضية. ويزيد هذا الحرص حين تخشى الحكومات من أن تؤدي كثرة الضحايا إلى سخط شعبي يؤثر عليها في الانتخابات.

وثانيهما: سبب في غاية السخف، وما أراه يذكر إلا كعلة واهية لتسويغ موقف مهين. إنهم يقولون إن تزويد المسلمين بالأسلحة يوسع مدى الحرب ويزيد من عدد الضحايا !أي ضحايا؟ إن تزويد المسلمين بالسلاح، أو السماح لهم باقتناء السلاح، سيمكنهم بلا شك من دفاع أحسن عن أنفسهم، وهو دفاع يقتضي بلا شك قتل العدو المعتدي. فما هذا المنطق الذي يمنع المظلوم من السلاح خشية أن يؤدي ذلك إلى قتل من يقتله ؟ أي منطق هذا الذي ينظر إلى عدد القتلى فحسب ولا يلقي بإلا لنوع المقتولين. ألم يسمع هؤلاء مقالة الخليفة الراشد إذا قتل نفرا تمالؤوا على قتل رجل: (لو أن أهل صنعاء تمالؤوا عليه لقتلتهم). إن المنطق العادل هذا يقول فليقتل الصرب جميعاً غير مأسوف عليهم إذا كانوا مصرين على العدوان غير مصغين لصوت العقل ولا لصوت الخلق.

لكن هذه الأسباب الأربعة يعارضها عندهم سببان آخران:

أولهما : أن الغربيين يعتقدون أن حضارتهم صارت اليوم حضارة إنسانية، تعني بحقوق الإنسان بما هو إنسان، وبغض النظر عن دينه وجنسه ولونه، فيسوؤهم أن يروا هذه الحضارة تتردى إلى همجيتها ووحشيتها التي كانت سائدة في عصور لها ماضية وقد عبرت عن هذا الشعور تعبيراً قوياً المسز تاتشر رئيسية الوزراء البريطانية السابقة حين قالت إن السكوت عن جرائم الصرب أمر لا يليق بأوروبا لا يليق ببريطانيا، لا يليق بالولايات المتحدة. لست أدري إذا كانت المسز تاتشر قد أدركت بحسها السياسي أن ضحية هذا العجز عن رد ظلم فاضح يقع في وسط أوروبا في نهاية القرن العشرين ويشاهده الناس رؤى العين على شاشات التلفاز العالمية، لن يكون بضع الملايين تلك من المسلمين الأوروبيين في البوسنة، بل سيكون الحضارة الغربية، لأن الحضارات إنما يبقيها –فيما يبقيها– اعتزاز أهلها بقيمها الإنسانية. فإذا ما ذهبت تلك الثقة أو تزعزعت فذلك إيذان بزوال الحضارة نفسها.

وسبب آخر ذو صلة بهذا السبب هو خشيتها من أن تفقد مصداقيتها العالمية بل المحلية حين يراها الناس تكيل بمكيالين، تدافع عما تسميه بالحرية والديمقراطية والحقوق الإنسانية حين يكون لها في الأمر مصلحة، وتنسى كل هذا بل قد تساعد

الخارج عليه حين لا تكون لها مصلحة في الدفاع عن تلك المثل، أو حين تكون مصلحتها مع الخارج علها.

قال أحد القساوسة الأمريكان في مقال بجريدة "لوس أنجلس تايمز" "عدد ٢٩ مارس ٩٣م": إن ما يحصل للمسلمين في البوسنة هو «تكرار للشر المظلم في الحضارة النصرانية» وأنه يعيد ذكرى المذبحة التي ارتكبها النصارى في مدينة أخرى هي القدس.

ويقول: إن عبارة "التطهير العرقي" اسم على غير مسمى لأن ما يحدث إنما هو حرب دينية، فالمسلمون البوسنيون عنصرهم كعنصر الصرب وشعرهم كشعرهم وأعينهم كأعينهم لأنهم جميعاً ينتمون إلى العنصر السلافي «إن شبح البوسنة سيظل يلاحق العالم لسنين عدة ما لم نوقف الفظائع هذه ونتجنب حمام الدم الذي سيسيل إذا ما سقطت سراييفو».

فما الذي يجب علينا نحن أن نفعله ؟

يجب علينا أولا أن نغير هذا المنكر بألسنتنا، يجب أن ترتفع أصواتنا ارتفاعا تردده الإذاعات والتلفازات العالمية، فيسمعه الناس في العالم كله، ولا سيما المستضعفين من إخواننا البوسنيين، بأننا ننكر هذا الظلم أشد الإنكار، وأننا نرى أن من واجب الأمم المتحدة أن ترد عدوان الصرب، بل وتؤيدهم، وإلا لم يعد لوجودها من فائدة، وأننا نرى من حق المظلومين في البوسنة أن يمدوا بالسلاح أو أن يسمح لهم على الأقل باقتناء السلاح يجب ان نرد بحزم على الحجج الواهية التي يعلل بها عدم تسليحهم أو السماح لهم بالتسليح.

إن الأصوات العالية في العالم اليوم في هذه القضية -موافقة أو معترضة -هي أصوات المسؤولين والسياسيين والكتاب والصحفيين الغربيين وهذا أمر لا يليق -والله -بنا نحن المسلمين. هذه القضية قضيتنا قبل أن تكون قضيتهم إنها قضيتهم بحكم وقوعها لمواطنين أوروبيين، لكنها قضيتنا بحكم وقوعها لإخوان لنا مسلمين، وأخوة الدين الحق فوق كل الروابط الأرضية.

إنني لأعلم أن بعض الدول تقوم بمجهودات دبلوماسية مشكورة ومقدرة لنصرة المسلمين في البوسنة، لكن الدبلوماسية الصامتة من أهميتها وجدواها العملية لا تغني عن الجهر بكلمة الحق ومناصرة المظلوم، فإن لهذه كما لتلك خطرها وجدواها. فليصدع بكلمة الحق قادة حكمنا وقادة رأينا من العلماء والمفكرين والزعماء والصحفيين وليكن كلامهم في هذه القضية دائماً ومتصلاً، دفاعاً عن المسلمين المظلومين ورداً على حجج الأعداء والقاعدين، وتأييدا وشكرا للمؤيدين والمؤازرين.

ثم المال:لقد تبرعت بعض الحكومات وبعض الشعوب تبرعات سخية لإخوانهم في البوسنة، لكن الذي علمناه أن القوم مازالوا محتاجين إلى المال الكثير، فالخلة التي سببتها هذه المحنة أكبر من أن تسدها تلك التبرعات الموسمية المحدودة. لماذا لا تتفاوض منظمة المؤتمر الإسلامي مع حكومة البوسنة لتعرف مقدار حاجتها من المال ثم تقسم هذا المقدار على الدول الإسلامية كل بقدر وسعه ؟ ولماذا لا يلتزم بعض الأثرياء فينا بتبرع شهري يصل إلى المجاهدين عن طريق المؤسسات الموثوق بها ؟ ولماذا لا تكون التبرعات الشعبية في المساجد مسألة أسبوعية حتى تنفرج هذه الأزمة بإذن الله تعالى.

إن بعض المسؤولين في الدولة الغربية يلوحون بأنهم قد يغيروا رأيهم في مسألة السماح بإرسال السلاح إلى البوسنة، وإذن فتغيرهم لموقفهم في هذه القضية أمر محتمل: فلتقم حكوماتنا الإسلامية بمهمة في هذا السبيل فلتشجع ولتضغط ولتهدد، حتى يصير هذا الاحتمال أمرا واقعاً.

ثم ماذا يكلف دولنا الإسلامية أن تقطع كل علاقة لها بدولة الصرب المجرمة المعتدية ؟ كيف يسوغ أن تقوم بيننا وبين هذه الدولة علاقة سياسية أو اقتصادية وهي تقتل الأبرياء من إخواننا المسلمين وتخرجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ؟ لماذا ننتظر حتى تقرر لنا الدول الغربية متى تقاطع وفي أي شيء تقاطع وإلى متى تقاطع؟

ثم لنقل للغربيين إذا كنتم لا تريدون تعريض أبنائكم للموت دفاعاً عن المسلمين، فإن في بلادنا من هو مستعد للموت في هذا السبيل، لنقل لهم إننا مستعدون أن نقدم لكم جنوداً مشاة، إن شئتم دخلوا البوسنة باسم الأمم المتحدة. وإن شئتم دخلوها باسم المؤتمر الإسلامي، كما دخلت أمريكا الصومال بإسمها قبل أن تدخل جنود الأمم

المتحدة. ونحن موقنون بأن أبنائنا في الجيوش الإسلامية رجالا يشرفهم أن يلبوا هذا النداء ويذهبوا طالبين الشهادة في سبيل الله.

إننا إذ ندافع عن إخواننا في البوسنة إنما ندافع عن أنفسنا.

أولاً: لأن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

وثانياً: لأننا إذا فرطنا في الدفاع عنهم فإن هذا يوشك أن يجري أعداء أخرين على بلاد أخرى حتى يصل الأمر إلى عقر دارنا حيثما كانت هذه الدار. قال أحد الشيوخ الأمريكيين المتعاطفين مع المسلمين في حفل أقيم تكريما له، كلاما فحواه أن اضطهاد المسلمين أصبح ظاهرة عالمية، وأنه يشك في أن تكون حوادثها منعزلة بعضها عن بعض، وحذر المسلمين من أنهم ما لم يفعلوا شيئاً فإن الاعتداء على المسلمين من أنهم ما لم يفعلوا شيئاً فإن الاعتداء على المسلمين سيصبح أمراً عادياً، لأن كل اعتداء يذهب بغير عقاب يغري باعتداء جديد في جهة أخرى.

وثالثاً: لأننا إذا ما لم نفعل شيئاً فسيتولد عند الكثيرين منا -ولا سيما المتدينين من شبابنا -شعور بالإحباط شعور بأنهم ينتمون إلى أمة عاجزة فاشلة. لكن قوة إيمانهم بدينهم وثقتهم بربهم تعصمهم من رد هذا الضعف وهذا الفشل إلى دينهم. فهم رادوه لا محالة إذن إلى أوضاعهم، إلى نظمهم، إلى زعمائهم، وربما حتى إلى علمائهم. وإذا ما تمكنت هذه المشاعر وتأصلت في القلوب وانتشرت ين الشباب فيوشك أن يكون لشررها ضرام الله أعلم بمداه.

فلنستجب لنداء إخواننا المستغيثين ولنسرع إلى إغاثتهم، وإلى إغاثة سائر إخواننا المستضعفين في البوسنة والهرسك. وإلا فقل لي بربك ما فائدة أموالنا ما فائدة منظماتنا، ما فائدة جيوشنا، ما فائدة دولنا، بل ما مسوغ وجودنا، إذا نحن لم نبذل هذا كله للدفاع عن المظلومين المضطهدين منها، لحماية أعراض أخواتنا، لإنقاذ أطفال إخواننا، للقتال دون أوطاننا، للغيرة على ديننا.

* * *

حين تصير الديمقراطية وثناً يعبد

السبت ٢٩ رجب ١٤٢٨ هـ / ١١ أغسطس ٢٠٠٧ م
شبكة المشكاة الإسلامية

يؤكد لنا كثير من المفكرين الغربيين أن الديمقراطية إنما هي وسيلة، وأنها مسألة إجرائية، وأنه لا محتوى لها (أي أنها لا تقول إن الحكم في الاقتصاد مثلا أو في المسائل الاجتماعية أو في التعليم يجب أن يكون كذا وكذا) وأن الذي يعطي الديمقراطية شيئاً من مثل هذا المحتوى إنما هو الفلسفة الليبرالية، ولذلك تسمى الديمقراطيات الغربية بالديمقراطيات الليبرالية. فالليبرالية في حقيقتها قيد على الديمقراطية بمعنى أنه لا يجوز حتى للأغلبية سواء كانت أغلبية استفتاء أو أغلبية هيئة تشريعية أن تقضي بشيء يتناقض مع الليبرالية مثل الاعتداء على حق من حقوق الإنسان. والمفكرون الغربيون - ولا سيما المحافظين منهم - يميزون لذلك بين ما يسمونه ديمقراطية العامة populist democracy وبين الديمقراطية المقيدة ببعض القيم. لكن يبدو أن كثيراً من السياسيين وأهل الرأي عندنا - حتى من كان منهم منتسبا إلى الإسلاميين - لا يعرفون من الديمقراطية إلا الديمقراطية المطلقة التي لا قيد ديني ولا خلقي عليها.

أصحاب هذا الفهم الساذج للديمقراطية يظنون أن كل أمر مهما كان خطيرا فهو خاضع للدمقراطية، وأن ما تقرره الأغلبية فيه هو الأمر الذي يجب الالتزام به مهما كان نوعه. أذكر أن أحدهم كتب منذ سنين ينصح الإسلاميين بأن يلتزموا بما تقوله صناديق الاقتراع حتى لو :كان الفائز فيها هو الحزب الشيوعي. تذكرت حين قرأت ذلك كلاما للفيلسوف البرياطاني برتراند رسل فحواه أنه ينبغي أن لا يعطى الشيوعيون من الحرية ما يمكنهم الوصول إلى السلطة، لأنهم إذا وصلوا إليها ألغوا الديمقراطية التي جاءت بهم. وإذا كان ذلك قد كان رأيا شاذا كما تصورت آنذاك فإنني أعجب الآن أن صار مثل هذا الراي هو الغالب على تصور كثير من الناس في بلادنا للديمقراطية حتى بعض من كان منهم مسلما يؤمن بأن القرآن كلام الله وأن محمدا رسول الله، ويصلى ويصوم بل ويحج!

كنت أحسب أنه إذا كان لا بد لأمثال هؤلاء من مناداة بالديمقراطية أن يجعلوها ديمقراطية مقيدة بالقيم الإسلامية، كما قيدها الغربيون بالليبرالية. فكان عليهم أن يعلنوا لذلك أن ما يحكم به الله تعالى ليس خاضعا لقرار ديمقراطي، كيف والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١].

والمقصود بالتقديم بين يدي الله ورسوله هو أن تعطى الأسبقية لرأي أو هوى لفرد أو جماعة مهما كان وكانوا. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وكل من اقترح أمرا مخالفا لما شرع الله فهو من الذين لا يعلمون أقلية كانوا أم أغلبية والالتزام بما شرع الله تعالى يجب أن يكون - من حيث الإيمان - التزاما بها كلها: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

أما العمل فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

إن الذي يهدينا إليه كتاب ربنا وتبينه لنا سنة رسولنا هو أننا أمة، أننا جماعة، وأن جماعتنا لا تتحقق إلا إذا كانت لنا دولة تلتزم بكتاب الله وسنة رسوله مااستطاعت. فكما أننا نصلي جماعة وراء إمام مسلم، فكذلك نكون جماعة وراء حاكم مسلم تسمى إمامته بالإمامة العظمى. هذه إذن مسألة لا تقبل المساومة، وليست خاضعة لقرار ديمقراطي أو غير دمقراطي.

سيقول بعض الجهلاء إنه ما دام المسلمون أغلبية فلن يختاروا شخصاً غير مسلم. وأقول إنه لا يجوز من حيث الإيمان أن يجعل المسلم رأي الأغلبية مبدأ يلتزم به التزاما مطلقا بغض النظر عن النتائج الواقعية. فكما أنه لا يجوز لك أن تقول لإنسان إنه يجوز

لك أن ترتد وأنت على يقين من أنه لن يرتد، فكذلك لا يجوز لك أن تعلن موافقتك لرأي الأغلبية في أمر تعلم أن الله تعالى قد حكم فيه.

ثم إن الأرض التي يسكنها المسلمون يجب أن يحكمها المسلمون وأن يحكموها بكتاب الله تعالى بقدر استطاعتهم. إن المرء ليعجب كيف يرى كثير من الناس في بلادنا أنه من حق أناس كالمواطنين الجنوبيين أن تكون لهم حكومتهم غير الإسلامية لأنهم ليسوا بمسلمين، وينكرون أن تكون للمسلمين في الشمال حكومتهم الإسلامية وهم مسلمون.

والدولة لا تكون مسلمة إلا إذا كان حاكمها مسلما. لكن كثيرا من المنتسبين إلى الإسلام صدقا أو نفاقا صاروا يصرحون بأنهم لا يبالون بأن يكون رئيس دولتنا رجلا غير مسلم، بل إن بعض من يصلي ويصوم ويحج كان يصرح بأنه كان سيعطي صوته لجون قرنج إذا ما رشح نفسه لرئاسة الجمهورية!! هذا مع أن علماء المسلمين لم يختلفوا في الخروج المسلح على الحاكم الكافر ما دام ذلك ممكنا لقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح في الخروج على الحاكم: (**إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان**).

فياليت شعري إذا كان ديننا يأمرنا بالخروج على حاكم كان يبدو مسلما ثم طرأ عليه الكفر، فكيف يبيح للمسلمين أن ينصبوا على أنفسهم وباختيارهم حاكما مستعلنا بكفره؟ لماذا نرضى بهذا الإذلال لأنفسنا ونحن أمة أعزها الله تعالى حتى إن عيسى ابن مريم وهو رسول من رسل الله عندما يجيء لا يرضى بأن يؤم المسلمين بل يعطي هذا الحق لإمامهم يومذاك. فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة**).

إن الإيمان بالدمقراطية بمعنى التسليم المطلق لقرار الأغلبية معناه جواز الخروج على أوامر الله. هل يبقى من يؤمن بمثل هذا مسلما؟ لقد أكفر الله سبحانه وتعالى قوما من اليهود فعلوا أقل من هذا فقال لهم: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا**

جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

هؤلاء قوم كان قد أخذ الله تعالى عليهم الميثاق أن لا يسفك بعضهم دماء بعض، وأن لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم فأقروا بهذا لكنهم خالفوه في الواقع فكان بعضهم يتحزب ضد بعض ويقاتلونهم متحالفين مع بعض المشركين. لكنه كانوا إذا أسر العدو بعض من قاتلوهم من إخوانهم فادوهم وأخرجوهم من الأسر اتباعاً لأمر الله تعالى. فلم يقبل الله تعالى منهم هذا الإيمان الجزئي بأحكامه فقال لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

قلنا إن الإيمان المطلق بالعمل بقرار الأغلبية أمر مخالف للشرع، بل وللعقل أيضا. ونقول الآن إنه لا يكون في الواقع ممكناً. ولذلك قال منظرو الديمقراطية إن العمل بقرار الأغلبية إنما يكون ممكناً في المجتمع المتناسق، أي المجتمع الذي يجمعه - في غالبه الأعم - ثقافة واحدة وقيم أكثرها مشتركة وهكذا. في مثل هذا المجتمع لا يشعر الناس بأن أمراً خطيراً قد حدث إذا ما فاز حزب وخسر آخر؛ لأن الفرق بينهما ليس فرقاً جذرياً. وأما حين يكون المجتمع منقسماً انقساماً حاداً في مسائل يعدها المختلفون قضايا جذرية فإنهم لن ينصاعوا لرأي الأغلبية. عبر عن هذه الفكرة بوضوح كاتب أمريكي يدل عنوان كتابه على مقصده: قبل أن يبدأ التراشق... من الأمثلة التي ذكرها لمثل هذه القضايا التي لا مساومة فيها والتي تؤدي إلى التراشق بالسلاح قضية الإجهاض التي حملت بعض المواطنين الأمريكان على قتل طبيب مارسه لأنه اعتبروه قتلا لنفس بريئة وهو أمر لا مساومة فيه. فكيف إذا كان الخلاف في أمور أخطر، إذا كان بين مؤمنين وكافرين، أو بين فرق دينية كالسنة والشيعة كما هو الحال في العراق، أو بين قوم مع الاحتلال وآخرين يعدونهم خونة كما هو الحال في أفغانستان. لقد أجرى الأمريكان في كل من هذين البلدين انتخابات، وافتخروا بأنهم جعلوا هذه البلاد ديمقراطية، وظن بعضهم في سذاجة أن الانتخابات ستحل مشكلتهم. لكن الواقع أن الصراع استمر، وأن القتل ازداد استعاراً. وما كان لهذا إلا أن يحدث حتى لو كانت الانتخابات نزيهة مئة بالمئة..

* * *

هل يكون الحكم الديمقراطي فاسداً؟

شبكة المشكاة الإسلامية
الثلاثاء ٢٩ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ

صلاح المجتمع يعتمد على دعامتين، دعامة داخلية هي الأساس، ودعامة خارجية هي المساعدة. فالمجتمع الصالح هو الذي يتكون من أفراد صالحين كلما كان عددهم أكثر كان مجتمعهم إلى الصلاح أقرب. لكن الصلاح الداخلي يحتاج إلى ترتيبات خارجية تناسبه وتعين على العمل بمقتضاه.

من عيوب الفكر الغربي السائد أنه يفترض أن صلاح المجتمع إنما يكون بصلاح الترتيبات الخارجية اقتصادية كانت أم سياسية أم اجتماعية ورأسمالية كانت أم اشتراكية.

وعليه فإن كثيراً من الناس في زماننا بل وفي بلادنا ممن تأثر بهذا الفكر صاروا يعلقون آمالاً كبيرة على النظام السياسي الديمقراطي ويرجون منه ما لا يمكن أن يحققه به . ذلك أنه لما كثرت معاناة الناس من الفساد المرتبط بالنظم الاستبدادية الدكتاتورية صاروا يعتقدون أن النظام السياسي الديمقراطي الحق هو الإكسير الذي سيداوي هذا الدّاء، ويجعل المواطنين يعيشون في أمن من ذلك الفساد .لكن هذا وهم مرده إلى عدم النظر في النظرية الديمقراطية وتطبيقاتها.

هل يكون النظام ديمقراطياً حقاً ويكون مع ذلك فاسداً حقاً؟

نعم. والفساد المتعلق به نوعان، نوع يتعارض مع الديمقراطية، وهذا ليس محل بحثنا لأن الديمقراطية ليست مسؤولة عنه مادام يتعارض معها .إنما بحثنا في الفساد الذي لا يتعارض معها، بل الذي ينتج عنها حتى حين تطبق تطبيقاً صحيحاً . إن كون القرار قد يكون ديمقراطياً لا ريب في ديمقراطيته، ويكون مع ذلك فاسداً لا ريب في فساده أمر يقر به كبار منظري الديمقراطية من الغربيين.

فهذا فوكوياما يقول: إن القرارات التي تتخذها ديمقراطيات ليبرالية ذات سيادة والتي تكون صحيحة إجرائياً، لا ضمان أن تكون عادلة أو متناسبة مع هذه المبادئ العليا. إن الأغلبيات الديمقراطية يمكن أن تقرر فعل أشياء فظيعة لأقطار أخرى، ويمكن أن تتغول على الحقوق والقيم الإنسانية التي بني عليها نظامها الديمقراطي

نفسه . وقال كاتبهم الشهير هنتجتون Huntington يقول: إن الانتخابات المفتوحة الحرة العادلة هي جوهر الديمقراطية، هي شرطها الضروري الذي لا مفر منه .لكن الحكومات التي تأتي بها الانتخابات قد تكون عاجزة وفاسدة و قصيرة النظر وغير مسؤولة، وتغلب عليها مصالح خاصة وتعجز عن اتخاذ سياسات يطلبها الشعب .هذه الخصال تجعل الحكومة غير مرغوب فيها، لكنها لا تجعلها غير ديمقراطية. وهذا صحفي كندي كبير يكتب مقالا بعنوان مثير هو «على كندا أن تلغي الديمقراطية» لماذا؟ يدعي الكاتب أن النظام الحالي هو أفسد نظام مر على كندا في تاريخها كله «إن حجم السرقة، والاحتيال والتزوير وغسيل الأموال يتجاوز أن يكون بسبب عدد من السياسيين المنحرفين أو مجموعة صغيرة من المستخدمين المارقين .إن الحزب الليبرالي وبالتالي الحكومة فاسدة .إن الفساد ليس في مجرد عدد من الحوادث المعزولة لكنه في الجهاز نفسه».

ثم يقول: «إن من الفضائل المفترضة في الديمقراطية أن الناس بإمكانهم أن يغيروا حكومتهم إذا لم يكونوا راضين عنها .ولكن حتى مع علمنا بأن هذه الحكومة فاسدة وملتوية فإن ٦١٪ من الكنديين لا يرغبون في إجراء انتخابات».

وهذا ليبمان الذي قال عنه مقدمو الكتاب الذي نشروا فيه مجموعة من مقالاته، «إنه ربما كان أعظم مفكر سياسي أمريكي في القرن العشرين»، يقول فيما نحن بصدده: «يجب في رأيي أن نرفض القول بأن مبادئ الحرية والعدالة والحكم الصالح إنما تتمثل في حكم الأغلبية. هنا يكمن أصل المسألة .لقد كان واشنطن يعتقد أن الشعب يجب أن يحكم، لكنه لم يكن يعتقد أنه بسبب حكم الشعب تتحقق الحرية ويتحقق العدل والحكم الصالح .كان يعتقد أن الشعب ذا السيادة لا يؤتمن - كما لم يؤتمن الملك ذو السيادة الذي كان هو "أيّ الشعب" خلفاً له - على السلطة المطلقة. إنه لم يخدع نفسه. ..إنه لم يكن يؤمن بما صار الآن الأيدولوجية الديمقراطية السائدة: أن كل ما رأت جماهير الناس أنها تريده فيجب أن يقبل على أنه الحقيقة .لقد كان يعلم أنه لا ضمان من أن يتحول حكم الشعب إلى حكم قهري، تعسفي، فاسد، ظالم وغير حكيم .إن الشعب أيضا يجب أن يكبح جماحه .

إنه كغيره يجب أن يحاسب .إنهم كغيرهم يجب أن يعلموا .إنهم كغيرهم يجب أن يرفعوا فوق مستوى سلوكهم المعتاد. وإذا كان أولئك قد تكلموا عن الفساد السياسي فإن الكاردينال الأسترالي جورج بل George Pell يتحدث عن فساد يخشى أن يكون استشراؤه في الديمقراطيات الغربية سببا لإقبال الناس على الإسلام الذي يرى أنه من حيث خطره على الحضارة الغربية هو شيوعية القرن الواحد والعشرين .يقول هذا الكاردينال: «إن الديمقراطية الغربية الليبرالية فارغة وأنانية وأن الإسلام بدأ يظهر نظرة عالمية بديلة»، إن الإسلام قد يكون في القرن العشرين «جاذباً للمغتربين alienated والغاضبين من جانب، وأولئك الذين ينشدون النظام والعدل في الجانب الآخر»، ثم يتساءل «هل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش ببلايين الدولارات، صناعة نامية بسرعة؟ هل تحتاج إلى معدل إجهاض يصل عشرات الملايين لتتصف بالديمقراطية؟»

في كلام هؤلاء المفكرين الغربيين حقيقة مهمة يغفل عنها كثير من الناس فيخلطون بين كون القرار أو التصرف ديمقراطياً وكونه حسناً قائماً على مكارم الأخلاق، فيشككون في ديمقراطية كل قرار لا يرونه حسناً ويصفونه بأنه لا يتناسب مع الديمقراطية الحقة .

والحقيقة أنه لا علاقة بين الأمرين .فالقرار أو التصرف قد يكون خطأ وقد يكون إجراماً وقد يكون ضاراً، ولكنه يكون مع ذلك ديمقراطياً لا قدح في ديمقراطيته . لماذا؟ لأن الديمقراطية إنما هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم أفراد من الشعب حكمهم الشعب في نفسه، أو حكمتهم فيه قلة منهم، عن طريق الانتخابات .لكن حكم الحاكم إنما هو ثمرة علمه أو جهله، ومعاييره الخلقية حسنة كانت أو سيئة . لماذا ننسى أن قرارات الدول الغربية بغزو شعوب العالم الضعيفة واحتلال أراضيها واستغلال خيراتها كانت كلها قراراً ديمقراطياً؟ وأن خطف أمريكا للأبرياء من الأفارقة واسترقاقهم ومعاملتهم بأسوأ مما تعامل به الحيوانات كان قراراً ديمقراطياً؟ وأن قرار تحريرهم لم يكن قراراً ديمقراطياً، وإنما جاء نتيجة حرب بين من رأوا أنه يتعارض مع المبادئ الإنسانية، وبين الذين كانوا يرون الالتزام برأي الأغلبية مهما

كان .كما أن قرار استحلال الزنا بين المتراضين أيا كان جنسهما هو قرار ديمقراطي؟ وأن قرار فرنسا بمنع الحجاب كان قراراً ديمقراطياً؟ وأن غزو أفغانستان ثم العراق كان قراراً ديمقراطياً.

قد يقال: إلا يكون الحكم الإسلامي أيضا فاسد؟ كلا .لا يكون إسلاميا حقا وفاسدا .لماذا؟ لأن صلاحه شرط في إسلاميته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

فهو إسلامي بقدر قربه من الصلاح وغير إسلامي بقدر قربه من الفساد .إذن فالفرق بين النظام الإسلامي والنظام الديمقراطي أن فساد النظام الديمقراطي راجع كثير منه إلى النظرية الديمقراطية.

أما فساد النظام المنتسب إلى الإسلام فلا يرجع إلى الدين الإسلامي وإنما يرجع إلى التطبيق .السبب في هذا هو أنه بينما النظام الإسلامي هو حكم بنصوص أنزلها الله تعالى، أو باجتهادات بشرية مبنية على معايير أنزلها الله تعالى، فإن الديمقراطية هي حكم شعب من الشعوب.

ولما كانت الشعوب متعددة ومختلفة، فإن قراراتها الديمقراطية لا بد أن تتعدد وتختلف .بل إن قرارات الشعب الواحد تختلف بحسب ما يحدث فيه من تغيير على مر الأيام.

قد يقال إن المؤمنين بالديمقراطية يستطيعون إصلاح هذا الخلل في نظريتهم فيضيفون إليها مبادئ تشترط في القرار الديمقراطي أن لا يتعارض مع القيم الخلقية المتفق عليها بين الناس كالصدق والأمانة والعدل.

لكن مثل هذا التعديل الذي نادى به فعلاً بعض ذوي الرأي منهم يقضي على النظرية نفسها؛ لأن السؤال سيكون: من الذي يحق له أن يقول للناس إن قراركم ليس ديمقراطياً إذا كان قراراً اتخذوه بأغلبيتهم؟

* * *

فلنحدد ما نعني بالديمقراطية؟

الجمعة ٢٥ ذو القعدة ١٤٣٢هـ/ ٢١ أكتوبر ٢٠١١م
شبكة المشكاة الإسلامية

يوافق بعضنا على القول بأن الديمقراطية أحسن نظام توصلت إليه البشرية، ويقول آخرون إن الديمقراطية كفر، ويقف فريق ثالث بين أولئك وهؤلاء.

وكل القائلين مسلمون لا يطعن بعضهم في إيمان بعض، ولكل منهم حظ من العلم بالدين وبالديمقراطية. فهل يمكن أن يحدث خلاف عظيم مثل هذا في قضية من القضايا بين أناس ينتمون إلى دين واحد هو الدين الحق إذا كانوا يشيرون إلى شيء واحد متفق عليه بينهم؟ كلا. وإذن فلا بد أن يكون كل واحد من هؤلاء المختلفين مشيرا إلى شيء غير الذي يشير إليه الآخرون وإن كانوا جميعاً يسمون ما يشيرون إليه بالديمقراطية. وهذه المسألة ليست خاصة بالمسلمين. فقد قرأت لبعض منظري الديمقراطية من الغربيين كلاما مفاده أن انتشار الإعجاب بالديمقراطية كان على حساب معناها. وقرأت لآخر قوله إن الديمقراطية صارت كلمة رنانة لا معنى لها. ولثالث قوله إن الديمقراطية صارت تعني عند كثير من المعجبين بها كل شيء يرونه حسنا. وعليه فلكي نضيق من دائرة الخلاف بيننا يحسن أن يبين كل منا ما الذي تعنيه الديمقراطية بالنسبة له، ثم يحكم بعضنا على بعض بما قصد بالديمقراطية لا بالمعنى الذي يراه هو المعنى الحقيقي لها. وقديماً قال علماؤنا إذا اتضحت المعاني فلا مشاحة في الألفاظ.

إذا قال أحدنا إن الذي يعنيه بالديمقراطية هو المعنى الذي يدل عليه لفظها اليوناني، والمعنى الذي أجده في القواميس والموسوعات السياسية، والمعنى الذي يكاد يتفق عليه كل منظريها الأكاديميين. هذا المعنى هو أن الديمقراطية إنما هي حكم الشعب. والمقصود بالحكم هنا هو كون الشعب هو السلطة التشريعية العليا التي لا معقب لحكمها. فإذا حكمت على الديمقراطية بهذا المعنى قلت إنها تتناقض مع الإسلام الذي يجعل الحكم لله وحده، بمعنى أنه هو وحده الذي يملك حق التشريع، وأنه ليس لمشرع غيره أن يشرع إلا في حدود ما شرع هو سبحانه.

أما إذا قال آخر إن الديمقراطية إنما تعني بالنسبة له أن يختار الشعب حكامه والممثلين له في الهيئات التشريعية في انتخابات دورية حرة ونزيهة؟ هل يصح أن يقال لمثل هذا إن ديمقراطيتك هذه تتناقض مع الإسلام؟ كلا. لا تستطيع أن تحكم على ديمقراطيته هذا الحكم العام وإن اختلفت معه في تفاصيل بعض ما ذكر. لكن من حقك أن تقول له إنك تجاهلت أعظم مسألة جاءت الديمقراطية لحلها، ولم تذكر لنا بديلا عنها مع أنها هي

المسألة التي تهمنا الآن .إن الديمقراطية إنما بعثت في أوروبا بعد ألفي عام من موتها في أثينا لتجيب عن السؤال المهم: لمن الحكم؟ وكانت الإجابة أنه ليس للملوك ولا لرجال الدين ولا لدكتاتور أو فئة قليلة متسلطة، وإنما هو للشعب، بمعنى أغلبية ممثليه.

إذا كانت الديمقراطية إنما تعني الانتخابات فإن السؤال الذي يلي هذا هو بم يحكم هؤلاء المنتخبون؟ هل سيتقيدون فيما يصدرون من أحكام وقوانين بحكم الله تعالى، أم سيكونون أحرارا يشرعون بما شاءوا بحسب أهواء أغلبيتهم كما هو الحال في واقع الديمقراطيات الغربية؟ إذا قلت بالأول كان الحكم الذي تريده حكما إسلاميا، فلماذا تسميه ديمقراطيا؟ وربما قال لك أهل الديمقراطية كيف تقيد حرية ممثلي الشعب وتمنعهم من أن يشرعوا بما يرونه مناسبا لأمتهم؟ وإذا قلت بالثاني كان الحكم في الحقيقة لأغلبية ممثلي الشعب، وهذه هي الديمقراطية المعمول بها في البلاد الغربية الديمقراطية. وهي الديمقراطية التي يسعون لنشرها وتعميمها في العالم كما يقولون.

ماذا إذا قال ثالث إن الديمقراطية لا تعني بالنسبة له الانتخابات فقط وإنما تعني أيضا حرية تكوين الأحزاب، والتداول السلمي للسلطة، وحكم القانون، وحقوق الإنسان وغير ذلك من المبادئ التي ارتبطت بالديمقراطية في الواقع الغربي؟ قد نخالف هذا القائل في بعض تفاصيل ما ذكر لكنك لا تستطيع أيضا أن تقول له إنك تقول شيئا يتناقض مبدئيا مع الإسلام .لكن يمكن أن نقول له ما قلنا للثاني: من الذي يحدد محتوى هذه المبادئ ولا سيّما القانون وحقوق الإنسان؟ هل سيكون الأمر فيها متروكا لأهواء الأغلبية البرلمانية فنكون قد رجعنا إلى المعنى الأول للديمقراطية؟ أم أنهم سيتقيدون بما أنزل الله في كتابه وسنة نبيه فيكون حكمهم إسلاميا فلا داعي لأن يوصف بالديمقراطية؟

هل يلزم عن هذا عدم الاستفادة من أي شيء في التجربة الديمقراطية الواقعية؟ كلا. بل قد نستفيد من بعض جزئياتها العملية، كما نستفيد من جزئيات غيرها من النظم، ما دامت جزئيات يمكن وضعها في الإطار الإسلامي .والاستفادة من جزئيات الديمقراطية لا تجعل الدستور ديمقراطياً، ومن باب أولى أن لا تجعل البلد ديمقراطياً. كيف والبلاد التي تأخذ بالأيدولوجية الديمقراطية بمعنى حكم الشعب لا ترى من الضروري أن تصف دستورها ولا بلدها بالديمقراطي؟ فلماذا يصرّ بعضنا على وصف بلادنا بهذا الوصف؟ أقول بهذه المناسبة إن بعض القراء قد يعجبون كما عجبت حين علمت أن كلمة الديمقراطية لم يرد لها ذكر في الدستور الأمريكي، ولا في وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكية!!

هل تحل العلمانية مشكلة التعددية؟

السبت ٢٧ شوال ١٤٣٢هـ/ ٢٤ سبتمبر ٢٠١١م
شبكة المشكاة الإسلامية

على أي أساس يضع المواطنون في بلد ما دستورهم ويصدرون قوانينهم إذا كانوا منقسمين إلى أديان مختلفة؟

يثير هذا السؤال عدة مسائل:

المسألة الأولى: أن دعاة العلمانية ولا سيما في بلادنا العربية في هذه الأيام، يقولون إن الحل الأمثل هو الحل الذي لجأت إليه أوروبا وأمريكا وسائر الدول التي قلدتها، وهو أن تكون الدولة علمانية لا تلتزم بدين لكنها لا تمنع أحداً من ممارسة دينه في حياته الخاصة .بهذا يكون المجال العام، مجال التشريع والتنفيذ والقضاء، مجالا مفتوحاً لكل أفراد المجتمع يشاركون فيه باعتبارهم مواطنين لا باعتبارهم منتمين إلى هذا الدين أو ذاك، ويكونون بهذا متساوين في حقوقهم السياسية. نقول نعم إن هذا قد يحدث إذا تنازل كل المنتمين إلى الأديان أو معظمهم عن أديانهم، أو على الأقل عن جانب المجال العام منها، ورضوا بأن يحصروها في الجانب الخاص كما فعل الغربيون . وقد صار كثير من المسلمين المتأثرين تأثراً شديداً بالفكر الغربي يعدون هذا أمراً طبيعياً، بل يعدونه أمراً لازماً للدولة الحديثة .رأيت ذات مرة في التلفاز أحد هؤلاء وهو يدافع دفاعاً مستميتاً عن الدولة العلمانية، ثم تبين في المقابلة معه أنه من حرصه على أداء الحج بطريقة كاملة لم يكن يكتفي بالسؤال عن أركانه وواجباته بل كان يحرص حتى على مستحباته !فهذا إذن رجل يرى أنه يمكن أن ينكر جزءاً من الإسلام ويدعو إلى هذا الإنكار ويظل مع ذلك مسلما ربما لأنه لا يعلم أن من شرط الإيمان بالإسلام أن يؤمن الإنسان به كله ثم يجتهد في أن يطبق منه ما استطاع، وأن من أنكر بعض الدين كمن أنكره كله .

قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦].

هذا إذا تبنت الأغلبية المسلمة الموقف العلماني .ولكن ماذا يحدث إذا ظلّ عدد كبير منهم مستمسكاً بدينه كله؟ هل يمكن أن يقال عن أمثال هؤلاء إن لهم حقوقاً سياسية متساوية مع غيرهم من العلمانيين الذين يشرعون لهم قوانين يخالف بعضها أوامر أديانهم؟ كلا .قد يقال لماذا لا يقبلون رأي الأغلبية ويعيشون تحت قوانين يعلمون أنها مخالفة لدينهم؟ نقول هب أنهم فعلوا ذلك، فالسؤال ما يزال قائما .هل يقال عن مثلهم إن لهم حقوقا سياسية متساوية مع العلمانيين الذين يتولون التشريع له؟ كلا .إذن فالعلمانية لا تحل مشكلة التعددية.

المسألة الثانية: أن الخلافات بين الناس ليست محصورة في الخلافات الدينية، بل هنالك خلافات أخرى كثيرة وعميقة كالخلافات الاقتصادية السياسية بين دعاة الرأسمالية ودعاة الاشتراكية .فهل يشعر الاشتراكي في الغرب أنه مساو سياسيا للرأسمالي الذي يشرع للمجتمع تشريعات اقتصادية مبنية على الرأسمالية؟ وقل مثل ذلك عن بعض الاختلافات الاجتماعية والفلسفية والخلقية التي لا علاقة لها بالدين.

كيف تحل هذه المشكلة إذن؟ هذا يقودنا إلى:

المسألة الثالث: وهي أن جون رولز الأمريكي الذي كان يعد أكبر فلاسفة السياسة والأخلاق المعاصرين، زعم في كتابه الشهير اللبرالية السياسية political liberalismأنه توصل إلى إجابة عن هذا السؤال لأنه توصل كما يقول إلى مبدأ يمكن أن تتفق عليه كل الأديان والفلسفات والمبادئ الخلقية المتناقضة تناقضات عميقة لأن كلا منها سيجد له مكانا في دينه أو فلسفته أو معتقده الخلقي بشرط أن يكون ذلك الدين أو تلك الفلسفة أو ذلك المبدأ الخلقي معقولاً. «لكن تبين أن مربط الفرس كما يقولون إنما هو في كلمة معقول هذه».

تساءل ناقدوه عن معيار المعقولية هذه عند رولز فوجدوه يرجع إلى الموافقة على مبادئ فلسفته اللبرالية السياسية .فقالوا له إنك لم تفعل شيئاً. قلت إنك توصلت إلى

مبدأ يوافق عليه كل أولئك المختلفين ويجعلونه معياراً، ويكونون بهذا متساوين سياسيا في الدولة الليبرالية الديمقراطية، ثم جعلت شرط موافقتهم عليه أن يكونوا موافقين على فلسفتك السياسية الليبرالية .ولعل من الطريف الذي يبين صدق هذا النقد للقارئ السوداني أن من بين التصورات الدينية التي رآها رولز معقولة كلاماً لمحمود محمد طه نقله إليه أحد الأساتذة، كلاما يفسر فيه محمود الإسلام تفسيراً جديداً لا يكاد يختلف في شيء عن الديمقراطية الليبرالية!

لقد تعجبت كيف ظن هذا الفيلسوف الكبير أنه سيجد حلاً لمشكلة يستحيل عقلاً أن تحل؟ أعني أنه يستحيل عقلاً أن توجد دولة لها دستور وقوانين ترضى عنها كل فئات المجتمع المختلفة لأنها تجد لها مسوغا في دينها أو فلسفتها أو مبدئها الخلقي.

المسألة الرابعة: أن الحل الممكن عملياً كما هو الواقع في البلاد الغربية مثلاً هو أولاً: أن تبنى الحياة في المجال العام على أحد المبادئ التي لا يشترط أن توافق عليها كل فئات المجتمع المختلفة ذلك الاختلاف الذي ذكره رولز، لكنها ترضى بها لكي تعيش مع غيرها في سلام في وطن واحد. لكن هذا يعني بالضرورة أن لا يكون المواطنون متساوين في الحقوق السياسية .وثانياً أن تكون لهؤلاء المواطنين جميعا حقوق إنسانية متساوية باعتبارهم مواطنين وبغض النظر عن الحكم الذي يخضعون له.

المسألة الخامسة: يتبين من هذا أن مثل العلمانية في هذا كمثل الحكم الإسلامي في كونها ليست محايدة بين الأديان أو المعتقدات الأخرى كما يصورها لنا القائمون بالدعاية لها، لأنها يمكن أن تشرع تشريعات تجيز بعض ما تمنعه بعض تلك الأديان والمذاهب أو تمنع ما تجيزه .وهي ليست بمحايدة بالنسبة للإسلام بالذات بل محادة له لأنها يمكن أن تحل ما حرم الله وتحرم ما أحل .وفي التجربة الأمريكية أدلة كثيرة على أن الدولة العلمانية قد تصدر حتى في مجال الممارسات الخاصة قوانين مخالفة لتعاليم بعض الأديان. ومن الأمثلة الطريفة التي يذكرونها أن تعاليم طائفة المورمون، وهي طائفة تنتمي إلى المسيحية، تبيح تعدد الزوجات تعددا لا حد له فيما يبدو .لكن المحكمة العليا منعتهم من ذلك وألزمتهم بعدم التزوج بأكثر من واحدة .كما أن

القوانين في البلاد العلمانية الأوربية تبيح كثيرا من الممارسات الجنسية التي لا يوافق عليها كثير من اليهود والنصارى المستمسكين بدينهم.

المسألة السادسة: بعض الناس ـ حتى من المنتمين إلى بعض الأديان ـ ما زالوا يفضلون أن يكون الحكم في بلادهم علمانيا لا إسلاميا لأن بعضهم ما يزال مخدوعا يظن أن العلمانية محايدة، وأن دولتها دولة مدنية يجد فيها كل المواطنين حقوقا سياسية متساوية .إن هؤلاء يغفلون عن كون العلمانية هي أيضا دين إذا أخذنا الدين بمعناه العربي الواسع، أو هي على الأقل مذهب من مذاهب الحياة لأنها تتضمن مبادئ وتشريعات وأوامر ونواه .فهي إذن ليست ضد الإسلام وحده وإنما هي ضد كل دين له تشريعات ومبادئ مختلفة عن تشريعاتها ومبادئها.

المسألة السابعة: من الدعايات التي يلجأ إليها بعض دعاة العلمانية في تنفير غير المسلمين من الحكم الإسلامي زعمهم بأنه ما دامت القوانين التي تصدرها هيئة تشريعية إسلامية هي بالضرورة قوانين دينية، فإن الدولة التي تصدرها تكون قد فرضت عليهم دينا لا يدينون به .لست أدري لماذا لا يقولون الشيء نفسه عن القوانين التي تصدرها الهيئات التشريعية العلمانية؟ لماذا لا يقولون إن كل قانون تصدره هيئة تشريعية علمانية هو بالضرورة علماني مخالف لدينهم؟ لماذا لا ينظرون إلى القوانين الإسلامية نظرتهم إلى القوانين العلمانية فيلتزمون بها ?لأنها قوانين أصدرتها دولتهم ولا ينظرون إلى عقائد من أصدروها ولا إلى دوافعهم كما أنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة إلى القوانين التي تصدرها الدولة العلمانية؟ إن الدولة العلمانية بإمكانها نظريا ان تصدر قوانين متوافقة توافقا كاملا مع الإسلام، كأن تمنع الخمر أو الربا، فهل سيقول أمثال هؤلاء إنها لم تعد دولة علمانية بل صارت إسلامية تفرض عليهم دينا لا يدينون به.

المسألة الثامنة: أليس من التناقض أن يكون الإنسان من المنادين بالديمقراطية ثم يعترض اعتراضا مبدئيا على إسلامية دولته مهما كان عدد المطالبين بذلك من مواطنيها؟ كيف توفق بين الديمقراطية التي تعطي المواطنين الحق في اختيار نوع الحكم الذي يريدون وتكون مع ذلك مناديا بمنع طائفة منهم من هذا الحق؟ إن منع فئة

من المواطنين من المناداة بأن تكون دولته إسلامية لا يتأتى إلا باللجوء إلى قوة قمعية تحول بينهم وبين ذلك كما كان الحال في بعض البلاد العربية.

المسألة التاسعة: لقد قال كثير من المنادين بالحكم الإسلامي ونقول معهم إن الحكم الإسلامي ليس حكما دينيا بالمعنى الغربي للكلمة، أي أنه ليس حكماً ثيوقراطيا يتولى الأمر فيه أناس يزعمون أنهم يتلقون أوامرهم بوحي مباشر من الله تعالى كما كان بوش يزعم أن الله تعالى أخبره بأن يفعل كذا ويفعل كذا وهو قائم على رأس دولة تعتبر علمانية .إن الحكم الإسلامي يختلف عن الحكم الثيوقراطي في ثلاثة أمور مهمة .أولها أنه قائم في النهاية على دستور مكتوب مفتوح لكل الناس هو نصوص الكتاب والسنة .وثانيهما أنه لا يجبر أحداً على الدخول فيه كما كانت الطوائف الدينية النصرانية في الغرب تفعل حين تؤول السلطة إلى واحدة منها.

كان النصارى يخيرون اليهود في الأندلس بين الدخول في النصرانية أو الموت أو مغادرة البلاد .وكانت الطائفة التي تؤول إليها السلطة تجبر الطوائف الأخرى على اعتناق معتقداتها .وهذا هو الذي تسبب فيما أسموه في التاريخ الغربي بالحروب الدينية التي كانت كما يرى بعضهم هي السبب في نبذ الناس للحكم الديني واللجوء إلى الحكم العلماني .ثالثا إن الحكم الإسلامي يعطي غير المسلمين حقوقا مثل ما يعطيهم إياها الحكم العلماني أو أكثر .قد يقول بعضهم كيف تقول هذا والدولة العلمانية تساوي بين المواطنين ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ في حقهم في أن يتولوا رئاسة الدولة مثلا، بينما الإسلام يشترط في من يتولى هذا المنصب أن يكون مسلماً .أقول والعلمانية تشترط فيه أن يكون علمانياً !نعم إنه لا يهمها ـ من الناحية النظرية ـ أن يكون مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً أو بوذياً ما دام انتسابه إلى دينه انتساباً ترضى عنه العلمانية، أي أن يكون تدينه تدينا محصوراً في الجانب الشخصي .أما في المجال العام فهو ملزم بالدستور والقوانين العلمانية .وبما أن الإسلام لا يفصل هذا الفصل الحاسم بين جانب الدين الخاص وجانبه العام، بل يعد رأس الدولة إماماً للمسلمين في دينهم كما أنه إمام لهم ولغيرهم في دنياهم كان من الطبيعي أن يشترط في رأس الدولة أن يكون مسلما.

* * *

ودوا لو تكفرون كما كفروا

الاثنين ٢٠ محرم ١٤٢٦هـ/٢٨ فبراير 2005 م
شبكة المشكاة الإسلامية

كتبت جريدة الواشنطن بوست افتتاحية في عدد الخميس أول يوليو بعنوان "فرصة سعودية" تقول فيها إن القضاء على الإرهاب لا يكون إلا بمعالجة جذوره، وأن هذه الجذور هي الوهابية !وأن هذه الوهابية المتطرفة هي التي تربى عليها الإسلاميون الراديكاليون، وأن على السعودية أن تبحث عن بديل لهذه الوهابية.

قلنا لهم مئات المرات إنه ليس في الإسلام طائفة اسمها الوهابية، وأن الدولة السعودية ليست وهابية. ولكننا نعلم أنهم لا يعنون الوهابية بمعنى دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وإنما يعنون بها أخذ الإسلام بجد وجعله دينًا للدولة، ومحاولة تطبيق شرائعه من غير تحريف ولا تبديل .هذه هي الوهابية في نظرهم .فلنسايرهم على هذا المفهوم ونقول إن المتطرفين والإرهابيين والراديكاليين كلهم تربوا على الوهابية.

هل يعني هذا بالضرورة أن الوهابية هي سبب تطرفهم أو إرهابهم؟ إذا كانت هي السبب فلماذا لم يكن تأثيرها على أكثر الناس علمًا بها وتربية عليها وهم العلماء وطلبة العلم؟ ولماذا لا تطبقون هذا المعيار نفسه على فكركم الذي يدرسه أبناؤكم؟ فتقولون مثلاً إنه هو الفكر الذي أنتج استعمارنا للشعوب، واسترقاقنا للأبرياء من السود، وسائر ما نعانيه من مشكلات وانحرافات؟ ولو قلتم هذا عن بعض أفكاركم لكنتم محقين. وهب أن السعودية وسائر البلاد الإسلامية استمعت لكم وقلدتكم وصارت علمانية مثلكم فهل تضمنون أن يجعلها هذا مناصرة لكم ومحافظة على مصالحكم؟ أليس في كثير من دول العالم العلمانية اليوم من يكره بعضهم بعضًا؟

لكن السبب الحقيقي لهذا العداء للإسلام باسم الوهابية هو داء قديم في قلوب الكافرين .إنهم من فرط كراهيتهم للحق يجعلونه السبب الأساس لكل ما يصيب الناس من سوء في حياتهم، فهؤلاء قوم موسى إذا أنعم الله عليهم ببعض النعم عزوا ذلك إلى أنفسهم، وإذا حلت بهم مصائب عزوها إلى شؤم ما دعاهم إليه نبيهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وسبب آخر هو أن كثيرًا من الكافرين يسوؤهم أن يروا الناس مؤمنين مستقيمين ولا يقر لهم قرار حتى يروهم قد صاروا مثلهم في الكفر وارتكاب المعاصي: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي

الأحد ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٧ يونيو ٢٠٠٤م
شبكة المشكاة الإسلامية

الدول الغربية - ولا سيما الولايات المتحدة - حريصة كل الحرص على أن يدوم لها تفوقها المادي (الاقتصادي والعسكري) وتفوقها الثقافي. وهي لا تكتفي لتحقيق هذا باتخاذ برامج داخلية تضمن لها استمرار التفوق، لكنها تلجأ أيضاً إلى سياسات خارجية تحاول بها عرقلة تقدم أي بلد ترى فيه خطراً على تفوقها في هذين المجالين أو أحدهما. وإذا كانت ترى في الصين واليابان أمارات لمثل هذا التقدم الذي قد يمثل خطراً على تفوقها الاقتصادي؛ فإنها لا ترى شيئاً كهذا في البلاد الإسلامية ولا سيما العربية منها. إنهم يقولون إن الدخل القومي للبلاد العربية مجتمعة لا يساوي دخل إسبانيا. وقال أحدهم: إذا استثنينا البترول فإن صادرات هذه البلاد لن تساوي صادرات بلد أوروبي صغير كفنلندا. ولكن إذا كانوا يأمنون الآن جانب هذه البلاد من ناحية القوة المادية، فإنهم لا يضمنون دوامه بغير تدخل منهم، ولذلك تجدهم يخططون لاستمرار هذا التخلف بوسائل كثيرة ليست هي موضوع حديثنا في هذا المقال.

موضوعنا اليوم هو مخططاتهم لمواجهة الخطر الديني الإسلامي؛ وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية. إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشاراً حتى في البلاد الغربية. بل أقول إنه أكثر انتشاراً لا بالنسبة للأديان فحسب بل بالنسبة لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى، وليس في البلاد الغربية فحسب بل في سائر بلدان العالم. هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بد من إعداد الخطط للمكر به. إن تفاصيل مكرهم هذا أمر يطول وصفه؛ لكننا سنركز حديثنا اليوم على تقرير لمركز البحوث الأمريكي المسمى راندRand لم أكتف بقراءة هذا الملخص بل اطلعت على التقرير كله في أصله الإنجليزي، فخطرت ببالي خواطر كثيرة عنه، منها:

أولاً: أن الخطط التي يوصي بها هي خطط ظل الغرب يتبعها منذ زمن؛ فالدراسة لم تأت في رأيي بشيء جديد لكنها صرحت بما كان متبعاً وعبرت عنه تعبيراً مفصلاً. إن

الإسلام الذي يراه الغرب خطراً عليه هو الإسلام الحق الذي يستمسك به بعض المسلمين بصدق وجد ويحاولون الدعوة إليه، وهو الإسلام الذي يحبه ويؤمن به إذا عرفه كثير من الناس في الغرب، إنه إسلام القرآن والسنة. ولذلك تجد أن أكثر من دخل في الإسلام - في الولايات المتحدة على الأقل - إنما دخلوا فيه بعد قراءتهم لترجمة من ترجمات هذا الكتاب العزيز.

ثانياً: ولأن التقرير كان صريحاً؛ فإنه لا يحاول مخادعة المسلمين، كما يفعل السياسيون من أمثال بوش او بلير حين يقولون إن مشكلتنا ليست مع الإسلام؛ فهو دين سلام ومحبة وتسامح، وإنما هي مع أقلية من المنتسبين إليه من الإرهابيين أو المتطرفين.

ثالثاً: واضح من الدراسة أن المسلمين مدعوون لا إلى فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الغرب، ولكنهم مدعوون إلى فصل الإسلام وإبعاده عن الحياة كلها. والتقرير يعترف بأن هذا أمر صعب، لكنه امر لا مفر منه فيما يبدو. «إنه ليس بالأمر السهل» يقول التقرير: «أن تبدل ديناً عالمياً كبيراً كالإسلام. إنه إذا كان (بناء الأمة) عملاً مرعباً، فإن (بناء الدين) أشد خطورة وتعقيداً» ومما يدلك على جدهم في محاولة التبديل هذه أن بهذا التقرير فصلاً كاملاً عن الحديث النبوي يقول فيه عن الحديث: «إنه في أحسن أحواله أمر مريب متناقض لا يمكن الاعتماد عليه في فض النزاع في أي قضية؛ لأن كلاً من المتنازعين يمكن ان يجد فيه ما يؤيد وجهة نظره. ولذلك فإن التقرير ينصح بإصدار كتيبات تتضمن أحاديث تؤيد وجهات نظر الحداثيين والعلمانيين، حتى لا يبقى عامة المسلمين ضحية للأحاديث والتفسيرات التي ينشرها بينهم العلماء التقليديون والأصوليون. يعتمد التقرير في هذا على كتابات أقوام معروفين بالزندقة وإنكار السنة.

رابعاً: استغربت حين قرأت هذا التقرير عن أي عالم إسلامي يتحدث؟ أين في العالم الإسلامي أولئك الحداثيون أو العلمانيون الذين لا تتاح لهم فرص النشر، أو الذين ليست لهم منابر عامة يخاطبون منها الجماهير، أو الذين لا تؤثر آراؤهم في المقررات المدرسية؟ أليست هذه الأمور كلها في أيدي العلمانيين في بلدان العالم الإسلامي كله إلا ما ندر؟ أليست انظمة الحكم في كل بلدان العالم الإسلامي - إلا ما ندر - أنظمة لا تخفي

علمانيتها؟ عبرت عن استغرابي هذا لأحد إخواننا السعوديين فابتسم وقال: إن هذا التقرير إنما يتحدث عن السعودية. فكرت في محتويات التقرير مرة اخرى فأيقنت أن سهامه موجهة فعلاً نحو السعودية.

خامساً: قلت في نفسي: أخشى أن يظن بعض من يقرؤون هذا التقرير ممن لا يزالون يحسنون الظن بأمثال هذه المؤسسات الغربية أن الديمقراطية التي يدعو العالم الإسلامي إليها هي الديمقراطية بمعنى الرضى بحكم الشعب. أقول لهؤلاء: هَبُوا أن دولة كالسعودية قالت للغربيين: تريدون ديمقراطية؟ حسناً! فلنفعل كما فعلتم أنتم معاشر الأمريكان. لندع ممثلين للشعب من كافة مناطقهم الجغرافية، ولنقل لهم: صوغوا لبلدكم دستوراً كما فعل الأمريكان؛ ولنفترض أن هؤلاء الممثلين اجتمعوا فكان أول ما ذكّروا به أنفسهم واجتمعت عليه كلمتهم أنهم ليسوا سعوديين فقط لكنهم مسلمون أيضاً، وأن إسلامهم هذا هو جوهر هويتهم، ومعتمد جماعتهم، ومصدر عزهم وكرامتهم، وسبب تقدير الأمة الإسلامية لهم، وأنهم يؤمنون لذلك بأن دستورهم الأعلى الذي يحكم حياتهم ويهيمن على كل ما يصدرون من وثائق هو نصوص الكتاب وصحيح السنة، وأنه ينبغي لذلك أن لا يكون - قرروا - في نظام حكمنا ولا في قوانيننا، ولا في مناهجنا الدراسية، ولا في سياستنا الخارجية، ولا في أي جانب من جوانب حياتنا ما هو مخالف لما في هذين المصدرين. هب أنهم جلسوا بعد ذلك وتداولوا لعدة أسابيع خلصوا في نهايتها إلى صياغة دستور، ثم عرضوه على شعبهم في استفتاء عام، شهد عليه مراقبون محايدون من هيئة الأمم، فكانت النتيجة أن أجازته الأغلبية الساحقة من المواطنين. هل يرتاب أحد بعد هذا في أن هذا الدستور جاء بطريقة ديمقراطية، وأن على من كان يؤمن بالديمقراطية أن يرضى به للشعب السعودي مهما خالفهم الرأي؟. ولكن هل تظنون أن سيرضى الغرب أو ترضى أمريكا بذلك؟ كلاً ثم كلاً. لا تنسوا أنهم لا يتكلمون عن الديمقراطية بهذه الصفة العامة التي ذكرناها، إنهم لا يتحدثون عن ديمقراطية تكون فيها الكلمة للأمة مهما كانت تلك الكلمة. إنهم يريدون نظاماً أشبه ما يكون بنظامهم، وقيماً أشبه ما تكون بقيمهم ولا سيما في الموقف من الدين ومن العلاقة بين الجنسين. هذه في رأيهم

هي الديمقراطية الليبرالية التي لا ديمقراطية حقيقية غيرها. إلا تذكرون ما قال (بريمر) للعراقيين من أن هنالك خطوطاً حمراء يجب أن لا يتخطاها مجلس الحكم في وضعه لمسودة الدستور، وأن من هذه الخطوط فصل الدين عن الدولة. وأن الديمقراطية التي يريدونها للعراق هي ديمقراطية على المنوال الأمريكي او الغربي؟ إن شعارهم هو: كونوا أحراراً، لكنكم لن تكونوا في حكمنا أحراراً إلا إذا اخترتم لأنفسكم ما اخترنا نحن لأنفسنا، إلا إذا كانت طريقة حياتكم كطريقتنا، إلا إذا لم يكن في ما اخترتموه ما نرى فيه مهدداً لقيمنا وثقافتنا ومصالحنا. فيما عدا ذلك فأنتم أحرار جد أحرار.

سادساً: مما يدلك على هذا أنهم ليسوا راضين حتى عن من كان من العلمانيين منا غير معجب بهم. يقول التقرير إنه بما أن العلمانيين يؤمنون مثلنا بفصل الكنيسة عن الدولة «فقد كان المفروض أن يكونوا الحلفاء الطبيعيين لنا في العالم الإسلامي. لكن المشكلة كانت وما تزال أن كثيراً من العلمانيين المهمين في العالم الإسلامي لا يوادوننا، بل قد يكونون شديدي العداوة لنا لأسباب أخرى.«

سابعاً: ما الثقافة التي يدعوننا إليها؟ إنها ليست العلوم التي كانت من أسباب تقدمهم المادي، وإنما هي الكفر والعري والزنا والشذوذ والمخدرات والفردية التي هي من علامات تدهور حضارته لا من أسباب قوتها. لذلك تجد بعضهم يقول إنه لا خوف على حضارتنا من حضارة أخرى معاصرة، وإنما الخوف عليها من الانتحار الذي بدأت تمارسه ويشيرون إلى مثل أنواع السلوك تلك.

ماذا نفعل؟ هل نستجيب ونخنع؟ فوالله لن يزيدهم هذا إلا احتقاراً لنا، وتمادياً في إذلالنا، ودأباً على الوقوف في طريق تقدمنا الاقتصادي والتقني والعسكري.

فلنقل لهم: لقد رضينا بأن نعيش معكم في سلام، وأن من يعتدي على الأبرياء منكم ومنا لا يمثلنا ولا يعبر عن رأينا. لكنا لن نرضى بأن يكون هذا التعايش تعايشاً بين سادة وعبيد، أو محتلين ومواطنين، أو منتجين ومستغلين ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

* * *

العلمانية والجاهلية

وجهان لعملة واحد

مجلة منار السبيل ١٩٩٣م

بما أن الحضارة أو الثقافة العلمانية حضارة تحل الهوى محل الإله الحق، فإن لها في كل أشكالها- القديمة أو الحديثة، اليونانية والأوروبية أو العربية- سمات مشتركة، نابعة من ذلك الأصل الكفري المشترك، لأن قيم الناس وثقافاتهم هي ثمرة معتقداتهم وأحوال قلوبهم، فإذا تشابهت المعتقدات وتشابهت لتشابهها القيم، تشابهت الأقوال والأعمال والتحليلات والتفسيرات:

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

فالثقافات الجاهلية كلها ثقافات تطلق العنان للشهوات الجنسية فتبيح الزنا بكل أشكاله:

عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: (أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع

ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم).

هذه الإباحية الجنسية العربية أقل شراً من إباحيات أمم أخرى، لأنها كما ترى تحرص على أن يكون للمولود نسب ينتمي إليه وإن كان نسباً غير حقيقي.

وكما تبيح الحضارة الجاهلية الزنا فإنها تبيح كل مقدماته ومسبباته، فالنساء في المجتمع العربي الجاهلي، كأخواتهن في المجتمع الجاهلي الغربي، كن لا يتحرجن من إظهار محاسنهن الأنثوية لكل الرجال، فكن يكشفن شعورهن ونحورهن بل صدورهن، ولم يكن يدنين عليهن جلابيبهن، بل كن أحياناً لا يتحرجن حتى من التعري الكامل، وكن يختلطن بالرجال ويخلون بغير المحارم، وكن يتعطرن ويخرجن ويخضعن بالقول في خطابهن.

والحضارات الجاهلية حضارات لا تعرف التوسط ولا سيما في معاملة النساء. فهي تذهب من طرف معاملتها معاملة الحيوان والعبيد، قال عمر رضي الله عنه: (كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً) – البخاري، اللباس، ، إلى طرف مساواتها بالرجال في كل شئ بل تقديمها عليهم:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ٢٣].

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ۝٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النحل: ٣٢-٣٣].

وقد تغلو الحضارة الجاهلية في اتباع الشهوات الجنسية فتبيح الشذوذ، كما فعل قوم لوط وكما فعلت الحضارة اليونانية، وكما تفعل اليوم الحضارة الأوربية.

والحضارات الجاهلية كلها تبيح شرب الخمر، ولعب الميسر، وأكل الربا.

وهي حضارات لا ينفك أهلها عن الفخر بالأنساب أو الألوان أو القوى المادية أو غير ذلك مما لا تعلق له القيم الفاضلة، ويتخذون مثل هذه الميزات ذريعة إلى الاعتداء على الضعفاء.

هكذا كان العرب في جاهليتهم يفعلون، وهكذا فعلت الحضارة الغربية مع الأمم الضعيفة فاستعمرت بعضاً، واحتلت بعضاً، واسترقت بعضاً ثم عاملتهم أسوأ مما تعامل به الحيوان.

لكن الحضارات الجاهلية قد تفلح رغم كل هذه المثالب في بناء مدنيات باهرة، وتتفوق في العلوم الدنيوية وما يبني عليها من تقنية فتأتي بمنجزات كبيرة في مجال الزراعة والصناعة وسائر أنواع التفوق المدني العمراني.

ولكن لما كان هذا الجانب المدني المادي قائماً على جرف ثقافي هار فإنه لا يلبث أن يتداعى.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

***

علمانية باسم الإسلام

السبت ١٠ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ١١ ديسمبر ٢٠٠٤م شبكة المشكاة الإسلامية

فوجئ الناس في السودان بمطلب جديد لحركات التمرد في دارفور، إذ نقلت الصحف عن محجوب حسين ممثل حركة تحرير السودان قوله: «سنبدأ بإعلان المبادئ ونحن نريد الفصل بشكل واضح بين الدين والدولة. في الوقت الحالي تفضل الحكومة الإسلام على الديانات الأخرى وهو ما لا يجب أن تكون عليه الحال. وعلى الرغم من كوني مسلما فإننا نريد أن يكون الدين شأنا خاصا، وأن يكون كل مواطن حرا في ممارسة الدين الذي يؤمن به».

ومن الواضح أن محجوبا هذا لا يتحدث باسم أهل دارفور المسلمين، ولا يعبر عن اعتقادهم، وإنما يتحدث باسم الدول التي أعطته المال والسلاح، وأغرته بالتمرد، فكانت له قوة عسكرية أجبرت الحكومة على التفاوض معه، يدعي هذا المتحدث أنه مسلم؛ ثم يقول لكنني، ويذكر كلاما يعلم كل من له أدنى معرفة بالإسلام حتى من الغربيين أنه يتناقض مع الإسلام. بل هو متناقض مع الديمقراطية التي يطالب بها، إذ أن الديمقراطية هي حكم الأغلبية، فهل قالت الأغلبية في دارفور أو في السودان كله إنها تريد أن تنسلخ من دينها وتتحول إلى العلمانية؟

ثم إن مثل محجوب هذا مثل كثير من المقلدين للغرب الذين يكتفون برفع بعض شعاراته، ولا يكلفون أنفسهم دراسة الواقع الغربي الذي نتج عن محاولة تطبيق تلك الشعارات. لقد تبين لكثير من المفكرين الغربيين المتدينين أنهم خدعوا بمبدأ حرية التدين في ظل دولة علمانية، بدأ بعضهم يقول إن العلمانية التي كنا نظنها محايدة بين الأديان؛ قد صارت دينا معاديا للأديان. فالدولة العلمانية هي التي تحدد ما الدين الخاص الذي تباح ممارسته. إنه من البديهي مثلا أن تغطية المرأة رأسها بقطعة من القماش أمر خاص، لكن ما هكذا رأته الدولة العلمانية الفرنسية، بل رأته شعارا دينيا يتناقض مع علمانيتها. إلا يتناقض هذا مع قول صاحبنا محجوب «وأن يكون كل مواطن حرا في ممارسة الدين الذي يؤمن به» ما معنى أن أكون حرا في ممارسة ديني؛ إذا كنت أنت قد قررت بقوة سلاحك أن أحصر ديني فيما أسميته بالشأن الخاص؟ كيف أكون حرا في ممارسة ديني إذا كانت ممارسته تقتضي أن يشمل الشأن العام؟ أمران آخران استغرب لهما الناس: ما علاقة فصل الدين عن الدولة بالمطلب الأساس الذي دعا هؤلاء المتمردين فيما يزعمون إلى حمل السلاح؟ إنهم يطالبون باقتسام السلطة والثروة. فهل وجدوا أن هذا لا يتحقق إلا بإبعاد الإسلام عما أسموه بالشأن العام؟ وإذا كان هؤلاء المتمردون يعلمون أن الحكومة لم تستجب لطلب كهذا من حركة قرنق التي تزعم الحديث باسم أقوام غير مسلمين، فكيف يتوقعون أن تقبله من أناس يزعمون أنهم يتحدثون باسم أهلهم المسلمين؟ أم أنه نوع من التعجيز لعدم الوصول إلى اتفاق ما دامت مصالحهم الخاصة ـ كما هي الحال مع قرنق ـ تقتضي استمرار الحرب والتخريب؟

حرب الكذابين

الاثنين ١٣ محرم ١٤٢٦هـ/ ٢١ فبراير ٢٠٠٥م شبكة المشكاة الإسلامية

أظهرت نتائج تحقيقات اللجنة التي كونها الكونجرس أن المعلومات التي قدمتها وكالة... الاستخبارات الأمريكية CIA للحكومة عن أسلحة الدمار الشامل لم تكن صحيحة. وكذلك تتوصل لجنة بلير البريطانية إلى النتيجة نفسها بالنسبة للمعلومات التي قدمتها الاستخبارات البريطانية. المعلومات الأمريكية هي التي طار بها باول إلى الأمم المتحدة ليقنع الناس فيها بضرورة غزو العراق. والمعلومات البريطانية هي التي طار بها بلير إلى موسكو ليقنع بوتن بضرورة غزو العراق. كان الزعم بامتلاك صدام لأسلحة دمار شامل هو المسوغ الأساسي والوحيد لذلك الاعتداء الظالم. فإذا كان قد تبين الآن أنه قد بُني على أخبار كاذبة فإن الأمر الطبيعي أن يعتذر كل من بوش وبلير لشعبيهما عن الخسائر في الأموال والأرواح التي كبدوهما إياهما، وأن يعتذرا للشعب العراقي عما لحق به من أضرار بالغة في الأنفس والأموال. وأن يعتذرا لشعوب العالم كله التي جروها إلى حرب ظالمة. لكن شيئًا من هذا لم يحدث. بل إن كل من بوش وبلير استمرا في إصرارهما على أن الحرب كانت مشروعة. ولكن بمسوغ جديد هو تخليص العراق من دكتاتورية صدام ووضعه على طريق الديمقراطية! لكن هذه تعلة باطلة، أولاً: لأنه لا يجوز، ولا سيما في بلاد يفترض في رؤسائها أن يكونوا ناطقين باسم أممهم ومنفذين لرغباتهم، أن يقدموا على عمل خطير من غير استشارتهم وضمان موافقتهم. كيف تقدم على عمل إنما وافقك الشعب عليه لأسباب ذكرتها له قبل الإقدام عليه، فإذا ما انتهيت منه ذكرت لهم أسباب أخرى؟ وثانيًا أليس من حق هذه الشعوب أن تقول لرؤسائها: أمن أجل إزالة حكم مستعبد تراق أرواح الآلاف من أولادنا وأولاد الأمم التي غزت العراق معنا، وتبدد أموالنا وأموالهم، وتزهق الآلاف من أرواح مواطني الدولة المعتدى عليها وتخرب ديارها ويحل جيشها وينفرط عقد الأمن فيها. وتعين لها حكومات من صنع غزاتها؟ ما الذي كان سيفعله صدام أكثر مما فعلنا؟ أمن العقل أن يزال شر بما هو أشر منه؟. لكن كل هذا له ما يسوغه في اعتقاد بوش وبلير لأن السبب الحقيقي لحربهم الظالمة لم يكن ما ذكراه أولاً من وجود أسلحة دمار ولا ما ذكراه لاحقًا من تخليص العراق من حكم دكتاتوري. وإنما كان تأميناً لإسرائيل وهو بداية احتلال جديد للعالم العربي. وإلا فقولوا لنا بربكم لماذا تبني الولايات المتحدة أكبر سفارة لها في العالم في العراق. هل كان هذا أمرًا اقتضاه وجود تلك الأسلحة، وهل هو مما تقتضيه إزالة حاكم دكتاتوري؟ لقد كان بوش وبلير يعلمان أنهما لو ذكرا لشعبيهما الأسباب الحقيقية لغزو العراق لما وجدا لهما من شعوبهما موافقة، فكذبا عليهما. وكذبة الأمير بلقاء لا يمنعه من ارتكابها نظام ديمقراطي أو غير ديمقراطي.

العلمانية ليست محايدة وما هي بالقومية

الأربعاء ٧ رجب ١٤٣٤هـ/ ١٥ مايو ٢٠١٣م
شبكة المشكاة الإسلامية

من الأباطيل التي أشاعها المروجون للفكر الغربي ومؤسساته، والتي انطلت على كثير من المسلمين، ولا سيما السياسيين منهم، أن العلمانية نظام محايد بين الأديان. وعليه فإذا أراد مواطنو دولة متعددة الأديان كالسودان أن يتساووا في الاشتراك في حكم بلادهم، فما عليهم إلا أن يطرحوا أديانهم جانبا؛ كما فعلت الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، ويتبنوا النظام العلماني .ويبدو أن هذا النوع من التفكير كان وراء ما سمي باتفاق القاهرة، ووراء ما دعا إليه قرنق من علمانية العاصمة. لكن الواقع الذي تدل عليه طبيعة أنظمة الحكم، والذي تؤيده التجربة الغربية نفسها، أن العلمانية ليست محايدة بين الأديان، بل إنه لا يوجد على وجه الأرض. لأنه لا يمكن عقلا أن يوجد ـ نظام سياسي ـ دينياً كان أو علمانياً ـ محايد حيادا كاملا بين كل المعتقدات الشائعة بين البشر؛ وذلك لأن من مهام النظام السياسي أن يضع قوانين ونظما لحياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية .وما من منهج من مناهج الحياة ـ دينا كان أم غير دين ـ إلا وله بعض التصورات المتعلقة بهذه الأمور كلها أو بعضها؛ وهي تصورات مختلفة، بل كثيرا ما تكون متناقضة، فلا يمكن للنظام السياسي أن يقرَّها كلها، بل لا بد له من أن يأخذ بعضها فيضع قوانين تلزم الناس به، وأن ينكر بعضها فيضع قوانين تحظره.

ما الحل إذن؟

إن أديان الناس وتقاليدهم ومناهج حياتهم تتناول مجالين أساسيين، مجال يتعلق بمعتقداتهم وحياتهم الفردية، وهو الذي يسمى في الاصطلاح الغربي اليوم "دينا"، ومجال يتعلق بالحياة العامة؛ فالحل هو أن يختار المواطنون ـ بالأغلبية أو بالتراضي ـ نظاما معينا للحكم، لا يتدخل ـ من حيث المبدأ ـ في المجال الأول، فلا يفرض على مخالفيه معتقدات لا يؤمنون بها، ولا سلوكا فرديا خالصا لا يرونه مناسبا، وإنما يكون تركيزه على المجال الثاني؛ فيسن له من النظم والقوانين والموجهات ما يراه مناسبا، حتى لو كانت مخالفة لأديان بعض المواطنين وأفكارهم وتقاليدهم.

هذا هو الحل الذي تحاول العلمانية في شكلها الغربي الليبرالي الحالي أن تلجأ إليه . فالتعديل الأول من دستور الولايات المتحدة ينص على أنه لا يجوز للكونغرس أن يؤسس دينا أو أن يمنع الممارسة الحرة له.

وهذا النص وراءه تاريخ غربي طويل هو أن الفرق النصرانية كانت إذا تمكنت إحداها من الحكم، حاولت أن تفرض معتقداتها على الفرق الأخرى، فتنشأ بينها حروب واضطرابات، فرأوا تفادياً لهذا أن يصطلحوا على إبعاد هذه المسائل الدينية البحتة عن مجال الدولة، وأن تكون الدولة علمانية: أي مهتمة بأمر الدنيا فحسب؛ فالعلمانية عندهم لم تكن في أصلها معادية للدين، ولا كانت شيئا مفروضا على أهله، بل هم الذين اختاروها إخماداً لنار تلك الحروب بينهم، ودفاعاً عن الأقليات الدينية من أن تعتدي عليها الأغلبيات؛ كما حدث في فرنسا مثلاً حين تمكن الكاثوليك من حكمها فحظروا اعتناق البروتستانتية، بل اعتبروه جريمة يعاقب عليها القانون.

هذه المشكلة التي جاء الغربيون بالعلمانية لحلها، لا وجود لها في نظام الحكم الإسلامي، لأن الإسلام وإن كان ديناً، إلا أنه ليس دينا بالمعنى الغربي، بل هو منهاج حياة متكامل، يشرع للحياة الفردية كما يشرع للحياة الاجتماعية، لكنه يعترف بوجود الآخر المخالف، فلا يَفرض نظامُه السياسي عليه معتقداتٍ لا يؤمن بها، ويعطيه قدراً من الحرية هو في بعض الجوانب أكبر مما يعطيه النظام العلماني، والذي يفرضه الإسلام على المواطنين جميعا - كما تفرضه العلمانية - إنما هو جانبه الذي يتعلق بتنظيم الحياة الدنيوية.

هل في هذه الأمور الدنيوية ما يخالف معتقدات بعض المواطنين وتقاليدهم؟ لا شك في ذلك، لكن كذلك الأمر في النظام العلماني، ففي قوانينه ما يخالف أديان كثير من المواطنين وتقاليدهم .ولذلك عندما قال أحد رؤساء أمريكا إن الدستور يقيم حائطا بين الدين والدولة، علق على ذلك بعضهم بقوله: لكنه حائط مليء بالثقوب والشقوق؛ ومن الأمثلة التي يضربونها على وجود هذه الثقوب والشقوق أنّ العلمانية هي التي تحدد مفهوم الدين وهي التي تقرر ما كان منه مباحاً وما كان محظوراً، من ذلك مثلاً أنّ

فرقة المورمون المسيحية تبيح تعدد الزوجات، لكن المحكمة الأمريكية العليا وصفته بأنه ممارسة مقيتة، وقضت بحظره عليهم وعلى المسلمين، لكن هذه المحكمة لم تحظر الزنى ولا الممارسات الشاذة بين الرجال أو بين النساء، وقضت هذه المحكمة أيضا بتحريم نوع من المخدرات تتعاطاه إحدى طوائف الهنود الحمر في احتفالاتها، هذا مع أنه ـ كما يقول بعضهم ـ لا فرق من حيث التخدير بينه وبين الخمر الذي يتعاطاه النصارى باعتباره جزءاً من بعض مراسم احتفالاتهم الدينية .والمتدينون من اليهود والنصارى يشكون مر الشكوى من التدهور الخلقي الذي آلت إليه حال البلاد، ويعزون ذلك فيما يعزون إلى خلو المناهج المدرسية من مادة الدين التي يحرم الدستور دراستها في المدارس الحكومية، وكثيرون منهم يشكون الآن من انتشار الأمراض المتعلقة بالجنس انتشارا صار كالوباء، ويعزون ذلك فيما يعزون إلى المدارس المختلطة، حتىّ إنّ بعضهم قاطع هذه المدارس وصاروا يدرِّسون أبناءهم في بيوتهم. إن مشكلة العلاقة بين الدين والدولة ما زالت حيّة في الولايات المتحدة بدليل كثرة الكتب التي تنشر في هذا الموضوع، وكثرة القضايا التي ترفع، وبدليل وجود دوريات مختصة به.

إذا كان هذا حال العلمانية في البلد الذي بناها على كتابات مفكريه وفلسفاتهم، والتي ألجأهم إليها تاريخهم، والتي اختاروها برضاهم، فكيف سيكون حالها في بلد لا جذور لها فيه، بل إنها لتتناقض تناقضا كاملا مع الدين السائد فيه، يجب أن يكون جليا لكل من ينادي بالعلمانية ومن يستمع إليهم أن فرضها على السودان ـ ولا سيما بمفهومها" القرنقي "ـ سيتبعه تغريب فكري كامل له، وذلك أن العلمانية ليست مجرد قوانين تصدرها المجالس التشريعية، وإنما هي أيضا نظام حكم له منظّروه، وفلاسفته، وتاريخه القانوني، وكل هذا إنتاج غربي محض سيكون هو الذي يعتمد عليه طلاب القانون والاقتصاد والعلوم السياسية عندنا .إننا ما زلنا نعاني من بقايا هذا الفكر الذي فرضه الاستعمار البريطاني علينا، فالعجب إذن لمن ينادون بالعلمانية تحقيقا للقومية، مع أن الواقع أنها نبت غريب على كل الأديان والتقاليد والأعراف السودانية شماليها وجنوبيها.

أسئلة عملية:

دعونا بعد هذا التوضيح الفكري نسأل بعض الأسئلة العملية:

ما الطريقة التي سيحول بها اتفاق القاهرة بقومية العاصمة إلى برنامج عملي؟

هل سيفسر بتفسير قرنق ؟

لكن ما معنى العلمانية هنا؟

هل معناها أن لا يفرض الدين الإسلامي على من لا يدين به؟

لكن عدم إكراه الناس على التدين بالإسلام أمر متفق عليه حتى قبل مشاكوس، وقبل اتفاق القاهرة، لأنه أمر يتطلبه الإسلام نفسه.

هل معناها أن يُنص في الدستور على أنه لا يجوز إصدار قانون بإباحة أو تحريم شيء يبيحه أو يحرمه الإسلام؟

لكن هذا شيء مخالف للديمقراطية وللعلمانية حسبما هما معروفان في الديمقراطيات الليبرالية كالولايات المتحدة، وحسبما ينادي بها المتفقون في القاهرة .إن الدعوى في تلك البلاد الغربية هي أن العلمانية محايدة بين الأديان لا معادية للأديان، فهل المطلوب منّا في السودان أن نتبنى علمانية معادية للأديان، بل للإسلام بالذات؟ وإذا قيل: بل هذا حكم ينطبق على كل الأديان، فهل يعنى أن يحظر الدستور إباحة أو تحريم أي شيء يبيحه أو يحرمه دين من الأديان في السودان، ولو كان الذي يدين به شخص واحد؟

كيف إذا كان أحد هذه الأديان يحرم شرب الخمر مثلا والآخر يبيحه، بل يعده في بعض المناسبات أمرا مرغوبا فيه من الناحية الدينية؟ إن تطبيق تلك المادة الدستورية في أمور كهذه، وهي كثيرة، سيكون مستحيلا.

الحل العلماني الغربي:

العلمانية كما هي مطبقة في البلاد "الديمقراطية الولايات" تحل هذا الإشكال بأن لا تلقي بإلا لمصدر القانون ديناً كان آو غير دين، ولا تلقي بإلا للبواعث التي تدفع مقترحيه لاقتراحه، بل كثيرا ما تسمع بعض الأعضاء في الكونغرس الأمريكي مثلا يدعمون حججهم بنصوص من كتاب دينهم، أو بأشعار لشكسبير، والسبب في ذلك

هو اعتقادهم بأن الفصل بين الدين والدولة لا يعنى الفصل بين الدين والسياسة، فالدستور الأمريكي ينص على الأول لا على الثاني .إن الذي يتطلبه هذا الدستور هو أن لا يصاغ القانون بلغة دينية ولا بمسوغات دينية .وهذا يعني أن العلمانية لا تحرم نظريا الاستفادة من أي دين كان حتى لو كان هذا الدين هو الإسلام، بل الواقع أن كثيرا من قوانينها ذات أصول ومصادر دينية، كالقوانين المتعلقة بالأسرة، بل إنه ليقال إن القانون الفرنسي استفاد كثيرا من الفقه المالكي.

فما الحل الذي يقترحه قرنق ومساندوه من المطالبين بقومية العاصمة السودانية وعلمنتها؟ هل يريدون علمانية معادية للدين الإسلامي بالذات، محرمة لأخذ أي شيء منه، مبيحة للأخذ من الأديان والتقاليد الأخرى؟ أم ماذا؟

الحل الإسلامي السوداني:

إذا كان من المتعذر واقعا، بل من المستحيل عقلا كما قدمنا، أن يكون هنالك نظام سياسي لا يُصدر من القوانين ما يكون مخالفا لأفكار بعض المواطنين أو أديانهم أو فلسفاتهم، فأنسب النظم هو الذي يكون الأقرب إلى إرضاء غالبية المواطنين من حيث تشريعاته المتعلقة بتنظيم شؤون الوطن الدنيوية، وأقربها إلى إرضاء سائر المواطنين من حيث التشريعات المتعلقة بمعتقداتهم وحياتهم الخاصة . فما هو هذا النظام؟ لا يمكن أن يكون العلمانية لأنها تتناقض تناقضا أساسيا مع الإسلام الذي هو دين الأغلبية، ولا يمكن أن يكون المسيحية أو أيا من الأديان المحلية لأنها أولاً أديان أقليات، ولأنها ثانياً إنما تحصر نفسها في الأمور المتعلقة بالدين بمعناه الضيق .لم يبق إذن إلا الإسلام.

وعليه فالذي نراه محققاً لتلك الأهداف هو أن يتراضى السودانيون جميعاً على أن يكون الإسلام نظاما لحكمهم، ثم يتراضون بعد ذلك على تقسيم الولايات السودانية - من حيث الدين والأعراف - إلى ولايات إسلامية هي التي تكون غالبية سكانها من المسلمين، وولايات عرفية هي التي يكون غالبية سكانها من غير المسلمين .الولايات الإسلامية تكون ملزمة بكل القوانين الإسلامية العام منها والخاص، وأما الولايات العرفية فمع التزامها بالقوانين العامة، إلا أنها تعطى الحق في أن تستثني نفسها من

بعض القوانين التي تراها شديدة التعلق بمعتقداتها أو تقاليدها الخاصة على أن تقر السلطة التشريعية القومية هذه الاستثناءات.

سيقول البعض إنكم وإن لم تفرضوا العقيدة الإسلامية على المواطنين غير المسلمين، إلا أنكم بهذا تفرضون عليهم أحكام الإسلام المتعلقة بالحياة الدنيوية، وهي أحكام قد تتناقض مع بعض أحكام أديانهم .أليس هذا إلزاما لهم بدين لا يؤمنون به؟ نقول: إنه إلزام لهم بالجانب الدنيوي من الدين الذي لا يدينون به وهو جانب يمكنهم فصله فصلا كاملا عن الجانب الاعتقادي، فإذا كان المسلم سينظر إلى هذا الجانب الدنيوي على أنه أوامر إلهية الالتزام بها عبادة لله، فبإمكان المواطن غير المسلم أن ينظر إليه على أنه النظام الذي ارتضته غالبية المواطنين في بلده .هذا النوع من الفصل ممكن، بل هو لازم لكل جماعة متعددة المعتقدات والفلسفات والتصورات لأنه ما من قانون يصدر إلا ووراءه في أذهان الذين اقترحوه تصورات أو فلسفات أو قيم معينة قد لا يشاركهم فيها بقية المشرعين، لكنهم يلتزمون بالقانون لأن هيئتهم التشريعية أجازته، لا للأسباب التي دعت مقترحيه إلى اقتراحه، لكننا نعود فنقول نعم إن بعض القوانين الإسلامية المتعلقة بتنظيم الحياة الدنيوية قد تتناقض مع بعض الأديان والأعراف الأخرى، لكن كذلك الأمر بالنسبة للعلمانية؛ إنها أيضا تفرض على المسلمين كثيرا من القوانين التي تتناقض مع دينهم.

أُجمل القول في النهاية بأنه من المستحيل أن يوجد نظام حكم يتوافق مع كل ما في السودان من أديان وأعراف، فإما أن تتنازل الأغلبية المسلمة عن دينها فتقر الحكم العلماني، وإما أن تتنازل الأقلية غير المسلمة فتقر الحكم الإسلامي .

ومصلحة السودان واستقراره يقتضيان أن تتنازل الأقلية؛ أولا لأنها أقلية، وثانيا لأن العلمانية إما أن تكون محايدة بالمفهوم الغربي الليبرالي فلن تمنع الأغلبية المسلمة من إصدار قوانين إسلامية، وإما أن تكون معادية للأديان كلها فتكون معادية لأديانهم كما هي معادية للإسلام .وإما أن تكون علمانية معادية للإسلام بالذات فدون قبول المسلمين لها خرط القتاد.

* * *

أمريكا

الاثنين ٢١ ذو الحجة ١٤٢٥هـ/ ٣١ يناير ٢٠٠٥م
شبكة المشكاة الإسلامية

يصف الأمريكان بلدهم بأنها الآن منقسمة.

قد تقول: الانقسام هو من لوازم التصويت.

ففي كل مرة يحصل تصويت سواء في مسائل السياسة أو غيرها، وسواء كان على مستوى القطر أو في نطاق محدود، فإن المصوتين ينقسمون إلى قسمين أو أكثر.

فما سر قولهم الآن إن أمريكا منقسمة؟ الذي يعنونه هو أن الانقسام بين الناس لم يكن في الانتخابات الماضية انقسامًا في سياسات عابرة تختلف فيها الآراء لكنه كان خلافًا في مسائل جوهرية أهمها قضية الدين وبعض القضايا الخلقية.

يقول بعضهم إن سبب هذا الخلاف الجوهري هو أنه بينما صار الحزب الديمقراطي أكثر علمانية وأكثر لبرالية وبالتالي أبعد عن الدين وأكثر تحررًا في المسائل الخلقية كتأييد أكثر مناصريه للزواج المثلي وللإجهاض.

فقد صار الجمهوريون بقيادة بوش والمحافظين الجدد أكثر تعصبًا للدين وأشد استمساكًا بالقيم الخلقية التقليدية. فبوش يصرح بأن فيلسوفه السياسي هو المسيح، وأن ربه هو الذي كلفه بالمهام الكبيرة التي قام بها كغزو أفغانستان وغزو العراق (نسأل الله تعالى أن لا يكلفه ربه هذا بفظائع أخرى). وكثير من مُنظّريهم صاروا ينتقدون الفهم الشائع لفصل الدين عن الدولة.

ويقولون: إنما هو فصل للكنيسة - لا للدين - عن الدولة. أي أنه لا يحق للدولة أن تتبنى كنيسة معينة تصدر عن رأيها، وتحكم البلاد بتعاليمها. لكن هذا لا يعني أن لا يصرح المسؤول بتدينه وبالإعلان عن دوافعه الدينية فيما يرى من آراء أو يتخذ من قرارات.

لهذا كان تأييد الكنائس وسائر المؤسسات الدينية والأفراد المتدينين للرئيس بوش كبيرًا جدًا.

ولكن ما كل من أيده في هذه القضايا التي يرونها جوهرية يؤيده في سائر سياساته كغزوه للعراق. بيد أن الواحد من هؤلاء ربما سوغ تصويته له رغم هذا الاختلاف بأن مسألة العراق مسألة عارضة وهي من شأن السياسة الخارجية.

أما قضايا الدين والخلق فستؤثر تأثيرًا عظيمًا في طبيعة المجتمع الأمريكي. ولهذا فإنه يضحي بتلك من أجل هذه.

لكن الذين يفكرون مثل هذا التفكير ربما كانوا قلة، أما الغالبية العظمى من المسيحيين المتعصبين فقد ترى أن من لوازم دينها محاربة الإسلام الذي يهدده سواء بنشاطه الدعوي في داخل الولايات المتحدة، أو بنشاطه على المستوى العالمي الذي لا يفصلون بينه وبين الإرهاب الذي يعدونه وسيلة من وسائل المسلمين للقضاء على الحضارة الغربية.

ويزيد من الشعور بالعداء هذا إعلان أغلب المسلمين الأمريكيين تقريبًا - قبل الانتخابات - أنهم سيصوتون لكيري لا لبوش.

وقد كان لبوش مؤيدون كُثر آخرون منهم المؤيدون التقليديون من أصحاب رأس المال، ومنهم العوام الذين لا يدرون ماذا يحدث في العالم.

فإذا قيل لهم إن فيه أماكن تعمل ضد مصالح بلدهم، فهم مع كل وسيلة من وسائل حربها.

لقد اجتمعت لبوش إذن هذه الأنواع الثلاثة من الأنصار وحدث بينها تعاون وتآزر.

فأصحاب المال ساعدوا رجال الدين مساعدة كبيرة في شن حملتهم الدعائية ضد كيري والحزب الديمقراطي، وبثها بين أولئك العوام.

* * *

عنزوان طارت

الثلاثاء ١٨ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٤م
شبكة المشكاة الإسلامية

قال بعض الكبار من واضعي الدستور الأمريكي إن الديمقراطية لا تصلح إذا لم يصلح الشعب. وهو كلام صحيح وبدهي ينطبق على كل نظام سياسي، لأن المؤسسات كما قال أحدهم هي كالقلاع إنما يعمرها الرجال، إن كون الشخص منتخبا لا يعني كونه صالحا، وكون القرار قد اتخذ بطريقة ديمقراطية لا يعني كونه حقا أو صالحا. وقد ظهرت كل هذه الحقائق الآن بجلاء للشعوب الغربية ولا سيما الشعبين الأمريكي والبريطاني.

لقد كان قرار غزو العراق قراراً ديمقراطياً لا شك في ديمقراطيته. لكن الذين أيدوه إنما فعلوا ذلك لأنهم صدقوا ما قيل لهم من أسبابه: إن العراق يملك أسلحة دمار شامل لن يمر أكثر من شهر حتى تبلغ هذه الأسلحة درجة تهدد المصالح القومية للولايات المتحدة ولبريطانيا. وأنه قد ثبت أن النظام العراقي كان على صلة وثيقة بتنظيم القاعدة. فلما حدث الغزو ودمر العراق ولم توجد الأسلحة بدأ بعض الناس يشكون. فكان الرد عليهم أن كوننا لم نجدها إلى الآن لا يعني أنها لم تكن موجودة بل قد تكون الآن موجودة لكنها في أماكن لم نعثر عليها فأعطونا مهلة قبل ان تصلوا إلى هذه النتيجة. وربما كانت الأسلحة موجودة فعلا لكن صداما دمرها قبل الغزو بأيام. لكن الخبراء قالوا حتى لو دمرها لوجدنا لهذا التدمير أثرا. ثم جاء الاعتراف بأن المخابرات هي التي ضللت الحكومة الأمريكية. ثم يثبت الخبراء الأمريكان الآن أنه لم تكن لصدام مثل هذه الأسلحة، وأنه أوقف العمل على تطويرها منذ أكثر من عشر سنوات. وأما الصلة بالقاعدة فقد ثبت بطلان دعواها هي الأخرى. كان الواجب الذي تقتضيه الأمانة والصدق مع المواطنين، ومع العراقيين، ومع سائر سكان المعمورة أن يعلن اولئك القادة الذين تولوا كبر الغزو أنهم كانوا مخطئين وأنهم يعتذرون عما حدث. بل كانت الأمانة تقتضي أن يستقيلوا من مناصبهم لأن التقليد السياسي المتبع عندهم أن يستقيل المسئول إذا تبين أنه ارتكب خطأ جسيما: سواء بحسن نية أو بسوئها، لكن شيئا من هذا لم يحدث بل الذي حدث هو مزيد من الإصرار على أن الحرب كان لها ما يسوّغها حتى بعد أن ظهر بطلان كل الأسباب التي كانت قد سيقت لتسويغها. أليس معنى ذلك أن تلك الأسباب التي قيلت للناس لم تكن هي الأسباب الحقيقية لشن الحرب؟ إنهم يقولون الآن يكفي أننا خلصنا العالم من ديكتاتور. لكن صداما كان ديكتاتورا منذ أعوام، وكنتم أيها الغازون له الآن من مؤيديه. وإذا كان صدام ديكتاتورا فما هو بالديكتاتور الوحيد في عالمنا!! حقا إن الباطل لجلج...

فشل النظرية الرأسمالية

مقال للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بمناسبة
الأزمة المالية العالمية سنة ٢٠٠٨م ونشر هذا المقال
في صحيفة الاقتصادية بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/١١م

النظام الاقتصادي الرأسمالي السائد في العالم اليوم، الذي انهار بعض أعمدته وبدأت أخرى تهتز في الولايات المتحدة وفي أوروبا وغيره، نظام يقوم على نظرية اقتصادية معينة هي موضوع حديثنا في هذا المقال .فحديثنا ليس إذن عن الأسباب الاقتصادية وغير الاقتصادية المباشرة التي أدت إلى الكارثة الاقتصادية الراهنة، فهذا أمر له أهله وخبراؤه الذين أشبعوا الكلام فيه، وإنما هو عن النظرية التي كان العمل بها السبب الحقيقي لما يعانيه النظام الرأسمالي من مشكلات .فنقول إن الكارثة الاقتصادية الراهنة كانت دليلا يضاف إلى أدلة أخرى على فشل النظرية التي قام عليها الاقتصاد الرأسمالي .وهي دليل من ناحيتين: من ناحية أن العمل بالنظرية هو الذي أدى إلى الكارثة، ومن ناحية أن علاج الكارثة يتطلب الخروج على ما تقتضيه النظرية.

تقول النظرية إن الاقتصاد الناجح هو اقتصاد سوق يسمح بالملكية الفردية وبالبيع والشراء والادخار ويترك للسوق تحديد أسعار السلع، وإن هذا كله ينبغي أن يكون في حرية كاملة لا يحد منها أي تدخل من الدولة .كان الفيلسوف والاقتصادي الاسكتلندي آدم سميث الذي عاش في قرنهم الثامن عشر هو أكثر من اشتهر بالقول بهذه الفلسفة الرأسمالية، لكن المؤرخين يقولون إنه هو نفسه تأثر بكتابات ماندافيل الذي كان أكثر منه غلوا في هذا الأمر فهو المشهور بقوله"إن الرذائل الفردية هي فضائل اجتماعية" في مجال الاقتصاد .كان سميث وغيره يقولون إنه لا بأس على الفرد أن يندفع لتحقيق مصالحه بدافع الأنانية، بل قال بعضهم بدافع الطمع ليحقق مصالحه وإن النتيجة ستكون - بفعل تلك اليد الخفية - أمر لم يخطر على بال الفرد، هي المصلحة العامة.

لكن الواقع أن هذه اليد الخفية لم تقم بالمهمة التي عزاها إليها سميث وغيره، وإنما أدى ذلك الطمع الفردي المتروك له الحبل على غاربه إلى تقسيم الثروة تقسيما ظالما بحيث إن قلة قليلة من المواطنين تصل أحيانا إلى ١٠٪ تمتلك ما يصل أحيانا إلى ٩٠٪ من

الثروة، ولا يمتلك ٩٠٪ الباقون إلا ١٠٪ منها، ما جعل بعض الاقتصاديين الأمريكيين يقولون ساخرين إنه يبدو أن شيئا أصاب تلك اليد فشلها .وبدأت الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد حدتها منذ سنين ما جعل بعض الاقتصاديين يقولون إنه إن استمر التفاوت على تلك الوتيرة فسيؤدي حتما إلى كارثة اجتماعية.

إن الأمر المثالي للنظرية الناجحة أن تكون النتيجة أحسن فأحسن كلما كان واقع العمل بها أقرب إلى مثالها النظري .لكن الغريب في النظرية الرأسمالية أنه لو كان الواقع مطابقا لصورتها المثالية لكانت الكوارث أكثر ما تكون.

الصورة المثالية للنظرية: هي إلا يكون للدولة أدنى تدخل في النشاط الاقتصادي . لكن هذا معناه إلا تفرض الدولة على الناس ضرائب، ولا تضع قوانين تقيد بها النشاط الاقتصادي، كأن تمنع صنع بعض الأشياء الخطرة أو المتاجرة بها، وكأن تحدد الأماكن التي تبنى فيها المصانع، وتضع لها شروطا صحية وبيئية وغير ذلك .لكن كل هذه القيود ما زالت تحدث إلى حد ما في الدول الرأسمالية .الدولة إذن تدخلت لكن تدخلها لم يكن بالقدر الذي يرفع الظلم، بل كانت تميل دائما إلى إعطاء الحرية للأغنياء مهما أدى ذلك إلى التضييق على الفقراء .خذ نظام الضرائب في الولايات المتحدة مثلا .إن الضريبة لا تؤخذ من رأس المال كما هو الحال في الزكاة وإنما تؤخذ فقط من دخل الفرد في العام المالي .

وهذا معناه أنه إذا كان هنالك شخصان أحدهما يمتلك مليوني دولار والآخر لا يمتلك شيئا، لكن دخل كل منهما في السنة المالية كان ١٠٠ ألف دولار، فإن نسبة ما يؤخذ منهما متساوية، أي أن الضريبة لا تتعرض لرأس المال الذي كان موجودا قبل السنة المالية .

قال كيفن فلبس في كتابه عن "الديمقراطية والثروة" إنه لو أخذت ضريبة مقدارها ٣٪ في المائة على رؤوس الأموال في أمريكا وحدها لما بقي على وجه الأرض فقير !ولعل القارئ لاحظ أن هذه النسبة قريبة جدا من نسبة الزكاة التي تفرض فعلا على رؤوس الأموال.

لكن دعاة الرأسمالية في الغرب لا يزالون يدافعون عنها رغم كل ما يرون من آثارها الضارة.

أتدرون ما السبب في هذا؟ السبب أنهم ظنوا أن البديل الوحيد للنظام الرأسمالي الذي عهدوه هو النظام الاشتراكي الذي عرفوا صورا منه في الاتحاد السوفياتي وفي الصين قبل التعديلات التي أحدثها الصينيون فيه.

وهم بهذا يخلطون بين كون الرأسمالية اقتصاد سوق وبين كون كل اقتصاد سوق هو بالضرورة اقتصاد رأسمالي.

لكن الحقيقة هي أن هنالك بديلا ثالثا هو الاقتصاد الإسلامي الذي هو اقتصاد سوق لكنها سوق منضبطة بضوابط القيم الإسلامية وهي قيم يغلب عليها مراعاة مصالح الفقراء ما يجنب المجتمعات الآخذة بها ذلك التفاوت الفظيع الذي نتج عن النظرية الرأسمالية .في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

بيان لهذين الأمرين ففي إحلال البيع إقرار باقتصاد السوق، وفي تحريم الربا تقييد له بقيم إسلامية هي في مصلحة الفقراء .ثم تأتي الزكاة التي هي أيضا في مصلحة الفقراء، بل تأتي القاعدة العامة التي تأمر بإلا يكون المال دولة بين الأغنياء .وإذا كان الغربيون لم يعرفوا النظرية الرأسمالية إلا في صورتها التي قال بها سميث وغيره، فإننا نعلم من القرآن الكريم أنها نظرية قديمة كان من بين من قالوا بها قوم شعيب الذين رفضوا دعوة نبيهم لهم إلى العدل في معاملاتهم المالية بحجة أن المال مالهم فلهم الحق أن يفعلوا فيه ماشاؤوا.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ

يَـٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٤-٨٧].

شعار الفلسفة الرأسمالية يكاد يكون ترجمة لقول قوم شعيب هذا .فأهل مدين يريدون أن يفعلوا ما شاؤوا والفلسفة الرأسمالية تقول دعه يعمل laissez fair أي لا تتدخل في نشاطه الاقتصادي.

رفض الإسلام الفلسفة التي احتج بها أهل مدين على أساس أن المال ليس مملوكا ملكية مطلقة للبشر وإنما هو مملوك لله الذي يأمر البشر بأن يتصرفوا فيه وفق أوامره سبحانه.

من الآثار الحسنة التي نتجت عن هذه الكارثة أن كثيرا من المفكرين من اقتصاديين وغير اقتصاديين لم يعودوا يؤمنون بالنظرية الرأسمالية القحة، بل صاروا يدعون إلى تدخل من الدولة لإقرار العدل وصاروا يذمون الأنانية والطمع الذي كان من أسباب هذه الأزمة.

لقد بدأ الاهتمام بتعاليم الإسلام الاقتصادية في المجالات الأكاديمية في الغرب، بل إن الأمثلة العملية للمؤسسات الاقتصادية الإسلامية بدأت تبدي نجاحها بالنسبة لوصيفاتها الغربية كما يحدثنا البروفسور على خان أستاذ القانون في جامعةووشبيرن في ولاية كنساس الأمريكية في مقال له عن الكارثة الاقتصادية الحالية «لقد بات التمويل الإسلامي يثير قدراً هائلاً من الفضول الأكاديمي. وكثيرون من الخبراء الذين شاركوا في المنتدى الثامن لجامعة هارفارد حول التمويل الإسلامي الذي أقيم في نيسان (أبريل) من هذا العام كانوا يتساءلون حول إذا ما كان بمقدور التمويل الإسلامي أن يمنع حالة الذوبان التي تشهدها الأسواق الأمريكية بسبب ديون الرهن والأوراق المالية المدعومة بالرهن -التي تعرف الآن بالاستثمارات السامة».

المأمول أن يكون في هذا عبرة للمسلمين يعيد إليهم الثقة بتعاليم ربهم ويشجعهم على الاستمساك بها في نشاطهم الاقتصادي لكي يضربوا للناس مثلا عمليا بحسنها وجدواها..

* * *

العقلانية الرشيدة في التعامل مع الحضارة الغربية

ورقة مقدمة للحلقة العلمية بكلية الدعوة والاعلام
بجامعة الامام ١٤١٣/١١/٢٧هـ

العقل جزء لا يتجزأ من الدين فلا دين بلا عقل كما أنه لا عقل لمن ينكر حقائق الدين لكن العقل لا يقتضي الاعتراف بالحائق التي جاء بها الوحي فحسب بل يقتضي أيضاً التسليم بكل حقيقة قام عليها دليل علمي أعنى دليلاً عقلياً بحتا أو دليلاً حسياً تجريبياً والإنسان العاقل يفرق بين كراهيته لواقع لا يرضاه وبين إنكاره لوجود ذلك الواقع. إن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر لكنه يعلم أنه موجود فيهم فلا يدعونا إلى إنكار وجوده.

هذا المبدأ العقلاني مهم سيما في التعامل مع الأعداء والخصوم أنه من الغفلة المهلكة أن لا تقدر الأمة قوة أعدائها حق قدرها فتستهين بها استهانة خرافية استهانة من يضع الأماني موضع الحقائق.

لذلك أرى أن على الحركة الإسلامية (بالمعنى الواسع الذي يشمل كل جهد يبذله المسلمون لإعلاء كلمة الله).

❖ أن تقدر تأثير الحضارة الغربية الفكرى والمادي حق قدره وأن هذه الحضارة هي الآن أكبر تحد يواجه فكرنا الإسلامي وأكبر تحد يواجه وجودنا الاجتماعي والسياسي فلنقدرها قدرها لا لنخنع ونخضع لها ولكن لكي نعد العدة اللازمة المكافئة لصد عدوانها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

❖ وأن نستفيد من حقيقة مهمة تتعلق بهذه الحضارة وقومها وهي أنهم ليسوا كما واحدا متجانسا متعاونا في خصومته لنا بل هي أفكار شتى ومصالح شتى.. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، فنستفيد في تعاملنا معهم من هذا التشتت في الفكر وفي المصالح بل إن فيهم طلاب حق إذا عرفوه أقروا به ودافعوا عنه ولولا ذلك لما أسلم منهم أحد لكن الحقيقة التي نشكر الله تعالى عليها أنه لا يمر يوم قط إلا ويدخل في هذا الدين منهم أحد. حدثني أحد الأخوة الذين كانوا يتولون الدعوة إلى الإسلام بين الجنود الأمريكان أبان حرب الخليج أنه أسلم منهم ما يقارب السبعة الآف وقد قرأت

تقارير بالصحف الأمريكية تصف تجربة القوات الأمريكية بالعيش في بيئة إسلامية تمنع الخمر وتمنع الزنا فقالوا إنه لم يحدث قط ان اجتمع عدد من الجنود كالذي اجتمع بالسعودية خلت حياتهم من الشجار والقتال فيما بينهم وبين أنفسهم وفيما بينهم وبين مواطني البلد التي يحلون بها كألمانيا مثلا بل قالوا إن الحرمان من الخمر كان علاجاً لكثيراً من المدمنين منهم.

❖ ونحن، نأمل ونرجو أن نعمل، لأن يأتي وضع عالمي جديد لا يكون فيه الغرب يهودياً نصرانياً علمانياً في مواجهة عالم إسلامي، بل يكون الإسلام حقيقة غربية كما هو الآن حقيقة شرقية لها اعتبارها في وضع السياسات وتحديد المواقف وما ذلك على الله بعزيز.

❖ أن نستغل اهتمام الغرب بنا استغلالا حسنا لمصلحتنا سيما في هذه الأيام التي بدأ فيها هذا الاهتمام يزداد بعد سقوط الشيوعية. أن من منهج الغربيين في اتخاذ مواقفهم بناءها على معلومات عمن يراد اتخاذ الموقف حياله.

❖ لذلك يجب أن نبادر نحن بإعطائهم المعلومات التي نراها مناسبة ونرد على الشبهات التي يثيرونها عمن يسمونهم بالأصوليين. ولا نترك غيرنا من المستشرقين والمنصرين والعلمانيين يحدثونهم عنا حديثا يقصد به تنفيرهم من الدعوة التي نحملها.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

المقالات التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

١) الانفراط العظيم:

مجلة البيان ١٤٢ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ اكتوبر ١٩٩٩م

في هذه المقالة يستعرض الشيخ كتاب الانفراط العظيم لعالم الاجتماع الأمريكي فرانسيس فوكوياما الذي يتحدث عن ما أسماه الانفراط العظيم في مجال القيم الخلقية والتدهور في العلاقات الاجتماعية في البلدان الغربية الصناعية .

٢) الامم المتحدة ما حدود صلاحيتها ؟:

مجلة البيان ١٥٦ شعبان ١٤٢١هـ ١١ نوفمبر ٢٠٠٠م

يتحدث الشيخ عن قرارات الامم المتحدة في ما يتعلق بحقوق الإنسان وغيرها التي تفرض على الشعوب وهي في الواقع تطاول على السيادة القومية للدول والشعوب وأن هذا يتعارض مع اعتبار الحرية الدينية حقا من الحقوق الإنسانية التي تدافع عنها الامم المتحدة.

٣) الحضارة الغربية ضجة عن الحرية وممارسة للهيمنة الثقافية:

مجلة البيان ١٥٧ رمضان ١٤٢١هـ ديسمبر ٢٠٠٠م

في هذه المقولة يتحدث الشيخ عن التناقضات في الحضارة الغربية وذلك مثل تناقضها بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الافراد والشعوب وسلوكها كل سبيل لفرض قيمها الخلقية وتجربتها السياسية ونظمها الاقتصادية بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض ووصم كل من يخالفها بل كل ما يتعارض مع مصالحها بكونه انتهاكا لحقوق الإنسانية أو إضرارا بالمصالح العالمية أو ممارسة الارهاب وغيرها من التهم الجائرة والاقوال الافاكة.

٤) هيئة الأمم:

مجلة البيان ١٥٤ شوال ١٤٢١هـ سبتمبر ٢٠٠٠م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن أنه ينبغي أن يكون دورهيئة الأمم هو الرقي بالمجتمع الإنساني وفي المشكلات التي تواجه الأمم جميعا سواء كانت طبيعية أو سياسية أو اجتماعية ، ويرى الشيخ أن هذا رهين بإقرارها لثقافات الشعوب المكونة لها وقيمها وخصوصياتها ، وأن تكون وسيلتها للتغيير في المسائل التي تختلف فيها الثقافات والحضارات هي الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن، وإلا تتحول إلى أداة تستغلها بعض الدول أو الجماعات لفرض معتقداتها وقيمها ، وقمع المخالفين لها.

٥) فصل الدين عن الدولة:

مجلة البيان ١٥٩ ذو القعدة ١٤٢١هـ فبراير ٢٠٠١م

يناقش الشيخ في هذه المقولة دعوى أن قضية فصل الدين عن الدولة ، أو ما يسميه الغربيون فصل الدولة عن الكنيسة ، أصبحت من القضايا المسلَّم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية ، ويقرر الشيخ أن هذ الافتراض لا يكون صحيحاً إلا إذا كان الدين محصوراً بطبعه في بعض المعتقدات وبعض الشعائر التعبدية ، وبعض أنواع السلوك الشخصي الذي لا علاقة له بالجماعة ، ولا يدخل لذلك في مجال الدولة ، لكن الواقع أن هذا الوصف لا ينطبق على أي من الأديان الكبيرة المشهورة: اليهودية والنصرانية والإسلام؛ فما منها إلا وله حكم في العلاقات بين الجنسين وفي العلاقات الأسرية ، والاجتماعية ، وفيما يحل أكله وشربه ، وما يحرم، وهكذا . وكلها أمور تدخل بالضرورة في مجال الدولة.

٦) النسبية:

مجلة البيان ١٦٠ ذو الحجة ١٤٢١هـ مارس ٢٠٠١م

في هذه المقالة يورد نظرية النسبية التي فحواها أنه ليس هنالك معيار ثابت يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، بل إن هذه الأحكام أحكام نسبية ، ولكن نسبة إلى ماذا ؟ هنا يختلف القائلون بهذه النسبية؛ فالغلاة منهم ينسبونها إلى الأفراد ، أي إن ما يراه زيد حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة له وإن خالفه في ذلك عمرو وغيره من الناس . ويرى بعضهم أنها تنسب إلى ثقافة كل مجتمع . والثقافة culture عندهم هي منهاج حياة مجتمع من المجتمعات في فترة معينة من تاريخه ، وهي تشمل معتقداته ، وأنواع سلوكه ، ولغته ، وتشمل كذلك عاداته وتقاليده وفنونه ومخترعاته وتقنيته وتراثه؛ فما يراه أصحاب كل ثقافة حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة لثقافتهم هذه ؛ لأنه ليس هنالك معيار عالمي للحق والخير متفق عليه بين الناس ، ثم يذكر الشيخ الملاحظات على بطلانها.

٧) ثبت بطلان الجبرية (الجينية):

مجلة البيان ١٦٣ ربيع الأول ١٤٢٢هـ يونيو ٢٠٠١م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على ما يقوله الشواذ بأنهم لا يلامون على ذلك؛ لأنها شيء ولدوا به؛ فهو في جيناتهم الوراثية وهذه الدعوى كما يقول الشيخ لا تكون

صادقة لأسباب ينبغي أن يسلِّم بها كل مؤمن بوجود الخالق معترف بصفتين من صفات كماله هما : العدل ، والحكمة : فالخالق العادل الحكيم لا يمكن أن يغرس في فطرة الإنسان سلوكاً لا مفر له منه ، ثم يجعل ذلك السلوك محرماً عليه ، بل يعاقب عليه أشد العقوبات والخالق العادل الحكيم إذا غرس شيئاً في فطرة الإنسان هداه إلى أحسن السبل لإشباع رغبته منه . فهو لما جعل الحاجة إلى الطعام في خلق الإنسان أمره بأن يأكل ويشرب ولا يسرف، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث . ولما جعل في الناس ميلاً جنسياً هداهم إلى الزواج وحرم عليهم الزنا ، بل فصّل لهم أحسن الطرق للمعاشرة . فلما حرم فاحشة الشذوذ تحريماً مطلقاً ، علمنا أنه ليس لها في الفطرة أصل، ودعك أن يكون الإنسان عليها مجبراً.

٨) حوارعن العلمانية الديمقراطية بين مثقفين عربيين:

مجلة البيان ١٦٦ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ سبتمبر ٢٠٠١م

وفي هذه المقالة يفترض الشيخ حواراً عن العلمانية والديمقراطية بين مثقفين عربيين وينتهي الحوار بقول أحدهم للثاني: الحديث في هذا قد يطول ؛ فسأكتف لك بذكر أحسن ما أراه عندهم، أحسن ما عندهم هو هذا التطور الكبير في العلوم الطبيعية وما بني عليه من تقنية في شتى جوانب الحياة ومنها الجانب العسكري . وقد كنت أتمنى لو أننا ركّزنا على هذا الجانب العلمي التقني فيما نأخذه من الغرب، لكن العلمانيين في بلادنا شغلونا بمثل هذه القضايا التي كنا نتحدث عنها الآن ؛ لأنهم لسذاجتهم ظنوا أن السبب الأساس لتطور الغرب هو فصله للدين عن الدولة . وقد كان هذا التركيز على الجانب الثقافي في التجربة الغربية هو السبب الأساس لضعفنا وعدم تطورنا ؛ لأنه كان السبب الأساس في النزاع بيننا ؛ وأنت تعلم أن الأمم لا تستطيع أن تحقق إنجازاً كبيراً دينياً أو دنيوياً وهي منقسمة على نفسها متنازعة فيما بينها . فأسأل الله تعالى أن يجمعنا على الخير، وأن يوفقنا إلى الأخذ بأسباب النهضة والقوة والرفعة في كل جوانب حياتنا المادية والروحية.

٩) حماة الرذيلة :

مجلة البيان ١٦٧ رجب ١٤٢٢ اكتوبر ٢٠٠١م

وفي هذا المقال يذكر الشيخ بعض النماذج من الرذائل في المجتمعات الغربية.

١٠) العولمة وصراع الحضارات:

مجلة البيان ١٦٩ رمضان ١٤٢٢هـ نوفمبر / ديسمبر ٢٠٠١م

في هذه المقال يتحدث الشيخ عن مفهوم الحضارة والثقافة والعولمة، وأن الحضارة الإسلامية هي المؤهلة بأن تكون الحضارة العالمية.

١١) يافوكوياما نحن مع التحديث وأبعد الله التغريب:

مجلة البيان ١٧٣محرم ١٤٢٣هـ 3مارس / ابريل ٢٠٠٢م

وفي هذه المقالة رد على فوكوكوياما في دعوته إلى تبني القيم الغربية، وإذ يزعم أن دعوته هذه ليست ناتجة عما يسمى بالعمى الثقافي؛ وإنما لأن القيم الغربية هي القيم العصرانية الصالحة لأن تكون عالمية، وأننا إذا لم نأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا؟

١٢) هل نداوي بالتي كانت هي الداء:

مجلة البيان ١٨٤ ذو الحجة ١٤٢٣هـ فبراير ٢٠٠٢م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على فكرة سخيفة يدندن الغربيون حولها وهي أنه لن تتقدم أمة تقدمهم المادي إلا إذا سلكت طريقهم الراهن حذو القُذة بالقُذة .أي إلا إذا صار نظامها السياسي مثل نظامهم ، وموقفها من دينها مثل موقفهم من دينهم يحرفونه كما شاءوا ، ويخضعونه لأهواء عصرهم، ويفصلون بينه وبين دولتهم، وإلا إذا صارت حياتهم الجنسية مثل حياتهم اختلاطاً بغير ضابط بين الرجال والنساء، وإباحة لكل علاقة جنسية بين كل بالغين متراضين رجلين كانا أو امرأتين أو رجل وامرأة، بل إلا إذا كانوا مع ذلك موالين للغرب خاضعين له خادمين لمصالحه.

١٣) سياسة التناقضات المستعلنة:

مجلة البيان ١٨٦ صفر ١٤٢٤هـ ابريل ٢٠٠٢م

وفي المقالة يورد الشيخ تساؤل عن سياسة الغرب المتناقضة في اعتدائها على غزو الشعوب والدول كالعراق، ودعوة حكام هذه الدول الغربية وبعض مناصريهم من قادة فكرهم إلى الخروج على هذه القيم التي عاشوا عليها سنين طويلة من حياتهم وهو خوفهم من الإسلام .

١٤) يريدوننا غنما :

مجلة البيان ١٨٧ ربيع الاول ١٤٢٤هـ ٤ مايو ٢٠٠٣م

في هذه المقالة يتحدث الشيخ عن أئمة البغي والاحتلال لشعب العراق، ومن ورائه كل شعب عربي وغير عربي يريدون تسخيره لما يسمونه بمصلحتهم الوطنية، فيذكر

حفظه الله أن أئمة البغي والاحتلال يريدون لشعب العراق، ولكل شعب عربي أن يكون قطيعاً من الغنم يأكل، ويشرب، ويداوى؛ لكنه لا يحمل عصا ولا يصد عدواً . إنما الذي يحمل العصا هو سيده؛ فبها يهش عليه، ويسخِّره، وبها يحد له الحمى الذي لا يتجاوزه.

١٥) أديمقراطية أم أمريطانية ؟:

مجلة البيان ١٨٩ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ يوليو ٢٠٠٣م

يشير الشيخ حفظه الله أن الديمقراطية عند الأمريكان والبريطانيين في تعاملهم مع الشعوب الأخرى كالعراق مثلاً تختلف عن الديمقراطية المعهودة فالإدارةُ الأمريكية، وأحياناً المسؤولون البريطانيون، يُصرحون، وأحياناً يُعبِّرون بلسان الحال عن أنه بعد أن تخلَّص العراقيون من حكم صدَّام الدكتاتوري قد صاروا أحراراً يختارون لبلدهم ما يشاؤون بالطرق الديمقراطية، فلهم أن يختاروا الدستور الذي يرتضونه لبلادهم، لكنه يجب أن يكون دستوراً يفصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الدستور الأمريكي، بل يجب أن يكون العراقيون وسائر العرب والمسلمون أكثر تطوراً من الغرب في مجال العلمانية، فدستور الولايات المتحدة مثلاً قد اكتفى بفصل الدين عن الدولة؛ بمعنى أنه ليس للدولة أن تؤسس، أو تتبنى ديناً من الأديان، ولا أن ترعى المؤسسات الدينية، لكنه لا يمنع من أن تكون الدوافع السياسية دينية، كما هو الحال في الموقف من إسرائيل. أما العراقيون وسائر العرب والمسلمين فيجب أن يذهبوا أبعد من ذلك، يجب أن يمنعوا حتى الدوافع الدينية، ويعاقبوا كل مسؤول، أو حزب يُظهر مثل هذه الدوافع في أقواله، أو أعماله، ويجب أن لا يكتفوا كما اكتفت أمريكا بعدم تبني المؤسسات الدينية، وتركها حرة تتصرف كيف شاءت في حدود القانون، بل يجب أن تتأكد من أنها لا تعمل عملاً ينمي مثل تلك الدوافع الدينية التي تقود في النهاية إلى العمليات الإرهابية، ولا سيما ضد إسرائيل .

١٦) المفهوم الغربي للوهابية :

مجلة البيان ١٩١ رجب ١٤٢٤هـ سبتمبر ٢٠٠٣م

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة خطأ من يتصور أن المفهوم الغربي للوهابية هو محصور فيما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه وأحاديثه ودروسه، أو أن الوهابيين هم فقط أولئك الذين وافقوا الشيخ فيما دعا إليه. الوهابية عند هؤلاء هي

وصف لكل أخذ لدين الإسلام مأخذ الجد؛ حتى لو كان الآخذ إنساناً لم يقرأ للشيخ حرفاً واحداً ولم يتسمَّ باسمه ولا كان موافقاً له في بعض ما قال؛ بل إنها وصف لكل من يأخذ بجد بعض ما أجمع عليه المسلمون حتى لو كان ممارساً لبعض البدع، أو مؤمناً ببعض الخرافات .الوهابية عند هؤلاء مرادفة للأصولية التي هي الإيمان بأن القرآن كله كلام الله تعالى، وأن الالتزام به واجب على كل مسلم . الوهابي هو المسلم الذي يواظب على الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة ويحج إن استطاع إلى بيت الله الحرام .إنه المسلم الذي لا يشرب خمراً ولا يتناول ربا ، ولا يرى اختلاط الرجال بالنساء، ولا يؤمن بقيم الحضارة الغربية المخالفة للإسلام .المسلم الوهابي هو الذي يرى أن دينه هو الحق، وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام . الوهابي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعاليم دينه حتى لو كان يعيش في البلاد الغربية .

١٧) الديمقراطية اسم لا حقيقة له:

مجلة البيان ١٩٦ ذو الحجة ١٤٢٤هـ يناير فبراير ٢٠٠٤م

يشرح الشيخ في هذه المقالة كيف أن الديمقراطية اسم لا حقيقة له بسبب الدعاية الواسعة لها التي أعمت كثيراً من الناس ولا سيما في بلادنا عن عيوبها التي يعرفها منظّروها الغربيون بل إن المفتونين بها المروِّجين لها، صاروا يصوِّرونها كالبلسم الشافي لكل مشكلات المجتمع السياسية وغير السياسية، فأول ما يؤخذ على الديمقراطية كونها اسماً لا حقيقة له؛ أعني أنه إذا وُصف لك نظام سياسي بأنه دكتاتوري أو ديني مثلاً، تصوَّرت ما المقصود بهذا الوصف، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للديمقراطية؛ إذ إن الديمقراطية كما يدل عليها اسمها، وكما يعرِّفها كبار منظريها وساستها، هي حكم الشعب، لكن الصورة الواقعية لما يُسمى بالديمقراطية - مهما كانت حسناتها أو سيئاتها - ليست هي حكم الشعب، ثم يذكر الشيخ لماذا أن الديمقراطية ليست هي حكم الشعب.

١٨) سهام بوش ضد الإرهاب:

مجلة البيان ١٩٨ صفر ١٤٢٥هـ مارس / أبريل ٢٠٠٤م

في هذه المقالة يبين الشيخ كيف أن ما قام به الرئيس بوش ضد الإرهاب تبين أنها سهام تصيب في الوقت نفسه المقوم الثاني من مقومات الروح الأمريكية وهي القيم السياسية والقضائية باعتبار أن المقوم الأول هو القوة المادية.

١٩) ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي:

مجلة البيان ٢٠٠ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ مايو / يونيو ٢٠٠٤م

وفي هذه المقالة يبين الشيخ -حفظه الله- مخططات الدول الغربية لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة الخطر الديني الإسلامي، وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية .إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشاراً حتى في البلاد الغربية .بل أقول إنه أكثر انتشاراً لا بالنسبة للأديان فحسب، بل بالنسبة لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى، وليس في البلاد الغربية فحسب بل في سائر بلدان العالم .هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بد من إعداد الخطط للمكر به.

٢٠) أمريكا المريضة:

مجلة البيان ٢٠١ جمادى الاولى ١٤٢٥هـ يونيو/ يوليو ٢٠٠٤م

يبين الشيخ في هذه المقالة كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية أكبر قوة اقتصادية وأكبر ترسانة حربية وأوسع إمكانات إعلامية لكنها مع ذلك مصابة بداء عضال لا تجدي معه كل هذه القوى، إنه الداء الذي فضحه سجن أبي غريب داء التدهور الأخلاقي الجنسي المتسارع، ثم يفصل الشيخ ذلك.

٢١) قضية العلمانية والدين في البلاد الغربية:

مجلة البيان ذو الحجة ١٤٢٥هـ يناير فبراير ٢٠٠٥م

يبين الشيخ -حفظه الله- في هذه المقالة خطأ زعم ما يقوله بعض العلمانيين في بلادنا من أن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية، وأن القوم هناك قد اتفقوا جميعاً المؤمنون منهم بالأديان وغير المؤمنين على أن الدولة يجب أن تكون علمانية، وأن الدين لا دخل له بالشؤون العامة، بل يجب أن يكون محصوراً في الحياة الخاصة . لكنك إذا تتبعت ما يقوله الغربيون أنفسهم، ولا سيما في الولايات المتحدة تبين لك أن الأمر على غير ما صور لك أولئك العلمانيون في بلدك، وتبين لك أن هذه القضية ما زالت تثير عند أولئك القوم معارك حامية الوطيس، وما يزال كثير من الناس فيها يتجادلون، وعنها يكتبون ويخطبون، وبسببها يتحزبون، وعلى أساس منها يصوتون. بل إذا تُرجمت لك معاركهم الكلامية في هذه

المسألة، وأُخفي عنك المكان الذي دارت فيه فلربما تخيلت أنها تدور في بلد إسلامي ثم ذكر الشيخ أمثلة على ذلك.

٢٢) الإسلام فوبيا:

مجلة البيان ٢١٠ صفر ١٤٢٦هـ مارس /ابريل ٢٠٠٥م

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة عن ما يسمى بالاسلامفوبيا وأسبابه ففي الغرب يتحدث الناس عن مرض نفسي يسمونه الإسلامفوبيا يحسبونه جديداً وهو قديم قدم الرسالات السماوية .يتمثل المرض في كراهية أو خوف من الإسلام لا مسوغ له . يدفع هذا المرض المصابين به إلى اتخاذ مواقف عدائية من الدين الإسلامي وأهله تتمثل في مظاهر كثيرة يذكرون منها:

الكلام غير اللائق عن النبي صلى الله عليه وسلم والافتراء عليه، الاستشهاد بآيات من القرآن أو نصوص من السنة وبترها على سياقها، تصوير ما يهتم به بعض المسلمين من أعمال إرهابية بأنه ليس عملاً معزولاً يقوم به أفراد وإنما هو واجب ديني يأمرهم به الإسلام، الادعاء بأن الإسلام سبب تخلف المسلمين؛ لأنه مضاد للعلوم الطبيعية والتقنية ولكل ما هو من ضرورات الحياة المعاصرة، اتهام الإسلام بأنه هو السبب في انتشار الحكم الدكتاتوري ولاسيما في البلاد العربية، القول بأن الإسلام لا يحترم المرأة بل يدعو إلى معاملتها معاملة الرقيق. وغير ذلك ثم يذكر الشيخ أثر ذلك في التعامل مع المسلمين، وكذلك الأسباب التي أوجدت هذا التصور الخاطئ .

٢٣) القسطية لا الديمقراطية:

مجلة البيان ٢١١ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ مايو يونيو ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة يحاول الشيخ -حفظه الله- مناقشة صلة الدمقراطية بالإسلام بحسب المعاني المختلفة التي يقصدها أنصارها من المسلمين؛ لأن الإنسان إنما يُسأل عن المعنى الذي قصده من عبارته، حتى لو كان استعماله للعبارة خطأ، وقد مثل الشيخ حواراً في مسائل الديمقراطية هذه بين مسلميْن يدعو أحدهما إلى نظام سياسي إسلامي خالص يسميه القِسْطِيّة، وآخر من دعاة الدمقراطية.

٢٤) يريدون ليطفئوا نور الله:

مجلة البيان ٢١٤ جمادى الثاني ١٤٢٦هـ يوليو/ أغسطس ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة يذكر الشيخ -حفظه الله- بعض المقالات التي يكتبها الغرب ضد الإسلام مثل مقال تحت عنوان "القلوب والعقول والدولارات" وذكر فيه أنه قضى

أربعة أشهر يجمع فيه معلومات عن مشروع جديد سري للدارة الأمريكية اسمه "البلوغ إلى العالم الاسلامي" وهذا المشروع يعبر عن سياسة جديدة هي التصريح بأن هدف الولايات المتحدة الذي تراه محققا لمصلحتها الوطنية هو تغيير وجه الإسلام .

٢٥) خبط عشواء:

مجلة البيان ٢٢١ محرم ١٤٢٧هـ فبراير ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة يذكر الشيخ حفظه قصة منع تدريس نظرية التصميم الذكي في مدارس بنسلفانيا لأنها تعارض نظرية التطور لدارون وهذه النظرية تؤكد ان تصميم الخلق من خبير حكيم وليس خبط عشواء كما تدل عليه كثير من نظريات الخلق.

٢٦) سخافة التعليل بحرية التعبير:

مجلة البيان ٢٢٣ ربيع الاول ١٤٢٧هـ مارس ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة تقب الشيخ -حفظه الله- حجة الغربيين بالتعليل بحرية التعبير في نشر الرسومات المسيئة للنبي ﷺ واعتبر أن هذا التعليل أشبه ما يكون بالسخافة وأفاض في هذا في ثنايا المقال.

٢٧) عندما يكون دين خرافي أساساً لسياسة دولة كبرى:

مجلة البيان ٢٢٨ شعبان ١٤٢٧هـ سبتمبر ٢٠٠٦م

وفي هذا المقال بين الشيخ حفظه الله ما المقصود بالدين الخرافي ؟ فالمقصود بالدين الخرافي الدين غير العلمي؛ بمعنى أنه لا يقوم على حقائق واقعية ، ولا يلتزم بمكارم خلقية .وعليه فليس هنالك من دليل عقلي ولا علمي على دعاواه، بل في العقل والعلم ما يدل على بطلانها .وكلما كثرت مثل هذه الدعاوى في دينٍ ما أو في طائفة تنسب إليه، كان ذلك الدين أو كانت تلك الطائفة أقرب إلى الخرافة .وكلما كان اعتماد من يؤمنون بمثل هذا الدين عليه في تصرفاتهم ومعاملاتهم وسياساتهم، كان ضررهم على أنفسهم وعلى غيرهم أكبر ثم أشار حفظه الله في هذا المقال كيف أن الولايات المتحدة وقعت في ذلك بل هي أكبر مشكلة تعاني منها الولايات المتحدة ، ويعاني منها العالم بسببها ؛ ذلك أن ساكني بيتها الأبيض اليوم يؤمنون بخرافات دينية ويقيمون عليها سياساتهم الداخلية والخارجية. وقد خرج إلى السوق قبل أشهر كتاب اسمه "الثيوقراطية الأمريكية" ، بيَّن فيه مؤلفه مدى تأثُّر السياسة الأمريكية الراهنة بمعتقدات دينية خرافية ، ومدى خطورة هذه السياسة الدينية على الولايات المتحدة .

٢٨) انتشار النصرانية بالسيف:

مجلة البيان شوال ١٤٢٧هـ نوفمبر ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة رد الشيخ على كلام للبابا زعم فيه أن الإسلام انتشر بالسيف وبين -حفظه الله- الفرق بين الحروب التي خاضها المسلمون مع غيرهم ضد الظلم الذي يقع على المسلمين أو ظلم الصادين الناس عن الدين وظلم الناقضين لعهود أبرموها مع المسلمين ولم تكن لإكراه الناس في الدخول في الإسلام بينما الحروب التي خاضها المسيحيون على مر الزمان هي حروب ظلم وعدو وإكراه الناس على قبول دينهم وثقافتهم.

٢٩) هيام بالغرب يعمي ويصم:

مجلة البيان ٢٣١ ذو القعدة ١٤٢٧هـ ديسمبر ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة قام الشيخ بالرد على مقال فيه تمجيد للغرب وإطراء له وقد حشد جملة من الحُجج الواهية والأفكار المتناقضة ما لو قرأه مثقف غربي لسخر منه وأنهضه دليلاً على انحطاط الفكر العربي ثم أخذ الشيخ -حفظه الله- بتفنيد مقاله والرد عليه.

٣٠)عناصر الشرك الاستكبار والفحش في القيم الغربية :

مجلة البيان ٢٣٤ صفر ١٤٢٨هـ فبراير ٢٠٠٧م

يبين الشيخ -حفظه الله- في هذه المقالة أننا إذا نظرنا إلى الثقافة المعترف بها تاريخيا عند الغرب وجدنا فيها أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زين لهم. إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك. ثم ذكر الشيخ أمثلة على ذلك .

٣١) المعتقدات والمصالح:

مجلة البيان ٢٣٧ جمادى الاولى ١٤٢٨هـ مايو ٢٠٠٧م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ -حفظه الله- على الذين يظنون أن سياسة الغرب والسياسة الخارجية الأمريكية تقوم على المصالح وأنها لذلك لا تتغير، وأن أيديولوجيات الساسة الحكام لا تغير من هذه الحقيقة ..لكن الحقيقة أن هنالك صلة قوية بين الأمرين؛فالمعتقدات والتصورات هي العدسات التي ينظر الناس بها إلى الأمور فيقررون ما هو مصلحة للوطن وما ليس بمصلحة؛ فالشيء الواحد قد يبدو مصلحة بمنظار اعتقادي معين ويبدو مفسدة بمنظار آخر ثم يضرب الشيخ أمثلة على ذلك.

٣٢) البابا يرفض الحوار مع المسلمين:

مجلة البيان ٢٤٤ ذو الحجة ١٤٢٨هـ ديسمبر ٢٠٠٧م

في هذه المقالة يذكر الشيخ -حفظه الله- السبب الذي جعل البابا يرفض الحوار مع المسلمين حيث قال البابا " إن حواراً لاهوتياً حقيقياً مع المسلمين أمر صعب لأنهم ينظرون إلى القرآن أنه كلمة الله بالمعنى الحرفي، إن المسلمين لا يقبلون أن يناقش أحد القرآن بعمق؛ لأنهم يقولون إنه كتب بإملاء من الله يصعب بهذا التفسير المطلق مناقشة محتويات الإيمان " ثم يرد الشيخ على هذا الكلام الذي وصفه بالباطل.

٣٣)لماذا هذا الهلع الغربي من الإسلام:

مجلة البيان ٢٤٦ صفر ١٤٢٩هـ فبراير ٢٠٠٨م

يبين الشيخ سبب هلع الغرب من الإسلام مع أن عدد المنتسبين إلى الإسلام أقل بكثير من عدد غير المسلمين، بل هو كما يقولون أقل من عدد المنتسبين إلى النصرانية. وعدد الملتزمين من هؤلاء بدينهم توحيداً وصلاة وصياماً وحجاً وزكاةً أقل بكثير من المنتسبين إليه، والمهتمون من هؤلاء بأمر الدعوة إلى الإسلام. ولا سيما في البلاد الغربية . إنما هم طائفة قليلة . وقوة المسلمين الاقتصادية والعلمية والقتالية لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة لما عند الغربيين من قوة .وبين المنتسبين إلى الإسلام أعداد كبيرة صارت موالية للغرب فكراً وسياسةً وواقعاً عملياً، لكن الغرب على الرغم من ذلك يتحدث عن الإسلام وكأنه عدو على الأبواب، ويصفونه بأنه أكبر خطر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. ولذلك تراهم لا يزالون يقومون بالدراسات بعد الدراسات، ويعقدون المؤتمرات عقِب المؤتمرات، ويُصدرون الكتب تِلو الكتب والمجلات تلو المجلات، ويقدمون البرامج المسموعة والمشهودة للدعاية ضد الإسلام وبيان خطر المسلمين، ثم يبين الشيخ حفظه الله سبب هذا الخوف والهلع.

٣٤) ناصرون للإسلام من غير أهله:

مجلة البيان ٢٤٩ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ مايو ٢٠٠٨م

ذكر الشيخ في هذه المقالة أن من سنن الله أنه كثيرًا ما يؤيد دين الحق بأناس لا يؤمنون به، ومن ذلك كلام كبير أساقفة كانتربري - وهو لقب يلقّب به رئيس الكنيسة الإنجيلية في العالم - ورئيس الأساقفة هذا هو - بحكم منصبه - عضو في مجلس اللوردات البريطاني، ألقى هذا الأسقف "وليامز" محاضرة أكاديمية نشرتها

بنصها جريدة الجارديان البريطانية، ودعا في نهايتها إلى أن يتضمن القانون البريطاني بعضَ أحكام الشريعة الإسلامية كي يتحاكم إليها المسلمون في محاكم خاصة بهم، وذكر من بين هذه الأحكام أحكام :الزواج، والطلاق، والمواريث والمعاملات، والصلح، لكنه كان قد قدّم لهذه المقترحات بكلام طويل عن طبيعة القانون في الدولة العلمانية، وكان مما قاله في ذلك :إن هنالك تحدّياً متنامياً في المجتمع، هو وجود جماعات من المواطنين ليست بأقل من غيرها التزاماً بالقانون، لكنها تنتمي بحكم معتقداتها إلى شيء آخر غير القانون البريطاني، ثم سأل سؤالا مهماً فقال :ما الذي نفهمه ونتوقعه من القانون في الدولة العلمانية؟ وأجاب بأن هنالك خطراً ينشأ عندما يعتقد المتدين أن انتماءه لا يكون إلا إلى جماعته الدينية) (الأمة أو الكنيسة) وأن كل أنواع الانتماءات الأخرى السياسية والاجتماعية هي نوع من الخيانة لجماعته، لكنه ينشأ أيضاً عندما تحتكر الدولة العلمانية تعريفَ الهويات السياسية والاجتماعية، ولذلك أكّد أن القضية ليست قضية خاصة بالمسلمين، بل هي قضية تهم كل أصحاب الديانات في دولة علمانية.

٣٥) أمدع جنايات هو أم مرتكب جناية ؟:

مجلة البيان ٢٥٣ رمضان ١٤٢٩هـ سبتمبر ٢٠٠٨م

في هذه المقالة يشير الشيخ حفظه الله إلى موضوع الاتهامات التي وجَّهها مدَّعي ما يسمى بـ) محكمة الجنايات الدولية (ومطالبته بإيقاف رئيس البلاد وتسليمه إلى المحكمة لمحاكمته !، إن المدَّعي الذي طالب بتوقيف رئيس بلد إسلامي يدَّعي أنه إنما فعل ذلك لتأخذ العدالة مجراها، ولأن هذا الرئيس متَّهم بارتكاب جرائم فظيعة؛ منها :ما يسمى بالإبادة الجماعية، وما سُمِّي بالتطهير العِرْقي وبجرائم الحرب.ثم يتحدث الشيخ عن عدالة هذه الشكوى ونزاهة المحكمة في دعواها .

٣٦) هل تستعيد أمريكا مركزها:

مجلة البيان ذو الحجة ١٤٢٩ ديسمبر ٢٠٠٨م

وفي هـذه المقالة يستعرض الشيخ أقـوال الكتاب الأمـــريكيين الذين يرون أن عهد القيادة والسيطرة الأمريكية انتهى إلى غير رجعة بعد تولي أوباما الرئاسة في أمريكا.

٣٧) فتنة اجتماع الكفر والقوة المادية:

مجلة البيان ٢٥٧ محرم ١٤٣٠هـ يناير ٢٠٠٩م

في هذه المقالة يشير الشيخ -حفظه الله- إلى ما يحصل للناس من فتنة بسبب اجتماع الكفر مع النعمة والقوة المادية.

٣٨) العدوان أصل أصيل في الحروب الغربية:

مجلة البيان ٢٥٨ صفر ١٤٣٠هـ فبراير ٢٠٠٩م

في هذه المقالة يذكر الشيخ المبدأ الذي يرتكز عليه ويلجأ إليه القادة الغربيون الآن لتوسيع ما يشنون من حروب على غيرهم هو ما صار يعرف بـ (المصلحة القومية) والمقصود بالمصلحة القومية هو مصلحة دولة قومية كالولايات المتحدة الأمريكية أو مجموع الدول التي تسمى بالدول الغربية التي تنتمي إلى حضارة واحدة ثم يورد الشيخ حفظه الله الاعتراضات على هذا المبدأ .

٣٩) هل نشهد نهاية الليبرالية السياسية:

مجلة البيان ٢٦٠ ربيع الاخر ١٤٣٠هـ ابريل ٢٠٠٩م

وفي هذه المقالة يبين الشيخ تحول المجتمعات الغربية من النظام السياسي القائم على النظام الديمقراطي الذي يقبل التعددية ويتيح للمواطنين المختلفين في العقائد الدينية والقيم الخلقية والتصورات الفلسفية فرصاً سياسية متساوية إلى التحول إلى التركيز على المجتمع المتماسك الذي يقتضي التضييق على المخالفين لا سيما المسلمين.

٤٠) لسنا ضد الإسلام ولكن:

مجلة البيان ٢٦٦ شوال ١٤٣٠هـ اكتوبر ٢٠٠٩م

وهذا المقال عبارة عن تمثيل حوار بين سياسي غربي وبين داعية عربي يبين فيه السياسي العربي أن الغرب ليسوا مسلمين، ولكنهم ليسوا ضد الإسلام ولكن الداعية المسلم يبين له أن الإسلام الذي أنتم لستم ضده هو إسلام في حدود نظامكم العلماني، فإذا تجاوزه كنتم ضده ونسيتم ليبراليتكم.

٤١) القرار السويسري بمنع المآذن قرار ديمقراطي:

مجلة البيان ٢٧٠ صفر ١٤٣١هـ فبراير ٢٠١٠م

يشير الشيخ -حفظه الله- في هذا المقال إلى أن نتيجة الاستفتاء الذي أجري في سويسرا لمنع المآذن فوافق ٥٧٪ والقرار الذي يأتي عن طريق الاستفتاء العام، هو أقوى

القرارات ديمقراطية . وقرار منع المآذن في سويسرا جاء بهذه الطريقة؛ فهو إذن قرار ديمقراطي لا ريب في ديمقراطيته؛ فكونه ظالماً أو خاطئاً لا ينفي كونه ديمقراطياً، لكن كثيراً من الناس ولا سيما المعجبين بالديمقراطية في بلادنا يخلِطون بين هذين الأمرين؛ فيصفون كل قرار أو سياسة أو سلوك يرونه جائراً بأنه غير ديمقراطي . وطالما حاولتُ أن أطلب من هؤلاء المعجبين أن يتذكروا بأن غزو أفغانستان جاء نتيجة قرار ديمقراطي، وأن غزو العراق كذلك، بل إن قرارات الدول الأوربية باحتلال كثير من الدول ولا سيما الدول الإسلامية واستعمارها، كانت قرارات ديمقراطية .

٤٢) اضطراب الملحدين (١):

مجلة البيان ٣٧٩ ذو القعدة ١٤٣١هـ أكتوبر/ نوفمبر ٢٠١٠م

يبين الشيخ في هذا المقال والمقالات التي بعده اضطراب الملحدين في دعوى إقامة الحجة على الإلحاد وعدم وجود الله ففي هذا المقال يذكر الشيخ أن أكثر ما يلجأ إليه الملحدون في الاحتجاج لإلحادهم هو أن المؤمنين بوجود الخالق لم يعطوهم على وجوده حجة مقنعة .لكنهم حين يفعلون ذلك يفترضون أن الأمر الطبيعي هو عدم وجود الخالق، وأن الذي يدعي وجوده هو المطالب بإعطاء الدليل على وجوده . لماذا لا يكون العكس؟ لماذا لا يكون الأمر الطبيعي هو الأمر الذي يؤمن به جماهير الناس والذي يجدون له أصلاً في نفوسهم، وأن الذي يشذ عن هذا هو المطالب بالدليل؟ إن المؤمنين بوجود الخالق يعتقدون كما سنرى أنه لا تفسير لوجود الكون إلا بوجود الخالق . فهل يرى الملحد أن مسألة وجود الكون هذه مسألة لا تهمه، وأن المطالبين بتفسيرها هم المؤمنون وحدهم؟ الواقع أن هذه مسألة تهم كل إنسان عاقل، فإذا لم يرَ في وجود الخالق حلاً لها فعليه هو أن يفسرها بشيء آخر يقول للمؤمنين إنه البديل عن وجود الخالق . وقد حاول بعضهم شيئاً من هذا لكنها محاولة بائسة.

٤٣) اضطراب الملحدين (٢):

مجلة البيان ٢٨١محرم ١٤٣٢هـ ديسمبر ٢٠١٠م

وقد ناقشهم الشيخ في هذا المقال في اضطرابهم في نقدهم لأدلة وجود الخالق

٤٤) اضطراب الملحدين (٣):

مجلة البيان ٢٨٢ صفر ١٤٣٢هـ يناير ٢٠١١م

وفي هذه المقالة ناقش الشيخ دعوى الفيزيائي هوكنز بأنه ليس هناك من حاجة لوجود الخالق سبحانه، وأن الداروينية تغني عن وجود الخالق.

٤٥) اضطراب الملحدين (٤):

مجلة البيان ٢٨٣ ربيع الاول ١٤٣٢هـ فبراير ٢٠١١م

وفي هذه المقالة تناول الشيخ اضطرابهم في العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق.

٤٦) الانتفاضات التي حيرت الغرب:

مجلة البيان ٢٨٦ جمادى الأخرة ١٤٣٢هـ مايو ٢٠١١م

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ عن سياسة الغرب المتوقعة مع العالم العربي بعد هذه الانتفاضات التي عمت كثيراً من بلاده والتي أيد أهدافها آخرون لم تحدث انتفاضات مثلها في بلادهم .

٤٧)الدولة الدينية والدولة المدنية:

مجلة البيان ٢٨٧ رجب ١٤٣٢هـ يونيو ٢٠١١م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن طبيعة الدولة الدينية والتي تعتمد على نوع الدين التي هي منسوبة إليه، وعلى هذا تعتمد الإجابة عن كونها يمكن أن تكون إسلامية أو غير إسلامية ثم يذكر الشيخ معاني الدين بمعناه الواسع أو بالمفهوم العلماني أو المعنى الثيوقراطي للدولة الدينية ثم يصل للمعنى الإسلامي للدولة الدينية

٤٨) ألبراليون هؤلاء:

مجلة البيان ٢٨٨ شعبان ١٤٣٢هـ يوليو ٢٠١١م

يتحدث الشيخ في هذا المقال بأن الليبرالية صنفان: صنف أصلي مصنوع في الغرب، وصنف مغشوش يباع في العالم العربي باسم الصنف الأصلي . أصحاب الصنف الأول يبيعون بضاعة هي من صنع أيديهم فتستطيع لذلك أن تتحاور معهم وتدلُّهم على مواطن الخلل في بضاعتهم، وهي كثيرة .وقد يستمعون إليك، وقد يعترفون لك بما في بضاعتهم من عيوب ثم يحاولون تغييرها كما ظلوا يفعلون على مرِّ السنين .لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع مروجي البضاعة المغشوشة؛ لأن بائعيها ليسوا أصلاء؛ وإنما هم مقلدون مزيفون لا يستطيعون ترويج بضاعتهم إلا بتسميتها بالاسم الذي اختاره المصنعون الأصلاء ودافعوا عنه وأعطوا أنفسهم حرية إعادة النظر في بضاعتهم وتعديلها وتبديلها .فالشيخ يتحدث عن هذا الصنف المغشوش الذي يباع في العالم العربي باسم الصنف الاصلي .

٤٩) نظرات نقدية في أسس الأيدلوجية الليبرالية الغربية:

مجلة البيان ٢٨٩ رمضان ١٤٣٢هـ أغسطس ٢٠١١م

وفي هذا المقال ينتقد الشيخ أساساً من الأسس الايدلوجية لليبرالية الغربية، وهو فكرة العقد الاجتماعي.

٥٠) نظرات نقدية في أسس الأيدلوجية الليبرالية الغربية:

مجلة البيان ٢٩٠ شوال ١٤٣٢هـ سبتمبر ٢٠١١م

وهذا المقال هو تكملة للمقال الذي قبله في نقد الأسس الأيدلوجية لليبرالية الغربية وقد تعرض الشيخ هنا إلى نقد الحرية بأنواعها الثلاثة (حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وحرية العمل) ويخلص إلى أنه ليس هنالك شيء اسمه الحرية المطلقة - سواء في التعبير أو في غيره - وأن التعبير يجب أن تكون عليه قيود تبيح ما كان منه في صالح الناس وتمنع ما كان منه في ضررهم، وأن هذه القيود لا يلزم أن تكون كلها قيوداً يعاقب القانون على مخالفتها؛ وإنما هي في أكثرها قيود اجتماعية يقوم بها بعض الناس نيابة عن الآخرين، وكلما كثر عدد هؤلاء وكانوا على الحق والخير كان ذلك في مصلحة المجتمع. ونخلص مما ذكرنا إلى الحقيقة الكبرى التي تقول :إنه لا بد للناس من هدى إلهي يهديهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

* * * * *

ثانياً: المحاضرات

أزمة الحرية والتخلف السياسي في العالم الإسلامي

محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، ثم أما بعد: من الواضح أنه لا يوجد في عالمنا العربي قطر واحد يحكم بما يسمى بالديمقراطية، مع أن بلادنا هذه أخذت عن الغرب، الغرب الرأسمالي تأثرت به قبل أن تتأثر بالشرق الشيوعي، فأخذت عنه العلمانية في معظم البلاد، وجعلت هذه العلمانية نظاماً للحكم. ولكن السؤال: لماذا أخذت العلمانية - بمعنى فصل الدين عن الدولة - ولم تأخذ العلمانية بمعنى الديمقراطية؟

وذلك لما يأتي:

١- الذي عرفته من القرآن الكريم - وأنا أرجو من إخواني العلماء أن يعينوني على هذا ويصلحوا أخطائي، وأنا إن شاء الله مستعد لهذا؛ لأن هذه مسائل جدت علينا ونحاول أن نجتهد فيها وأن نتوخى كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ الذي تأكدت منه من كتاب ربنا ومن سنة نبينا ﷺ الذي تأكدت من كتاب الله سبحانه وتعالى أن الله لم يعط فرداً القوة على أن يحمل الناس على الخير، وكذلك لم يعط فردا القوة على أن يجبرهم على الباطل. لم يعط هذه القوة ولا للأنبياء ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. والشيطان لما قضي الأمر قال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وهو صادق في

ذلك. وأكبر دكتاتور حدثنا عنه القرآن هو فرعون، فما قال لنا القرآن الكريم إن فرعون تسلط على أمة مسكينة طيبة، وأن المشكلة كانت فيه، ولكن علمنا أن سبب طغيانه أن هؤلاء الناس أطاعوه، وأنه ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فهم مشتركون في جريمة فرعون، لكن هذا لا يعني – قد يشكل على بعض الإخوان فيقولون هل معنى هذا أن الشعوب هذه تحب الطغاة الذين يحكمونهم وتوافق على سجنها لهم وضربها لهم وإذلالها لهم؟ لا ولكن الحكام يكونون من نوع المحكومين، فيكون في الناس ظلم ويكون فيهم جهل ويكون فيهم بعد عن طريق الله، فيسلط الله سبحانه وتعالى هذا النوع من الحكم على الناس عقاباً لهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. كثير من الناس – حتى من عامة الناس يتمنى لو كان في مكان صدام، فهو لم يوصله الله إلى مكان صدام ولكن يتمنى، بل رأيت بعض الإسلاميين يقول لي والله هذه الشعوب لا تمشي إلا بالقوة ! فقلت له: إذن صدام محق!! كثير من الناس تصوراتهم واعتقاداتهم مثل تصورات حكامهم.

٢ – أن هذا التفسير لا يتناسب مع الإسلام أن الله سبحانه وتعالى رحيم، فلا يمكن أن يسلط على أمة طيبة مؤمنة تريد الإسلام لا يمكن أن يسلط عليها حاكماً بعد حاكم لمدة من الزمان وفي كل بلادها.. حاكماً متمرداً على دين الله، داعياً إلى الجاهلية لا يمكن أن يكون هذا، فهو عدم ثقة بالله، فهو سبحانه أرحم وأحكم من أن يفعل هذا بأمة من الأمم.وإذا كان الله عز وجل يقول: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) فكذلك لا يمكن أن يجعل الله للفجار والفساق على المتقين سبيلا، وإذا حدث ذلك، فإن ثمة خللاً في الأمة. هذه مسألة ينبغي أن نكون شجعاناً في مواجهة الأمة بها، وينبغي إذا تصورناها تصوراً صحيحاً أن نعمل على الإصلاح في أمتنا، ولا أقول لا نعمل على عدم الإصلاح السياسي ولكن لا نتأثر بهذه الفكرة وهي بالمناسبة فكرة غريبة، فكرة غربية عند الشيوعيين وعند البلاد الرأسمالية، فتجد كثيراً هنا في أمريكا من السياسيين في أمريكا – سمعتهم بنفسي – يقولون: الأمة

الأمريكية تريد كذا.. يقول كل واحد رأيه، ولكنه ينسبه إلى الأمة كأنما هناك شيء مثل الإله اسمه الأمة الأمريكية، ويجب أن لا تخالف ما تقوله هذه الأمة، فالافتراض دائما أن الأمة دائماً على صواب، وأن الأفراد الذين يحكمون هم المخطئون افتراض خاطئ.

إذا لم يكن هذا هو التفسير الصحيح، فما هو التفسير إذن؟

سأجتهد في ذلك، وهي وجهة نظر أحب أن اسمع رأيكم فيها.

لماذا لم يختاروا الديمقراطية؟ في رأئي أن للديمقراطية – بهذا الشكل الغربي – شروطاً فإذا لم تتحقق هذه الشروط، فلن تتحقق الديمقراطية، وهي:

١– أن تكون الأمة ممثلة في أحزابها متفقة على إطار عام، سواء كان إطاراً فكرياً أو اقتصادياً أو خلقياً، ومهما اختلفت هذه الأحزاب فإنها لا تخرج عن هذا الإطار، ولا يؤثر تغيير هذا الحزب أو ذاك في الإطار العام بحيث أنه إذا جاء هذا الحزب أو ذاك الحزب لا يؤثر مجيء هذا أو زوال ذاك في الإطار العام فهنا يمكن أن يكون هنالك تسامح مثل العمال والمحافظين في بريطانيا والجمهورين والديمقراطيين في امريكا، فالحزبان وجهان لعملة واحدة، ولذا فالانتخابات في أساسها ليست على المبادئ والمواقف وإنما على الشخصيات. إذا لم يتحقق هذا في شعب من الشعوب سواء أكان اسلاميا أو غير إسلامي لا يمكن أن تكون ديمقراطية إذا كان هنالك أمة تحكم بالديمقراطية الغربية ونشأ فيها حزب شيوعي وقوي هذا الحزب الشيوعي بحيث أنه إذا ترك له المجال سيفوز في الانتخابات هل يرضى الباقون ؟ مايرضون وسيكونون مستعدين للتضحية بالديمقراطية لئلا يأتي الشيوعيون وهم محقون في هذا قيل للفيلسوف البريطاني برتراند رسل إلى أي حد تتسام مع الشيوعيين قال: ما لم يصلوا إلى الحكم. فقيل له: لماذا؟ فقال: لأن الديمقراطية حينئذ تكون مغفلة، فهي قد هزمت نفسها بالانتخابات وبالتصويت تهزم الديمقراطية المبنية على التصويت.وأقول لإخواننا المعجبين بالديمقراطية الأمريكية – وفيها ما يعجب بلا شك – إذا قوي الإسلام في هذه البلاد وصار عدد المسلمين بحيث أنه يحتمل أن يكون رئيس أمريكا منهم، فصدقوني أنهم سيضحون بالديمقراطية لئلا يأتي حاكم مسلم.

اضرب لكم مثلاً من بلادي السودان: السودان من أكثر البلاد التي ظلت تحاول ترجع إلى الديمقراطية بعد كل فينة وأخرى، آخر تجربة كانت تجربة الصادق المهدي فهو جاء إلى الحكم والذين ساعدوه في ذلك طلبوا منه أن يلقي القوانين الإسلامية، لكن الرجل جاء بالانتخابات وهو رجل ملتحٍ وجماهيره جماهير متدينة، فلا يمكن أن يذهب ويقول لهم في الانتخابات أنا لا أريد الشرعية الإسلامية، وكذلك سموه قوانين سبتمر وهو الشهر الذي وضعت فيه. فهو ما استطاع أن يفعل هذا لا في أيام الانتخابات ولا بعد الانتخابات، ثم إن الجبهة الإسلامية حظيت بمقاعد لم يحظ بها حزب إسلامي في العالم العربي حوالي خمسين مقعداً، وكان الحزب الحاكم له مائة وقليل والحزب الذي يليه ستون، وبعد مدة من الزمان تكونت حكومة رئيسها الصادق المهدي وفيها الحزب الثاني وفيها الحزب الثالث الذي هو الجبهة الإسلامية يعني لم يبق في البرلمان إلا أعداد قليلة ليس لها صوت في داخل الحكومة. ماذا حدث؟ قائد الجيش أرسل مذكرة إلى رئيس الوزراء ينذره فيها أنه إن لم يوسع دائرة حكومته فإن لهم معه شأن، وحينذاك كنت غائباً عن السودان فقلت: الآن انتهت الديمقراطية في السودان لأنه لا ديمقراطية إذا كان قائد الجيش يهدد رئيس الوزراء وفعلاً انصاع رئيس الوزراء وخفية قيل له: إن المراد بالتوسيع هو أن تخرج الجبهة. وفعلاً خرجت الجبهة وأتي ببعض اليساريين وغيرهم إلى الحكم هذه الواقعة اقتنعت كل إنسان يريد الإسلام في السودان بأن طريق الديمقراطية مغلق أمامه وأقول لكم: إن كثيراً من السودانيين الإسلاميين كانوا فعلاً يريدون أن يصلوا إلى الحكم بالطريقة الديمقراطية -وأنا ما كنت منهم - لكن على كل حال إحقاقاً للحق أن كثيراً منهم كانوا يريدون هذا، وما اقتنعوا إلا بعد هذه الحادثة التي كان فيها في الحقيقة نوع من الإذلال للجبهة الإسلامية، ونوع من الظلم الواضح عليها.

هذا القائد تبين فيما بعد بأنه كان يعد لانقلاب علماني بالمعنى التقليدي، وكان هناك جماعة شيوعية تعد لانقلاب وكان هناك بعثيون يعدون لانقلاب حتى إنهم حاولوا ذلك حتى بعد مجيء الحكومة الحاضرة، ولكن لحسن الحظ كان هناك

إسلاميون فرأوا أن إخوانهم هؤلاء المدنيين حيل بينهم وبين الوصول إلى الحكم ويعرفون في الجيش أن هذه جماعة شيوعية تريد الوصول إلى الحكم وهذه جماعة بعثية تريد الوصول إلى الحكم، فبادروا هم أولاً.

فالانقلاب لا كما يقول الغربيون: أنه كان انقلاباً على الديقمراطية وإنما هو كان انقلاباً على انقلابات أخرى سوف تحدث، بل يقال إن انقلاب قائد الجيش كان سيكون في يوم السبت، وهؤلاء جعلوا انقلابهم في يوم الخميس وقد استفادوا من بعض التحضيرات التي أعدها القائد لأنه كان يثق ببعضهم وأخبره بالانقلاب، إذاً من الأسباب التي ساعدت على هذا وأنا أقول هذا درس لإخواننا. أنا لا أقول لكم لا تحاولوا الديمقراطية ولا كذا، ولكن يقولوا بأن التغيير إلى الإسلام أو غير الإسلام لا يمكن أن يكون تغييراً إلا أن تحدثه القوات المسلحة، أو أن تحرسه القوات المسلحة، فإذا كانت القوات المسلحة ليست معك فأنت في خوف دائم، ويمكن أن ينقضوا عليك مهما كانت الأغلبية التي جئت بها.

ومن الأشياء التي ساعدت السودان، أن النميري جزاه الله كل خير من أهم الأشياء التي عملها أنه أصلح المؤسسة العسكرية، فالمؤسسة العسكرية في كثير من بلادنا هي أكثر المؤسسات علمانية، وفيها من الفجور والبعد في السلوك الشخصي عن الخلق الإسلامي ما فيها، فالنميري هذا هو الذي أصلح المؤسسة العسكرية وبنى فيها المساجد وصار يختار بعض الضباط ويرسلهم إلى بعض المعاهد الإسلامية لكي يمكثوا سنة كاملة، وهؤلاء الذي جاؤوا إلى الحكم بعضهم من هؤلاء الذي رباهم النميري، فهذا هو إذاً السبب الاول.

فالسبب الأول: هو إنه إذا لم يكن هنالك إطار الأمة متفقة عليه والأحزاب كلها تعمل فيه فلا يمكن أن تكون ديمقراطية، وإذا كانت فلا يمكن أن تدوم؛ لأنه سوف تنقلب عليها بعض القوى الأخرى وهذا السبب الأساسي في رأيي.

السبب الثاني: المقدرة على الاستقلال لاسيما الاستقلال الاقتصادي، فالدولة إذا كانت فقيرة فالانتخابات فيها تكون مهزلة فلا يكون الذين يأتون إلى الحكم هم الذين اختارتهم الأمة ولكن هم الذي اختارتهم هذه الدولة المجاورة أو تلك الدولة

المجاورة أو تلك البلد الرأسمالية البعيدة أو تلك البلدة الشيوعية الغريبة لأن الانتخابات كما تعلمون تحتاج إلى تمويل، فالذي يمول هو الذي يأتي إلى الحكم هذا إذا كانت البلد ضعيفة. حتى قال لي بعض الإخوان المصريين مرة وهو يمزح وقد ذهب إلى السودان أيام الانتخابات قال لي: والله لو أردتم أن تصلحوا أحوال السودان الاقتصادية فاعملوا الانتخابات كل سنتين؛ لأني رأيت من الأموال التي جاءت إلى السودان الشيء العظيم وأيضا إذا كانت البلد غنية اقتصادياً لكنها ضعيفة من نواحٍ أخرى أمنية وعسكرية أيضا تؤثر فيه الدول الكبيرة، ولهذا يقولون إن أمريكا تؤثر في بعض الانتخابات حتى في الدول الغربية.

السبب الثالث: هو تأثير الحركة الشيوعية، فالحركة الشيوعية في أيام الحرب الباردة كما تعلمون كانت كل من الدول العظمى تحاول أن تجمع إلى حزبها أو كتلتها أكبر عدد من الدول، وهذه الدول استطاعت عن طريق أحزابها الشيوعية وعن طريق إغراءاتها أن تعين بعض الناس لأن يأتوا إلى الحكم فهي عملت على الحيلولة دون الديمقراطية من ناحيتين:

١) من الناحية الفكرية فقد أعطت الذي يريدون الدكتاتورية مادة فكرية في نقد الغرب والماركسيون اجتهدوا جداً في نقد الغرب الرأسمالي وكثير من نقدهم صحيح فإذا قرأه الإنسان وقيل له ما الديقمراطية؟ لا يمكن أن يأتي إلى الحكم إلا إنسان غني وهذا صحيح ما الديمقراطية؟ هؤلاء الذين يأتون إلى الحكم تمولهم الفئات رجال الأعمال، فلذلك يعملون لمصلحتهم. ما لديمقراطية؟ الديمقراطية ينبغي أن تكون هي الديمقراطية الاقتصادية، فإذا لم تكن ديمقراطية اقتصادية فلا معنى للديمقراطية السياسية، والديمقراطية الاقتصادية هي أن يكون كل هؤلاء الناس يشتركون في هذه الثروة وهكذا أعطوا الحكومات هذه الأنظمة الدكتاتورية مادة فكرية وأعطوهم إلى ذلك مثلاً يحتذى وهذه مشكلتهم الآن، أن المثل قد ذهب فيقول الواحد منهم في نفسه، نعم يمكن أن نكون دولة حديثة، ودولة معاصرة وقوية من غير أن تكون ديمقراطية، فهذه روسيا ليست ديمقراطية وهي دولة ترهب أمريكا وهذه الصين وهذا كذا فهنالك إذًا مثل يحتذى به.

السبب الرابع: وهو سبب أساسي وهو عدم إيمان الناس بالديمقراطية في بلادنا فالديمقراطية بشكلها الغربي لا يؤمن بها الناس لأنه ليس لها جذور في البلاد، لا في التاريخ ولا في فكر المفكرين من العرب، ولا من المسلمين وليس لها جذور في دينهم، فهي ليس مرتبطة ارتباطاً قوياً بمشاعر الناس ثم هي مرتبطة في الغرب بالرأسمالية والناس لا يريدون الرأسمالية وهي كذلك مرتبطة بالإباحية والناس لا يريدون هذا وهي ترتبط بالعلمانية حتى أن كثير من الغربيين أنفسهم لا يتصورون الديمقراطية إلا ومعها العلمانية فهذه الاسباب جعلت الديمقراطية إذا ذهبت لا يبكى عليها وكثير من الناس يتحدثون عن الجوانب السلبية في الأحزاب وتنازعها وتفريقها لأهل البيت الواحد وكذا. لكن إذا لم تكن ديمقراطية بالمفهوم الغربي فهل البديل هو النظام القهري؟ لا يمكن أن نقول أن هذا النظام هو النظام ذو الجذور في العالم الإسلامي، وفي فكر الناس أو في دينهم أو في تجربتهم ونحوه لا يمكن أن نقول هذا لأن النظام القهري إذا لم يكون إسلامياً فهو مرفوض لأنه إذا لم يكن إسلامياً فلا نقبله سواء كان قهرياً أو ليس قهرياً. وهل يمكن أن يكون إسلامياً وقهرياً. حتى إذا افترضنا هذا فنقول إنه بقدر قهريته يفقد شيئاً من إسلاميته، فمشكلتنا إذاً ما النظام الذي نريد؟ ما القيم السياسية التي ندعو إليها ؟

كثيراً ما نقول إن الحل هو الإسلام. ماذا يعني الحل هو الإسلام! مشكلة أمامي ميكرفون خربان الحل الإسلام طيب كيف أحله بالإسلام؟ تقول الحل هو أفعل كذا كذا، فمشكلة العراق والكويت نقول الحل هو الإسلام كيف؟ ماذا أفعل حتى أحل المشكلة، انتظر حتى تأتوا أنتم إلى الحكم وتحكمون ثم تحل المشكلة؟ ما معنى الحل الإسلامي؟ لا بد أن نوضح فإذا قلت لي إذا كنت مؤمناً أعبد بالطريقة الإسلامية، فأقول لك نعم ولكن ما هي الطريقة الإسلامية فلا تقل لي أعبد بالطريقة الإسلامية ثم تسكت، ولكن تقول لي: صل الصلوات الخمس والصلوات الخمس تؤدي في الأوقات الفلانية وركعاتها كذا وكذا وصفتها كذا وكذا وتصوم والصيام هو كذا وكذا فنحن نريد شيئاً من هذا بالنسبة للنظام السياسي، فلا يكفي أن نقول نريد نظاماً إسلامياً فقط، ولا يكفي أن ننتقد الديمقراطية ولا يكفي حتى أن

نقول نريد الشورى لأنه ما الشورى؟ وكيف نريد أن نطبقها. أنا لا أريد أن أسأل أسئلة تعجيزية، كلا وإنما أريد أن نستفيد من هذا فائدة إيجابية نريد أن نجتهد بدلاً أن يكون كلامنا كله منصباً على النقد، ونصور للناس ولأنفسنا أن الحل يسير وهو أن يذهب هذا الحاكم أو ذاك الآخر، وكل الأمور بعد ذلك ستصبح حليباً وعسلاً، لا ينبغي أن نواجه المشكلات كما هي وأقول لكم بأني اشتركت قريباً في ندوة في السودان وهؤلاء الشباب العساكر في السودان الآن يريدون الحكم بالإسلام، فأول ما واجههم هو النظام السياسي. فالنظام السياسي الإسلامي في ظروفنا هذه وكيف يكون؟ وظلوا يتناقشون ويتناقشون وكتبت مذكرات وما زال الناس يتناقشون فينبغي إذاً أن نبذل جهداً في هذا فإذا قلت لي أحكم بالإسلام فسأقول لك ما الحكم بالإسلام؟ تقول لي طبق الحدود فأقول لك هذه واضحة إن شاء الله نجتهد ونطبقها، وبالمناسبة أيضا من الأشياء التي ما أريد أن تكون سمة للحركة الإسلامية وأراها مهمة، أن لا تتصرفوا أيها الإخوة في أي بلد من البلاد وكأنكم حزب معارضة في بلد ديمقراطي لأن حزب المعارضة دائماً ينتقد الحكومة مهما عملت إلا وهو مضطر لماذا؟ لأنه يريد أن يقول أنا الحل، إذا جئت أنا ستحل المشاكل فنحن لا نريد أن نقول هذا، بل نحن نريد أن نقدم للناس حلولاً حتى لو قبلوا منها الآن شيئاً قبل أن نأتي نحن إلى الحكم فهذه خطوة إلى الأمام، ولأننا مأمورون بالإصلاح حتى ولو كنا في بلد كافر، فلو جاءكم الآن بعض الأمريكان وقالوا لكم تعالوا ساعدونا في محاربة المخدرات أو الإيدز ونحوها فساعدوهم إن استطعتم إلى ذلك سبيلا، لأننا مأمورون بالإصلاح وكل خطوة نحو الإصلاح هي خطوة نحو الإسلام نعود إلى ما سبق، فكان إخواننا في السودان يشددون على مسألة الحدود فقلت لهم في إحدى زياراتي: يا أخوان نحن طول حياتنا نقول للناس الحدود ليست هي الإسلام كله، والإسلام فيه كذا وكذا ونحوه فلماذا الآن جعلتم الإسلام في أذهان الناس كأنه الحدود فقط وهذه الحكومة لا تستطيع أن تنفذ الحدود، فقالوا نحن نعرف ولهذا نقول لهم: نفذوا الحدود. قلت لهم: قولوا لهم إذا بأن يدعوا الناس إلى الصلاة وهذه سهلة ومهمة، فالحكومة إذا اهتمت بالصلاة وقالت للناس: أخرجوا في أوقات الصلاة ونحو ذلك كما يفعل في السعودية فإن

هذا فيه خير كثير، والحكومة تستطيع أن تفعل هذا بل ستفرح بأنها نفذت شيئاً من الإسلام، فقالوا: لا، المحك هو الحدود، ونحن نعرف أنها أصعب شيء، ولكن الذي لا يقبل تطبيق أصعب شيء هذا لا يريد الإسلام، وجاءت هذه الحكومة وهي حكومة يؤيدها الإسلاميون، والآن لها أكثر من عام لم تطبق الحدود، لا لأنها لا تريد ذلك ولكن لأنها لا تستطيع، والأحزاب الآن يضحكون ويقولون هاه أين الحدود، وأنا أرجو الله تعالى أن لا يحدث لهذه الحكومة الآن شيء، لأنه إذا حدث لها شيء وعادت العلمانية فإنه لن تطبق الحدود أبداً، وسيكون الحجة دائماً إلى مائة سنة بعد ذلك هاه جاءت الجماعة الإسلامية، وما استطاعوا أن يطبقوها هل تريدوننا نحن أن نطبق الحدود. فالحدود واضحة الزكاة واضحة ومنع الربا واضح وأن كان فيه بعض المشكلات، لكن المشكلة ستأتي في النظام السياسي فما عندنا فيه إلا عمومات، وما عندنا فيه تفاصيل وما عندنا فيه تصور لمؤسسات ونحن لنا بعض العذر في هذا، فنحن عندنا مبادئ وهذه المبادئ طبقت في عصور سابقة فأخذت أشكالا معينة ولا يمكن أن نكتفي بهذه الأشكال في هذا الواقع الذي نراه الآن، فنحن محتاجون أولاً: إلى أن نبين ما معنى الشورى؟ وما الفرق بينها وبين الديمقراطية من حيث المفهوم؛ لأن المؤسسات إنما تأتي لتخدم الأهداف والمفاهيم هذه، فإذا لم تكن الصورة واضحة في أذهاننا وكانت الشورى تساوي الديمقراطية فما نكون قد اقترينا من الإسلام.

* * *

الحضارة المعاصرة في الميزان

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. وبعد:

المقصود بالحضارة هنا الحضارة الغربية، وإطلاق كلمة المعاصرة عليها توضح لكم عظم المشكلة؛ لأنه إذا قلنا الحضارة المعاصرة فمعنى ذلك أننا نعني الحضارة الغربية، فنريد أن ننظر إلى هذه الحضارة نظرة ناقدة، ولذلك قلنا إنها في الميزان لكن عندما تريد أن تزن شيئاً فينبغي أن يكون البائع والمشتري متفقين على الميزان وإلا إذا كان البائع يزن بميزان لا يوافق عليه المشتري فلا يصلح الوزن، لذلك سنجعل الميزان شيئاً متفقاً بيننا وبين الغربيين والشيء المتفق بيننا وبين كل إنسان ما دام محتفظاً بإنسانيته وبعقله هي الموازين العقلية مثلا، فالموازين العقلية يتفق عليها كل الناس، وكذلك الأشياء الواقعية الحسية يتفق عليها الناس، وكون الشيء فيه مصلحة أو ضرر للإنسان خصوصا إذا كانت الأضرار أيضا حسية ومعروفة، بمثل هذه الموازين نريد أن نزن الحضارة الغربية لكن قبل أن نزنها نريد أن نبين أو ما هو هذا الشيء الذي نريد أن نزنه وربما نزن محتوياته واحداً تلو الآخر، أو بعد أن نبينها جميعاً نزنها مرة واحدة فما هي مكونات الحضارة الغربية، إذا حللنا الحضارة الغربية إلى مكوناتها فما هي هذه المكونات، حاولت أن أضع بعض المكونات، وربما أكون قد نسيت بعضها في وقت الأسئلة والتعليقات يمكن أن تضيفوا إلى ما ذكرت أو تنتقدوا بعض ما ذكرت.

أولاً: العلوم الطبيعية هذا أكثر ما تفخر به الحضارة الغربية العلوم الطبيعية، وهذه العلوم الطبيعية تتكون من ثلاثة أشياء؛ تتكون من حقائق عينية الشيء الفلاني اكتشف، وهذه الحقائق العينية الجزئية قد تكون حقائق طبيعية، وهي موضوع حديثنا، وقد تكون حقائق اجتماعية، يكتشف الأمريكان أو الفرنسيون أو الألمان شيئاً عن الحياة الاجتماعية للإنسانية أو قد تكون حقيقة رياضية هذه أيضا حقيقة ليست حسية ولكنها مسألة يدل عليها العقل فهذه إذا وزناها بميزان العقل يقول لنا

اقبلوها ماذا تريد؟ كيف تنكر حقيقة ثبتت لك أنها حقيقة واقعية طبيعية أو حقيقة اجتماعية أو حقيقة رياضية هذه لا يرفضها عاقل، ثم هنالك بعد الحقائق الجزئية قوانين اجتماعية تفسر هذه الحقائق هذه القوانين أيضا معيارنا في تقويمها هو معيارهم هم، وهو أنها تعتبر صالحة كلما نجحت فيما طلب منها لأن كل قانون يطلب منه أن يفسر مجموعة من الجزئيات هذه التي اكتشفناها نحن نكتشف جزئيات أو نراها مشاهدة، ولكن نريد أن نفسرها، فكلما نجح القانون في تفسير الظواهر التي طلبنا منه أن يفسرها كلما كان أحسن، وكلما اكتشفنا ظواهر تدخل في هذا النطاق وعجز عن تفسيرها كلما كان أسوأ، وربما نستبدل به قانوناً آخر، فهذا أيضا لا مشكلة فيه، ثم هنالك نظريات والنظريات بتفسير من التفاسير هي درجة بعد القوانين وهي التي تفسر القوانين نفسها، وهذه النظريات ثلاثة أنواع: هناك نظريات ثبت بطلانها مثلا نظرية الأثير وسمعت قريباً أن بعض العلماء الأستراليين عادوا إليها مرة أخرى، لكن كان من الأشياء المشهورة أن نظرية الأثير أو مثلا إذا أخذنا النظريات القديمة جدا التي تجدونها حتى في الكتب الإسلامية، والناس متأثرون بها نظرية العناصر الأربعة، تذكرون ماهي العناصر الأربعة عند القدماء الماء والنار والتراب والهواء، فكانوا يظنون أن كل الأشياء المادية في النهاية تتكون من هذه العناصر الأربعة، وهذا أثر في التفكير جدا حتى في التفكير الإسلامي وبني عليه كثير من التفسيرات الطبية مثلا يقول لك في الطب القديم تأكل تمر مع العجور لأن التمر طبيعته حارة والعجور طبيعته باردة، فهذا ماء وهذا نار، فالتفسير دائماً يبنى على النظريات هذه، فالنظرية الباطلة باطلة، هم يقولون إنها باطلة نحن نقول أيضا إنها باطلة، هنالك نظريات، نعم البطلان سنتدخل فيه قليلاً باعتبارنا مسلمين النظرية هم معيارهم للبطلان بالنسبة للنظرية أن لا تنجح في تفسير القانون الذي طلب منها أن تفسره ومعيارنا نحن نقبل هذا المعيار لكن نضيف إليه معياراً آخر وهو السبب فيه أنهم يعتقدون أن المصدر الوحيد للمعرفة هو هذا الكون أو ما جبل عليه الإنسان في عقله نحن نضيف إليه مصدراً آخر نستقي منه المعرفة وهو الوحي، الآن لابد أن نناقشهم في هذا لأنهم قد يقولون كيف تستدلون على أن الوحي مصدر لابد أن نثبت أولاً أن هنالك

إله، وأن هذا الكلام هو كلام الله حتى نثبت أنه مصدر للمعرفة لكن لا نناقش هذا الآن نحن باعتبارنا مسلمين إذا وجدنا نظرية تناقض أو تختلف مع شيء ثبت لنا قطعاً أنه حق ثبت لنا بحديث صحيح أو بقرآن نعرف معناه، وأقول هذه المحاذير يعني تلاحظون أن كلماتي فيها بعض الحذر وذلك لئلا يعجل الإنسان، ما كل آية في القرآن وكل آية ثابتة وهذا ما فيه إشكال لكن ما كل آية في القرآن نحن قاطعون متأكدون من معناها نحن نقطع بمعاني كثير من الآيات لكن بعضها يظل معناها بالنسبة لنا فيه شك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في التوفيق بين العقل والشرع أو العقل والنقل أو يمكن أن نقول الآن العقل والعلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو كذا قال إذا كان الأمران قاطعين فلا اختلاف لا يمكن نحن متأكدون أن الله سبحانه قال هذا ومتأكدون أن هذا هو الواقع الذي دل عليه العلم والتجربة والمشاهدة، فهذان لا يمكن أن يختلفا أبداً؛ لأن هذا كلام الله وهذا خلق الله، فالذي خلق هذا هو الذي قال الكلام، فلا يمكن أن يقول خلافه إذا كان هنالك خلاف، فمعنى ذلك أن أحدهما ظني والآخر قطعي أو أن كليهما ظنيان، إذا كان أحدهما قطعياً والآخر ظنياً. قال نقدم القطعي بغض النظر عن كونه هو الوحي، أو كونه هو العقل والحس، مثلا نحن الآن نقطع بأن الأرض كروية؛ شكلها كروي، هذه أصبح لا شك فيها فإذا كانت هنالك آيات في القرآن الكريم كنا نفهم منها أو نظن أن معناها أن الأرض شكلها مسطحة فالآن نقدم هذه الحقيقة القاطعة، ونفسر بها الآيات التي كان تفسيرها بالنسبة لنا ظناً والعكس أيضا إذا كان هنالك أمر نقطع بأنه من القرآن الكريم ونعرف معناه أو من السنة الصحيحة وهنا فيه شك فنقدم اليقيني ماذا نفعل إذا كانا ظنيين قال نقدم أكثرهما رجحاناً يعني وهذه مسألة طبعا سيختلف فيها الناس قد يترجح عند إنسان مالا يترجح عند آخر حسب ما عنده من العلم والتفكر وكذا، فإذا بالنسبة للنظريات لابد أن نقيسها بهذا المقياس وهذا يوضح لكم أننا ينبغي أن لا نطلق الكلام العام تسمعونه عند كثير من الناس يقول لك العلم يتغير والدين لا يتغير فإذاً لا نفسر أي شيء ديني بشيء علمي ما هو العلم الذي تغير إذا نظرنا إلى هذه المكونات الحقائق الجزئية لا تتغير إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فهي كرة إذن ما الذي يتغير إلا

أن يغير الله شكلها فيظل أيضا اكتشافنا صحيحاً نقول حتى عام ١٤٠٧هـ، وإلا ٦ كانت الأرض كرة ثم صارت مكعبة، فالاكتشاف العلمي ما تغير وإنما تغير المعلوم فإطلاق الكلام بأن العلم يتغير كلام غير صحيح، النظريات تتغير نعم وتغيرها بطيء ليست تتغير كل عشر أعوام، ولذلك لا محيد من أن نتأثر بهذا العلم الذي نكتشفه لا يمكن لإنسان مثلا عالم فيزياء أو عالم طبيعة أو طبيب أو مهندس أو فيزيائي أو كذا أو كذا أو عالم اجتماع يقرأ القرآن الكريم ويتأمل فيه ويعمل في هذا المجال الذي تخصص فيه، ويكتشف هنا حقائق ويتعامل معها ويقرأ في القرآن الكريم كلاماً له علاقة بهذا، ويقول لا هذا دين وهذا علوم أنا لا أربط لا يمكن أن يفصل دماغه نصفين فيجعل هذا للدين وهذا للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية، هو بشر هو شيء واحد والقرآن الكريم ما جاء فقط لناحية من نواحي الحياة، نعم إنه كتاب جاء للهدى ولكن الهدي والهدى يقتضي أن يتعرض لبعض المسائل الدنيوية وبعض المسائل الفلكية الكيماوية الطبيعية هكذا فلا يمكن أن نفصل هذا عن ذاك ثم بعد العلوم الطبيعية هنالك علوم اجتماعية تشمل علم الاقتصاد والسياسة وعلم النفس والجغرافيا والإدارة واللغات وما أشبه ذلك، فهذه نسير عليها بنفس الطريقة ما كان حقائق نقبله حقائق مكتشفه يعني هنالك في علم الاقتصاد وعلم الاقتصاد كسائر العلوم الطبيعية يتكون من بعض الحقائق مثلاً العرض والطلب هذه حقيقة أنه إذا كثرت السلعة في السوق قل ثمنها هذه حقيقة ويعرفها الناس منذ القدم حتى هنالك كلام لعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- جعلها حتى نظرية سياسية قال الحاكم كالسوق ما راج فيه جلب إليه يعني لا تقل لي إن الحاكم رجل طيب لكن بطانته سيئة، فالحاكم كالسوق لولا أن هذا هو الذي ينفع معه لما جاءه فإذاً هنالك بعض الحائق، أو في السياسة هنالك سياسة وصفية تقول حدث في فرنسا كذا كذا وحدث في إنجلترا كذا كذا حدث بالنسبة لتهريب بيع الأسلحة لإيران كذا حقائق فهذه لا ينكرها عاقل، وكذلك بالنسبة لعلم النفس أيضا هنالك حقائق يكتشفها العلماء لكن كمية النظريات والآراء الفلسفية وكذا في العلوم الاجتماعية هي أكثر منها في العلوم الطبيعية وسنجيء إلى هذا إن شاء الله.

ثم هنالك التقنية والتقنية مبنية على هذين العلمين على مكتشفات العلوم الطبيعية وعلى العلوم الاجتماعية لأن التقنية ليست أشياء جامدة فقط، وإنما يدخل فيها أيضا الوضع الاجتماعي والإدارة ونوع الناس الذين يعملون فيها وكل هذا يقتضي تدخلا من العلوم الاجتماعية، ثم هنالك الآداب والفنون والعادات والتقاليد، ثم هنالك الفلسفات والأديان، ثم هنالك القيم الخلقية وأنا مررت عليها مرورا عابرا وسأتكلم عنها في النهاية. القيم الخلقية أيضا هنالك قيم إنسانية إذا كان الإنجليزي صادقاً لا نقول إنه كاذب لأنه كافر، هنالك قيم جمالية إذا كانت هناك فتاة جميلة لا نقول إنها قبيحة لأنها مشركة نقول جميلة لكنها مع الأسف مشركة، فهذا لا دخل له في هذا، ينبغي أن نعترف بالحقيقة كما هي بعد هذه العلوم والتصورات هنالك واقع هذا الواقع يتمثل في الأوضاع ولا أعني العلوم هنا الأوضاع الاقتصادية الأوضاع السياسية الأوضاع الاجتماعية، مثلا الأوضاع في روسيا تختلف عن الأوضاع في أمريكا بعض الأوضاع في أمريكا تختلف عنها في أوروبا وهكذا، ثم لهم مصالح هؤلاء الغربيون باعتبارهم غربيين لهم مصالح مصالح مادية مصالح استراتيجية لهم أطماع توسعية وهكذا، نأتي الآن إلى السؤال هذه الحضارة المعروضة أمامنا نريد أن نأخذ منها نعتبرها سوبر ماركت فيه هذه الأشياء ماذا نأخذ منها وماذا ندع؟ نحتاج إلى معيار وإلى ميزان يقول لنا هذا خذوه وهذا دعوه. فقلت إذا أردنا أن نزن بميزان موضوعي ونقول للغربيين إن هذا الذي لا يصلح معنا لا يصلح معكم أنتم أيضا فلا بد من أن يكون الميزان متفقا عليه بيننا وبينهم. لكن دعونا الآن في البداية أن نزن لأنفسنا نحن المسلمين دخلنا هذا المتجر هذا محل البيع فنريد أن نأخذ منه ما يصلح معنا، سنقيس بالمقاييس التي ذكرناها بالإضافة إلى ما أرشدنا إليه الوحي في كتاب الله، أو في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، الناس وقفوا من الحضارة الغربية ثلاثة مواقف: موقف كان موقف الارتياب والرد الكامل، هذا لم يعد الآن موجوداً الذين قالوا إن هذا جاءنا من الكفار وكل ما جاء من الكفار فهو كافر وفيه شك فرفضوا كل شيء هذا كما قلت لم يعد موجوداً ولم يعد ممكناً حتى، الإنسان مهما كان منعزلاً الآن في مكان نائي من الأرض لا يمكن إلا أن يأخذ شيئاً من الغرب، ما يستطيع فكروا في الملابس التي

نلبسها نحن الميكرفون الذي نستعمله وغيرها كل هذه الأشياء من الغرب الذين قالوا نأخذ كل شيء والذين قالوا هذا لم يكونوا من عامة الناس بل كان بعضهم ساسة وزعماء كبار وبعضهم مفكرون ومصلحون اجتماعيون، فيروى عن أتاتورك أنه قال وأنتم تعرفون أنه جعل تركيا بلداً غربياً وغير اللبس، فقال: نأخذ من الغربيين كل شيء حتى الديدان التي في بطونهم، ما هو السبب في هذا وهذه حجة مؤثرة جدا حتى ولو لم نقلها بهذه الطريقة كثيرون منا متأثرون بها ما سببها يقول الإنسان لنفسه مادام هؤلاء قد تقدموا هذا التقدم المادي الباهر الذي جعلهم يستعمروننا وجعلهم حتى إذا لم يستعمرونا هم أقوى منا ونحن نحتاج إليهم ونخاف منهم فلابد أن كل ما عندهم أحسن مما عندنا، ولكن هذا -كما قلت في مقال كتبته قبل ذلك- هذا كإنسان مثلا يحب الرياضة ويقول أنا أريد أن أكون كماجد عبد الله ثم ينظر كيف يسرح ماجد شعره فيسرح بطريقته ماهي الألوان التي يلبسها فليبس كما يلبس هل يكون رياضيًا ركز على أشياء لا علاقة لها بالموضوع، فبعض الناس أيضا يريد أن يكون إنساناً متحضراً فينظر ماذا يلبس الغربيون لبسوا جينز نلبس جينز عملوا سلاسل في الرقبة نعمل سلاسل، وأما الأشياء الحقيقية التي ساعدت الغربيين على هذا التقدم ما عندهم منها نصيب، والغربيون ما تقدموا بالسلاسل التي في رقابهم ولا بالجينز الذي يلبسونه ولا بالرقص ولا بالخمر لكن هكذا يكون البشر ضعفاء وهذه حقيقة معروفة منذ القدم، ويعزى الكلام فيها إلى ابن خلدون، فقال إن المغلوب مولع بتقليد الغالب يقلده حتى يعتبر أن لغته أحسن من لغته وأن دينه أحسن من دينه، ونظرته إلى الحياة أحسن من نظرته لا يفكر أبداً التفرقة التي ينبغي أن يفرقها الإنسان العاقل وهي أن يقول ما سر هذا التقدم، ويسأل هذا السؤال لا يمكن أن يكون كل ما عنده من سر تقدمه لأنه إذا درس تاريخ الأمم الغربية سنجد أن بعض الأشياء التي عندهم الآن كانت عندهم من زمان وكانوا متأخرين فإذاً هي ليست سر تقدمهم، دينهم هذا هو نفس الدين ما تغير فإذاً ليس سر تقدمهم، لغتهم هي لغتهم نعم حدثت فيها كلمات اقتضاها العلم لكن ليست هي سر التقدم، طريقتهم في الملابس هي نفسها بعض عاداتهم الاجتماعية أنهم لا يتزوجون بأكثر من واحدة وكذا، والذي يعتبرها بعض الناس من

مظاهر الحضارة كانت عندهم قبل أن يتقدموا هذا التقدم المادي، فإذاً لابد من أن نعرف ماهي الأشياء التي ساعدتهم على هذا التقدم المادي فنقول نعم إن هذا شيء حسن فنأخذه، وإذا الموقف الثالث هو الموقف الصحيح لا نقول لا نريدها إطلاقاً ولا نأخذ منها كل شيء وإنما نأخذ منها وندع ونأخذ وندع بمعيارنا العقلي والعلمي والديني وكل هذه أشياء متناسقة لا خلاف بينها، في مكونات الحضارة ذكرت لكم أن من مكوناتها الأديان والفلسفات، والفلسفة لها معنيان يمكن أن نتكلم عن الفلسفة بمعنى أن هذه فلسفة ديكارت هذه فلسفة كانت هذه فلسفة هيوم هذه فلسفة سارت وهكذا هذه لا يأخذ الغربيون بأي واحدة منها، لا يأخذ الغربيون جميعاً أي فلسفة من هذه الفلسفات وإنما يتأثر بعضهم ببعضها ويتأثر بعضهم بآخر، فما هي الفلسفة الفلسفة بالمعنى الثاني وهي التصور، تصورهم للحياة التصور الغالي على الناس المثقفين والمفكرين والعلماء في أي ناحية من نواحي الحياة سواء كان في العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ما هو التصور الغالب عليهم ؟ في رأيي أنه يمكن أن نقول إن الفلسفة الغالبة هي الفلسفة التي يمكن أن نصفها بأنها الفلسفة المادية الإلحادية، وهنا لا أفرق أبدا بين الشيوعيين وبين الأوربيين نعم هنالك أديان يهودية هنالك دين مسيحي لكن هذه الأديان لا تمثل تصور الناس للحياة ولا يذكرونها لا في خططهم السياسية ولا الاقتصادية ولا في مجال العلوم الطبيعية وإنما هي غاية يعني ما تؤثر فيه بعض العادات الاجتماعية في الزواج والطلاق وكذا وبعض المجاملات والذهاب إلى الكنيسة هذا عند المتدينين وأما الغالبية العظمى من الناس بل حتى من المتدينين أنفسهم إذا تركوا الكنيسة وجاء إلى المعمل أو المصنع أو كذا فالفلسفة الغالبة عليه وهي بالمناسبة التي أثرت فينا هي الفلسفة التي يمكن أن نقول إنها الفلسفة المادية الإلحادية ماذا أعني بالمادية الإلحادية هذه الفلسفة فحواها أولاً أن الحقيقة الموضوعية التي لا حقيقة غيرها هي الأشياء المادية والأشياء المادية بحسب العلم يتطور مفهوم الناس لها كان الناس في الماضي مثلا الماديون يقولون كانوا غلاظاً بعض الشيء كانوا يقولون الموجود الذي لا موجود غيره هو هذه الأشياء المحسوسة التي تدرك إدراكاً مباشراً بالحواس الخمس، ثم تطور الناس فصار الآن الشيء الغالب هو أن يقولوا إن

الأشياء الموجودة حقيقة هي الذرات وطبعا ثم جاءت مكونات الذرات وكذا لكن الفلسفة الغالبة هي هذه يعني أن هذه المادة لها مكونات، فمكونات المادة هذه سواء أسميناها ذرات أو ما تحت الذرات هذه هي الأشياء الأساسية، والذي يأملونه هو أن يفسروا كل شيء في الوجود بالرجوع إلى أحوال هذه المكونات المادية يعني يأمل ليس الفيزيائي فقط ولا الكيميائي هذا شيء معروف لكن حتى عالم النفس يأمل أن يجيء اليوم الذي يفسر فيه كل الظواهر النفسية بإرجاعها إلى أشياء حسية ولاسيما الدماغ، وأن يستطيع أن يفسر حركات الدماغ وتصرفاته بإرجاعها إلى مكونات المادة الأولى سواء قلنا إنها الذرات أو ما تحت الذرات، فهذا هو الافتراض حتى لو لم يقله الناس بألسنتهم عندما يقولون نفسر الشيء تفسيراً علميًا، ما هو التفسير غير العلمي عندما تقول إن هذه الظاهرة سببها مثلاً أن الله رضي عن هؤلاء الناس فأعطاهم كذا، هذا تفسير غير علمي أو تقول سببها الجن أو تقول سببها الملائكة أو تقول أن المطر نزل بسبب الدعاء كل هذا في اعتقادهم هو تفسير غير علمي لكن تذكروا أن قولهم إنه ليس تفسيراً علميًا راجع إلى هذه الفلسفة لا إلى العلم يعني إذا خرجتم من كلامي هذا بهذه الحقيقة تكفيني، أقولها مرة أخرى هم تصوروا أولاً قبل أن يأتوا إلى العلم قالوا إنه لا موجود إلا هذه الأشياء، وحصروا أنفسهم فيها فإذا تصورهم للعلم هو فرع عن تصورهم للوجود كله، فلماذا نأخذ هذا التصور إلا إذا اقتنعنا فعلاً وقلنا إن تصورهم نفسه تصور صحيح لكن إذا أحببنا أن نقيس هذا التصور بمقياس بالمقاييس التي قلناها والتي يتفقون معنا عليها نستطيع على الأقل أن نشككهم إن لم نقنعهم بما عندنا فنقول لهم أنتم تقولون إنه لا يوجد إلا هذه الأشياء المادية، طيب هذه دعوى ما دليلكم عليها كيف تأكدت من أنه ليس هنالك شيء غير مادي إذا قال أنا بحثت في العالم لم أجد شيئاً غير مادي نقول له إن علمك في أي علم من العلوم الجزئية يقولون لك إن هذا لا يكفي إلا أن يكون النطاق محدوداً جداً، نقول مثلا هذه القاعة لا يوجد فيها إلا كذا من الأشخاص، فأقول أنا نظرت في القاعة كلها فما وجدت هذا يسمونه بالاستقراء الكامل، أما الكون هذا من أدراك ربما يكون فيه شيء أحيانا يقول أنتم الذين تؤمنون ما أعطيتموني الدليل على أن هنالك شيئا غير مادي

نقول لهم لنفرض أن هذا صحيح هذا لا يجعلك تقول إنه لا يوجد شيء غير مادي لكن يجعلك تقول أنا أشك ولست متأكداً من أن هنالك شيئاً غير مادي أما أن تقطع به فهذا ليس بصحيح، ثم نأتي إلى الخطوة الثالثة فنقول له ونحن المسلمين إن لم يستطع النصارى أو لم يستطع اليهود نحن المسلمين نملك الدليل على أن نبرهن على أن هذا الكون له خالق وأن هذا الخالق ليس كمثله شيء، فنرجع مرة أخرى نريد أن نقول إننا بالنسبة للحقائق الجزئية نأخذها بالنسبة للقوانين ما قلت لكم وبالنسبة للنظريات ما قلت لكم في كل العلوم في الأشياء الأخرى نقيسها بمعيارنا بمصلحتنا مثلا حتى مصلحتنا الوقتية فنستفيد من تجاربهم في الاقتصاد في الإدارة نستفيد من تجاربهم نستفيد من فنوتهم لكن لا نتبناها وأما الشيء الذي نرفضه رفضا كاملا ولا نأخذ منه شيء ولا حتى ما ترتب عليه فهو هذه الفلسفة وهذا التصور فالذي نرفضه رفضا كاملا هو كما قلت لكم هذه الفلسفة وهذا التصور، إذا رجعنا مرة أخرى إلى مقاييسنا فنقول له نحن في الإسلام لا نقول إن مسألة الإيمان بالله هي مسألة لا برهان عليها كما يقولون هم في النصرانية، والذي غر كثيرا من الغربيين وجعلهم يستمسكون بالمذهب الإلحادي أنهم اعتبروا كما اعتبر بعضنا لأنهم متقدمون فإذا كل ما عندهم أحسن مما عند غيرهم وإذا حتى هذا الدين وإن كانوا يعتبرون أنه دين باطل لكنهم يقولون مادام ديننا نحن المتقدمين باطلا فما بالك بدين هؤلاء الذين هم من العالم الثالث، البوذية والإسلام وكل هذا يستوي عندهم ففي هذا الدين أشياء مناقضة للعقل ومناقضة للواقع الحسي فلذلك أصبح الكثيرون منهم إما أن يفسروا الدين تفسيرا رمزيا جدا لا يكون له علاقة بكلماته أو أن يرفضوه رفضا كاملا، وفي كلا الحالين فهم قد عطلوه أصبح لا مجال له كبير في الحياة نقول لهم إن هنالك فرق بين ذلك الدين وهذا الدين نحن عكس النصرانية نقول إن الأشياء الأساسية عليها أدلة عقلية وحسية والأشياء الفرعية تقبل بقبول الأشياء الأساسية، يعني إذا قال لي إنسان لماذا نصلي المغرب ثلاثة فلا أستطيع أن أعطيه دليلا عقليا مباشرا، ولكن أستطيع أن أقنعه بأن القرآن كلام الله أو أن الكون له إله خالق واحد وكذا فإذا اقتنع أن القرآن كلام الله أقول له يا أخي إن الذي خلق الكون وخلق الإنسان قالوا

صلوا في هذا الوقت ثلاث ركعات، فلا بد أن تكون هنالك حكمة وإن كنت أنا لا أعرفها فهذا تفسير عقلي لكنه غير مباشر، كما يذهب إنسان مثلا إلى الطبيب فيعطيه بعض الأقراص فيستعملها كما أمره الطبيب فإذا قال له اثنين بعد الغداء وواحدة بعد العشاء لا يعكس الامر، ولا يقول لماذا لأن الطبيب سيقول له يا أخي إذا حاولت أن أفسرها لك لن تفهم فخذ هذه بالثقة فقط والناس يتعاملون في كثير من حياتهم بالثقة فأنت إذا اقتنعت بأن الكون له خالق فأول ما ينبغي عليك بالنسبة لهذا الخالق أن تثق فيه فكثير من الأشياء الجزئية نأخذها بالثقة التي نسميها الإيمان ولكن القواعد الأساسية للدين القرآن والسنة مليئان بالأدلة العقلية والحسية عليها، وتوسع علماء المسلمين في هذا وأعطيكم فقط بعض الأمثلة مثلا بالنسبة لوجود الخالق يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

فكأنه يقول للإنسان الذي لا يؤمن بوجود الخالق إن هنالك ثلاثة فروض فقط بالنسبة لأي شيء حدث بعد أن لم يكن أي شيء يعني إذا كان إذا لم نجد في الوجود إلا هذا الشيء أو قل دعنا يكن تفكيرنا يكون أقرب إلى ما يتناقش فيه العلماء الآن، العلماء الآن النظرية التي يميلون إليها تقريبا معظمهم يميل إليها أو غالبهم يميل إليها هي النظرية نظرية الخلق التي يسمونها باللغة الإنجليزية "ذا بق بانق" أن كل مادة الكون هذا كانت في البداية في ذرة واحدة كل هذه المادة، ثم من هذه المادة الذرة بعد أن تفجرت تكونت فقالوا الآن إذا كان هذا صحيحا أصبحت مشكلة الخلق أو السؤال عن الخلق سؤالا ملحا، فإذا كان هذه المادة التي تكونت منها الكون كله، فنقول من أين جاءت أم خلقوا من غير شيء جاءت من لاشي هذا لا يقبله عاقل ولا يقبله العلماء الآن لأننا إذا قلنا أن بعض الأشياء تأتي من لاشيء فمعنى ذلك أننا لا نحاول أن نفسر كل ظاهرة من الظواهر أو إذا فتشنا عن سببها سنة وسنتين ولم نجد تقول آه هذه من الأشياء التي تأتي من غير شيء فنقول مثلا أن هذا المرض بحثنا عن سببه ولم نجده فإذا هو يأتي بلا سبب، العلماء لا يقولون هذا حتى لو بحثوا عشر أو خمسين سنة

أوستين سنة وما وجدوا يظلون آملين في أن يجدوا السبب لماذا لأن العقل يقول إنه لا يمكن أن تكون هنالك ظاهرة أو حدث وليس لها سبب، وأن تقول إن الشيء يأتي من لا شيء كلام متناقض، كيف يكون لا شيء وفجأة نشاهد ساعه أمامنا هل هذه المادة هي التي خلقت نفسها أيضا مستحيل لأن الشيء لكي يخلق نفسه لابد أن يكون موجودا أليس كذلك؟ ولكن إذا كان موجودا ما يحتاج إلى أن يخلق فالقول بأن الشيء يخلق نفسه منطو على تناقض، لأن الإنسان الذي يقول هذا الكلام يفترضه موجودا مرة ويفترضه غير موجود في نفس الوقت، إذا ما بقي إلا أن نقول إن كل شيء حادث له سبب أو فاعل أو كذا من خارجه والسؤال إذا ما هو هذا الشيء الخارجي القرآن الكريم مليء بالحجج على أن هذا الشيء الذي أوجد الأشياء لابد بمنطق عقلي أن يكون متصفا بكذا ومتصفا بكذا، مثلا ليس كمثله شيء لأنه إذا كان مثل هذه الأشياء فسنسأل عنه نفس السؤال الذي سألناه عنها من أين جاء أما إذا لم يكن مثلها مثلا هذا الخالق لابد أن يكون أزليا وليس حادثا ولابد أن يكون أبديا لا ينتهي هو الأول والآخر وهكذا، ثم جئنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إذا قال لنا إنسان أنا لا أعتقد أن محمدا هذا رسول عندنا من الأدلة التاريخية في سيرته وكذا وأحواله وكلامه ما يدل على أنه رسول، بل عندنا القرآن الذي يدل على أنه رسول، وأيضا استفدنا كثيرا وكثير من علمائنا استفادوا من العلوم الطبيعية في هذا المجال تذكرون ذلك الطبيب الفلبيني الذي أسلم هنا في الرياض في اجتماع المؤتمر الطبي السعودي أسلم بسبب في غاية المنطق قال إن فلانا الأمريكاني المتخصص في علم الأجنة هو كان تلميذا لهذا الأمريكاني فقال هذا الأمريكاني عن طريق أظن الأخ عبد المجيد الزنداني وذهابه إلى جامعة الملك عبد العزيز بدأ يعرف كثيرا عما قاله القرآن عن تطور الجنين فقال لهذا الرجل إذا درست طلبتك عن تاريخ الأجنة في العادة هم دائما يركزون على تاريخ اليونان فقال لهم القرآن فيه أشياء طريفة فأذكرها أيضا للطلبة فقال أنا بدأت أقرأ والآن استمعت إلى ما قاله هؤلاء الزملاء فأنا مقتنع بأن هذا الكلام الذي في القرآن ما كان يمكن أن يعرفه بشر في زمن محمد لماذا ؟ قال لأن الآلات التي اكتشفناها هذه ما عملت إلا في هذا القرن فإذا كان من المستحيل على

أي بشر سواء كان محمد أوغيره أن يعرف هذه الحقائق وإذا فهذا لا يمكن أن يكون كلام محمد وإذا لابد أن يكون من خالق لهذا الكون يعرف هذه الحقائق بوسيلة غير التي عرفناها بها لأنه هو الذي خلقها فلذلك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فعندنا بالنسبة لأصول الدين مثل هذه الأدلة، فإذا سنقول للغربيين بعد أن قلنا لأنفسنا سنقول لهم نحن نرى أن تصوركم للوجود هذا التصور الذي لخصناه مخالف للعقل وهو ضار بالإنسان لأن نتائجه كما يعرفون هم في الأخلاق وفي السلوك سيئة جدا ومازال الناس يسيرون بالرغم من أنهم من ناحية يسيرون في تطور من ناحية العلوم الطبيعية والاجتماعية وكذا فهم يسيرون في تدهور من الناحية الأخرى وهذا معناه أن ما عندهم من الأخلاق كان مرتكزاً على بقايا ما عندهم من دين وما عندهم من فطرة وأنه كلما تأثر الناس بهذا التصور الجديد كلما أضعف هذا من خلقهم ودعاهم إلى شرب الخمر والمخدرات والزنا وما يترتب على هذا من أمراض نفسية وجسمية وكذا وكذا، وكل هذا مرتبط بهذا التصور لأنك إذا قلت للإنسان هذا الكون ليس له خالق وإن هذه الحياة هي الحياة الأولى والآخرة وأنه لا بعث بعدها ولاحساب ولاكذا فكأنك أغريته بأن يجمع أكبر قدر من الثروة أو الملذات وأحدثت في نفسه كثيراً من القلق والشك والتردد، فإذا هذا التصور مخالف للعقل ومخالف للواقع مضر بالإنسان بصحته الجسمية والنفسية وبأحواله الاجتماعية، وهو بعد ذلك ليس ضرورياً للعلوم الطبيعية لأن هذا الذي أغرى الناس به، الناس ظنوا أنه لا يمكن ان تقوم علوم طبيعية إلا على مثل هذا التصور المادي.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

س: كيف نثبت لغير المسلم أن محمداً رسول الله ويوحى إليه القرآن ؟

ج: لا يمكن أن نفصل في هذا الأمر الآن لكن أنا ذكرت لكم إشارات إلى هذا، سيرة الرسول ﷺ كل من يقرأها أولا تثبت له أن هذه سيرته بالأدلة التاريخية فسيرة الرسول ﷺ من حيث ثبوتها لا نجد شيئا تاريخيا أثبت منها بعد القرآن الكريم، فإذا كان هذا الإنسان يقول إنه كان في هذه الحياة شخص اسمه نابليون أو أرسطاريس فنقول له يا أخي عندنا من الأدلة أقوى بعشرات المرات مما عندك بالنسبة

لنابليون أن هناك رجل اسمه محمد، وأن سيرة هذا الرجل كانت كذا كذا هذه الخطوة الأولى إذا آمن أنه كان هنالك رجل اسمه محمد وأن هذه كانت سيرته نقول ننظر في هذه السيرة هل هذه سيرة إنسان كذاب إذا قال إن هذا الرجل كذاب فلا يستطيع أن يقول بعد ذلك عن أي إنسان أنه صادق نقول له ما هو معيارك للصدق والكذب، إذا قال إنه صادق نقول له هذا الرجل الصادق قال أنا مرسل من عند الله وأنا ناقشت بهذه الحجة أحد المستشرقين الصغار فهو مازال شابا قلت له ما رأيك في محمد قال إنه رجل عظيم، قلت له ما اعني هذا هل تعتقد أنه كان نبيا لا قلت له هل تعتقد أنه كان كاذبا قال لا قال أعتقد أن الرجل كان صادقا قلت له تعتقد أنه كان نبيا فما أحب أن يقول أنا أعتقد أنه كان نبيا وكانوا في البداية المستشرقون مما يدلكم على قوة هذه الحجة أن المستشرقين في البداية كانوا يتكلمون عن الرسول كلاما كثيرا فارغا وبعد أن تطورت الدراسات أصبحوا الآن يستحون من ذلك الكلام وكثير منهم من المنصفين منهم يقولون الذي يقول عن رجل هذه سيرته مثل هذا الكلام هذا يدل على أنه نفسه إنسان مغرض أو مهبول أو كذا أو كذا لأنك إذا قلت هذا الكلام عن رجل هذا سيرته فقله عن أي إنسان آخر أيضا ثم نقول بالإضافة إلى صدقه هنالك عنده من الأدلة ما يثبت أنه نبي منها هذا القرآن الكريم فإثبات أن القرآن من عند الله هو إثبات أن محمدا رسول الله لأن محمد جاء بهذا القرآن وقال أنا هذا الذي أرسلني به الله فإذا أثبتنا بحجة واحدة في مسألة واحدة فقط أن هذا الشيء ما كان يمكن أن يعرف في عهد محمد ﷺ ما كان يمكن أن يعرفه بشر يكفي هذا لإثبات أن القرآن كلام الله وأن محمدا رسول الله، فنصيحتي لكم في مناقشتكم للناس أنكم وطبعا الإنسان لا تتصور في هذه المسائل بحجة واحدة يقتنع بها بعض الناس نعم ربنا فتح عليهم يقتنعون لكن لا تيأس كلمه وكلمه وكلمه، وحاول أن تغريه بأن يقرأ سيرة الرسول ﷺ إذا قرأ سيرة الرسول في الغالب يتأثر إذا كان فعلاً طالباً للحق.

س: فضيلة الشيخ ذكر فضيلتكم أنه لا يمكن فصل الدين عن العلم على هذه المقولة لدي عدة أسئلة في العصور الوسطى كانت الكنيسة مسيطرة على الحكومة والأفراد وكان هناك تأخر في جميع العلوم بل في الحياة كلها، وبعد أن تم فصل الدين عن الدولة تطورت بلاد الغرب ما ردكم على ذلك؟

س: نلاحظ أن بعض المشايخ هداهم الله لايزال يعيشون في جهل أو لنقل لازالوا يكابرون فقد سمعت من أحد المشايخ قوله إنه لم يثبت إلى الآن أن الأرض كروية.

ج: على كل حال أنا لا أرى من اللائق أن تقول المشايخ يعيشون في جهل وما أظن أن شيخا معتبرا الآن يقول هذا الكلام لكن ما كل من انتسب إلى الدين وتكلم فيه فهو شيخ كبير ولا تتوقع أن يعرف كل شيء في العلوم الطبيعية كما أنك لا تعرف كثيرا من أمور الدين فإذا كنت أنت مقصر في أمور الدين وهو مقصر في أمور الدنيا فهو خير منك فلماذا تعيب عليه تقصيره ولا تعيب على نفسك أنك مقصر في شيء أهم من الذي قصر فيه، لا يضره كثيرا أنه لا يعرف أن الأرض كروية أو ليست كروية لكن يضرك كثيرا انك لا تعرف بعض الأحكام التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصا فيما يتعلق في مسائل العقيدة، فأرجو أن لا تتكلموا عن شيوخكم وعلمائكم كلاما غير لائق الناس عندهم ظلم لا تتوقع ولا حتى من الشيخ ابن باز أن يكون عالما بكل شيء يكفيه أنه تخصص في شيء مهم جدا وهو أهم شيء ويرشد الناس ويعلمهم فيه أما أن أتوقع أن يكون محيطا بعلوم الجغرافيا والتاريخ والعلوم النفسية ومواكب للعصر والسياسة والفيزياء لا يمكن هذا نعم كان من علمائنا من له المام بهذه المسائل في الماضي ومازال عندنا فلا تتوقعوا منهم ذلك خصوصا إذا نظرتم إلى الطريقة التي درسوا بها فالإنسان احيانا ضحية بيئته فهو ما درس هذه الأشياء فكيف تتوقع منه أن يعرفها لكن نعم أقول له لا تتكلم في أشياء لا تعرفها.

بالنسبة للكلام الأول يا أخي هذا من الكلام الذي لاكته الألسن كثيرا ورد عليه فلا ترددوا الكلام إيه الكنيسة وانفصلت وتقدموا هذا الكلام سمعناه ألف مرة طيب لأن الكنيسة العلم انفصل عن الكنيسة فتطورت البلاد الغربية معنى ذلك أنه إذا انفصل عن المسجد ستتطور البلاد الإسلامية هذا معناه أن المسجد كالكنيسة ثم الحجة نفسها حجة ليست صحيحة، قالوا إن السفسطائيين كانوا يقولون قال لإنسان هل لك ابن؟ قال له نعم قال: إذاً أنت أب قال نعم قال هذا الكلب له جرو؟ قال له نعم إذاً هو أب؟ قال له نعم، وأنت أب قال نعم إذاً أنت كلب! فهذه سفسطة، فلازم تعرف كيف توازن الأشياء فتقول مثلا هذا إنسان وفعل كذا وهذا صالح إنسان فعل الشيء

الفلاني وعمر إنسان إذا سيفعل الشيء الذي فعله صالح لأن هذا إنسان وهذا إنسان، لا لأن الناس يختلفون إذا برهنت لنا أنه فعله بحكم إنسانيته نقول نعم لكن ما كل ما يفعله إنسان يفعله إنسان آخر وما كل ما يصدق على دين يصدق على دين آخر، وحتى الغربيين الآن يقولون إن الكلام عن أن الدين أن العلم تطور لأنه انفصل عن الدين هذا كلام فيه غلو لأن كثيراً من هؤلاء العلماء كانوا نصارى متدينين. تعرفون نيوتن أليس هو أبا الفيزياء؟ هل نيوتن كان كافراً بالنصرانية؟ كان متديناً وكتب كتباً في النصرانية فالعلماء الكبار الذين أسسوا العلوم الطبيعية والفلاسفة كانوا متدينين بحكم الدين النصراني، لكن هنالك فرق بين أن يكون الإنسان متديناً وبين أن تكون الكنيسة لها سلطة نحن ما عندنا كنيسة لها سلطة ما عندنا لا في الماضي ولا في الحاضر فليس هنالك مسجد له سلطة يقول مثلا إن الكتابة الفلانية ما ينبغي أن تكتب، وأن النظرية الفلانية ما ينبغي ما عندنا هذا فالمقابلة بين الكنيسة أقصد المقارنة حتى بين الكنيسة والمسجد ليست صحيحة، وبين الدين الإسلامي وبين الدين النصراني ليس صحيحاً .

س: بالرغم أن فضيلة الدكتور أبدى نوعا من الشعور بأنه قد أوفى الإجابة على سؤالي إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وإثبات أن القرآن من عند الله، أحب أن أستزيده بأن يتفضل مشكوراً ويجيبنا بشيء من التفصيل على قضية إثبات وجود الله لرجل ملحد لا يؤمن بذلك، وبرغم أن الدكتور قد شرح بشيء من التفصيل الآية الكريمة التي ذكرت في المحاضرة إلا أننا نحب أن نستزيد في هذا الأمر؛ لأن هذا الأمر يوجه كثيراً من المسلمين خاصة أولئك الذين تغربوا في الخارج؟

ج: قبل الإجابة أحب أن أقول لكم على الأقل من لم يذهب منكم أو يعيش هنالك كثير مما تظنون أنه يعني أسئلة تشغل أذهان الناس هنالك ويناقشونكم فيها ليس هذا بصحيح، ولا تعتقدوا أن الشعوب هذه خصوصاً الأمريكان لا تظنوا ولا تكن لديكم أفكار مهولة عنهم ومثالية أنهم دائما يلجؤون للتفكير المنطقي والعقلي، ويهتمون بالقضايا العلمية هذا ليس بصحيح، الأمريكان العادي سواء كان طالباً أوغير طالب فهو من أكثر خلق الله سذاجة، ومن أكثر الناس ضيق أفق، لا يعرفون ما ذا يدور في

العالم إذا تكلمت معه ربما لو قلت له أنا من السعودية سيقول لك السعودية هذه في أمريكا أو في أستراليا؟! لا يعرف أين السعودية وربما حتى لو قلت له أنا عربي لا يعرف الفرق بين عربي ومسلم وعربي وباكستاني، كثير منهم لا يعرف عن هذا شيئاً لكن هم شعب كبير ولهم مؤسسات ممتازة فخرجت بعض الناس المتازين هم الذين يحكمون الحياة، أما عامة الناس فليسوا كذلك، وأنت لا تشغل نفسك بما لا تجيد فرحم الله امرءًا عرف قدر نفسه. وقال أحد الكتاب -أظنه الجاحظ- اللهم إنا نعوذ بك من التعرض لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، فلا تناقش إنسانا في أمر أنت لا تحسنه قل والله يا أخي أنا مؤمن وهذا الدليل الذي أنا مؤمن به تفاصيل وكذا أنا لا أعرف، وتكلم معه في أشياء أخرى، أو على الأقل تكلم مع إنسان يؤمن بوجود الخالق، لا تضيع وقتك مع إنسان لا يؤمن بوجود الخالق ويثير الجدل، ومعلوماتك هذه التي تعرفها عن الإسلام، والتي عرفتها منذ المرحلة الابتدائية كافية لهداية كثير من الناس؛ لأنهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، والحقائق التي تظنها أنت بدهية بالنسبة لك وحقائق بسيطة وكذا بالنسبة له شيء يبهره يعني كثيرون منهم يتعجبون لاسيما النصارى منهم الذي عنده دين منهم إذا قلت له إننا نحترم المسيح ونعتقد أن الذي يسبه ليس مسلما مثلا أو اننا نعتقد أنه نبي والفرق الوحيد بيننا وبينكم، ونعتقد أنه ولد بطريقة معجزة وأن ليس أب هذه تبهره جدا يستغرب كيف أن أناسا من غير النصارى يقدرون المسيح هذا التقدير ثم تقول له لكن الفرق بيننا وبينكم أنكم تعبدونه وأننا لا نعبده كما أننا لانعبد محمدا فسيستغرب أيضا وأنتم أيضا لا تعبدون محمدا، لأنه يظن أن موضع محمد ﷺ موضعه كموضع المسيح بالنسبة لهم فتقول له ولا حتى محمد عندنا نبي كما أن عيسى نبي كل هذه الأشياء تعرفها أنت وهي مفيدة جدا تقول له مثلا نحن عندنا لا يكفي أن الإنسان يقول إنه مؤمن بوجود الله، وإنما ينبغي أن يعبده والعبادة لا تكون عندنا إلا لله فنحن لانعبد محمداً ولا نعبد صنماً أيضا هذا يستغرب هذا فكرة التوحيد هذه التي بدأ بها الأنبياء، فالأنبياء لا يبدؤون مع الناس أن الله موجود أوغير موجود يفترض أنهم يقرون بأن الله موجود، ثم يقول له إن هذا الخالق هو الذي ينبغي أن يعبد إذا بعد ذلك سأله

وقال له الله موجود أوغير موجود بعد هذا يناقشه لكن لا يبدأ معه في هذه القضية؛ لأن كثيراً من الناس بفطرته يعرفون أن الكون له خالق، وإن كان الإلحاد قد انتشر في هذا العصر أكثر مما كان منتشراً فيما مضى، لكن على كل حال أنا قلت لكم إن هذا الموضوع طويل، وأنا كتبت فيه بعض الكتابات وأخشى أن التفصيل فيه لا يكون مثمراً كثيراً الآن في هذه الجلسة لكن لابأس مجاملة للأخ السائل أن أضيف بعض الأشياء، المنطق كله دائر حول هذه الآية، وعندما أقول الآية لا أعني أن الذي تخاطبه يؤمن بأن القرآن كلام الله لا أنا حتى بإمكاني أن لا أذكر الآية؛ لأن القرآن فيه نوعان من الحجج، حجج موجهة لغير المؤمنين بأنه من عند الله وحجج موجهة للمؤمنين ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

هذه من صيغتها لكم أنها تخاطب إنسانا لا يؤمن بوجود خالق فليس صحيحا كما يقول كثير من الناس أنك إذا استدللت بآية من القرآن فهو يظن أن الاستدلال بالقرآن لا يصلح إلا لمن يؤمن بأن القرآن كلام الله وهذا خطأ وقع فيه بعض الناس في الماضي وكثير من علماء الكلام والفلاسفة لذلك ذهبوا يبحثون عن الحجج العقلية في غير القرآن الكريم وقال لهم كثير من أهل السنة أن هذا خطأ لأن الحجج العقلية التي تثبت وجود الخالق ووحدانيته ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن كلام الله الحجج العقلية أساسها في القرآن الكريم فالقرآن يخاطب المؤمن كما يخاطب غير المؤمن فأنا بإمكاني أن أقول له نحن عندنا حجة عقلية في كتابنا وهذه الحجة العقلية هي كذا كذا وأنا عملي سيكون شرح لهذه الحجة العقلية فبالنسبة لوجود الخالق أيضا لا تستسلموا لما يقوله لكم الملحدون واسألوهم وناقشوهم كما يسألونكم هم، يعني الملحد الآن يظن أن المؤمن هو المطالب بالدليل وأنه يجلس مرتاح حتى يبرهن له يعني كأن المؤمن هو في قفص الاتهام فهو الذي يثبت أو ان المؤمن هو المدعي فعليه أن يثبت الدعوى الناس يفكرون بهذه الطريقة لكن هذا ليس بصحيح فأنا كنت كثيراً ما أقول لهم نحن عندنا مشكلة أنا هذا حلي لها، قل أيضا أنت ما هو حلك لها ماهي المشكلة؟ المشكلة أن عندي هذا الكون أنا وأنت نسأل من أين جاء؟ هذا سؤال

مشروع وإلا غير مشروع بعض العلماء في الماضي كانوا يظنون أن العلم قد جعل هذا السؤال غير مشروع غير ذي بال لماذا؟ قالوا لأن هذا الكون كما قلت لكم في مسألة الذرات أنه مكون من ذرات لا نهاية لعددها ، فإذاً السؤال عن من أين جاءت أو أنها هي نفسها أزلية يقول لك كما أنك تقول إن الخالق أزلي ما له بداية ولذلك لا يسأل عنه من أين جاء فكذلك هذه الذرات طيب لكن الآن هذا السؤال وهذا الكلام لا يقال الآن؛ لأن بحسب النظرية التي قلتها لكم مادة الكون محدودة، فالعلماء يعرفون أن هذه المادة ليست أزلية فإذاً السؤال من أين جاءت سؤال مشروع، أنا حلي للإشكال أني قلت خلقها خالق أزلي كذا كذا، ودليلي هذه المادة نفسها الدليل الذي قلته فأنت ما هو دليلك أقصد ما هو حلك لنفرض أن هنالك مشكلة اجتماعية في بلد من البلاد أحد الناس قدم نظرية قال أنا في رأيي أن هذه المشكلة تحل بالطريقة الفلانية هل ينام الآخرون وينتظرون حتى يبرهن هو أن كلامه صحيح أم أن عليهم أن يبحثوا كما بحث هو، فهذه من الأشياء التي تنبههم إليها فقل له يا أخي هذه مشكلة كبيرة لا تظن أنها تخصني أنا تخصك أنت أيضا لأن الإجابة عليها يترتب عليه أشياء كبيرة في الحياة وربما بعد الحياة ربما يكون كلامي صحيحا فما تفعل أنت عندما تموت وتجابه بأن هنالك بعث لابد أن تثيره حتى يأخذ الموضوع مأخذ الجد وإلا إذا كان مجرد مجادلة أحيانا لا هو فقط يعني يكون هدفه أن يسكتك أنت فحتى إذا كان هذا هدفه فحاول أنت أن تسكته، قريبا قبل سنة كنت في السويد في مسألة تتعلق بالدعوة، وفي محاضرة جاء بعدها شاب طبيب يعرفه بعض الإخوة السودانيين هنالك، وجاءني وبدأ يناقشني وبطريقة متعالية يعني مادام أن هذا رجل دين معناه لا يعرف شيئا في العلوم ولا في المنطق فعندما بدأت أجادله وبعض الأسئلة سكت عنها وقال لي لا أنت متمرس على هذه الموضوعات وأنا لست متمرساً عليها ، وبدأ يعتذر قلت له هذه قضية مهمة وليست مسألة تخصص في فرع من فروع المعرفة إذا كنت مهتما بها فعلاً فتمرس وحاول أن تعرف كل الإجابات على هذه الأسئلة التي تثيرك، أما أن تظن أن كل الناس سذج ويمكن أن تسكتهم بمثل هذه الأسئلة فأنت تضر نفسك، فلا بد أن تشعره بأن هذا الموضوع مهم، وأن بعض الأفكار التي في ذهنه أفكار ساذجة ، وأن بعضها مما أثبت العلم بطلانه فلا تشعره ولا تجعله يشعر أن العلم في صفه هو والعقل في صفه لا فنرجع

مرة ثانية فأقول سأقول له يا أخي نتكلم الآن عن مادة الكون هذه من أين جاءت؟ أنت قل لي أنا أقول لك ليس هناك إلا ثلاثة أشياء أو فروض إذا عندك رابع قل لي وإذا كنت تعتقد أن أحد هذه الاحتمالات أو أحد هذه الفروض أحسن من الذي اخترته فقل لي هل هذا الكلام واضح؟ فما فيه إما أن أقول إنه جاء من لاشيء، وإما أن أقول بأنه أوجد نفسه، وإما أقول إنه أوجده شيء من الخارج أو أقول وطبعا هذا سيكون شيئاً آخر غير الذي نتكلم عنه أو أقول إنه أزلي لا بداية له إذا اتفقنا أن له بداية فلابد من واحد من هذه، أما إذا كان أزلياً لا بداية له لا تنطبق عليه هذه الأشياء لأن الشيء إذا كان موجوداً منذ الأزل لا نسأل كيف جاء هو ما جاء من مكان هو موجود لا نسأل كيف جاء فلا تنطبق عليه هذه الأسئلة فإذا قال جاء من العدم وبعض الناس يقولون هذا لكي يتفادى مسألة الإيمان بالله يفضل أن يقول جاء من العدم، فأقول يا أخي هذا شيء غير معقول كيف يكون عدم محض ثم يأتي منه شيء ثم إذا قال يعني أصر على رأيه أقول له طيب يا أخي لماذا وصلت إلى درجة أن تقبل الشيء جاء من العدم فلماذا تعيب على إنسان يقول إنه خلقه خالق لنفرض أنكم الآن استويتم هذا قال جاء من العدم وهذا قال خلقه خالق ما الذي جعلك أنت أفضل من هذا؟ ما هو العلم أو العقل الذي تظن أنه في صف العدم أكثر من أن يكون في صف الخالق بعضهم أيضا قال خلق نفسه لكن بلف ودوران هنالك حجة لا أريد أن أتعبكم بها لكارل ماركس مؤسس الشيوعية يقول إن الإنسان هو الذي أوجد نفسه لكن فيها مغالطات فأيضا هذه إذا أوضحتها لشخص أن الشيء لا يمكن أن يوجد نفسه لأنه لكي يوجد لابد أن يكون موجوداً أليس كذلك كيف يوجد وهو ليس موجوداً وإذا كان موجوداً فلا يحتاج إلى أن يوجد فهذه فيه تفاصيل لها كما قلت لكم أن بعض العلماء وكذا بل هنالك عالم وهو الآن تراجع عن رأيه قال وكان له نظرية غير النظرية التي كلمتكم عنها النظرية التي يسمونها بق بانق كانت له نظرية أخرى، والنظريتان أساسهما ظاهرة واحدة وهذه الظاهرة غريبة اكتشفها العلماء، وهي أن هذا الكون الذي نعيش فيه يتباعد عن بعضه، فإذا كان عندنا مثلا هذا وهذا وأنا فلاحظوا أن هذه الأشياء تبتعد لكن لاحظوا أيضا شيئا غريبا أنه بالرغم من أن بعضها يبتعد إلا أن كثافة المادة في نطاق محدود ثابته، يعني أنا أضرب لها مثل دائما تصور أنك في دار رياضة هنالك

آلاف من الناس ثم فتحت الأبواب وبدأ الناس يخرجون وبعد ساعة التفتنا فإذا العدد كما هو هذه المسألة حيرتهم كيف أنه يتباعد ثم العدد كما هو، فهذا كانت له نظرية تقول إن الخلق مستمر، هنالك خلق في الوقت الذي هذه تكون هذه قد خرجت وبعدت بالمرة عن النطاق الذي يمكن أن نراها فيه حتى بالآلات المكبرة يكون في هذا الوقت خلق شيء وحل محله لكن قالوا من أين يأتي هذا الشيء نحن عندنا مثلا مساحة كهذه، وعندنا فيها أربعة أو خمسة أشياء، بعد قليل كلها خرجت المفروض أن يكون هناك فراغ لكن مازال عندنا خمسه من أين جاءت هذه قال هنالك ذرات تخلق من العدم، وهو ملحد الآن ما فيه ذرة بعد ثانية فيه ذرة فثار عليه كثير من العلماء، والغريب أن بعضهم ثار عليه لأنه ظن أن حجته هذه ستؤيد الدين حتى أنني ناقشه بعضهم فقلت يا أخي هذه لا تؤيد الدين هم ظنوا أن يقول أن الله يخلق الأشياء من العدم فهم ظنوا أن هذه النظرية سيكون فيها تأييد للدين قلت لهم هذه ما فيها لأنه لوكنا نعتقد أن الأشياء تأتي من العدم المحض بطريقتها هذه لما كان فيه لزوم أن نقول إن الكون له خالق هذه لا تؤيد الدين لكن المهم أنهم ثاروا عليه ثم تراجع عن رأيه، فالقول بأن الأشياء تأتي من العدم المحض شيء لا يقبله عقل وإن كان بعض الناس يقولون به، ومن قراءاتي لهم ما يقولون به إلا لأنهم لا يريدون أن يقولوا إن الكون له خالق مستعدون أن يدفعوا هذا الثمن أن يقولوا إن الشيء يأتي من العدم ولا يقولوا إن له خالقاً فإذا ما بقي أن نقول إن هذا الكون له إن الشيء هذا المادة هذه لها يعني خلقها شيء غيرها ما هو هذا الشيء؟ يمكن أن نفصل هنا بعض التفصيل الذي لم أذكره في المرة الماضية نقول إن أولاً هذا الشيء الذي خلق لا يمكن أن يكون كهذا الذي خلق بضم الخاء؛ لأنه لو كان مثله وحادثاً سنسأل عنه نفس الأسئلة نفس الثلاثة احتمالات فإذا بالعقل نقول إن الخالق النهائي لابد أن يكون أزلياً، ولذلك علماؤنا كانوا يقولون إن وجود الحادث هو نفسه دليل على وجود خالق غير حادث يعني هي ليست مجرد إيمان واعتقاد لا، ولذلك نسمي هذا الكون آيات الله فالأمر نفسه برهان كأن كل جزء من أجزاء الكون يشير إلى خالقه، فهو نفسه دليل على أن له خالقاً غير حادث أزلي، فنقول إنه إذا عرفنا صفتين من صفاته أنه أزلي وإذا كان أزلياً لا بداية له فهو أبدي لا ينتهي؛ لأن الذي لا يبدأ لا ينتهي أيضاً هنالك حجة لهذا، ثم

نقول إنه كان قد خلق فلا بد أن يكون قد خلق بإرادة وإذا كان خلق بإرادة فلابد أن يكون حيًّا وإذا كان خلق بإرادة وحياة فلا بد أن يكون عالماً وهكذا كثير من الصفات التي وردت في القرآن الكريم يمكن أن نصل إليها بالتفكير العقلي وكما قلت لكم إن هذا التفكير العقلي أسسه موجودة في القرآن الكريم يعني مثلا ألا يعلم من خلق إذا قلت إنه خلق فلا بد أنه أن تقول إنه يعلم فإذا كان قد خلق لابد أن يكون عالماً وهكذا في صفات الله سبحانه وتعالى يمكن الاستدلال عليها ، فالتفاصيل ليست في البرهان على وجود الخالق البرهان يسير جداً وهو الذي عندما يقول الناس إيمان العجائز في الحقيقة إن إيمان العجائز هو مرتكز على هذا البرهان من غير هذا التفصيل الذي قلته؛ لأن الإنسان بعقله يعلم أن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد جاء من العدم إذاً لابد له من خالق، وهذا يكفي التفاصيل تكون في الرد على الشبهات التي يثيرها الآخرون فإذا كان لأحدكم شبهة مؤثرة فيه أو سمعها من إنسان يمكن أن نجيب عليها إن شاء الله إن استطعنا ، وفيه كتاب أنا قرأته من زمن طويل لا أدري ما رأيي فيه الآن لكن عندما قرأته استفدت منه كتاب اسمه قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر قصة الإيمان بين الدين والفلسفة والقرآن أو هكذا ، وأظنه موجود في الأسواق أنا لي مقال صغير اسمه نقض الأسس الفلسفية للمذهب المادي، وهنالك أيضا رسائل رأيتها في بعض المكتبات وأظنها جيدة لا أحفظ والله الآن المؤلفين لكن في نقض الإلحاد أو نقض المذهب المادي ووحيد الدين خان كتب بعض الكتابات في هذا الموضوع، كتابات الشيخ الزنداني عن الإعجاز العلمي ولها علاقة بهذا الموضوع.

س: في بداية حديثك بدأت نقاشك في أسلوب استخدام المنطق والعقل في إدراك الأشياء فربطت وجود الخالق بالموجود؛ فقلت لكي ندرك الخالق بربطه بالموجود يعني شغلات محسوسة حسية، وبعدين تطرقت إلى أصل الأشياء ومكوناتها من ماء..إلى آخره يعني كل أشياء ملموسة ومحسوسة، ثم انتقلت إلى صفة في المناقشه الذي هو نصل إليها لمناقشة أي إنسان ملحد ألا وهي الوصول إلى الله هو أزلي، عندي تعقيب على هذا الكلام.. نحن في البداية بدأنا النقاش منطقياً.. المنطق أو العقل لا يدرك معنى أزلي يعني ما يصل إلى تفسير أزلي فنحن ندرك مثلا حسب النظريات أن أصل الأرض أو

أصل مكونات الكون كانت عبارة عن ما وصل إلينا عن طرق الكتب هو الغاز الكوني وشرارة تكون الكون وما إلى ذلك، فلما تجيء الآن وتقول لي المنطق وبعدها تقول لي أزلي العقل البشري أضعف من أن يدرك المعنى الكبير والمترامي لكلمة أزلي، يعني عندما تقول لي إن الله خلق الشيء الذي أمامي وطبعا عندما تقول لي أزلي يعني قدرته أوجده من لا شيء فلما أدخل في نقاش منطقي بحت دائما أصل إلى حدود لإدراكي وإحساسي يعني حدود المنطق عندي وحدود العقل وما يتوصل إليه العقل فصعب أني أدخل في نقاش منطقي وبعد ذلك أتوقف عند شيء هو ما يدركه الملحد لأني أنا نفسي ما أقدر أوصله له، الأزلية نفسها ليس هناك أحد يمكن أن يتخيلها بقدرتها باللامتناهية فيها .

ج: نعم يا أخي هنالك فرق بين أن تعرف معنى الشيء أو أن تتخيله كما قلت أنت في البداية التخيل شيء وإدراك المعنى شيء آخر الناس، يدركون معنى أزلي لكن لا أستطيع أن أتصور وأتخيل أضع له صورة يعني لوقلت لي جبل أضع له صورة في ذهني اثنين ثلاثة كلما كثر العدد صعب علي التصور فإذا قلت لي: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

التخيل انتهى ما أستطيع كل هذا الشجر الذي في الأرض أقلام وكل قلم يغمس في البحر ويكتب، وإذا انتهى البحر جاء بعده سبعة أبحر هذا قريب من اللا نهائي لذلك القرآن الكريم وضعها في صورة جزء منها يتخيل لكن الإنسان بعد قليل يعرف أن هذا الخيال لا نهائي لا يمكن، ففرق يا أخي بين أن لا تستطيع أن لا تتصور وتتخيل وبين أن لا تعرف وإلا الناس يعرفون في الرياضيات اللانهائي ويستعملون الكلمة حتى بعض الأشياء التي يستعملها الفيزيائيون لا يتخيلونها وإنما يصلون إليها بالحجة يعني عندما تقول لي إن العالم المكان منحني هو فارغ ومنحني كيف، أو تقول الأبعاد أربعة لا تتصور أن الأبعاد بدل ما تكون طولا وعرضا وارتفاعا ومعه زمان لا تتصور ففرق بين أن لا تستطيع أن تفهم المعنى وبين أن لا تتصوره، فنحن في حدود العقل مادمنا نقول إنه أزلي بالمعنى وعندما نقول نبدأ بالمحسوس ليس معناه أننا نريد أن نقف عند

حدود المحسوس، بل نريد أن نقول إن هذا المحسوس نفسه يدلنا على وجود شيء لا نحسه الآن، وبالمناسبة علماء المسلمين ما كانوا يقولون إن الله غير محسوس ما كانوا يقولون، بل بعضهم يقول هذا التعبير خطأ نقول لا نحسه الآن لا نراه لكن في الجنة إن شاء الله نراه فهو محسوس بهذا المعنى يرى في الجنة (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فالله يُرى والملائكة في صور من صورها تُرى والجن يرى، فحتى بعض علماء المسلمين كشيخ الإسلام ابن تيمية يقول إنه لا يمكن أن يكون هنالك شيء موجود ولا يمكن أن يحد إطلاقا تحت أي ظرف من الظروف ولأي حي من الأحياء لا يمكن، فنحن لا نقول إن الله غير محسوس ولكن نقول لا نحسه الآن ولكن الأشياء التي نحسها هي نفسها تقول لنا إن هنالك شيئاً إن هنالك هذا الخالق الذي لا تحسونه الآن أو لا ترونه الآن.

س: أرجو من الدكتور الكريم أن يوضح هذه الجملة، وأن يضرب على ذلك أمثلة وهي أن العلم لا يتغير ولكن المعلوم هو الذي يتغير وذلك قد يحدث الالتباس وهو أن يعتقد الإنسان أن القرآن كالعلم أعني بذلك على سبيل المثال لا الحصر الفيزياء والكيمياء وغير ذلك، ولماذا لا نقول إن القرآن يشير إلى إشارات غيبية لحقائق علمية وشكراً.

ج: يا أخي هذا الكلام أيضا خطأ هل القرآن كله عن حقائق غيبية ؟ ليس بصحيح القرآن فيه كلام عن الجاهلية والعرب وعادتهم وفيه كلام عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه كلام عما سيحدث في المستقبل وفيه كلام عن المطر والرعد والبرق والجبال والأنهار هل هذا كله غيبي ؟ ليس غيبيا، والغيبي حتى لا يفصل فيه كثيرا فهذا الكلام أيضا خطأ ؟عندما قلت إن المعلوم يتغير نعم حتى هذا بالنسبة للقرآن لكن يظل العلم صحيحاً يعني إذا قال القرآن عن فلان الفلاني إنه فعل كذا، وأنه سرق أليس معنى أنه سرق أنه موجود ؟ طيب إذا مات نقول الكلام صحيح بحسب هذا الوصف الذي جاء أنه في الوقت الفلاني كان حيا وسرق الآن مات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، هذا الكلام يقال للرسول ﷺ وهو حي الآن أصبح

تاريخا ليس هناك رسول حتى يبلغ ما أنزل إليه من ربه وما قاله القرآن الكريم مئات واللات والعزى هل تقول لي الآن انما في القرآن ليس صحيحا لأنه ما فيه منات ولافيه عزى لا هو قاله في وقت كانت فيه هذه الأشياء موجودة فما قرره صحيح لكن الشيء يتكلم عنه الآن لاوجود له وكذلك على فرض وقلت على فرض لأني لا أعتقد أن الأرض ستكون مكعبة لكن على فرض أن شكل الأرض تغير فصارت مكعبة القول بأن الأرض كرة أو كروية لا يكون باطلا لأننا قلنا أنها كرة حتى عام كذا إذا بعد ذلك تغير الذي علمناه فنحدث علماً جديداً يعني يتمشى مع الأمر الذي جد، وإذا كان الكلام غير واضح أرجو من الأخ الذي سأل أن يستفسر.

س: تكلمتم عن أنواع النظريات وقلتم إن النوع الأول نظريات باطلة فماهي الأنواع الأخرى ؟

ج: ما تكلمت عنها؟ متأسف فيه نظرية باطلة، ونظرية ليس هنالك نظرية يقولون إنها حق بمعنى الحقائق الجزئية، ولكن يقولون إنها ناجحة كما أن القانون يفسر الأشياء الجزئية فالنظرية تفسر القانون فكلما نجحت في التفسير كلما كان هذا أحسن، وهنالك نظريات في موضع التجربة فهي أحسن من الباطلة وأقل من هذه التي نجحت فهي في موضع التجربة، نجحت في أشياء لكن ما زلنا يعني نضعها موضع التجربة حتى تثبت فهي هذه الأنواع التي تحدث عنها العلماء أنا متأسف إذا كنت نسيت ولم أتحدث عن النوعين ونحن في حكمنا عليها كما قلت أن نتبعهم في هذا لأن هذه أحكام عقلية، ولكن نضيف إليه كما قلت لكم من أن عندنا مصدر آخر للمعرفة ليس هو الكون المحسوس فقط، فإذا كان هنالك أشياء قالتها نظرية مثلا في نظرية داروين نقبل أشياء كثيرة لكن الأشياء التي نعلم من القرآن الكريم أنها غير ما قال دارون نقبل كلام دارون يعني فكرة التطور مقبولة، بعض الناس يخلطون بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور فكرة التطور مقبولة بل يبدو أنها سنة الله سبحانه وتعالى في الأشياء هل رأيتم شيئا خلقه الله سبحانه كاملا منذ اللحظة الأولى أبدا الشجرة تبدأ بذرة والإنسان يبدأ كذا والقرآن نفسه يتكلم عنها ثم يتطور ويتطور ثم ينتهي وهكذا ففكرة التطور سواء كانت بالنسبة لأفراد المخلوقات أو لجنس من المخلوقات ليس هنالك قي الدين ما يمنع من القول بها، بل هي التي يبدو أن الحقائق

الظاهرة لنا والحقائق التي اكتشفها العلماء تؤيدها، لكن هنالك فرق بين فكرة التطور ونظرية خاصة في التطور، بعض الناس حتى من العلماء لا يقبلون بعض كلام دارون في التطور، وإن كانوا يقبلون فكرة التطور، يعني لماذا انقرضت بعض الحيوانات وبقي بعض، ودارون جاء بنظرية البقاء للأصلح وبعض العلماء لا يقبلون هذا، ويفسرون البقاء أن بعضها يبقى وبعضها يزول بتفاسير أخرى ولا يقبلون كلام دارون.

س: ما هو خطر الشيعة على السنة مع بيان مذهبهم؟

ج: هذه تحتاج محاضرة ارجو من الإخوان أن يهيئوا لكم شيئا من هذا وأنا مع السائل بأن هذه مسألة مهمة بعضكم سيواجه هذا الأمر والشيعة عندهم جرأة وإقدام في الكلام ومغالطة، فلا بد أن يكون لكم بعض العلم بأقوال الشيعة وبالردود عليها، ستجدون أن كثيرا من المسلمين من أهل السنة متحمسون ولا يعرفون شيئا عن الشيعة فمما تفيدون به إخوانكم أن تعرفوا شيئا عن الشيعة ومن كتبهم والأحسن أن يكون من الكتب الحديثة إن وجدت هذه الكتب يعني أول ما تقول لهم يا أخي هم يسمون أنفسهم شيعة بعض الناس لا يريد حتى يعترف بأن هنالك شيعة، قل له يا أخي فيه أولا هذه حقيقة كوجود الأشجار والأنهار فهنالك قوم اسمهم شيعة وهم يقولون أنهم مخالفون لأهل السنة، فاسألهم ماهي الأشياء التي يخالفون فيها أهل السنة ولا نتحدث عن الأشياء التي يختلف فيها الشيعة نركز على الأشياء التي يجمع عليها الشيعة والأشياء الأساسية، لا نتكلم عن المسائل الفرعية فهذه المسائل الأساسية ينبغي أن تعرفوها وتعرف بعض الردود عليها من أخطار الشيعة التي أرها في العصر الحديث أنها شقت وأحدثت فتنة في كثير من الجماعات الإسلامية كنا نذهب إلى البلاد فنجد أن العاملين للإسلام من الشباب كلمتهم واحدة وجماعتهم واحدة ثم جاء الشيعة فأحدثوا بينهم خلافات وبعضهم صاروا متحمسين لإيران فأحدثوا خلافات وأثروا في بعض المسلمين الجدد فتنة أنت تقنعهم وتكلمهم عن الإسلام عن أصول الإسلام والتوحيد فيأتونه ويعطونه كتاب عن الأئمة الاثني عشر، فأحدثوا بعض الفتن فأرجو أن يكون لكم معرفة حتى لو لم تكن محاضرة هنا أنا رأيت في قائمة الكتب كتاباً عن الشيعة والسنة، على الأقل هذا الكتاب اقتنوه وهنالك في المكتبات كتب في هذا

الموضوع، لكن من أراد منكم أن تكون له حجة أقوى فليقرأ في كتبهم الحديثة ويقرأ ما يكتبونه في الصحف ولا تكتفي بما يكتب على سبيل الدعاية، لأن الأشياء التي تكتب باللغة العربية تكتب للدعاية فقط، وهنالك رسالة جيدة جدا قرأتها قريبا للشيخ أبو الحسن الندوي ستجدونها في الغالب في أمريكا فأرجو أن تطلعوا عليها وهو يناقش كتابا للخميني مكتوب باللغة الفارسية.

س: فضيلة الشيخ ما تفسيركم للضعف الظاهر في عالمنا الإسلامي في تطبيق الحضارة الغربية في جوانبها الإيجابية التي لا تتعارض مع الإسلام؟ وماهي الوسائل التي عن طريقها تحقق ذلك في نظركم وشكرا؟

ج: ضعف المسلمين حتى في دينهم ضعفاء ليس في تطبيق الحضارة الغربية فقط، ومن أسباب القوة إن شاء الله ومن أسباب النهضة أنتم هذه الأشياء لها بدايات نحن نرجو منكم أن تكونوا أحسن ممن سبقكم أن تعرفوا دينكم وتلتزموا به فتكون عندكم ثقة به واعتزاز وأنكم على الحق وأن كل من لا يدين بالإسلام على الباطل فلا يكون الواحد منكم شخصية مهتزة كل ما يقوله لك أي إنسان تعتبر كأنه حقيقة وما عندك أنت هو الذي فيه شك، كثير من الناس عندما خرجنا من هنا قال لي أحد الطلاب إنه كان في بريطانيا وناقشت بعض الناس وبعض الكلام الذي قالوه له كلام خرافة، قلت له يا أخي كما أنهم قالوا لك ما دليلك على كذا وكذا قل لهم ما دليلكم أنتم على هذا الكلام الذي قلتوه، لماذا أنت تكون دائما في موقف الدفاع والمطالب بالدليل إذا قال لك كلاماً لا تسلم بأن كلامه هو الكلام العلمي والكلام العقلي وتخاف قل له ما دليلك أنت فنريد أن يتخرج إن شاء الله في العالم الإسلامي شباب يعرفون دينهم ويعتزون به ويلمون بالحضارة الغربية وبواقع العالم ويأخذون حتى في أشخاصهم بالأحسن والمفيد من العلوم فيجتهدون كل في تخصصه يجتهد فيه ويبرز فيه ويحاول أن يكون عالما إن شاء الله، لا نريد أن نبقى دائما تلاميذ للغربيين نقرأ كتبهم ونترجم إلى اللغة العربية ومجلاتهم نريد أن يبرز منا ومن بينكم إن شاء الله بعض العلماء الذين تترجم كتبهم إلى اللغات غير العربية، وهذا ليس بالسهل النهضات دائما يبدأها أفراد إذا نظرتم في تاريخ الغرب هذا ما بدأ بحكومة وإنما بدأ بأفراد، نيوتن هنا وفلان هنا اجتهد وكان هؤلاء العلماء يعيشون عيشة الزهاد، ومازال بعضهم

كذلك وهذه من النواحي الإيجابية في حياتهم علماؤهم هؤلاء لا يفكرون كثيرا في الدنيا من حيث جمع المال والمظاهر وكذا أنا درست مع رجل مكثت معه سنة كاملة ما رأيته غير بدلته ويأتي في الأسبوع مرة كل مرة يأتي بنفس البدلة لأنه مشغول يكتب ويناقش ليس مهتما بالمظهر والزخارف، فلا بد من أن يتخرج إن شاء الله منكم من هذا النوع الذي يكون مستمسكا بدينه ومجتهدا ومبرزا في العلم الذي تخصص فيه ومعتزا ليس بدينه فحسب بل حتى بتقاليده، الأشياء التي هي من باب التقاليد لماذا أترك تقليدي إلى تقليده من السخف مثلا وإن كان هذه مسألة دينية أن يذهب إنسان مثلا إلى بريطانيا فيجد الناس يأكلون بشمالهم فيأكل بشماله لماذا ويجد عسرا في هذا الإنجليزي يأكل بشماله بسهولة لكن هذا ما يستطيع يتعب لكن يظن أنه سيقال له إنك غير متحضر إذا أكل بيمينه، فحتى الأشياء التي هي من باب التقاليد لا تتركها لأن تركها يدل على الضعف ويدل على أنك تحب أن تقلدهم في كل شيء ثم إذا درستم هذه العلوم أيضا ادرسوها بعين ناقدة لا تكون كالإنسان الذي يسلم بكل ما يقال له، هم أنفسهم أؤكد لكم أن المبرزين منهم لا يفعلون هذا أبدا الطلاب الأذكياء منهم والذين يأتون بنظريات جديدة ليسوا هم الطلاب الذين يقبلون كل ما يقال لهم ويحاولوا فقط أن يحفظوه ثم يكتبوه على ورقة الإجابة أبدا الطالب النجيب والذي يرجى منه هو الذي يفكر فيما يقال له ويعلق عليه وينتقده فنريد أيضا أن تكون هذه من مزاياكم فإذا عدتم حاولتم أن تطبقوا على مجتمعكم أحسن الأشياء التي درستموها أورأيتموها وأن تنفوا عنه كل شيء يعني أخذه الناس بمجرد التقليد، أنا في رأيي أن هذه أول خطوة وإن شاء الله تتبعها خطوات أخرى.

س: من خلا ل الضوء الذي ألقيته في بيان التفاسير أن ما كل آية في القرآن نحن قاطعون في فهم معناها كاملا في أن تناقش وتقيم فيما كان أمران قاطعان أو كان قاطعا وظني أو إن كانا ظنيين إلا ترى أيها الأستاذ الفاضل أننا هنا قد فتحنا ثغرة نستعملها في التشكيك والأخذ من عقيدتنا، هلا تكرمت بالرد بالمنطقي الثابت على هذه الثغرة

ج: ما هي هذه الثغرة لست أدري وهذا ليس كلامي هذا كلام عالم كبير جليل من علماء المسلمين وهو شيخ الإسلام ابن تيمية ماهي الثغرة هل تدعي دعوى باطلة تقول

أنا أعرف معنى كل آية أنا ما قلت كل أن الناس لا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم يعرف لكن ما كل الناس يعرفون والعلماء يختلفون في معاني بعض الآيات إذا قرأتم في التفسير تجدون هذا فنحن لا نقول إننا نقطع بأن القرآن كلام الله ونعرف المعنى العام لمعظم القرآن الكريم لكن المعنى الدقيق لبعض الآيات لا نعرفه، قد لا يعرفه إلا قلة منا فهذا ما فيه ثغرة والحفاظ على الدين بمعنى أنك تقول لا نناقشه أبدا ولا نقارن بينه وبين العلم خوفا عليه هذا نفسه يدل على الضعف، وهو شيء مستحيل كما قلته لكم مستحيل عليك إلا أن تعذب نفسك أن تكون مختصا في علم من العلوم وتكون متدينا وتقرأ القرآن الكريم ولا تخطر ببالك بعض الأسئلة وأنت تقرأ القرآن، مستحيل هذا فلا بد من أن تعرف كيف تجيب على هذه الأسئلة التي تخطر ببالك لا تحاول أن تكبتها وتقول هذه مالها علاقة بالقرآن الآن أقرأ القرآن فقط لا يمكن .

س: فضيلة الشيخ من أهم قوانين الفيزياء والتي درسناها خلال المرحلة الثانوية أن المادة لا تفنى ولا تستحدث فهل يعني من اجابتكم الكريمة أن هذا القانون خطأ حيث أن الكون كله ليس أزليا ولفضيلتكم جزيل الشكر؟

ج: نعم أنا قلت لكم كتبت مقالا فيه شيء من التفصيل في هذه المسألة وهذه من الخرافات التي شاعت باسم الفيزياء أولا هي ليست حقيقة ألسنا تحدثنا عن الحقائق ليست حقيقة، ما أحد يقول أنه وجد أن المادة كلها لا تستحدث ولا تفنى ما فيه فهي ليست حقيقة وإنما هذا شيء رابع حتى غير النظريات وغير القوانين إنما هو فرض من الفروض وبعض العلماء من الغربيين كما ذكرت في ذلك المقال انتقدوا هذا الكلام هذه العبارة بشكلها هذا هي فلسفة يونانية ثم لأن الغربيين متأثرون بالفلسفة اليونانية هنالك ظاهرة وجدوها فأرادوا أن يعبروا عنها فعبروا عنها بهذا التعبير غير الصحيح ماهي الظاهرة كما تعرفونها أنتم في المدارس أنا إذا أحرقت هذا ووزنته الآن ووجدته نصف رطل وأحرقته ووزنت الرماد فلا أجده إلا ربما أوقيه أو كذا أوأقل فأين ذهبت في الماضي يقولون أن هذه فنيت انتهت أصبح لاوجود لها العالم الآن يقول لا إن الدخان الذي خرج والغازات إذا جمعناها كلها ووزنها تكون كوزنها الأول، إذا الصندوق هذا بالرغم أنه قد ذهب وصار رمادا لكن هذه المادة تحولت إلى أشكال أخرى من كذا

ومن كذا ولذلك الذي نصل إليه أن كمية المادة ثابته ولذلك بعض الناس في التعبيرات باللغة الإنجليزية كانوا يقولون في الماضي لما كنا طلاب لا تخلق وعندما ترجمناها رأينا أن هذه تسبب مشكلة فقال لا تستحدث فنستعمل كلمة أخف لكنها نفس المعنى لكن لو قال المادة لا تخلق كيف لا تخلق مع أن لا تستحدث لا تخلق أليس كذلك ؟ فلعب علينا المترجم وقال المادة لا تستحدث ولا تفنى فهم الآن يقولون كميتها ثابته، ما نتعرض أنها خلقت أو ما خلقت وقلت لكم كذلك في المقال نقلت كلاما عن أحد العلماء وهو ليس من المتدينين قال يمكن أن تكون كميتها ثابته وأن تخلق وتفنى وضرب مثلا جيدا جدا مثل بحساب جاري في البنك أنا عندي المصرف عشرة آلاف ريال أعطيت واحد شيك بألفين وأدخلت في البنك ألفين حسابي هو هو ثابت لكن أخرجت منه وأدخلت فيه، وبكرة عملت نفس الشيء فيه حساب ما أحب أن أتعامل معه بالكاش لكن ما أحب أن حسابي في المصرف ينقص لأن المصرف يقول لي مثلا أن أقل من عشرة آلاف لا يمكن فأعطيه ألف من هنا وأدخل ألف من هنا فيظل الحساب ثابتا، وضرب مثلا أحسن من هذا قال تصور أن هنالك صهريج ماء نصب فيه ماء من هنا ونخرج ماء من هنا بقدر الذي صببناه هنالك، هل تتغير كمية الماء التي في داخل الصهريج ؟ لا تتغير هل يظل الماء نفس الماء الذي صببناه أول مرة ؟ لا يتغير حتى مثلا لو كان الماء الذي في البداية لونه أخضر وبعد قليل صببنا ماء عاديا وبعد مدة سيكون الماء عاديا ثم صببنا ماء أحمر وبعد قليل سيكون احمر، فالكمية ثابتة لكن المادة متغيره فقال إن الإنسان المتدين يمكن أن يقول هذا يقول إن الله سبحانه وتعالى دائما يخلق ذرات ويفني ذرات وتكون الكمية ثابتة فالكلام الذي درسوكم إياه ليس بصحيح، من ناحية دينية ليس بصحيح، لان الله خالق كل شيء ما قال الله خالق كل شيء إلا المادة وإذا ما خلق المادة ماذا يخلق، وليس صحيحا من الناحية العلمية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

* * *

الغزو الفكري

وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

عبارة الغزو فيها بعض التجوز، فكأنه أصبح هذا الفكر هو الشيء الطبيعي فلا يعتبر غزواً فكريًا، فمثلا حينما يقال لماذا يقتل المرتد ؟ هذا السؤال في الماضي ما كان ينشأ، لكن ما الذي جعله ينشأ ؟ الذي جعله ينشأ هو الاعتقاد بأن الديمقراطية هي النظام الطبيعي، في نطاق الديمقراطية ما فيه مجال لقتل الإنسان المرتد فلذلك ينشأ السؤال، أو بعض الأشياء المحرمات مثل تحريم لحم الخنزير لماذا ؟ لأن الغربين لا يأكلون لحم الخنزير، هذا هو السبب فقط، فلهذا يصبح قضية، أذكر مرة كنت أتكلم في جامعة من جامعات بريطانيا لبعض المسلمين، فسألني أحد الإخوان قال لماذا لا نأكل لحم الخنزير؟ فقلت لمَ يسأل هذا السؤال، فقال رئيس الجلسة إذا لا تريد أن تجيبه أنا أجيبه، فسأل الذي سأل الأخ الذي سأل السؤال وقال له لماذا لا نأكل لحم الكلاب؟ فلم يجب، وقال لا نأكله وقال له لماذا لا تسأل لماذا لا نأكل الكلاب؟ لماذا سألت عن الخنزير؟ فلم يب فقال أنا أجيبك ما سألت عن الكلاب لأن الإنجليز لا يأكلونه، فاعتمدت أن ما يفعله الإنجليز هو الأساس هو الشيء الطبيعي وما لا يفعلونه هو الأمر الشاذ، فهناك قضايا فأنا ذكرت منها أشياء أثناء الكلام، منها كالقضية التي ذكرتها بالمحاضرة الأولى وأنا في رأيي أنها أكبر قضية وهي الاعتقاد بأن الموجود هو الموجود المادي، هذه القضية تؤثر في تصورات كثيرة عندنا تؤثر في تصور الإنسان للألوهية، تؤثر في تصوره للملائكة، تؤثر في تصوره في نعيم الآخرة، لأنه إذا اعتقد أن الموجود حقيقة هو هذا وهو مع ذلك يريد أن يؤمن بالله ويؤمن بالملائكة ويؤمن بنعيم الآخرة فلابد أن يتصوره وكأنه شيء ليس بحقيقي، إما في عالم الأفكار أو يدخله في العالم النفسي أوفي كذا لكن لا يكون موجوداً حقيقياً؛ لأن الموجود الحقيقي الخارجي الذي يمكن أن يُرى ويمكن كذا هو الموجود المادي، هذه من الأفكار الغربية التي أثرت في المسلمين، ليس من الفكر الغربي الحديث فقط وإن كان قلته في المحاضرة وإنما هو من الفكر اليوناني؛ لأن الفكر اليوناني كان فكراً مادياً، وبالمناسبة العبارة المشهورة (المادة لا تستحدث ولا تفنى) عبارة يونانية ثم جاءت وأخذت

شكلاً فيزيائياً وصارت تقال لأبناء المسلمين وكأنها جزء من الحقائق الفيزيائية، لا ما كانت حفظ الكتلة حفظ الكتلة تعبير أحسن لكن المادة هذه العبارة المادة لا تستحدث ولا تفنى، حتى أنا أقول للطلاب حتى الذي ترجمها، ترجمها بطريقة تكون ما فيها استفزاز لمشاعر المسلمين وإلا هي في أصلها المادة لا تخلق، ولو قال المادة لا تخلق ما كان الناس قبلوا، ولكن لو قال ما تستحدث ولا تفنى فقبلوا، وهي نفس المعنى أما إذا قلت إن كمية المادة لا تتغير هذا ما فيه شيء ضد الدين، لأن الفكر اليوناني كان فكراً مادياً إلحادياً، فكان يعتقدون أن هذه المادة أزلية لأن الذي يقول بعدم وجود الخالق لا بد له أن يقول أن المادة أزلية وإلا فيكون السؤال من أين جاءت؟ فيقول ما جاءت من العدم فيعطيها بعض صفات الله تعالى بأنها ليس لها بداية وليس لها نهاية وهذا هو الله سبحانه وتعالى من صفات الله هو الأول والآخر فلا بد له من أن يعطي هذه المادة هاتين الصفتين، واستمر هذا الاعتقاد إلى زمان نيوتن، فقط اختلفوا طوال العصور في ما المادة الأزلية أما أن المادة أزلية فهذا كان عندهم مُسَلّم به فقديماً ما كانوا يعتقدون بأن الأزلي هو المادة الكبيرة الأجرام السماوية وتقرؤون كلاما للغزالي في الرد على بعض الفلاسفة اليونان كان يقول أن الشمس أزليه فالغزالي كان ردوده ذكية جداً فأستعمل كل الحجج العقلية على ما يدل أن الشمس ليست أزلية، هو كان يقول إن هذه الشمس ما رأيناها ولا قال أبآنا ولا سمعنا ولا قرأنا في كتبهم أنها كانت أكبر من هذا فنقصت أو زادت، فالغزالي قال ليس من الشرط الفناء أو الذبول مثل أن يفنى الشخص مرة واحدة هكذا، في الحقيقة أن أكثر ما أضعف المذهب المادي هو تطور العلم، بعكس ما يظن الناس، يعني أن التطور العلمي في الحقيقة هو تطور لصالح الدين، لأن الدعامة الأساسية للماديين كانت أن المادة أزلية، فصاروا كلما قالوا هذه هي الأزلية جاء العلم قال هذه ليست أزلية فبدأوا بالأجرام الكبيرة هذه، طبعاً الآن كل إنسان يعرف أن الشمس مثلا تنقص كل يوم تنقص أطنان بهذه الأشعة التي ترسلها، بدأوا يتنازلون من الأشياء الكبيرة إلى الاشياء الصغيرة فظنوا أولاً بالعناصر، العنصر معناها هي العناصر الأساسية التي يتكون منها المادة الذهب والفضة والحديد والنحاس والأكسجين والهيدروجين ثم بعد قليل تبين أن هذه أيضاً مكونه من جزئيات، والجزئيات متكونه من ذرات قالوا الآن وصلنا إلى

الجزء الذي لا يتجزأ (الأتم)، وهذا هو الذي بنت عليه بالمناسبة الفلسفة في البداية حتى الفلسفة الماركسية بنيت على هذا أن الذرات هي الأزلية ولهم طريقة في تفسير الكون كان الماديون يقولون إن في البداية ما كان هنالك إلا ذرات وأن هذه الذرات عددها غير متناهي وهي أزلية وأبدية وأن الكون يتكون منها بطريقة المصادفه وتطور العلم قليلاً وأثبت أن الذرات مكونه واستمر البحث والاكتشاف أجزاء أصغر وأصغر حتى أني آخر ما قرأت أنه تحت الذرة قريب من مائة، ثم تبين أنه لا حد فاصل بين المادة وبين الضوء من الناحية النظرية يمكن أن المادة نظريا تتحول إلى ضوء كما أن الضوء نظريا ممكن أن يتحول إلى مادة، فإذا أصبح ليس هنالك شيء بحسب ما يعرف العلماء ليس هنالك شيء يمكن أن تشير إليه وتقول هذا هو الأزلي، زمان ممكن كانوا يشيرون إلى الأجرام السماوية أو إلى العناصر او إلى الذرات الآن ما فيه شيء، إذا أشار إلى أي واحدة من هذه أقول له أبداً هذه تفنى، بعض الناس طبعاً نقول له هذه تفنى وهذه تفنى وهذه تفنى يقول المادة لا تفنى لماذا لا تفنى وما هي؟ تصبح المادة التي لا تفنى هي المادة التي لا صفات لها المادة التي لا يتعامل معها العلماء، العالم لا يتعامل إلا مع مادة، حتى ما يسمونه النيترون لها صفات فالعالم لا يتعامل مع مادة ليس لها صفات يمكن أن تتحول إلى شيء آخر فإذا ليس هناك مادة يمكن أن نشير إليها بأيدينا ونقول هذه هي المادة الأزلية، والغريبة أن هذه من الحقائق التي أدركها ماركس، ولكن ما استطاع أن يجمع بينها ما استطاع ان يلاحظ التناقض بين هذا القول وبين القول بأن المادة أزلية، لو لا حظه يمكن تغير تاريخ الماركسية، فهو قال كلاما صحيحا قال بأن المادة التي لا صفات لها لا توجد إلا في أذها الفلاسفة وهذا كلام صحيح جداً، إذا أضفنا إلى هذا حقيقة علمية وهي أنه في الواقع المادة التي ليست في أذان الفلاسفة وإنما المادة الموجودة أمامنا هي ليس منها شيء أزلي، إذا نقول إن المادة ليست أزليه وأنا كتبت مقالة وقلت لنقرب الصورة لنفرض أنه ليس في الوجود إلا ثلاث صور للمادة ثلاث صور فقط نفترض أن منها واحد مثلث وواحد مربع وواحد دائرة ونقول بصحة المبدأ أن الكتلة يعني أن كمية المادة لا تتغير فعندنا هذه المادة وهذه المادة وهذه المادة إذا فنيت هذه ماذا يحدث إذا فني المربع ما عندنا إلا ثلاث صورة هذه وهذه وهذه إذا فنيت الدائرة تتحول إلى مثلث وإذا فني المثلث تتحول إلى مربع وإذا فني المربع

وهكذا، هل نستطيع أن نشير إلى أي واحدة منها ونقول هذه باقية ؟ما نستطيع إذا ما الباقي لا شيء كل واحدة منها يمكن أن تزول ولكن سيكون دائمة الوجود ثلاثة الثلاث مثلثات أو الثلاث مربعات أو موجود منها كلها وهذا لا يتناقض مع الدين لأن الذي يتناقض مع الدين أن نقول إن هنالك شيء أزلي وشيء دائم أزلي لأن هذه صفة من صفات الله تعالى وبما قاله أحد الفلاسفة الغربين وهو فليسوف ليس مؤمناً قال إن التعبير أن المادة لا تستحدث ولا تفنى تعبير أكثر مما يريد العلم، ممكن تقول تفنى وتستحدث وفي نفس الوقت هي كميتها ثابته وضرب مثل قال لو عندك صهريج من الماء تصب فيه ماء من هنا وهو مفتوح لكن كمية المادة التي تصب هي كمية الماء الذي يخرج، هل كمية المادة التي في الصهريج تتغير؟ هل نوعها يتغير؟ ما تتغير نفرض أن نصب وبعد كل فترة تتغير اللون مره يكون أخضر مرة أزرق لكن الكمية ثابته وهو رجل ملحد فكذلك يمكن أن نقول إنه تحدث ذرات وتفنى ذرات ولكن الكمية ثابته، فالقول بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث كما قلت لكم هو تعبير يوناني فجيء به والصق في العلم والآن إذا سئلت ما أكبر انحراف فكري يمكن أن يؤثر في عقول المسلمين هو هذا القول بأن المادة هي الشيء الموجود حقيقة لأن هذا يؤثر في تصورك صفات الله وفي تصورك للملائكة وفي تصورك للدار الآخرة، الناس يميلون دائما إلى من يفسر لهم هذه الأشياء تفسيرا يتناسب مع هذا الاعتقاد، وليس كافرا يقول أنه لا يوجد إلا المادة لكن هذا يؤثر فيه تأثيراً كبيرًا، وأنا تعبت مع الطلبة جداً لما كنت أدرسهم مثلا واحد يقول لي، أنا أقول المادة في كل صور من صورها تفنى، أنت تفنى يقول أنا ما أفنى إنما اتحول إلى تراب طيب هل هذا التراب هو أنت إذا أنت مت وإذا وجدنا أمك تبكي نقول لها ما تبكين نعطيها التراب ونقول هذا ابنك لكنه تحول، هذا ليس ابنها الذي تبكي عليه مادة لها صورة معينة ولها خصائص معينة هذه المادة بهذه الصورة بهذه الخصائص تحولت، الآن وأنا ظمآن تعطيني كمية هيدروجين واكسجين ممكن يتكون منها ماء وتقول لي اشرب هذا ليس ماء، لو فيه ماء حللته إلى أكسجين وهيدروجين ما أصبح ماء لا يفيدني بشيء، فالماء انتهى لا بقي هيدروجين وأكسجين، الهيدروجين والأكسجين ينتهي أو لا ينتهي نعم ينتهي يتحول إلى شيء آخر فكل مادة في صورة معينة بخصائص معينة هي قابلة لأن تموت تتحول

إلى شيء آخر كما أن الإنسان يموت، فالإنسان تحول إلى هذه الأملاح وبعض العناصر، هذه تتحول إلى كذا هذه تتحول إلى كذا، ليس هناك مادة يُشار إليها بالبنان ويقال هذه لا تتحول ولا تتغير، وهذا أنا في رأيي لو كان هذا العلم الغربي علم عند المسلمين لكان بالعكس أوضحنا أن العلم يسير في طريق مؤيد للدين ومحرج للماديين؛ لأن الماديين في الماضي ماذا كانوا يقولون؟ يقولون أرنا الله جهرة إذا ما رأى بعينة هل فيه مادي يقول الآن بهذا ثم ليس هذا فحسب العلم الآن من مناهجه المعتبرة جداً أن الشيء حتى لو ما رأيناه حتى لو كان مما لا يمكن أن يرى يمكن أن نستدل عليه، هل الذرات يراها الناس ؟ لا تُرى كيف نعرفها بآثارها فهذا مبدأ منهجي علمي وبنفس المنهج الذي يستعمل في الدين، أن الله سبحانه وتعالى لا يرى الآن لكن يستدل عليه بموجوداته أخرى وهكذا المادة بعض الأشياء يستدل على وجودها بوجود أشياء أخرى بل بعض العلماء الفيزيائيين كانوا قبل أن يكتشف الشيء، بعض الأجرام السماوية كانوا يستنتجون وجودها بعمليات حسابية ثم يأتي التجريبيون فيوجهوا التلسكوب إلى المكان الذي قال الفيزيائيون نظرياً إنه يوجد فيه هذا الكوكب فيجدونه، فالعلم في الحقيقة سار في طريق محرج للماديين هذا من ناحية المادة أزلية أو ليست أزلية، كان أيضاً إلى حين قريب المعهد الذي درست فيه أنا طالب في الفلسفة كان السؤال عن أن الله موجود أو غير موجود وهو يعتبر كأنه من قلة الأدب يعني أن هذه مسألة فرغنا منها لا تسال عنها خلاص وكان بعض الفلاسفة هنا جاءوا من امريكا يقول لك أن السؤال نفسه غير مشروع الآن تغير الوضع، لماذا تغير لأن نظريات الخلق في الماضي كانت تعتمد على أن المادة أزلية وأن هناك ذرات كثيرة لا حصر لها ولا عدد كانوا يسمونها السوب ومن هذه السوب تكونت الأشياء بعد قليل تغير هذا وصار أكبر نظرية أشار عليها العلماء الآن نظرية، وهي (بق بان) وهي تقول أن المادة كلها كانت في كتلة واحدة فانفجرت وتكون منها الكون فأصبح السؤال طبيعي، فصار كثير من الجماعة يقولون والله الآن السؤال عن الخلق سؤال مشروع ولا بد أن يسأل طبعا بعض العلماء سيقولون ومعهم حق يقول أنا بصفتي عالما فيزيائياً يقول لا تسألني من أين جاءت هذه ؟ أسالني ما ذا حدث بعد مجيئها، إذا أنت فيزيائي لست مهتما بهذا الموضوع أنا مهتم به، فإذا كنت لا تستطيع أن تجيب عليه من ناحية

فيزيائية فهذا ليس معناه أن السؤال غير مشروع، فاصبحوا يقولون السؤال مشروع ولذلك عاد الكلام عن وجود الخالق، بدأوا في السنوات الأخيرة رأيت عدة كتب في هذا وأصبح الكلام عن وجود الخالق كلام مشروع لكن مع الأسف أن الخالق الذي يعرفونه هو هذا الخالق الذي يتكلم عنه فلاسفتهم أو النصرانية أنا أحياناً أجد في نفسي بعض العطف مع بعض الملحدين هؤلاء وهذا الخالق الذي أنكروه نحن أيضا ننكره، هو شيء لا يقبله العقل، فلو أن هذ العلم كان عند المسلمين أولو أن المسلمين المعاصرين أصبح لهم صوت مسموع بعضهم أكتشف شيء أو كذا وأصبح معروف الناس يستمعون إليه فيه كتاب الآن كنت اراجع تايمز هذا الأسبوع هو الثاني والثلاثين وهو في قائمة العشرة كتب هذه أسمه (هستري أف تايم) كتبه كاتب يعتبر أكبر فيزيائي معاصر وهو من أعجب مخلوقات الله كواحد انجليزي عنده مرض كل مرة يضعف أعصابه ما بقي له الآن إلا أن يحرك أصبعه فقط لا يتكلم ولا يتحرك وجالس على كرسي وعنده كمبيوتر يضرب عليه وهذه طريقة مخاطبته للناس والمعادلات كلها في رأسه، حتى قال واحد إن هذا أثبت أن العقل هذا ماله علاقه بالجسم لأن الجسم ما فيه فايدة أبداً ما بقي إلا العقل، فيخاطب الناس بأصبعه، الكتابة تتحول إلى صوت بهذه الطريقة فهذا كتب كتاب وهو ملحد، عن كيف الكون بدأ وكيف الخلق بدأ بالنسبة للبشر سهل فلو أن عالما مسلما كتب كتاباً مثل هذا لقال أن الكون مخلوق له خالق له صفات كذا كذا؛ لأن الكلام في الفيزياء عن هذه الأمور فيها كلام من السخف ما لا تجده عند الفلاسفة المهم أنهم يبحثون كيف أن هذا الكون هذا شيء طبيعي عند البشر، وبالمناسبة من الأشياء التي تجعلني دائماً أهتم بمسالة صفات الله تعالى والرد على هذا الفكر الذي كان يسمى الذي بالفكر الإسلامي الجهمية ومازال فكرا وهذه مسالة انتبهوا لها من الأشياء التي يقررها مؤرخو الفكر الغربين أن الذين وضعوا أسس الإلحاد كانوا مؤمنين بالخالق، بالفعل كيف وضعوا أسس الإلحاد وصفوا الله بصفات وتصوروا علاقته بالكون بطريقة جعلت وجوده غير مهم فكانت الخطوة التي تليها ما فيه لزوم لهذا الخاق مادام أنه موجود ولا تأثيرله في الكون لأنه لما خلق الكون ووضع كل القوانين وكذا وكذا ماله علاقة بالله إذا ما دام الكون الآن شغال وغير محتاج فليس هناك لازم لهذا

الافتراض، أو (كانت) يقول لك إن قانون السببية هو قانون يصف العلاقة بين الأشياء التي في هذا الكون، أما علاقة الكون نفسه بشيء خارج الكون فلا ينطبق عليه قانون السببية، فلذلك لا تستطيع أن تقول أن تنتقل من الكون إلى خالق الكون لأن إذا انتقلت ستقول إن هذا الكون لابد ان يكون له سبب وموجد وكذا يقول لك هذا التصور للسببية تصور خطأ، لماذا قال هذا لا أدري، وجاء أناس بعده فقالوا (كانت) نفسه كيف عرف أن فيه خالق ؟ مادام ما يمكن الانتقال ما دام لا يمكن الانتقال من الكون إلى خالق الكون إذا ما فيه خالق، فلنحذر هذا مسألة العقيدة أن الله سبحانه وتعالى تصور صفاته تصوراً صحيحاً هذه مسالة مهمة و هذا القانون الذي قاله الغربيون كان يقول قريبا منه أهل السنة كانوا يقولون للجهمية هذا الذي تعبدونه ما هو، إذا كان لا يوصف بأنه لاحي وفوق ولا تحت ولا طويل ولا قصير ولا رحمان ولا رحيم ولا كذا كانوا يقولون لهم أنتم تعبدون عدماً وفعلاً الفارق بين الإلحاد وبين هذا التصور لأسماء الله وصفاته لا شيء.

س: ما التوجيه العملي لعلاج مثل هذا الأمر ؟

ج: هذا أنا قلته بالنسبة لأشياء أخرى يعني أنا عندي الذي يدرك الخطأ الحمد لله هذا تسعين في المئة لكن لإدراك الخطأ مهم لذلك أن قلته من الناحية العملية سألني شاب سعودي تكلمت مرة عن أسلمة العلوم وأن هذه العلوم ينبغي أن لا تدرس يعني كل العلوم الذي تدرسونها الآن، سواءً كانت علوم اجتماعية أو طبيعية لا تتصورون ماعدا الكمبيوتر ما فيه علم من هذه العلوم يدرس في فراغ، كلها تدرس في إطار فلسفة معينة، هذه الفلسفة لا تذكر ما فيه كتاب في الفيزياء أو كذا يبدأ يقول لك انتبه ما فيه خالق، لكن، ولكن يفترض أنه ما فيه خالق ولذلك كما قلت إن الإلحاد أصبح جزءا من مفهوم العلم أليس كذلك؟ الآن عندما تقول إن فلانا فسر هذه المسألة تفسيراً علمياً ما معناه ؟ معناه أنه وجد لها أسباب من داخل الكون إذا قال أنا والله اكتشفت أن هذه المسألة من تأثير الملائكة يكون تفسير علمي؟ ما يكون تفسير علمي خصوصاً في اللغة العربية شيء مؤسف الشخص الذي ترجم (الساينس) هذه بعلم سبب لنا مشكلات، لأنه في اللغة الإنجليزية الآن هناك فرق بين (نلوج) (وساينس) (ساينس) أخص و(نلوج) أعم هذا ترجم لنا كلمة (ساينس) بعلم فاصبحنا في مشكلة

فاصبح الناس الآن عندما يقولون العلم يقصدون (ساينس) لكن في اللغة العربية خلاص، أصبح العلم، القرآن كله مليء بالعلم، فاصبح هذا ليس علماً وأهم العلم عندنا وأوثق علم وأشرف علم هو العلم بالله تعالى فأصبح هذا ليس علما، وأصبحت التفسيرات التي جاء بها القرآن الكريم كلها ليست تفسيرات علمية بحسب المصطلحات إنما هي تفسيرات دينية فأصبح الإلحاد جزءا من مفهوم العلم إذا أردت أن تفسر الشيء تفسيرا علميا معناه تبحث له عن سبب لا علاقة له بشيء غير مادي، فهذا شره في العلوم الاجتماعية أكبر ثم ليس هذا الإطار فقط نتأثر نحن أحياناً حتى في الآراء العادية التي يقولوها إنسان في الاقتصاد أو في الإعلام أو في علم النفس رأي عادي يعني عادي فيأتي الأستاذ ويقول للطلاب إن علم النفس الحديث أثبت كذا كذا، كان يأتوني الطلاب ويقولون إن الاستاذ يقول إن علم النفس الحديث أثبت كذا فأقول لهم أي واحد في علم النفس، مدارس علم النفس كثيرة وكيف أثبت شوف كيف التشويش على الناس، علم النفس الحديث تتصور أن علم النفس الحديث له أشناب جالس هناك في امريكا ويثبت الأشياء فتخاف منه، ولذلك حدث شيء غريب في كل البلاد حتى في المملكة بعض الأساتذة للدراسات العلياء وأساتذة المدارس، حصل تغير غريب في الماضي كان الناس يسلمون بالمسائل الدينية ويتساءلون عن الآراء البشرية الأن أنعكس الأمر إذا دخل استاذ الدين وقال قصة آدم يقولون يا استاذ لكن يقولون إن الإنسان كان أصله قرد إذا جاء الآخر وقال كان أصله قرد او سمكة أو أي فهذا العلم لا يناقش، فأصبح الشيء الذي ينبغي أن يدرس بطريقة نقدية ويشجع الطلاب على أن يبدو آرائهم أصبح يدرس بطريقة تلقينيه، أنا والله أحمد الله سبحانه وتعالى ما درسني الفلسفة عرب لأن سأقول لكم قصة كنا ندرس في جامعة الخرطوم يدرسنا شخص سويدي وهذا الشخص السويدي يدرسنا فلسفة اسمها الفلسفة الوضعية المنطقية وهو بلغة أهل الحديث سنده في هذه الفلسفة عالي جداً السند، العالي هو أن يكون أقرب إلى صاحب القرار كان يدرسنا هو درس على واحد في أمريكا اسمه راشن باخ راشن باخ هذا شيخ حلقة كانت في فينا هذه الحلقة هم الذين أسسوا هذه الفلسفة، فهذا كان يدرسنا بأن هذه الفلسفة نشأت في كذا، ثم اختلف الجماعة كذا كذا، ثم تطورت وتغير رأيه في كذا، في هذا الوقت أخرج الأستاذ زكي نجيب

محمود وهو يمكن أكبر شخص يعرف الفلسفة الغربية في العالم العربي؛ مصري تعرفونه الآن تجاوز الثمانين أخرج كتابا اسمه الوضعية المنطقية باللغة العربية نحن كنا ندرس الفلسفة باللغة الإنجليزية، نقرأ الكتاب عن الوضعية المنطقية باللغة العربية، إن أول صفحة فيه الوضعية مذهبي ما بقي له إلا أن يقول ألقى الله عليها، وهي كذا وهي كذا كأن ما فيها أبداً شك، وكأن ما حصل فيها تغيير دفاع عن الوضعية المنطقية من أول الكتاب إلى آخره، وزكي نجيب محمود هذا أيضاً في كتابات أخرى يقول لقراء من العرب عن بعض الفلسفات التي يؤمن بها يقول هذه فلسفة العصر، أنت تخاف إذا قلت كلاماً غير فلسفة العصر معناها أنت عايش في القرون الوسطى خصوصاً إذا كان الشاب أو كذا يريد أن يكون إنساناً معاصراً يعيش عصره، في مره ثالثة أذكر أنه قال ثم جاء عصرنا ليقول كذا كذا، وهذا الذي قال جاء عصرنا ليقوله هو رأي أستاذ درسني اسمه (ببر) له رأي وأنا أعرف بعض الناس ينتقدونه فيه، فزكي نجيب يقول جاء عصرنا ليقول كذا كذا، فمن أسوأ الأشياء أن تدرس هذه العلوم سواءً كانت علوم طبيعية أو علوم اجتماعية بطريقة تقريرية، وتقول للطالب هذا كذا وكذا وكأنها حقائق ما فيها شك، فهذا الشاب سعودي عندنا سألني وقال أنا أدرس إعلاماً، لكن لا أدري كيف أدرسهم من وجهة نظري الثانية قلت له هذه المسألة تحتاج إلى بحث وإلى دراسة، ويكون لك فهم أعمق في القرآن وفي السنة لكن أقول لك شيئاً ابدأ به، أولاً ابتعد عن أن تدرس طلابك هذه المسائل بطريقة تقريرية، اقرا في الإعلام حاول أن تبحث عن آراء مختلفة هذا قال كذا وأذكر هذا للطلاب جون كذا قال كذا مستر سميث خالفه في هذا المدرسة الأمريكية تقول كذا ولكن هناك مدرسة ماركسية تقول كذا، اجعل المسألة مضطربة في أذهانهم لا تقول هذا كأنها مجمع عليها خصوصا النظريات، النظريات هي التي تضر أما الحقائق أو الإحصاءات فهذه لا تضر بشيء، ثم عندما تقرأ أنت حاول أن تنتقد بينك وبين نفسك وانقل هذا إلى أبنائكم وطلابك قل لهم سميث قال كذا والماركسية قالت كذا والرأسمالية قالت كذا وأنا في رأيي كذا كذا، ثم قل لهم ما رأيكم أنتم أنا متأكد أن لوكان هذه العلوم تدرس عندنا بمثل هذه الطريقة لنشأ فينا بعض علماء حقيقيون؛ لأنك يمكن أن تظل قرن كامل تدرس علم بالطريقة

هذه التقريرية لا يخرج من طلابك إنسان عنده أصالة أبدا، وسنظل دائما تلاميذ للغربيين وكثير من علمائنا في العالم العربي رضوا لأنفسهم بهذا زكي نجيب محمود دائما أنا أضرب به مثلا، وأقول هذه فلسفة، والفلسفة هي أكثر شيء فيها اختلافات، فإذا كان إنسان في قدرة هذا الرجل وفي ذكائه وفي مقدرته على التعبير أنا أشهد أنه يكتب هذه الفلسفة الغربية بلغة عربية سلسة وكأنها كتبت بهذا في أول الأمر فإذا كان رجلا مثل هذا رضي بنفسه أن يظل في إلى ما بعد الثمانين أن يظل تلميذا للفلاسفة الغربيين لن يأتي بشي جديد.

س: كيف يمكن للمسلم أن يصيغ هذه العلوم إلى العربية بطريقة سليمة ؟

ج: العلوم يا أخي نوعان أنت الأن تتحدث عن العلوم الطبيعية، أكثر العلوم التي تؤثر في عقول الناس ليس العلوم الطبيعية وإنما علم الاجتماع علم النفس والتاريخ هذه تؤثر حتى في عقل صاحب العلم الطبيعي لأنه سيعيش هذا الجو الثقافي ما في إنسان مثقف يعيش في علمه فقط يتأثر ومن المعروف في تاريخ الفكر الغربي أن بعض النظريات في العلوم الطبيعية أساسها أفكار اجتماعية من مشهور ومن معروف جداً أن نظرية دارون مأخوذة من نظريات سبنسر حتى مالثوس، وقد نقد ذلك مفكر ماركسي قال نقداً لطيفاً، فقال إن النظرية كانت في علم الاجتماع نظرية رأس مالية نظرية مالثوس وسبنسر نظرية رأسمالية من أقبح النظريات؛ لأنه بالنسبة له يقول إن الفقير هذا ما فيه فائدة وأن المرض يحل إشكالاً فيقول سبينسر إن الذي لا ينتج عن كذا ولا يكون يعني له أهمية في المجتمع فسيموت ومن الأحسن أن يموت، فهي فكرة أساسية في نظرية دارون فيقول إنجلز إن النظرية نظرية اجتماعية أخذها دارون وجعلها نظرية طبيعية ثم جاء الاجتماعيون وأخذوها مرة ثانية فسموها الدارونية الاجتماعية، وعندما أخذوها للمرة الثانية أصبح كأن لها أساس من العلم ولم تصبح مجرد كلام قاله سبنسر أو كذا لا، إنما كلام قاله دارون يعني له شواهد وكذا وأخذ بمنهج علمي، فالمهم أن كثيراً من النظريات في العلوم الطبيعية متأثرة بالعلوم الاجتماعية، فالجو دائما الثقافي هو جو واحد هذا يؤثر في هذا وهذا يؤثر في هذا، فالذي يؤثر في عقول الناس هو فكر العلوم الإنسانية والاجتماعية هذا الذي يؤثر في أفكار الناس أكثر مما تؤثر العلوم الأخرى، لكن مثل ما تفضل الأخ هذه العلوم أيضاً كما قلت لكم في إطار، مهما كانت فليس هناك شيء اسمه علم بحت ما له علاقة بثقافة الناس إلا

الحقائق العينية هذا كذا وهذا كذا، في القرآن الكريم آيات ملفتة للنظر في مسألة أن كيف التصور يؤثر في إدراك الإنسان بعض الحقائق مثلا قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار في مرورهم على قرية قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، ما كانوا يرون الأشياء الحسية هذه إلى الآن نراها ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، ولذلك ما استنتجوا منها النتيجة المفروض التي تستنتج، نحن الآن نقرأ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، هذا أولو الألباب هم الذين يستنتجون من هذا أن الكون له خالق، إذا جاء من أول مرة وهم مصمم على أن الكون ليس له خالق وما تغني الآيات والنذر، ولذلك نفس هذه القصة يقولها القرآن الكريم في آية أخرى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، فكأن إنكار الآخرة ينقص من العقل ويجعل الإنسان لا يستنتج النتائج المفروض أن تستنتج، ولذلك يربط القرآن بين كمال الإيمان وكمال العقل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، فالإيمان تكملة وتقوية للعقل هذا هو الذي نقول إن العلوم الاجتماعية لا تؤثر في الإنسان في أنه يرى هذا لون أخضر وهذا لون أسود لا تؤثر فيه لكن تؤثر أنه ماذا يستنتج منه وكيف يحكم على الأشياء، هذا مؤكد له تأثير فيه، مؤكد أن الطريقة التي يستنتج بها إنسان ملحد وينظر بها إلى الوجود كأن هذا له حواس غير حواس هذا، يعني ربما نحن أحياناً لا نستطيع أن نضع نفسنا في موضع الكافر، لكن أنا أحياناً فعلا أقول مرة كنا في كابرج كنت في الصبح والصبح في كابرج في بريطانيا شيء لطيف جداً، فصحوت الفجر هذه ساعات ما أنساها أبداً الجو كان جميلاً جداً، ونظرت إلى النافذة فرأيت الزهور والطيور وكذا، فيأتيك شعور طبيعي أن تحمد الله سبحانه وتعالى، فالكافر إذا رأى هذا ماذا يقول؟ فلابد أن يكون حتى استمتاعه بالأشياء الدنيوية ناقصة يعني أنا أعتقد أن الشكر هذا من كمال الاستمتاع، أما أن أنظر إلى الطيور والزهور وأقول شيء جميل فقط فما يكون الاستمتاع الذي قد اكتمل، فالفكر الاجتماعي أو الإنساني الغربي هذا يؤثر على التصور للأشياء.

س: هل جميع مناهج البحث غير سليمة وصالحة ؟

ج: لا يا أخي نتيجة البحث شيء مشترك بين الناس، فمثلا كونك تشاهد الشيء أو تجربه وتستنتج منه، الاستنتاج تدخل فيه التصورات هذه، لكن حتى الاستنتاج في حدود شيء مادي ما فيه اختلاف كثير ربنا ما خلق المؤمن له طبيعة مختلفة عن الكافر، وإنما وسائل المعرفة واحدة، الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، ما عندنا طريقة لإدراك العلوم لا الدينية ولا الدنيوية إلا هذه الثلاث، سمع وأبصار وأفئدة يعني حواس وعقل نعرف بها الدين ونعرف بها الدنيا، ستختلف بعد ذلك في التفاصيل بحسب العلم المدرك فيه بعض الأشياء نطلب فيها الإدراك الحسي المباشر لأنها بطبيعتها هكذا أشياء تحس، فيه أشياء تاريخية لا يمكن أن نطلب منها شيء مباشر فالعلم هو الذي هو يحدد بعض تفاصيل المنهج، فما أظن المناهج ستكون المشكلة كبيرة، لكن المشكلة هي في الفلسفة التي توضع فيها.

س: هل كل ما جاء من الغرب يكون مضراً ؟

ج: أحياناً نحن نفكر أن هذه الأشياء مضرة لنا، وكأنها جاءت من الغرب وغزو أنا عندما جئت لأمريكا منذ أكثر من عشر سنوات أقول للناس في العالم الإسلامي والله أكبر شعب مستذل ومضطهد هو الشعب الأمريكي؛ لأني لما جئت فعلا ما وجدت شيئا اسمه أمريكا، وجدت جماعة رأسماليين يريدون المال على حساب أي شيء آخر، فأكثر شعب مستغل وأفكاره مضللة وقيمهم محطمة هو الشعب الأمريكي بسبب هؤلاء الرأسماليين، في التلفزيون الآن هناك إنسان عاقل يعمل برامج مثل برامج الأمريكيين في التلفاز، الإنسان منذ الصغر كل يوم يسمع في التلفزيون ألف مرة (دلا، دلا) مثل التسبيح، هذا يؤثر، مرة سألني واحد أمريكاني في اجتماع مثل هذا أنتم تعتبرون مجتمعاتنا من ناحية خُلقية متدهورة، قلت له نعم إذا كان المجتمع الأمريكي مثل هذه إذا كان ما أراه في التلفزيون يمثل حياتكم فأنا ما أعطيكم إلا سنين قليلة وتنتهوا، وإذا ما انتهيتوا تكونوا أثبتم أن كل هذه الأديان باطلة، كل الأديان كلها حتى الأرضية منها، قال لي كيف ؟ قلت الأديان كلها حتى الأرضي منها تقول للناس لا تبالغوا في الأكل ولا في الشرب ولا في المتع ولا في الجنس، اعتدلوا أنتم تقولون لا جنس وشراب وإذا كان مع كل هذا استمررتم وعشتم تكونوا قدمتم أن هذه الأديان

كلها باطلة، لا يمكن أن الناس يعيشون بهذه الطريقة التي تبث هذه الأمور، وأنا عرفت بعد ذلك أشياء أخرى كثيرة، يكتشف علاج مثلاً مرض أن الدخان هذا يسبب أمراضاً يقول هذا شيء عرف من زمان جداً، وأول ما عرفه شركات التبغ لكنها تخفي ذلك أو أن واحداً مثلا يقدم بحث لعلاج السرطان، فيقول لك علاج السرطان نكسب منه مبالغ كثيره فيخفي هذا العلاج، يعني تحصل بعض الأمور التي لا يمكن أن يتصور الإنسان أن يعملها بشر فه ووبال عليهم وعلينا.

س: هل يمكن أن يوجد الغرب نظاما بديلا عما هم عليه ؟

ج: الأصل الآن لا يوجد نظام جديد هم الآن بدأوا يراجعون بعض ما هم عليه مثلا مرض الإيدز هذا بالمناسبة هذا ليس مرضا للأجسام فقط، ولكن خلخل بعض المعتقدات الغربية، المعتقد كان الذي ساد في الغرب من مدة أن كل هذه القيود التي وضعتها الأديان أشياء ما لها لزوم يعني أشياء تعسفية، وأن الناس يمكن أن يعيشوا كما يريدون رجالا ونساء رجل لرجل وامرأه لامراة أي وضع تشكيلة يمكن أن تعيش، وكانت مسألة الجنس هذه لا تعتبر متعة فقط وإنما تعتبر تحريراً للإنسان يعني ارتبطت كأنها مسألة روحية، وكثير من القصص التي كانت تكتب كأن الناس كانوا يعتبرون أن كشف الجسم هذا والتعري هذا تخلصاً وليس متعة جنسية فقط وإنما (ربيريشن) هو تخلص من القيود التي وضعتها الأديان كان فكرة، فالإيدز هذا صدمهم صدمة عنيفة، فثبت لهم أن المسالة ليست كما تريدون، فكنت أسمع في بعض البرامج عند استعراض لبعض المشاكل العالمية في التلفاز أن أكثر من ستين بالمائة من المصابين بالإيدز هم (الساكشول) وكل الحجج التي تقال لهم من الدين أو غير الدين ما كانوا مقتنعين بها، ويطالبون بحقوق ومظاهرات فهذا الآن زعزع هذه الاعتقاد أن هذه العلاقة ليست بعلاقة طبيعية، فالأسر لابد أن تكون في أسرة بأنواع هذه العلاقات فسيكتشفون أنه إما الأسرة وإما هذه العادات هل يرجعون إلى الأسر ؟ لا أدري!

س: ما رأيك في كلام أركون في أن التاريخ الإسلامي مجرد شعارات إسلامية فقط؟

ج: هذا كلام سخيف قديم، الغربيون الآن ما عندهم تاريخ ما حدث فيه مثل ما حدث في التاريخ الإسلامي، وأسوأ مما حدث، وهل كل ما حدث في التاريخ هو جزء

من الإسلام، ولابد أن يحدث في كل الناس، وحتى هذا الذي حدث ماذا يساوي بالنسبة لما يحدث الآن، أحياناً يقولون عدد القتلى من اليهود كذا، كل اليهود الذين قتلهم النبي كم ؟ أبداً لا يساوي ما يقتل الأمريكان في يوم واحد، في فيتنام أضعاف أضعاف ما قتله المسلمون في تاريخهم يعني هناك مبالغات، أو يقول لك إن المسلمين اختلفوا منذ السقيفة وبعض المسلمين يرددون هذا، كيف اختلفوا جماعة اجتمعوا في مكان قالوا من نرشح فقالوا أناس منا نحن وهؤلاء قالوا لا والمسألة انتهت في نصف يوم تبقى أبد الأبدين، وهل كان يفترض أن المسلمين يجتمعون ويقولون من ننتخب.. أبو بكر ؟ إذاً لا يمكن هؤلاء بشر كل الاختلافات ما حدث عند المسلمين أقل بكثير مما حدث في البلاد الأخرى، فالناس يبالغون أحياناً.. مرة كنا في مؤتمر في البحرين فوقف رجل فعرفت أنه وزير قال كيف نحكم بالإسلام هناك مشاكل ما حُلت الخليفة لا بد أن يكون من قريش والشورى مُلزمة أو غير مُلزمة، وجاء بكل الاختلافات فقلت له اختر أي واحدة منها اختر واحكم بالإسلام، فقلت له لو أن الديمقراطيين هؤلاء فكروا بطريقتك فلا يحكمون بالديمقراطية يجلسون يتجادلون قبل أن نحكم بالديمقراطية، لا نحدد هل تكون برلمانية أو رئاسية تكون الانتخابات كل خمس سنين أم كل أربع سنين، وماذا يعني افرض المسلمين اختلفوا أو لم يختلفوا الشورى مُلزمة أو غير مُلزمة، فالناس أحياناً يضخمون اختلافات المسلمين، وهل نحن الآن مشكلتنا ماذا نفعل إذا وصلنا إلى الحكم متى سنصل ؟ قبل أن نصل نشغل الناس الآن أننا إذا جئنا إلى الحكم هل ستكون أحزاب أو لا تكون أحزاب، ومعظم هؤلاء الذين يسألون واحد مؤيد لعبدالناصر وواحد مؤيد لحافظ الأسد وواحد مؤيد لصدام حسين وليس هناك واحد من هؤلاء عمل أحزاباً، وكثير لا يذكرون الديمقراطية والحرية إلا إذا كان الكلام عن الإسلام، أبداً نحن أيضاً إذا جئنا لا نعطيكم، إذا ما أعطيتمونا لا نعطيكم أبداً، والله وحتى الأخ الغنوشي مثلا لو صار وزيراً وهذا رأيه المسلمون لا يتركوه، يريد أن يعطي الشيوعيين حرية والله المسلمون يعملون مظاهرات، إذا تكون حزب شيوعي يهجمون على مكانهم ويقتلون الناس الذي فيه، بعدها ماذا يفعل يقتل المسلمين لأنهم قتلوا الشيوعيين ما يستطيع هذا الذي دعا الأستاذ سيد قطب إلى أن يقول استنبات البذور في الهواء يقول نحن الآن بعيدين من الحكم، أذكر مره واحداً قال لي المضيفات ماذا نعمل لهن؟ نعمل مضيفين رجال أم نساء، دع تفكيركم

عملياً، وما يظنوا أنه لابد أن تحل كل مشكلة، أنا جعفر شيخ إدريس لو وجدت فرصة أحكم السودان والله بكرة أحكم، ما لازم أعمل مثل أبيبكر وعمر أقلل من الشر الموجود هذا، وأنا أفكر في الجماعة التي كانت معنا نميري وغيره لا يساوون شيئاً كيف حكموا السودان خمسة عشر سنة، وأنا أبداً من أول يوم أقول لازم أحل كل المعضلات هذه، وأقول وزارة الداخلية ستكون كذا وكذا، ووزارة الإعلام ستكون كذا وكذا، وحرية هذا تفكير غير عملي.

س: ما هي الظروف التي جعلت الشباب في فترة الستينات ينجر وراء هذه الأفكار؟

ج: أنا عشت فترة الشباب في تلك الفترة، أنا أقول لك بعض الأسباب مثلاً في السودان السبب الأول طريقة التعليم الغربي ما كنا نحن ندرس شيئاً عن الدين، والذين درسوا منا مثلاً أنا وكذا ربما كان عندنا بعض علماء وجماعة من أقاربنا وكنت أدرس الدين عندهم، لكن لم تكن هناك دراسة دينية هناك حصة واحدة في آخر اليوم حصة واحدة بالأسبوع اسمها حصة الدين، فالفكر الذي غزى الناس هو كان الفكر الغربي، العلماء المسلمون ما كان عندهم معرفة بالأوضاع الاقتصادية ولا السياسية كانوا علماء فيما يسمى بالأحوال الشخصية، ويعيشون كما يقال خارج التاريخ ما لهم تأثير كبير، من الأشياء الغريبة في السودان أن الذين نشروا الفكر الماركسي كانوا إنجليز هم حاكمين، ثم سألت بأنها كبرت عندنا فما السبب ؟ فقيل إن بعضهم من حزب العمال البريطاني وكان عندهم الأفكار الاشتراكية وكذا كذا، ثم الفكر الغربي دائماً الفكر الغربي الرأسمالي هذا يكون مقدمة للفكر الماركسي، لذلك أنا أقول لكثير من الشباب بالسعودية إذا كان ما فيه شيوعية الآن بعد قليل تأتي وتأتي من الفكر الغربي، وإن كان غورباتشوف أظن خدم المسلمين خدمة كبيرة، وما فيه أحد كسر الماركسية مثل ما كسرها غورباتشوف، أنا أقول لا بد نطلع إشاعة نقول إن غورباتشوف هذا عميل إسلامي مش تقولون عميل صهيوني وكذا ما لنا عملاء، فالفكر الماركسي جزء منه أيضا رد فعل من الاستعمار، وكانت روسيا تمثل يعني حالة الشعوب المضطهدة، فنحن عشنا فيه جو فيه ضغط رهيب ضغط الجو الماركسي رهيب على العقول.

جزاكم الله خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

***

صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية

قُدم هذا البحث بقاعة الصداقة بالخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ الموافق ٢٤سبتمبر سنة ٢٠٠٢م.

إذا أردنا للحديث عن صراع الحضارات أن يكون حديثاً تبنى عليه مواقف فكرية وعملية فيحسن ألا يكون حديثا عاماً، بل يحسن أن نشير فيه إلى وقائع وحالات محددة، لذلك نقول ما الحضارات التي تتصارع الآن؟

لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة، في بحثنا هذا على الأقل. الحضارة كما نستعملها هنا هي الكلمة العربية المقابلة للكلمة الانجليزية civilization فالحضارة بحسب ما نراه هنا مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو انجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران .

الحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، أعني أنه لا يدل بنفسه على مدح أو ذم، شأنه في ذلك شأن عبارات الأمة، والأئمة، والخُلق والدين وغير ذلك. فالأمة قد توصف بالاستقامة أو الزيغ، والأئمة قد يكونون هداة إلى الحق أو موردين لمتبوعهم إلى النار، والخُلق قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. وكذلك الحضارة قد توصف بالمادية أو الإيمانية، وبالقوة أو الضعف .

فما الحضارات ـ بهذا المعنى ـ التي تتصارع في عصرنا؟

لا نستطيع ـ فيما أرى ـ أن نشير في واقعنا الراهن إلى حضارة ماثلة محددة المعالم إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية نستطيع أن نشير إلى دولٍ قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة: فهنالك دول أوروبا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا ونيوزيلاندا. يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً، وأن الديانة النصرانية هي أكثر الديانات انتشاراً بين شعوبها. بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من اذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. حضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم .

هل نستطيع أن نقول مثل هذا عن أية حضارة أخري في واقعنا الراهن؟ كلا. نستطيع أن نشير إلى أقطارٍ أخرى إشارات سلبية بأن نقول إن حضارتها ليست غربية بالمعنى الكامل. فاليابان تشبه دول الحضارة الغربية في نظامها السياسي وفي تقدمها الاقتصادي، وتخالفها في تاريخها، وفي الدين السائد بين أهلها. وهي صديقة للغرب ومتعاونة معه لا مصارعة. وقل مثل ذلك عن الهند .أما الصين فإنها تشبه الدول الغربية من حيث نموها الاقتصادي، بيد أنها تخالفها في نظامها السياسي والاقتصادي. لكن حتى هذين النظامين ليسا بنابعين من ثقافة صينية أو تاريخ صيني وإنما هما مستوردان من فكر غربي هو الفكر الماركسي .

مجموعة الدول التي كانت تسمى بالاتحاد السوفيتي كانت متشابهة في نظامها السياسي والاقتصادي، وكانت لها قوة عسكرية ورسالة أيدُلوجية ومطامع توسعية، فكانت هي فعلاً المنافسة للغرب، لكنها حتى في أوج عظمتها لم تكن تمثل حضارة متميزة. أما بعد تفكك اتحادها وسقوط نظامها السياسي والاقتصادي وذهاب بريقها الأيدلوجي، فقد صارت دولاً ضعيفة تحاول أن تتأسى بدول الحضارة الغربية في أنظمتها، كما تحاول تحسين علاقاتها بتلك الدول، ولا سيما الولايات المتحدة، طمعاً في مالها وجاهها.

ماذا بقي؟ بقيت الدول الإسلامية. هل نستطيع أن نقول إنها تمثل اليوم حضارة بالمعنى الذي وصفنا به الحضارة الغربية؟ نقول آسفين: كلا. فإنه ليس لها نظام سياسي واحد إسلامياً كان أو غير إسلامي، وليست ملتزمة كلها بالإسلام في نظمها الاقتصادية أو التعليمية أو الإعلامية أو غيرها. وليس بينها تعاون حقيقي يذكر رغم انضمامها كلها إلى عضوية المؤتمر الإسلامي .فليس هنالك إذن حضارة إسلامية قائمة قياماً مادياً يميزها تمييزاً كاملاً عن الحضارة الغربية، ودعك أن تكون في صراع معها. نعم كانت لنا في الماضي حضارة، بل كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الوحيدة إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي، حضارة اعترف بوجودها وقوتها معاصروها، ويعترف بوجودها المؤرخون. والمختصون بالدراسات الإسلامية حتى من الغربيين المعادين .وعليه فنستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية، لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة إسلامية .فما مشكلتنا مع

الحضارة الغربية إذن؟ مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. ومع أنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية، إلا أن الحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي. إن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت كما قلنا هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول في شيء من شماتة: ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض - أغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعا في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري. عسكرها، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي.

ثم يمضي ليقول: ثم تغير كل شيء. فالمسلمون بدلا من يغزو الدول المسيحية ويسيطروا عليها، صاروا هم الذين تغزوهم القوى المسيحية وتسيطر عليهم .مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفا للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا[1].

فقادة الحضارة الغربية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم.

ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟ اختلفت الإجراءات في تفاصيلها بحسب الظروف العالمية، وبحسب التكتيكات الوقتية، لكن أمرين

---

(١) لويس، برنارد. جريدة الوشنطن بوست ١٠ سبتمبر ٢٠٠٢م.

For many centuries Islam was the greatest civilization on Earth -- the richest, the most powerful, the most creative in every significant field of human endeavor. Its armies, its teachers and its traders were advancing on every front in Asia, in Africa, in Europe, bringing, as they saw it, civilization and religion to the infidel barbarians who lived beyond the Muslim frontier.And then everything changed, and Muslims, instead of invading and dominating Christendom, were invaded and dominated by Christian powers. The resulting frustration and anger at what seemed to them a reversal of both natural and divine law have been growing for centuries, and have reached a climax in our own times (The Washington Post, Tuesday, Sept. 10, 2002, p. A15).

استراتيجيين اثنين لم يتغيرا، هما ضمان عدم رجوع الأمة إلى فهم صحيح للقرآن الكريم، وضمان استمرارها ضعيفة محتاجة إلى الغرب، أي ضمان عدم توفر الشرطين اللازمين لتمكين الأمة وبالتالي لحضارتها، وهما الكتاب الهادي والسيف الناصر[1]. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

في عهد الاحتلال المباشر لبلدان العالم الإسلامي، كان أول ما فعله المستعمرون اقصاء العلم الشرعي عن المدارس والجامعات، وحصره في دوائر ضيقة روعي أن لا يكون لها علاقة بالمجتمع ولا بالعصر. وفي هذا العهد استغلت ثروات البلاد لتغذي مصانع أوربا وتقوي اقتصادها.

بعد انتهاء عصر الاستعمار والدخول في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، انشغل الغرب بعدو ماثلٍ أكبر، فلم ير بأساً من التعاون التكتيكي مع بعض حملة هذا الفهم الصحيح كما حدث في أفغانستان. لكن الهدف الاستراتيجي لم يُنس أبدًا؛ فقد ظل الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة هو -إلى حد كبير- الذي يصنع الحكومات غيرالديمقراطية ويدعمها، مراعاة لمصالحه، وخوفاً من أن تكون الديمقراطية ذريعة لوصول الإسلام إلى السلطة.

أمريكا والنظام العالمي الجديد:

وبسقوط الاتحاد السوفيتي واستتباب الأمر للحضارة الغربية، دخل العالم مرحلة جديدة، مرحلة القوة العالمية الكبرى الواحدة، التي لا تدانيها من حيث إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية والتقنية والإعلامية قوة أخرى. وبدأت تظهر تبعاً لذلك معالمُ نظامٍ عالمي جديد، ما تزال تفاصيله محل نقاش كبير في الولايات المتحدة. لكن

---

(١) لكن هذا لا يعنى أن الحضارة الغربية هي السبب الوحيد لفقدان المسلمين لهذين الشرطين، فمن أسباب ذلك ما قد يكون محليا، بل ما لا بد أن يكون محليا، لأن ضعف الأمة الديني والمادي كان هو السب في هزيمتها. ولما عرف العدو ذلك حرص على استمرار أسباب الضعف وساعدته على ذلك عوامل محلية في الأمة نفسها.

يمكن تلخيص اتجاهات هذا النقاش في اتجاهين كبيرين: الدعوة إلى الانفرادية، وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

الاتجاه الانفرادي:

يرى أصحاب الاتجاه الانفرادي الذي تقوده عصبة ممن يسمون بالمحافظين الجدد، أن تستبد الولايات المتحدة باتخاذ ما تراه من قرارات وسياسات تحقق مصالحها، وتنشر قيمها من غير تقيد بأعراف ولا قوانين دولية، ولا بمؤسسات عالمية كالأمم المتحدة. وهم يعتمدون في تسويغهم لهذا الرأي وتسويقه على أمرين:

أولهما: القوة الاقتصادية والعسكرية الهائلة للولايات المتحدة التي لم تعد تدانيها فيها قوة أخرى، هذه القوة التي جعلت الجميع يعترفون بأنه لم تعد توجد الآن إلا قوة عالمية كبرى واحدة. لكن الأعراف الدولية والقوانين العالمية السائدة حتى الآن هي - في رأي المحافظين الجدد - من مخلفات نظام عالمي قديم، اقتضتها ظروف لم يعد لها الآن وجود. ولذلك فلا جناح على الولايات المتحدة إلا تلتزم بها مادام الأمر قد استتب لها. إن الولايات المتحدة قد بلغت من القوة شأواً لا تدانيها فيه دولة أخرى. فميزانية وزارة الدفاع هي أكبر من مجموع ميزانيات الدول الاثنتين والعشرين التي تأتي بعدها، ويقولون إنها ستكون بحلول عام خمسة بعد الألفين أكبر من مجموع ميزانيات الدفاع في كل أنحاء العالم! وإذا كانت عادٌ قد قالت فيما مضى ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ فإن أمريكا تقول اليوم لا أحد أشد منا قوة في الحاضر، ولم يكن أحد أشد منا قوة في الماضي. ولكن كما قال ربنا لعاد، نقول لمن أطغتهم القوة اليوم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

يقول أصحاب هذا الرأي من المحافظين الجدد: إن على أمريكا أن تكون هي- لا المنظمات العالمية، بل ولا حتى حُلفاؤها من الدول الغربية-، التي تقرر ما هو حسن وما هو سيء بالنسبة للعالم، وأن تتصرف بحسب حكمها من غير التزام بقرارات يفرضها عليها غيرها. فلسان حالهم يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. هذا لا يعني - كما يقولون - إلا تستشير الولايات المتحدة غيرها، وإلا تتعاون مع من يريد التعاون معها، ولكنه يعنى بصورة حاسمة أنه لا أحد له الحق الآن في أن

يلزمها بما لا تلزم به نفسها. ولئن لم تفعل هذا فسيكون مثلها كمثل الذي تقيده أقزامُ لليبوت، كما قال أحدهم. جلفر Gulliver.

وثانيهما: أن عامة الأمريكان يعتقدون أنهم أصحاب رسالة عالمية. رسالتهم هي رسالة الحرية، فهم لا يرون أنفسهم بأقوى الدول فقط، وإنما هم أخيرها، بل هم خير أمة عرفها التاريخ البشري، فهم بزعمهم أكثر الناس تدينا، وأشدهم استمساكا بالأخلاق الفاضلة. نظامهم السياسي كما يرون أحسن نظام، ودستورهم أحسن وثيقة كتبت في التاريخ، ونظامهم الاقتصادي أنجح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمي أرشد نظام، ونظامهم الصحي أفيد نظام، بل وسجونهم أكثر السجون إنسانية. أمريكا هي بلد الأحرار وبلد الشجعان وبلد الفرص. وعليه فإن استبدادهم بالأمر سيكون لخير البشرية»؛ لأن الأمريكان كما قال أحد مفكريهم هم «حداة البشرية في سيرها نحو الكمال» لا يملك المرء إلا أن يذكر مرة أخرى مقالة فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ولهذا تجد زعماءهم السياسيين يستغلون فيهم هذه النزعة الرسالية وإن شئت فقل الحمية، حمية الجاهلية، فيحرضون شعبهم - ولا سيما العسكريين منهم - على التضحية من أجل هذه المُثل العليا، لا من أجل المصلحة الوطنية بالمعنى المحدود، لأنهم يعلمون أن الذي يحرك الإنسان هو الاعتقاد في مثل هذه المثل، لا مجرد الدفاع عن أرض أو مصلحة مادية، وقد ظهر هذا جلياً في الخطاب الذي ألقاه الرئيس جورج بوش لخريجي كلية وست بوينت العسكرية. فمن العبارات التي جاءت في ذلك الخطاب، الذي أنصح بقراءته: «أن أمريكا تدافع عن الحرية، وأن العَلَم الأمريكي حيثما رُفع فلن يكون رمزاً لقوتنا فحسب ولكن للحرية. لقد كانت أهدافنا دائماً أكبر من مجرد إننا كلما حاربنا فإنما نحارب من اجل سلام عادل، سلام يختار الحرية الإنسانية. سندافع عن السلام ضد تهديدات الإرهابيين والحكام المستبدين إننا نريد لغيرنا ما نريد لأنفسنا ـ أمن من العنف، خيرات الحرية، والأمل في حياة أحسن. إن محاربة الإرهاب تحتاج إلى صبر، ولكنها تحتاج أيضا إلى هدف خُلقي. إن أعداءنا اليوم كما كانوا أيام الحرب الباردة شموليون، يؤمنون بمبدأ القوة التي لا مكان فيها للعزة الإنسانية. لقد كان الوضوح الخُلقي ضرورياً في انتصارنا في الحرب الباردة. يرى بعضهم أنه ليس من الدبلوماسية، وربما كان من سوء الأدب، أن نتحدث عن الحق

والباطل. لكنني أختلف معهم. نعم إن الظروف المختلفة تقتضي وسائل مختلفة لكنها لا تقتضي أخلاقاً مختلفة. إن الحقيقة الخُلقية واحدة في كل ثقافة وفي كل زمان، وفي كل مكان. إن هنالك صراعاً بين الحق والشر، وستسمى أمريكا الشر باسمه»[١].

لكن الذي يشكو منه كثير من الأمريكان أن هذا الشعور بقيمة أمريكا وتميزها بدأ يضعف جداً في أجيال الشباب الذين هم الآن في المدارس والجامعات. فقد انتشرت بينهم انتشاراً مخيفاً فواحش الإباحية، والشذوذ الجنسي وتعاطي المخدرات، وما استتبعه ذلك من غلبة للاتجاه الفردي والسخرية بالخلق والمثل.

دل استطلاع لبعض المدارس قبل جيل مضى بأن أكبر المشكلات التي يعاني منها الطلاب هي: عدم احترام الممتلكات، والكسل وعدم أداء الواجبات المنزلية، والحديث في الفصل وعدم الانتباه، التراشق بكور الورق المبلول بالبصاق، ترك المنافذ والأبواب مفتوحة. فلما أعيد ذلك الاستطلاع للمدارس نفسها قبل سنوات قليلة، كانت النتيجة أن أكبر المشكلات هي: الخوف من القتل العنيف بالبنادق أو السكاكين في المدرسة، الاغتصاب، المخدرات، الحمل، الإجهاض[٢].

ولهذا صار كثير من الأمريكان لا يرسلون أولادهم إلى المدارس العامة، بل يفضلون لهم التعليم المنزلي

وكثيرا ما يحزن المرء حين يرى مسلما حاز على البطاقة الخضراء فطار بها فرحا إلى أمريكا ليقذف بالبنين والبنات من أطفاله في هذا المستنقع الآسن.

ومع انتشار الثقافة الغربية، وضعف الوازع الديني بدأ هذا الفساد ينتشر في بلدان العالم كله، بما في ذلك بلادنا الإسلامية.

الاتجاه الائتلافي:

أما الاتجاه الائتلافي فلا يجادل أصحابه إخوانهم الانفراديين في كون الولايات المتحدة هي القوة العالمية الكبرى الوحيدة، ولا فيما يتميز به الشعب الأمريكي من صفات، لكنهم يرون أن الانفراد غير ممكن عملياً وإن أمكن فليس في مصلحة بلادهم. ومما يذكرونه في هذا الصدد:

---

(١) نص خطاب الرئيس الأمريكي منشور في موقع البيت الأبيض:
http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/20020601-3.html

(٢) Peter Kreeft, Ecumenical Jihad, Ignatius Press, 1966, San Francisco, pp.61-2.

- أن ما صار يوصف الآن بالنظام العالمي القديم كان إلى حد كبير من صنع الولايات المتحدة، وقد كان نظاماً ناجحاً حقق لها ما تريد فما الداعي الآن للانقلاب عليه وتقويضه؟

- أن القوة الحربية للولايات المتحدة ذات علاقة وثيقة باقتصادها، واقتصادها ليس أمراً محلياً تستطيع أن تصنع فيه ما تشاء، بل له ارتباط كبير بالأمم الأخرى. فالأسلحة لا ينتجها البنتاجون وإنما تنتجها شركات تجارية. لكن هذه الشركات تعتمد في استمرار حياتها على السوق العالمي، بل إن منتجاتها العالية التقانة لها الآن نصيب الأسد فيما يبيعه الاقتصاد الأمريكي في السوق العالمي. على سبيل المثال فإن مبيعات هذه الشركات من الحاسوبات الرفيعة في السوق العالمي تمثل نصف دخلها.

- أن هذا سيؤدي إلى فوضى عالمية. فإذا جاز لنا أن نبدأ بشن حرب وقائية على العراق، فلماذا لا تفعل الصين ذلك بالنسبة لتايوان، أو الهند بالنسبة لباكستان؟

- وإذا أعطينا أنفسنا حق تغيير النظم، فهل سنعطيها حق الإتيان بنظم نرضى عنها؟ ماذا إذا لم يختر الناس من نريد؟ هل نعود لعصر الاحتلال؟

كيف يكون التعامل مع المسلمين، ولا سيما العرب منهم؟

حوادث الحادي من سبتمبر أكدت للغرب، وللولايات المتحدة بالذات خطر الإسلام لأنه مهما قيل عن الخطأ الذي ارتكبه من قاموا بتلك العملية إلا أن الحقيقة تبقى أنهم شباب متدينون، وأنهم ابتغوا بعملهم الشهادة، وأنهم فعلوا ما فعلوا انتقاماً للمسلمين من ظلم الحضارة الغربية متمثلة في دولتها الكبرى وقائدتها. لذلك عاد الحديث جذعاً عن المواقف التي ينبغي أن تُتخذ لدرء الخطر الإسلامي.

ومن المسائل التي ذكروها في ذلك: محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام:

المسألة الأولى: ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام:

هو في رأيهم الذي يغذي عداوة المسلمين للحضارة الغربية. ومن هنا كثر الحديث عن الإسلام الراديكالي، وعن الوهابي وعن السلفية. يقولون إنه لا يمكن أن يقال للمسلمين تنكروا لدينكم، ولكن الذي يقال لهم هو أن يفهموه فهماً لا يجعله في صدام مع مقومات الحضارة الغربية. مشكلة المسلمين المتشددين، بحسب هذا الرأي، هي أنهم التي تتطلب -فيما تتطلب- أن تكون modernity رافضون للحداثة

الدولة دولة علمانية تعددية. فالمطلوب من المسلمين إذن أن يفعلوا ما فعله الغرب ليكتمل لدينهم التصالح مع هذه الحداثة كما تم للمسيحية والنصرانية

كيف يكون ذلك؟ يكون:

أولاً: بأن لا يعتقد المسلمون أن نصوص دينهم صالحة لكل زمان ومكان بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، بل عليهم أن يتذكروا كما فعل الليبراليون من النصارى واليهود، أن هذه النصوص ذكرت في ظروف تاريخية وثقافية معينة، فلا يمكن أن تكون بحرفيتها مناسبة مع ظروف تاريخية وثقافية مختلفة عنها. ما الحل إذن؟ الحل هو أن نعيد تفسير هذه النصوص لتتناسب مع العصر، بأن نقول حتى عما يبدو أنه وصف لواقع كقصة قوم لوط إن هذا إنما كان كلاماً مجازياً. فلم يحدث أن دمر الله تعالى قرى أو عاقب قوما لتوجههم الجنسي قال أوريلي مدللا على أن القصة كانت رمزية لا حقيقية: لماذا لم يدمر الله سان فرانسسكو إذن؟

وثانيا: بأن يفهم المسلمون بأن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية، لأنك إذا اعتقدت أن الحق كله معك - كما يعتقد المسلمون اليوم - فستعتقد أن مخالفيك على باطل ويستحقون لذلك أن يقتلوا، هكذا قال الرئيس السابق كلنتون في محاضرة ألقاها في جامعة جورج تاون بواشنطن بعد أحداث الحادي عشر. وهذا يعنى أن يكون الأفراد داخل الدين الواحد متسامحين مع مخالفيهم في فهم دينهم، لأن لكل إنسان الحق في أن يفهم دينه كيف شاء، وأن يرى الحقيقة من منظاره. وعلى المنتمين إلى الأديان المختلفة أن يكونوا أيضا متسامحين مع مخالفيهم معتقدين بأن كل دين يهدي إلى الحقيقة بطريقته.

وثالثا: أن يُمنع بالقانون نشر مثل هذا الفكر وتغلق كل المؤسسات التعليمية التي تنشره، وأن يعاقب الذين يروجون له أو يمولون مؤسساته.

ومما يساعد الغرب على تحقيق هذه الأهداف أن الأفكار التي تعتمد عليها قد شاعت منذ زمان بين المثقفين المسلمين، بل بين بعض الإسلاميين منهم. فقد صار الكثيرون منا جزءاً من الحضارة الغربية في فكرهم وقيمهم وطموحاتهم السياسية وعاداتهم وتقاليدهم بل وأزيائهم الرجالية والنسائية، لأنهم صاروا يعتقدون أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر التي لا يكون الناس متحضرين إلا بها.

معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب:

يرى بعض المفكرين السياسيين الغربيين أن هنالك أوضاعاً اجتماعية وسياسية بغيضة إلى الناس في العالم العربي بالذات، وأن الغرب - ولا سيما الولايات المتحدة - هو - في نظرهم - الذي يقف وراء هذه الأوضاع الظالمة ويدعمها فمن الطبيعي أن يكرهوه. ماذا نفعل إذن؟

يقول بعضهم: إن الحل واضح هو أن نعمل على تحويل أنظمة العالم العربي إلى انظمة ديمقراطية حقيقية يكون الحكم فيها للأغلبية، وتصان فيها الحريات، ويحارب فيها الفساد المالي. يقول الرئيس بوش في خطابه الشهير في كلية وست بوينت: «عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالا ونساء وحاجاتهم فليس هنالك صدام حضارات. إن متطلبات الحرية تصدق على أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي كله. إن جماهير الناس في الأمم الإسلامية يريدون ويستحقون أن يعطوا كل الحريات والفرص التي للناس في كل أمة. وعلى حكامهم أن يستجيبوا لطموحاتهم».

يقول آخرون: لكن لا تنسوا أن أغلبية الناس في هذه البلاد كارهون لنا، وعليه فإن الحكومات التي يختارونها في النظام الديمقراطي ستكون معادية لنا، يقول أصحاب الاقتراح:

أولاً: إن هذا الامر ربما يكون كذلك في البداية، ولكن سيظهر لهذه الحكومات أن من مصلحتها ومصلحة شعوبها أن تتعاون مع الغرب وتكون صديقة له.

وثانياً: إنه ليس من الصعب علينا أن نأتي بحكومات أغلبية حقيقية تكون في الوقت نفسه صديقة لنا. هنالك وسائل كثيرة لتحقيق ذلك..

هذا ما يراه بعض الساسة الأمريكان أما نتنياهو - رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق - فله نصيحة أخرى للولايات المتحدة. فهو ينصحها بأن تغزو العراق وتغير نظامها من غير اعتبار للأمم المتحدة، وأما بالنسبة لإيران فإنه يقول: إنه بإمكان الولايات المتحدة أن تُحرض على إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في إيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الأطباق الفضائية فيها لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة فوكس يظهر فيها شباب وشابات حسان في حالات مختلفة من حالات العري، يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون الجنس بطرق إباحية. "هذه مادة

هدامة. إن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم مثل تلك الملابس الجميلة التي يرونها في تلك الأفلام. سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأساليب تلك الحياة الفاتنة[(١)(٢)].

المسألة الثالثة: القضية الفلسطينية:

قضية العلاقة مع إسرائيل قضية حساسة بالنسبة لغالبية السياسيين الأمريكيين، لكن هذا لم يمنع بعضهم من أن يقول إن موقف الولايات المتحدة المنحاز لإسرائيل هو من الأسباب الرئيسة لعداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة. وأنه ما لم تحل هذه القضية حلا يراه العرب والمسلمون منصفا فإن هذه الكراهية ستستمر، وسيستمر باستمرارها الإرهاب.

الفكر الأمريكي المعارض:

ما ركزنا عليه حتى الآن هو الاتجاهات الشائعة او الغالبة في أمريكا، لكن أمريكا بلد شاسع لا يسود فيه اتجاه واحد سيادة كاملة، بل ما من رأي ديني أو سياسي أو اقتصادي شائع، إلا وله معارضون أشداء قلَّ عددهم أو كثر. وكثيراً ما تكون آراء الفئات المعارضة هذه أقرب إلى الهدي الإسلامي من غيرها. وإليك بعض الأمثلة

- فمنهم من يرى كما نرى أن ما يُسمى بالفهم الحرفي للنصوص الدينية هو الفهم الصحيح الأمين لها. فنحن نوافقهم في المنهج ونستطيع لذلك أن نناقشهم في نصوص

---

(١) في كلمة له في مجلس النواب الأمريكي ألقاها أمام لجنة الإصلاح الحكومي. وهذا هو أصل الفقرة التي ترجمناها.

Benjamin Netanyahu House Government Reform Committee that the United States could incite a revolution against the conservative Iranian clerhy through the use of such Fox Broadcasting staples as "Melrose Place" and "Beverly Hills 90210" – both of which feature beautiful young people in varying states of ujdress, living, glamorous, materialistic lives and engaging in promiscuous sex.

"This is pertty subversive stuff," Netanyahu told the committee. "The kids of Iran would want the nice clothes they see on those shows. They would want the swimming pools and fancy lifestyles'.

http://www.upi.com/view.cfm?StoryID=20020912-034109-6371r.

(٢) يرى آخرون غير نتنياهو أن الديمقراطية وجو الحرية الذي بدأ يسود في إيران سيؤدي إلى إنهاء الحكم الإسلامي بطريقة سلمية ديمقراطية.

كتبهم التي نراها مجانبة للصواب، لكننا لا نستطيع أن ندخل في حوار مثمر مع من كلما ناقشته في صحة نص قال إنه مجازي وأعطاه من المعاني ما يوافق هواه.

- بل إن من هؤلاء من يدعو كما ندعو إلى تطبيق الحدود المذكورة في العهد القديم كرجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، حتى قال أحد الصحفيين المعارضين إذا طبقنا هذه القوانين فسنقتل الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي.

- ومنهم من يرى أن العلمانية هي العدو الأكبر، ومادام المسلمون يوافقوننا على ذلك فيجب أن نعدهم أصدقاء لا أعداء في مواجهة هذا العدو.

- ومن غير المتدينين، بل من العلمانيين من يدرس عيوب المجتمع الأمريكي دراسة علمية ممتازة، ينبغي أن يتعلم منها المسلمون المبهورون بالحياة الغربية، فالعاقل من اتعظ بغيره. من هؤلاء فوكوياما في كتابه الانفراط العظيم.

- وهنالك من ينتقد الممارسة الواقعية للديمقراطية ويرى أنها قد حادت عن المفهوم الصحيح لها، إن الكتب والدراسات في هذا المجال تعد بالمئات إن لم نقل الألوف.

- وهنالك من ينتقد الرأسمالية إما أصلا أو ممارسة

- وهنالك من لا يداهن في نقده للسياسة الأمريكية الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بإسرائيل.

- ثم هنالك إخواننا الدعاة المسلمون الذين يهدي الله تعالى بهم ما يقدر بخمسين شخصا في كل يوم! فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت العالم الإسلامي، فإن الإسلام يدخل الآن قلوب الآلاف المؤلفة ممن هم في أرضها، لأن الناس يجدون فيه ما لا يجدون في حضارته رغم قوة سلطانها المادي ورغم سيطرتها وقوة تأثيرها على بقية بلدان العالم.

البعث الإسلامي الحضاري:

إذا لم تكن في الأرض اليوم حضارة إسلامية قائمة فعلاً، فإن فرص بعثها ما زالت متوفرة ومشجعة. إن المسلمين ما زالوا بحمد الله تعالى قادرين على الأوبة إلى الكتاب الهادي، وقادرين على السعي لامتلاك السيف الناصر وذلك:

أولاً: لأن انحراف الأمة عن دينها لم يكن - وما كان له أن يكون - ردة كاملة عامة عن الدين الحق. فهذا دين تكفل الله تعالى بحفظ كتابه كما تكفل بحفظ

العاملين من علمائه. فإذا كان الله تعالى قد قال، وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فإن رسوله ﷺ قد قال - غير ناطق عن هوى -: **(لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهرين على الحقِ لا يَضُرُهم من خالَفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون)**.

ثانياً: لأنه إذا كان جوهر الحضارة -أو المدنية- وأساسها الذي يُشيَّدُ عليه بنيانها هو رسالتها، هو المعتقدات والقيم التي تستمسك وتعتز بها، فإن الجوهر والأساس الإسلامي ما يزال أقوى من منافسه العلماني الغربي إن الإسلام لا يزال يبرهن عبر تاريخه الطويل بأنه فعلاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. فليس على وجه الأرض دين عبر الحواجز الجغرافية والثقافات المحلية ليبقى بين المستمسكين به -في جملته- الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ. فكتابه هو الكتاب الذي أنزل على رسوله، وصلوات الناس هي الصلوات كانت تقام في زمن النبي ﷺ، وزكاته هي الزكاة، وحجه وصيامه هما كما كانا في أشكالهما ومواقيتهما. وبالرغم مما أضيف إلى هذا الدين من بدع إلا أنه يظل رغم ذلك أكثر الأديان احتفاظاً بحقيقته، وقد كان هذا وحده مما أغرى بعض الباحثين عن الحق بالدخول فيه.

ثالثا: وما يزال هذا الدين يؤكد هذه الحقيقة بسرعة انتشاره المذهلة حتى في موطن الحضارة الغربية. فهم يقولون إن معدل سرعة انتشاره أكبر من معدل سرعة الزيادة في سكان العالم.

رابعا: لأنه باعتباره دين الفطرة، ما يزال هو الدين الذي يجد الناس في آيات كتابه عِلماً بالإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال المُنَزَّه عن كل صفات النقص من الولد والوالد التي تطفح بها بعض الأديان، وهدياً بأنه هو وحده المستحق للعبادة الهادي إلى أنواعها وكيفياتها. ويجدون في آيات كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم عِلماً بحقيقة أنبياء الله، وما كانوا عليه من كمال بشري أهَّلَهُم لأن يكونوا الأسوة التي يتأسى بها كل سالك طريق إلى الله. لكن الأديان المحرفة تجعل من بعضهم آلهة وأنى للبشر أن يتأسى بالإله؟ وتنسب إلى بعضهم جرائم يستنكف عن ارتكابها عامة عباد الله، فأنى يكونون أسوة لغيرهم؟

خامسا: ولأنه دين الفطرة فلا يجد الناس فيه تصادماً بين مقتضيات العقول التي فطرهم الله عليها، ولا مخالفة لحقائق الخلق التي يشاهدونها ويجربونها. فالعقل فيه

نصير الدين لا خصيمه، كما هو حاله في بعض الأديان. والعلم التجريبي يشهد له ولا يشهد عليه كما يفعل مع بعض الأديان.

سادسا: ولأن الناس كما يجدون فيه حاجتهم إلى الإيمان الخالص والعبادة السليمة والأخلاق الحسنة فإنهم يجدون فيه هدياً لتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيماً يتوافق مع ذلك الإيمان وتلك العبادة وهاتيك الأخلاق، ويعبر عنها ويؤكدها ويحميها؛ فهو الدين الوحيد الذي لا يحتاج إلى علمانية تكمل نقصه، أو تتصالح معه.

سابعا: وهو الدين الذي ما يزال يشهد لأحقيته سلوك المهتدين من أبنائه. فهؤلاء هم أكثر أهل الأرض ذكراً وعبادةً لله، وأبعدهم عن مساخط الله، وأكثرهم بذلاً لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأكثرهم رحمةً بصغير وتوقيراً لكبير وصلةً لرحم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى بعض علماءِ النصارى، ومن أعجبهم بيتر كريفت أستاذ الفلسفة بكلية بوستن، الذي يحث إخوانه النصارى على أن يعدوا المسلمين أصدقاء وأعوانا لهم في حربهم ضد العلمانية التي يرى فيها العدو اللدود للدين والخطر الأكبر على الحياة الاجتماعية.

يقول هذا الرجل: «لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيرا دنيويا كل بحسب تخصصه. لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك. إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها: قارن بين كميات الإجهاض، وزنا المحصنين وغير المحصنين والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة»[1].

---

(١) تصرفت قليلا في بعض الكلمات التي لم أجد لها في العربية مقابلا يفي بغرض الكاتب. لذلك يحسن أن أضع نص حديثه بين يدي من يريدون الاطلاع عليه في لغته الإنجليزية:

Why is Islam spreading so spectacularly? Sociologists and psychologists and historians and economists and demographers and politicians are quick to explain this growth with"expert" worldly wisdom from each of their specialties; but to any Christian familiar with the Bible, the answer is obvious: because God keeps His promises and blesses those who obey His laws and fear Him and punishes those who do not. Much too simple for scholars to see. Compare the amounts of abortion, adultery, fornication, and sodomy among Muslims and among Christians. Then compare the amounts of prayer. *Ecumenical Jihad*, 1996, Ignatius Press, San Francisco, p.38.

ثامنا: ولأن كثيراً من الناس في الغرب بدؤوا يشعرون بالخطر الذي تسوقهم إليه الحياة العلمانية المجردة عن الدين، خطر تمكينها للاتجاه الفردي في الناس، وإضعافها للوازع الخلقي، وعبادتها للجنس، وتحويلها الحياة إلى جهد لا معنى له ولا غاية. كل هذا يسبب للناس أنواعاً من الشقاء الروحي، فذهب الكثيرون منهم يبحثون عن دين ينقذهم فلم يجد كثير ممن عرف الإسلام منهم أكثر منه إجابة لمطالبهم الروحية والخلقية بالطريقة التي أشرنا إليها سابقاً.

وعليه فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت بلادنا فكرياً وخلقياً وجعلت جزءاً من الصراع بيننا وبينها صراعاً على أرضنا، وبيننا وبين أقوامنا، فإن الإسلام الآن يفعل الشيء نفسه، إنه يغزو أرض الحضارة الغربية ويجعل الصراع بينه وبينها صراعاً على أرضها وبينها وبين من كانوا بالأمس حماتها المدافعين عن حياضها.

تلك بعض فرص الدعوة إلى الإسلام وإلى بعث حضارته، وهنالك وسائل كثيرة لاستغلال هذه الفرص، لكنني لا أريد الآن الدخول في تفاصيلها، ولا في تفاصيل السعي لامتلاك السيف الناصر، فلتفاصيل كل ذلك مجال آخر. وإنما أريد أن أختم هذه المقالة بالتذكير بقواعد للعمل الإسلامي لما أرى من خطورتها ومن عدم الاهتمام الشديد بها. وهي

أولا: أن أمر العودة للإسلام وحضارته ليس بالحمل الخفيف الذي يمكن أن ينهض به أفراد، أو تقوم به جماعة واحدة أو دولة واحدة، وإنما هو عبءٌ ثقيلٌ يجب أن تتضافر على حمله الجهود. لذلك لا بد أن يقتنع كل فرد عامل للإسلام وكل جماعة وكل دولة بأن التعاون بين الساعين لتحقيق هذا الهدف أمر لازم، وأن التشاور فيما بينهم أول خطوات ذلك التعاون، ثم يأتي التنسيق وتوزيع المهام.

ثانيا: وإذا كان التعاون أمراً لازماً فيجب أن يكون السعي لبعث الحضارة الإسلامية أبعد شيء عن الحزبية. إن بعض الناس يخلط بين العمل الجماعي المنظم - وهو أمر لا بد منه - وبين الحزبية التي تحول التنظيم إلى غاية كثيراً ما يُضحى في سبيلها بالغاية التي أُنشئ من أجلها والتي كان في البداية مجرد وسيلة إليها. الحزبية أن

تحصر علاقات الأخوة الإسلامية وواجباتها فيمن دخلوا ضمن إطار التنظيم، وإلا يعان على عمل خير بل ولا يعترف به إلا إذا كان من منجزات الجماعة المنظمة.

ثالثا: الالتزام الصارم الشديد بقيم العدل والصدق والأمانة والوفاء حتى في معاملة الأعداء. لأن هذه القيم قيم مطلقة لا تختص بحال دون حال. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قال المفسر الكبير ابن كثير: «إن العدل واجب على كل أحد، مع كل أحد، في كل حال؟».

لكن بعض العاملين للإسلام اليوم يحيدون عن هذه القيم لأوهى الأسباب، ويسلكون سلوك السياسيين الميكيافليين. ناسين أن هذه القيم قيم يحبها الله، وأن الالتزام بها - حتى مع الأعداء - عبادة لله. وأنك لا يمكن أن تنصر دين الله بارتكاب مساخط الله

رابعا: على الأفراد وعلى الجماعات غير الحكومية أن تلتزم التزاماً معلناً وصارماً بالطرق السلمية. هذا هو الذي يدل عليه شرع الله، وهو الذي ينتهي إليه كل من اتعظ بالتجارب المريرة للجماعات التي دخلت في صراعات دموية لم تكن لها بكفء. إنك لا تحمل السلاح على من أنت تحت سلطانه، وإنما الذي يشرع لك هو الدعوة مع كف الأيدي وإقامة الصلاة، فإذا كانت لك أرض مستقلة وقوة مادية فآنذاك.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..

أستغفر الله..

وأصلي وأسلم على خاتم رسل الله..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

* * *

مزالق الإيمان بالديمقراطية

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم في السودان

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين الهادي إلى الصراط المستقيم والصلاة والسلام على من أرسله سبحانه رحمة للعالمين، ثم أما بعد:

مقدمتان: باسم الله وعونه تعالى نفتتح حديثنا بمقدمتين مهمتين:

أولاهما: أن الديمقراطية التي نتحدث عنها هي الديمقراطية بالمعنى الذي يدل عليه اسمها، وهو معناها المعروف بين كبار المفكرين الغربيين من كان منهم مؤمنا بها أو منكرا لها، منذ عصر اليونان إلى يومنا هذا .الديمقراطية بهذا المعنى هي حكم الشعب.

والديمقراطية بهذا المعنى تجيب عن سؤال مهم لعله أهم سؤال في الفكر السياسي، بل في الحياة عامة، وهو لمن الحكم؟ من ذا الذي يحق له أن يقول هذا مسموح به وهذا محظور، هذا واجب وهذا جائز، هذا حلال وهذا حرام؟ الإجابة عن هذا السؤال المهم واضحة هي أن الشعب هو الذي يملك هذه السلطة التشريعية، فالشعب هو صاحب السيادة التشريعية .لكن هذا المبدأ الديمقراطي ارتبط في الواقع الغربي المعاصر بأفكار ومبادئ منها ما رأوا أنه من لوازمه، ومنها ما رأوه من وسائله، بل منها ما هو من نقائضه .لكن كل هذا صار في أذهان الناس في الشرق والغرب داخلا في معنى الديمقراطية: الليبرالية، الرأسمالية، الانتخابات، تداول السلطة، حكم القانون، الشفافية، الأحزاب، حرية التعبير حقوق الإنسان، إلخ . بل إن الأمر صار أكبر من ذلك كما قال أحد الكتاب الأمريكيين: لقد صارت الديمقراطية هي المنصة التي يضع عليها كل أحد قربانه المفضل .تكاد كل الجوانب المرغوب فيها في الحياة السياسية بل والاجتماعية تمدح بأنها من لوازم الديمقراطية: التمثيل، المحاسبة، المساواة، المشاركة، العدالة، الكرامة، العقلانية، الأمن، الحرية والقائمة تستمر». أكرر أن حديثنا الليلة ليس عن شيء من هذه المبادئ والأفكار التي صارت ملحقة عند كثير من الناس بالديمقراطية، بل صارت عند بعضهم هي الديمقراطية.

وثانيتهما: أن حديثنا عن مزالق الإيمان بالديمقراطية، لا عن العمل بالديمقراطية أو تطبيقها. لماذا؟ لأن الديمقراطية بحسب تعريفها العلمي الذي ذكرناه، نظرية يستحيل

العمل بها أو يتعذر إلا في مجموعات لا تتجاوز بضع عشرات من الآلاف من الناس .ولذلك فإن الأوربيين لما بعثوها بعد ألفي عام من موتها في أثينا أسموا ديمقراطيتهم بالديمقراطية غير المباشرة أو الديمقراطية النيابية .أما الأمريكان فقد كان الكثيرون من واضعي دستورهم يرون أن الديمقراطية إنما هي الديمقراطية المباشرة التي كان معمولا بها في أثينا، ولذلك صرحوا بأن نظامهم ليس نظاما ديمقراطيا وإنما هو نظام جمهوري نيابي .وقد يستغرب بعضكم كما استغربت إذا علموا أن كلمة الديمقراطية لم ترد في أي من الوثائق السياسية الأمريكية الأساسية الثلاث: الدستور، وإعلان الاستقلال، وحقوق الإنسان، كما قال أحد الكتاب الأمريكان.

ندخل بعد هاتين المقدمتين في موضوعنا الأساس: ما مزالق الإيمان بالديمقراطية بمعنى حكم الشعب؟ أول المزالق وأعظمها والأصل الذي تترتب عليه كل المزالق الأخرى هو أن الإيمان بأن الحكم للشعب مناقض لأكبر قاعدة يقوم عليها بنيان الدين الإسلامي كله، إنها القاعدة التي تقول: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فإذا كانت الإجابة الديمقراطية عن سؤال لمن الحكم هي أنه للشعب، فإن الإجابة الإسلامية هي إن الحكم إلا لله .فالآية لا تقرر فقط أن الحكم لله، وإنما تقول إن الحكم إلا لله، أي إن الحكم لا يكون بحق إلا لله .والمقصود بالحكم هنا وفي النظرية الديمقراطية إنما هو الحكم التشريعي .أما الحكم التنفيذي فإنما يقوم به أفراد من الناس في كل نظام من الأنظمة .فالشعب يشرع والمسؤولون ينفذون، والله تعالى يشرع والناس يحكمون بما شرع.

هذا الحكم التشريعي هو من خصائص الربوبية التي لا يجوز لأحد أن يدعيها أو يشرك مع الله تعالى أحدًا فيها، لا ملك ولا دكتاتور ولا رئيس جمهورية ولا علماء ولا شيوخ . فكل من اعتقد أن أحدًا من هؤلاء له حق التشريع والتحليل والتحريم يكون قد اتخذه ربا من دون الله تعالى .يؤكد هذا قوله تعالى عن بعض اليهود والنصارى في زمن الرسالة المحمدية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، وفسر النبي ﷺ اتخاذهم لهم أربابًا بأنه اتباعهم لهم في تحليلهم لما حرم الله وتحريمهم لما أحل .ولهذا قال تعالى في تمام الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] ، فهم لم يعبدونهم من دون الله تعالى بأنهم سجدوا لهم أو حجوا وإنما عبدوهم بأنهم أعطوهم حق التشريع .وعليه فإن كل من أعطي هذا الحق يكون معبوداً لمن أعطاه إياه حتى لو كان ما يسمى بالشعب أو المواطنين .وإذا أردنا أن نعرف كيف أن هذه الحقيقة، حقيقة إن الحكم إلا لله، هي القاعدة التي يقوم عليها بنيان الدين كله، فلنقرأ الآية بأكملها والتي قبلها: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]، فالآية الكريمة تدل على أن العبادة، وهي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، مؤسسة على قاعدة أن الحكم لله .فنحن نعبد الله تعالى لأنه أمرنا بعبادته، ونحن نطيع أمره تعالى لأننا نؤمن بأن الحكم له، والأمر والنهي له .وتدل على أن الدين القيم مبناه على التسليم بأن الحكم لا يكون إلا لله .لماذا لا يكون الحكم إلا لله؟ لأن الله تعالى هو وحده خالق الكون وحاكمه قدراً، فلزم أن يكون هو وحده الذي له حق حكمه شرعاً. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكل من آمن بأن للكون خالقًا واحدًا ثم أبى أن يحتكم إلى شرعه، أو اعتقد أنه يجوز لأحد غيره أن يشرع لخلقه يكون قد نقض إيمانه به .فكيف إذا كان يدعي الإيمان بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠-٧٠].

ذلك هو المزلق والضلال الأكبر المترتب على الاعتقاد بأن الحكم للشعب .لكنه مزلق تنتج عنه وتترتب عليه مزالق وضلالات أخرى عظيمة.نريد قبل الحديث عن هذه المزالق الفرعية أن نقول إن هذا الضلال الأكبر وما ينتج عنه من ضلالات هو الذي يحرص على دعوتنا إليه وتزينه لنا بعض أنصار العلمانية ودعاتها في الغرب والشرق .إنه لمن السذاجة البالغة ما يظنه بعض الناس في العالم الإسلامي أن أمريكا وغيرها من دول الغرب إنما تنفق أموالها وتضحي بأولادها وتشن حروبها وتنشئ وتمول المؤسسات الداعية إلى الديمقراطية من أجل أن ينعم الناس في العالم العربي أو الإسلامي بانتخابات وأحزاب ومجالس تشريعية، وأجواء من حرية يختار فيها المواطنون ما يرونه صالحاً ومناسباً لبلادهم. فهذا أستاذ كبير بمعهد كاتو Cato بواشنطن يقول عن مهمة أمريكا في العراق في بداية محاولتهم لوضع دستور له: «إن أعظم مهمة للمهتمين بمستقبل العراق هي أن يعملوا على أن يكون المجتمع العراقي أكثر تقديراً لأهمية الحرية اللبرالية في مجتمعه .إن الديمقراطية وسيلة لها قيمتها، لكنها وسيلة فقط .إن الهدف هو مجتمع حر». ولذلك يرى أنه حتى لو انتهى الأمر إلى أن يكون الدستور وثيقة ليبرالية في مجتمع غير ليبرالي، فلن يكون عديم الفائدة .إن مخططاً كهذا سيقترح غايات مثالية، وسيضع أساسًا قانونيًا لأي إصلاح إذا ما تغيرت الثقافة السياسية.

وينقل في هذا الصدد عن جريدة نيو ريبلك New Republic موافقا لها قولها:"إن كون ١٨٠٠ من الجنود الأمريكان فقدوا أرواحهم لكي تستمتع نساء العراق بخيرات القرون الوسطى الدينية أمر ينبغي أن يزعج إدارة بوش والشعب الأمريكي."وكذلك قول كاتبة أخرى كانت أكثر صراحة Nina Shea : «إنه ينبغي أن لا يزهق دم أمريكي في سبيل إقامة حكم الشريعة». هذه هي الأهداف الحقيقية من وراء الاهتمام بنشر الديمقراطية لكنهم قلما يصرحون بها، بل إن بعض مؤسساتهم الداعية إلى الديمقراطية في بلادنا لتظهر بمظهر المؤسسة العلمية الأكاديمية التي تسعى إلى بيان العلاقة الحميمة بين الإسلام والديمقراطية .من هذه المؤسسات واحدة تدعى مركز دراسة الإسلام والديمقراطية يشارك في الإشراف عليها مستشرقون من أمثال جون اسبوزيتو، وعلماء من أمثال الدكتور طه جابر، الذي أصدر فتوى تحث المسلمين على إيتاء الزكاة لهذه المؤسسة، نشرتها على موقعها ثم قرأنا بعد ذلك في تقرير لمؤسسة راند شبه الرسمية أن هذا المركز هو أحد المؤسسات التي تدعمها الحكومة الأمريكية لنشر الديمقراطية في العالم الإسلامي .!!

نعود بعد ذلك إلى موضوعنا فنقول:

المزلق الثاني: هو أن الاعتقاد بأن الحكم للشعب يؤدي لا محالة إلى الإيمان بالعلمانية، لأن العلمانية في كل صورها، وسواء كانت ديمقراطية أو دكتاتورية، إنما تقوم على الاعتقاد بأن التشريع من حق البشر أفرادا كانوا أو جماعات. فالديمقراطية بمعنى حكم الشعب هي نظرية علمانية لا محالة.

المزلق الثالث: وهو لازم عن الثاني وهو أنه ما دام المواطنون كلهم متساوين في حقهم في التشريع، فيجب أن لا يكون هنالك فرق بين مؤمن وملحد، أو مسلم ونصراني، أو بين مستمسك بدينه ومرتد عنه.

المزلق الرابع: وهذا يؤدي بدوره إلى الاعتقاد بأن الرابطة الأساس بين الناس هي رابطة المواطنة لا رابطة الأخوة الإسلامية التي هي أساس كل الهدي الإسلامي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي .لكن بعض الناس يحاولون أن يجمعوا بين هذين النقيضين كما الحال في دستور السودان الحالي الذي أفتي بعضهم بأنه دستور إسلامي.

المزلق الخامس: أن يسود الاعتقاد بنسبية المصلح والمفاسد والنافع والضار .ذلك لأن الديمقراطية نظرية لا محتوى لها .إنها إنما تقرر أن الحكم للشعب ثم تترك لكل شعب أن يختار ما يراه مناسباً .لكن الشعوب تتعدد وتختلف مكانا وزمانا: فهذا شعب أمريكي بجانبه شعب مكسيكي ثم هنالك شعب إنجليزي وآخر فرنسي .وهذا الشعب الأمريكي الآن كان شعبًا آخر قبل عدد من السنين وشعبًا ثالثًا قبل عدد آخر، وفي كل مرة تتغير قيمه فيحرم ما كان قد أحل ويحل ما كان قد حرم، ويقدم ما كان قد أخر ويؤخر ما كان قد قدم، وكل هذه الأحكام ديمقراطية ما دام قد توفر فيها شرط الإجراءات الديمقراطية .فاختطاف الأحرار واسترقاقهم، واحتلال البلاد واستعمارها وقتل أحرارها ونهب خيراتها كل هذا جائز ما دام قد جاء نتيجة قرارات توفر فيها شرط الإجراءات الديمقراطية .يعبر عن هذا الاضطراب نكتة عن رجل إنجليزي قيل إنه قرر أن يهاجر من بلده فلما سئل عن سبب قراره قال إن الشذوذ كان ممنوعاً، ثم صار مسموحاً به، فأنا أخشى أن يصير بعد قليل واجبًا. هذا عن الديمقراطية، أما في الإسلام فإننا عندما نقول إن الحكم إلا لله، نشير إلى حكم معين مسجل في مصادر معينة فيها تفصيل لأحكام معينة، وفيها قواعد عامة للحكم، وفيها أمر بالالتزام بمكارم الأخلاق، وحسن معاملة البشر وهكذا.

المزلق السادس: هو أن تصير الثقافة الغربية هي القدوة والمثال الذي يحتذى لا في مجال السياسة وحدها بل في كل مجالات الحياة .لأنك إذا آمنت مع الغربيين بأن الحكم للشعب، ثم اعتقدت بأن شعوبهم هي الشعوب الأكثر حضارة لأنها هي السابقة في مضمار الديمقراطية، كان من الطبيعي أن تعتقد أن ما اختاروه هو المناسب للعصر، وأن تريد لشعبك أن يتشبه بهم ويحذو حذوهم .ولذلك تجد أن كلام الكثيرين حتى ممن ينتسبون إلى الإسلاميين صار مجرد ترديد للعبارات والشعارات الغربية السياسية مترجمة إلى اللغة العربية: الديمقراطية، الشفافية، المرأة، تداول السلطة، حتى صاروا كما قال الشاعر العربي:

ألهت بني تغلب عن كلِّ مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

المزلق السابع: هو أن تصير الديمقراطية هي معيار الشرعية الوحيد .فكل ما لا يأتي عن طريقها فهو غير شرعي وغير قانوني .هذا مع أن الغربيين لم يكونوا يبالون بالخروج عليها إذا ما تبين لهم أن المصلحة في مخالفتها .من ذلك ما ذكره فريد زكريا في كتابه مستقبل الحرية: قال: "كان الاسترقاق والتفرقة العنصرية متأصلتين في الجنوب الأمريكي عن طريق النظام الديمقراطي .ولذلك فإنه منذ قيام الجمهورية واجه الذين يبغضون الاسترقاق مشكلة هي أن غالبية المصوتين في الجنوب كانوا يدافعون عنه بحرارة بالغة .وفي النهاية مات لا لأنه خسر معركة التصويت ولكن لأن قوات الشمال سحقت الجنوب .فالديمقراطية عند الغربيين ليست هي المعيار المطلق كما هو الحال عند المقلدين لهم في بلادنا .أذكر أن أحد الصحفيين عندنا كتب ذات مرة يقول إنه على الإسلاميين أن يقبلوا نتيجة صناديق الاقتراع حتى لو جاءت بالحزب الشيوعي . ذكرني كلامه بكلام للفيلسوف البريطاني برتراند رسل عندما سئل إلى حد هو مستعد لأن يعطي الحرية للحزب الشيوعي، فقال: ما لم يصل عن طريقها إلى الحكم . لأن الديمقراطية تكون حينئذ متناقضة إذ تمكن من الوصول إلى الحكم من يعمل على قتلها .أو كلاماً هذه فحواه.

المزلق الثامن: هو الخضوع للرغبات التي تؤثر في الانتخابات حتى لو كانت رغبات منكرة وحتى لو كان أصحابها أقلية .هذه نتيجة حتمية لكل من يعتقد أن الحكم للشعب، ومن ثم يريد من الشعب أن ينتخبه. لقد رأينا هذا واقعاً في البلاد الغربية، رأينا أناسا المعروف عنهم أنهم محافظون ينكرون أشياء مثل الشذوذ، لكن مرشحهم يخشى إن هو صرح بإنكاره لها أن يفقد بعض الأصوات التي قد تؤثر في نتيجة الانتخابات .إنه لا ينكرها إلا إذا رأى أن عدم الإنكار سيفقده أصواتاً أكثر منها، لكن هذا يتنافى مع المهمة الكبرى للحكومة الإسلامية: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

المزلق التاسع: سيقول بعض الناس ماذا نفعل إذن؟ إننا نعيش في مجتمع تعددي، والتعددية هي سمة المجتمعات الحديثة. ولا يمكن مع التعددية التزام بدين معين لأن

معناه إقصاء الآخر، أو إكراهه على الالتزام بدين لا يؤمن به .إنه لا حل في مثل هذه الأحوال إلا الحل الذي اهتدت إليه البشرية، الحل الديمقراطي الذي لا يفرق بين المواطنين بسبب معتقداتهم وفلسفاتهم وقيمهم، كما لا يفرق بينهم بسبب ألوانهم وعناصرهم .إنه النظام الذي يعطي كل المواطنين ـ بغض النظر عن تلك الفروق بينهم ـ حقوقا سياسية متساوية .صار هذا الكلام عند كثير من الناس كالبدهيات التي لا تقبل نقاشا، مع أنه في حقيقته من أبطل الباطل، فهو باطل نظريا ومستحيل التحقق عمليا .وذلك أن كل نظام سياسي لا بد له من قوانين تحكم علاقات الناس وتصرفاتهم الشخصية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية، فتقول إن هذا مباح وهذا محظور .ولا بد لهم من سياسات تنظم علاقاتهم الخارجية ,وفلسفاتهم التعليمية والإعلامية، ومبادئهم القانونية وغير ذلك .فإذا كان المجتمع مكونا من مواطنين مختلفين اختلافات أساسية في نظرتهم إلى الحياة بسب دينهم أو فلسفاتهم وقيمهم، لزم أن يكونوا مختلفين في المبادئ التي تقوم عليها القوانين والسياسات .فكيف يمكن إذن أن تكون لهم جميعاً حريات سياسية متساوية؟ كيف يمكن للاشتراكي أن يعمل باشتراكيته، وللرأسمالي أن ينظم المجتمع على أساس رأسماليته؟

كيف يمكن أن تكون للعلماني ولصاحب الدين حريات متساوية في تنفيذ ما يؤمنون به؟ هذا أمر مستحيل . ولذلك فإن كل محاولات الوصول إلى حل له فشلت فشلاً ذريعاً . وقد كان من أشهرها وأكثرها عمقاً محاولة جون رولز فيلسوف السياسة الأمريكي الذائع الصيت في البلاد الغربية .إنه لا يمكن في الواقع إلا أن تكون هنالك نظرة واحدة من تلك النظرات المتعددة تبنى عليها قوانين البلاد وسياساتها .ثم يعطى الآخرون قدراً من الحرية يختلف باختلاف النظرة الحاكمة إليهم .لا يمكن أن تعطى نظراتهم وأديانهم وفلسفاتهم حقاً مساويًا للنظر أو الفلسفة أو الدين الحاكم .هذا أمر مستحيل. وهذا هو الواقع في المجتمعات الديمقراطية الليبرالية الغربية .إن فلسفة الحكم السائدة فيها فلسفة علمانية ديمقراطية ليبرالية، فهي تعطي غيرها من الفلسفات والنظرات من الحرية ما يتناسب معها ولا يهددها . نعم إنهم يسمحون لمخالفيهم من أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى أن يدعو إلى ما يريدون (في حدود

القانون)، وأن ينافسوا في الانتخابات، بل يسمحون لهم أن يشاركوا في الحكم لكن بشرط أن يلتزموا بنظم الدولة العلمانية .فرئيس الدولة المسلم في بلد علماني ليس رئيسا له باعتباره مسلماً، وإنما هو رئيس باعتباره مؤمناً بدين في الحدود التي تفرضها قوانين الدولة العلمانية التي تقرر بأن الدين في أساسه سلوك شخصي لا علاقة له بالحياة العامة التي تتولى الدولة العلمانية شؤونها.

ما الحل إذن وما العمل؟

إذا اخترنا أن ندخل في جحر الضب الذي دخل فيه الغربيون ومن تابعهم، فلا حل لأننا سنفكر عندئذ كما يفكر سكان الجحر من الضببة. وأما إذا أردنا أن نكون أحراراً نفكر لأنفسنا فالحلول كثيرة بحمد الله تعالى.

يمكن مثلا أن نقول لأنفسنا هذه بلادنا وهؤلاء مواطنونا وهذه معتقداتهم وقيمهم المتعددة، وهذه ظروفنا الراهنة فلنفكر بغور في أحسن وضع يناسبنا.

أما نحن المواطنون المسلمون فسنقول لإخواننا المشاركين لنا في الوطن من غير المسلمين:

أولا: إنه إذا كان الغرب قد اختار أن يحل مشكلة التعددية بجعل الدولة علمانية لا علاقة لها بالدين، وبجعل الدين أمرا خاصا لا علاقة له بالدولة، فإن ديننا لا يكون دينا إذا حشر في زاوية ضيقة لأنه ليس دينا بالمعنى الذي تريده العلمانية، وإنما هو منهاج شامل لحياة الناس كلها: معتقداتهم وعباداتهم وقيمهم الخلقية وعلاقاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهكذا.

ثانيا: ولأن هذا الدين يقتضي منا أن لا نكون مجرد أفراد يذوبون في مجتمع، بل يقتضي منا أن نتصرف باعتبارنا أمة، باعتبارنا جسدا واحدا .فكما أننا نجتمع في المسجد باعتبارنا مسلمين ونصلي وراء إمام مسلم، فكذلك نحن في السياسة نجتمع باعتبارنا مسلمين وراء إمام مسلم تسمى إمامته بالإمامة العظمى، يلتزم في حكمه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونطيعه ما أطاع الله تعالى، ونتصرف في أمورنا بالشورى بيننا إننا أمة مجتمعة متميزة لا أفراد مشتتة .ونحن نتصرف مع غيرنا من الدول والجماعات بهذا الاعتبار.ولذلك قال رسولنا ﷺ في الوثيقة التي وادع فيها اليهود في المدينة وأقرهم على دينهم: **(والمسلمون أمة واحدة من دون الناس).**

ثالثا: ولذلك فإننا نرى أنه من مصلحتنا ومصلحتكم أن نعيش متسالمين متوادعين في وطن واحد، ونرى أن هذا أمر ممكن وأنه خير لنا ولكم من أن نترك أدياننا وندخل مع الغرب في حجر العلمانية.

رابعا: وإذا كان الغرب قد أبعد أديانه عن الحكم لأنها كانت إذا حكمت تفرض معتقداتها على غيرها، فما هكذا يفعل الإسلام .إننا نريد أن نصالحكم صلحا يكون من شروطه أن لا يفرض واحد منا دينه أو مذهبه في الحياة على الآخرين، أو يطلب منه أن يتبنى معتقدات تخالف دينه.

خامسا: وبكون من شروطه أن يقر كل واحد منا الآخر على أرضه، وأن تكون للأقليات الدينية في كل جماعة حقوق نتفق عليها.

سادسا: يحكم هذه العلاقة بيننا وبينكم وينظمها وينسقها دستور نتفق عليه.

أقول في ختام هذه الكلمة إنه إذا كان إخواننا المواطنون في جنوب السودان قد رأوا أنه من حقهم أن يجتمعوا بصفتهم جنوبيين لهم هويتهم ومعتقداتهم غير الإسلامية، وأن تكون لهم حكومتهم التي تمثل هذه الهوية، أفلا يكون من حقنا نحن المواطنين السودانيين من ذوي الهوية الإسلامية أن يكون لنا ما لهم .ألم يقل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة؟ أجل .ولذلك فإنني أدعو كل إخواننا المسلمين في السودان، أفرادا وجماعات وأحزابا، أن نجتمع في جبهة واحدة باعتبارنا مواطنين سودانيين مسلمين، يرون أن من حقهم أن تكون لهم حكومتهم الإسلامية التي تعبر في دستورها وقوانينها وسياساتها، عن هويتهم وتلتزم بمبادئ دينهم. وهذا يعني أن تكون لنا دساتير ثلاثة: دستور للولايات غير الإسلامية، ودستور للولايات الإسلامية، و دستور اتحادي ينظم العلاقة بينهما.

هذا والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد وهو حسبنا ونعم الوكيل[1].

---

(١) Adam Przeworski, (Minimalist Conception of Democracy : A Defence.), in The Democracy Sourcebook, Robert A Dahl, Ian Shapiro, Jose Antono Cheibub (editors), The MIT press, Cambridge Massachusetts. London ngland. P. 12.Doug Bandow, Democracy or Liberty? Bangkok Post.com, 23 Aug 2003.

العلمانية في ثياب إسلامية

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الخرطوم.

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أيها الأعزاء..

إن أسوأ أنواع الضلال أو الإضلال هو الإضلال الذي يأتي عن طريق الدين قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨]، أي من الجهة التي نأمنكم منها، جهة الدين ولا تظنوا أن هذا شيء مستغرب فإن الإضلال عن طريق الدين شيء مبين في القرآن الكريم، هذا أمر سلكه أهل الكتاب، وحذرنا منه رسول الله ﷺ، والإضلال بالدين قد يكون عن قصد وقد يكون عن غير قصد فالإضلال عن قصد فالله سبحانه وتعالى يقول عن اليهود ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وهم أحبار ورهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله وأما الإضلال عن غير قصد فكما قال ﷺ: **(حتى إذا لم يبق عالم أو يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)**. وتجربة البلاد الغربية تدلنا كما درسنا في التاريخ الفكري لها أن كثيراً من الأسس التي قام عليها الإلحاد في أوروبا وضعها أُناس كانوا يؤمنون بوجود الخالق ولكنهم جاءوا بفلسفات وأفكار مع أنهم كانوا مؤمنين بوجود الخالق إلا أن هذه الأفكار والفلسفات هي التي أدت إلى الإلحاد فكثيراً ما يقول الإنسان كلاماً ولا يذهب به إلى نتائجه و أبعاده المنطقية فيأتي أناس بعده ويفعلون هذا ولهذا فلا تستهينوا بالإضلال الذي يأتي عن طريق الدين.

أيها الإخوة الأعزاء أحب أن أكد لكم أن هذه المحاضرة فكرية وليست محاضرة سياسية، أنا أتكلم في نقد فكر وفكر شخص واحد ولا أتكلم عن واقع، أنا أنتقد فكراً ولا أنتقد اليوم واقعاً ولا يعني أنني عزمت على أن لا أنتقد واقعاً ولكن في هذه الليلة أنا أتكلم عن فكر ولا أتكلم عن واقع والفكر مهم ولا سيما أفكار الزعماء لأن أفكار الزعماء تؤثر في الناس إما أنها تؤثر في أفكارهم وتصوراتهم أو أنها تتحول إلى واقع، وبعض هذا الذي أنتقده تحول فعلاً إلى واقع ولأنه كما كان يقول علماؤنا إن ضلال الفكر أسوأ من ضلال العمل؛ ذلك لأن الإنسان إذا كان تصوره صحيحًا

وكان له علم ثم أخطأ فسيعلم أنه أخطأ، وأما إذا كان الفكر الذي يقود العمل إذا كان هذا الفكر نفسه ضالا ومنحرفاً فإنه تكون المصيبة أكبر.. أنا قلت إن عنوان هذا الحديث هو العلمانية في ثياب إسلامية، فما العلمانية؟ العلمانية بفتح العين العلمانية علمانيتان علمانية ممكن أن نقول إنها علمانية مضيقة تكتفي بأن تفصل الدين عن الدولة، ثم بعد ذلك تترك للناس الحرية بأن يتدينوا كيف شاءوا، وقد يكون بعض من هم في الدولة متدينين في أشخاصهم كما كان جريجر مثلا في الولايات المتحدة يكون نصرانياً ولكنه يؤمن بالعلمانية التي تفصل الدين عن الدولة، وعلمانية موسعة هذه العلمانية غايتها هي إقصاء الدين لا عن الدولة فحسب وإنما عن الحياة كلها. والفكر الذي أتحدث عنه هو فكر باسم الدين يفصل كثيرا من المبادئ التي تقوم عليها العلمانية، لا أقول إنه فكر يدعو للعلمانية دعوة صريحة ولكنه قصد صاحبه أم لم يقصد هو، قلت إن هناك علمانيتين علمانية مضيقة وعلمانية موسعة، وأن هذ الفكر يفصل العلمانيتين كليهما باسم الدين وبلغة الدين والعلمانية المضيقة علمانيتان أيضاً علمانية ليبرالية تقول إنه مادام الدين قد أقصي عن السياسة فما بقي إلا أن يختار الناس ما يريدون، فالحاكمية تكون للشعب اليوم يبيحوا الخمر وغداً يحرموها، اليوم يمنعوا الشذوذ الجنسي غداً يبيحونه. الأمر للناس، هذه ليبرالية. وهنالك علمانية قهرية تقصي الدين عن السياسة، ولكن يأتي أُناس أو قلة من الناس ويتحكمون في مصالح الناس. وكان أكبر دليل على هذا وأكبر مثال على هذا الماركسية، والماركسية ليست وحدها هي العلمانية القهرية وأنا أزعم أن فكر صاحبنا الذي انتقده هنا هو في بعض أجزائه نصير للعلمانية القهرية باسم الدين، وأنا سأبدأ بأن أعطيكم صورة عامة عن ما أريد ثم ندخل في التفاصيل لأن المادة ستكون كثيرة ربما لا يسعفني الوقت فلذلك أريد أن أعطيكم صورة عامة عن الذي أريد أن أقوله. نبدأ عن العلمانية المضيقة وهي فصل الدين عن الدولة يقول صاحبنا هذا عن الخلافة إنها نظام فاسد فسد منذ عهد عثمان، وعثمان كان ثالث الخلفاء الراشدين ويقول إن الفكر الإسلامي ليس فيه فكر سياسي وأن أوروبا تطورت سياسياً لأنها اعتمدت على جمهورية أفلاطون، وأنا عندما قرأت هذا الكلام ضحكت لأني كما تعلمون طالب فلسفة فأعرف جمهورية أفلاطون، فقلت لعل صاحبنا لم يقرأ هذا الكتاب لأن جمهورية أفلاطون ما فيها من الديمقراطية أثر أبداً، بل إن أستاذا لنا

كان يعتبر من أكبر أساتذة الفلسفة في الغرب ألف كتابا أسماه المجتمع المفتوح وأعداؤه وجعل ماركس وأرسطو وهيجل أكبر أعداء هذا المجتمع المفتوح، وأن كتابات أرسطو هي التي اعتمد عليها كل المستبدين في تاريخ الحكم في أوروبا وصاحبنا هذا يقول إنهم اعتمدوا على جمهورية أفلاطون، ويقول أنه كان قائد حملة الدستور الإسلامي ولكنه لم يكن يعلم ما هو الدستور الإسلامي، وأنه كان من تصريحاته أن أحدًا لم يسأله ما الدستور الإسلامي وأنه لوكانت هنالك مائة مسألة دستورية فالفقه الإسلامي ليس فيه ثلاثة منها ويقول في كلام للأمريكان باللغة الإنجليزية، سألوه عن الحجاب فقال: نحن لا نفرض على الناس الحجاب في السودان كما فعلت بعض الدول التي حولت الناس إلى منافقين، قيل له كيف تفعلون إذًا؟ قال: نحث الناس وكذا وكذا فقيل له متى يتدخل القانون؟ قال إذا سارت المرأة عارية، طبعا حتي في أوروبا يتدخل القانون إذا سارت المرأة عارية، وقال حث الناس على الصلاة قال إن هذا ليس من شأن الدولة .

ثم من المبادئ التي تقوم عليها العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة تساوي الأديان، الأديان كلها تكون شيئاً واحداً ليس هناك دين أفضل من دين كل دين عنده حق أمام الدولة وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل وسوف نتكلم عنها إن شاء الله، أيضا الردة في النظام العلماني ليس هناك شيء اسمه ردة؛ لأن الدين مفصول عن الدولة فالدولة لا تتدخل في شؤون الناس هذا آمن أو ارتد وصاحبنا من الذين يقولون بإباحة الردة وصاحبنا أيضا من الذين يقولون -تبعاً للفكر العلماني- إن كل المناصب في الدولة مفتوحة لكل الناس بغض النظر عن دينهم، عندما ظهر هذا الكلام قبل مجيء هذه الحكومة - أنا قلت لكم سأتكلم من الناحية الفكرية- قلت لبعض إخواننا إن هذا لا يجوز كيف تقول إن المناصب كلها مفتوحة لكل الناس بغض النظر عن دينهم يعني هل يمكن أن يأتي مسيحي ويكون رئيساً لدولة إسلامية؟ هل يمكن أن يأتي يهودي ويكون رئيسا لدولة إسلامية، فكانوا يقولون لي ببساطة وسذاجة إن هذا لن يحدث أصلاً قلت لهم يا أخي ومن قال لكم إن الذي تعلم أنه لن يحدث تقول إنه يجوز أن يحدث إذا علمت أن إنساناً لم يشرب الخمر أبداً تقول له إنه يجوز لك أن تشرب الخمر ثم من قال إنه لا يحدث، لا يحدث الآن لأن المسلمين يعتقدون أن هذا من دينهم،

أن من دينهم أنه لا يجوز أن يحكمهم نظام غير مسلم ولكن إذا جئت أنت باسم الدين وقلت لهم ما المانع أو أنه يجوز أن يحكمكم إنسان غير مسلم فهذا الذي قلت اليوم إنه لن يحدث فغداً سيحدث، والأفكار كما قلت لكم تؤثر في الناس تأثيراً بالغاً، وهي التي تتحول إلى واقع.

العلمانية الموسعة تقوم على إنكار الدين صراحة ولكن هذا الفكر الذي أقول إنه ينصر العلمانية لا يدعو طبعا إلى إقصاء الدين لأنه يتكلم باسم الدين ولكنه ينصر العلمانية بأنه أولاً يشكك في الدين هو فكر تشكيكي، الذي يتربى عليه ولذلك أنا أحزن على هؤلاء الشباب الذين يتربون على هذا الفكر لن يقودهم إلا إلى شك في الدين، شك في القرآن الكريم لا في نصه، لأن إنكار الكتب السماوية نوعان إنكار للنص والقرآن تكفل الله بحفظ نصه، فلا يمكن لأحد أن ينكر نصه ولكن هناك إنكار يأتي بتحريف المعنى تبقي النص ولكن تعطيه معنى مخالفًا لما أراد الله سبحانه وتعالى ولما أراد النبي ﷺ تبقي النص وتحفظه عن ظهر قلب وتتلوه على الناسي ولكنك تفسره تفسيراً مخالفاً وهكذا كان يفعله صاحبنا محمود محمد طه مثلاً كان يقول: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، الذين يلونكم من الكفار قال الذين يلونكم من الكفار نفسه، واحد مسكين يقول هذا استدل بآية من آيات الله والتشكيك في السنة النبوية السنة النبوية يمكن أن يكون التشكيك فيها التشكيك في نصوصها، بل وردت بعض أحاديث يعترف صاحبنا بأن الرسول قالها وهو يرفضها، والتشكيك في أهل السنة. أهل السنة هم أهل الإسلام الصحيح منذ عهد النبي ﷺ والتابعون وتابعوهم. وأهل السنة منهم أئمة الإسلام المتبوعون الأربعة المعروفون، وكل من تعرفون من المفسرين والمحدثين والفقهاء هؤلاء جميعاً من أهل السنة، وصاحبنا يقول بالحرف الواحد أنا لست سنياً، ومع ذلك يقود ويتزعم أهل السنة المساكين، ويكون هذا الفكر ينصر العلمانية بأنه يتنقص أئمة الدين يتنقصهم من النبيين والصحابة والفقهاء، والفكر الإسلامي بصفة عامة. ومن نصرة للعلمانية بشكلها الموسع أنه يسفه المعاني السامية وهذه تحتاج إلى تفسير وبحث أقولها لكم الآن «الآلات تابت إلى الله» هل رأيتم آلات تابت إلى الله كانت عاصية كانت كافرة

«كرة القدم صارت جهاداً في سبيل الله!» يعني إذا التقى الهلال والمريخ يكون كل واحد منهما يجاهد في سبيل الله؟! تسفيه للمعاني العظيمة الكبيرة. ما في إنسان قال لأحد لا تلعب الكرة لكن غاية ما تقول عنها إنها لهوى بريء. أما أن تكون جهادا في سبيل الله ما سمعنا بهذا ، والتسفيه أيضا المسلمون ينقسمون إلى سنة وشيعة قال: «يعني عشان حصل خلاف بين علي ومعاوية نشق المسلمين بعد ألف وأربعمائة سنة عشان خلاف بين علي ومعاوية؟ أنا شخصيا لوكنت موجوداً كنت مع علي لكن ما أشق المسلمين». أنا لما قرأت هذا الكلام استغربت قلت هذا الرجل جاهل لا يعرف ما معنى السنة وما معنى الشيعة ، أو متجاهل كما قيل إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم، هذا تسفية للسنة وللشيعة يعني الشيعة هؤلاء عاملين دولة وكاتبين كتب كلهم لأنهم صوتوا مع علي والآخرين صوتوا مع معاوية وهل هذا صحيح هل منكم من أحد أنتم الآن لو كان في زمن الصحابة كان سيقف مع معاوية؟ أهل السنة هم مع معاوية ومن أصولهم الفرعية التربيع بعلي يعني تقول أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي هؤلاء أهل السنة ، وهل كل من وقف مع علي كان من الشيعة أم هذا لعب على العقول وتسفية كما قلت لكم لتاريخ المسلمين ولتفكيرهم يعني أن هؤلاء لا عقل لهم بسبب هذا الكلام البسيط هم منشقون هذا الانشقاق الكبير إلى الآن .

أدخل الآن في بعض التفاصيل، أيها الإخوة الكرام إن من أكبر الأمراض الفكرية التي يعاني منها الغرب شيء اسمه النسبية؛ لا النسبية الفيزيائية وإنما النسبية الفكرية أو نسبية الحق، نلخص رأيهم بأنهم لا يكادون يعترفون بشيء اسمه حق إلا ما جاء عن طريق العلوم الطبيعية أي ما كان مشاهداً أو متوصلا إليه بمنهج العلوم الطبيعية فهذا حق، وما عدا ذلك يستوي الدين والفن والأدب والفلسفة كل هذه آراء تأثر فيها الظروف وكذا ، هذه النسبية ، والنسبية حتى في الأخلاق اليوم هذا القيمة حق وغداً ليست بحق اليوم صالحة وغدا ليست صالحة وهكذا ، وفكر صاحبنا هذا فيه هذا المرض فهو يقول عن نصوص الدين إنها تحمل قابلية التجديد في طبيعتها ووقتها هنا أحب أن أذكركم بشيء كثيرا ما يخطئ فيه الناس تجديد الدين ما المقصود بتجديد الدين؟ يعنى عندما يقول الرسول ﷺ: **(إنه على رأس كل مائة سنة يبعث الله لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها)**، ما المقصود بتجديد الدين؟، الدين دينان دين أنزله الله

من السماء هو الكتاب والسنة، هل هذا يجدد؟ هل هذا يجدد يا عباد الله، لا يجدد ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هذا لا يجدد ما الذي يجدد إذاً؟ الدين بالمعنى الثاني ما يدين به الناس، ما يدين به الناس قد يكون موافقاً لذلك الدين النازل من السماء، وقد يكون مخالفاً له خلافاً كبيراً أو صغيراً فيأتي المجدد ليرد هذا الدين الذي يدين به الناس إلى الدين الذي نزل من السماء فيجعل هذا موافقاً لهذا، فيتجدد هذا الدين، ينفي عنه البدع، ينفي عنه الخرافات، يذكر الناس بأن بعض الأحاديث الي تدور على ألسنتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو كذا يصحح للناس تصورهم للدين، يصحح للناس ما يدينون به ولا يصحح ما أنزل الله سبحانه وتعالى، فأنت لا يمكن أن تقول إن الدين يقبل التجديد في نصوصه. قد يقول إنسان إن المقصود بهذا كما جاء في أحاديث لصاحبنا كلام له في محاضرة ثم كتبت في كتاب قضايا التجديد قال كلاماً ألخصه لكم، قال مسألة القياس والتمثيل والاعتبار وكذا وكذا كل ذلك أمور متجددة شرحها أثناء المحاضرة فقال النصوص ثابته ولكن الذي يتجدد هو فهم الناس وأصول الفهم، وزعم أن أصول الفقه ومنها طبعاً علم تفسير النصوص أن هذه كانت متأثرة بالمنطق اليوناني، وأن لنا الآن منطق جديد، فالمهم هو يزعم أن الأصول الذي يبنى عليها الفهم تتغير فقلت له في تلك المحاضرة أمام حشد كبير من الناس: إنك الآن وقعت في ما منه فررت. أنت قلت إنك لا تريد التجديد في نصوص القرآن والسنة، ولكن إذا كانت أصول الفهم تجدد فما فائدة النصوص إذا كان هذا النص اليوم يعني بالنسبة لنا وبحسب أصول فهمنا يعني كذا وكذا، وبعد مائة عام تتغير أصول الفهم فيبقى النص يفهم فهما آخر وبعد مائة عام أخرى يفهم فهما آخر. أيها الإخوة أريد أن أشرح لكم هذه المسألة لأنها كثيرا ما يصيب بعضنا غبش ويخلطون بين تجدد الفهم وبين الاجتهاد ويحسبون أنك إذا قلت إن هذه المعاني ثابتة معنى ذلك أن الأجيال التي جاءت بعد النبي ﷺ ليس لها مجال في الاجتهاد ولا للتفقه في النصوص، أيها الإخوة الأعزاء إن الله سبحانه وتعالى أنزل على الرسول ﷺ كلاماً وكلفه بأن يبين هذا الكلام للناس بأقواله وبأفعاله فالله سبحانه وتعالى، تعالى الله أن يرسل ألفاظاً فقط وإنما ينزل معاني وهذه المعاني كلف بشراً الله أعلم حيث يجعل رسالته كلفه بأن يبين هذه المعاني للناس، ثم هذه المعاني نقلها أصحابه عنه إلينا، فإذا أردت أن تفهم معاني النصوص معنى هذه الآية أو معنى

هذا الحديث هذه الآية فلابد أن ترجع إلى ما قاله الرسول ﷺ وإلى ما قاله أصحابه الذين فهموا هذا القرآن عنه، وإذا لم تجد هذا لابد أن تفهم هذا الدين في حدود اللغة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى به، يعني حتى من دقة العلماء قالوا إنه لو تغير معنى كلمة من الكلمات بعد عهد الرسالة فلا يفهم القرآن بهذا المعنى الجديد؛ لأن هذه ليست اللغة التي نزل بها القرآن، القرآن نزل باللغة التي كان يعرفها من خاطبهم فإذاً نحن مهمتنا الأولى أن نعرف هذه المعاني الأساسية بعد هذا يأتي الاجتهاد بعد هذا يأتي التدبر وأنت تتدبر في ماذا إذا كنت لا تعرف المعنى؟ يعني ليس التدبر أن يأتي كل إنسان بمعنى جديد يضيفه إلى الآية أو إلى الحديث النبوي، بعد أن تفهم المعنى يأتي الاجتهاد، يأتي الاستنباط. القرآن الكريم كتاب لا تنقضي عجائبه، يرى أشياء ما رآها أسلافه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ما رآها أصحاب الرسول ﷺ يمكن أن نراها نحن أو تراها الأجيال التي بعدنا يمكن أن ننظر في القرآن الكريم ونحل به مشكله ما كانت موجودة في زمن الصحابة، مشكلة فكرية أو مشكلة واقعية وهكذا، فالاجتهاد لا علاقة له في تغيير المعنى أو إحداث معنى جديد في النصوص، وقال في علم الأصول القديم منسوب إلى البيئة الثقافية التي نشأ فيها أو التي تكاملت فيها أبنيته وصياغاته الأخيرة لذلك تلبس بمفهومات المنطق الصوري التقليدي، وبأشكاله ومصطلحاته وبأدواته في الوضوح والاستقامة، والله أنا أحياناً أستغرب المنطق اليوناني! الشافعي كان متأثراً بالمنطق اليوناني ؟ الشافعي أول من كتب في أصول الفقه، بل إن العلماء كانوا يقولون ويفرقون بين منطق اليونان ومنطق الأصوليين. اليونان ومن تأثر بهم كانوا يعتقدون أن الحجة الصحيحة هي ما يسمى بالاستنتاج كل الناس يموتون؛ فلان إنسان إذاً فلان يموت ويرون أن هذا هو البرهان وأن غيره لا ينتج نتيجة صحيحة، الأصوليون قالوا لا جاءوا بالقياس، وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أنه في الحقيقة لا فرق بين هذا وهذا، أن هذا يمكن أن يصاغ بهذه الطريقة، وهذا يمكن أن يصاغ بهذه الطريقة، تقول مثلا إن الخمر التي حرمها القرآن الكريم مثلاً خمر عنب، وعندنا الآن شراب آخر فيه نفس الأثر التي تحدثه تلك الخمر هذا كان مسكراً وهذا مسكر والعلة في تحريم الأول كانت هي أنه مسكر فما دام هذه العلة توفرت هنا فيكون هذا أيضاً محرم هذا منطقهم هذا هو الذي دخل نعم دخلت فيه بعض المصطلحات، ولكن مصطلحات

فقط لغة فقط بل حتى المنطق اليوناني وكثير منه قضايا صحيحة، اليونانيون لم يخترعوا منطقاً وإنما كتبوا هذه القواعد الفكرية التي يفكر فيها كل إنسان في الدنيا، ولذلك قال ابن تيمية المنطق علم لا يحتاج إليه الذكي ولا يستفيد منه البليد لأنه إذا يعرف كيف يفكر المنطق لم يعلمه كيف يفكر! أول ما درسنا قيل لنا لا تظن أنك إذا درست المنطق ستكون منطقياً، في هذه النسبية كثير منها جاء في أصول الفقه، وأصول الفقه حتى الجانب الذي تأثر به إن قلنا إنه تأثر بأشكال أو بألفاظ أو بالمصطلحات اليونانية هو جزء بسيط جداً من أصول الفقه هل معنى هذا أنني أقول إن كل كتب أصول الفقه ليس فيها أخطاء ؟ لا وهذا ليس بشيء جديد، وهذا الذي علمه إيانا شيوخنا وهم تعلموه من شيوخهم وكان الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر) ما في إنسان عظم من أئمة المسلمين عظم إنسانا بحيث جعله معصوما كالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا الكلام عن أن الناس يعظمون القديم ليس بصحيح. نحن نعظم الحق قديماً كان أو حديثاً فنقول إن العلماء نعم أخطأوا كثير منهم أخطأ ولكنهم لم يجمعوا على خطأ أبداً لأن هذه الأمة لا تجتمع على خطأ، كتب أحد زملائنا يمدح صاحبه بأنه أضاف أصولاً أربعة جديدة إلى أصول الفقه الأربعة القديمة! يا عباد الله تتصورون هذا؟ المسلمون على مدى أربعة عشر قرناً لا يعرفون للفقه إلا أصولا أربعة فيأتي في آخر الزمان رجل من بلاد السودان أو شيخ من بلاد السودان يضيف إليها أصولاً أربعة أخرى! كيف يكون هذا؟ والله لو كان هذا صحيحاً لكان من أكبر الطعن في هذا الدين، لكان الناس يقولون لنا كيف دينكم هذا كنتم طوال هذه المدة تسيرون على نصف الأصول فقط؟ وقال رجل كنت أحسب أنه من طلاب العلم يمدحونه بأن من الأصول التي أضافها قال قرارات أو تصرفات الحكام، وأنا إلى الآن مندهش كيف يكون كيف يمكن لإنسان أن يقول إن هذا أصل من أصول الفقه، الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ما قال وأطيعوا أولي الأمر منكم لأن طاعة ولي الأمر تابعة للكتاب والسنة فإذا أنت قلت إنما يقرره أو يفعله أولو الأمر هو من أصول الفقه فكيف هذا لأن الله سبحانه قال بعد ذلك: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، قال بعض المفسرين تنازعتم

أنتم والحكام تنازعنا في شيء ماذا نفعل؟ نرده إلى الله والرسول. لكن إذا كان هو نفسه من أصول الفقه ماذا نفعل؟ نرده إلى من؟ هذا الذي قلت لكم إنه تأصيل وتسويغ للعلمانية بمعناها القهري. نفس الشيء الإجماع، المسلمون كانوا كلهم يقولون بالإجماع، وفرقوا بين أن الإجماع أصل من أصول الدين وبين معرفة الاجماع، وأما المبدأ فصحيح لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ المفهوم من الآية أنكم إذا لم تتنازعوا أنكم على حق هذا معنى الإجماع إذا لم تتنازعوا فأنتم على حق فإن تنازعتم فردوه إلى الله والرسول. «إن العلماء جعلوا الإجماع خاص بهم» يعني كأن العلماء هؤلاء حزب سياسي يتآمر على بقية المسلمين وأن هذا الذي قال الله أنه للناس كلهم نحن نقول إنه لنا نحن فقط. «وإن الإجماع هو إجماع الأمة وليس إجماع فئة» ولكن ما المقصود بالأمة؟ قال الفقهاء الأمة هذه فيها مجانين بلهاء فيها أطفال فيها جهلاء لا يعرفون شيئاً هؤلاء غير معتبرين، المعتبر بالإجماع هم الذين يعلمون والأمة تابعة لهم لأنها إذا كانت أمة مسلمة فهي تابعة لعلمائها فيكون إجماع الأمة بهذا المعنى، أما أن نقول إن في كل مسألة من مسائل الدين نصوت عليها نعمل استفتاء شعبياً؟ ويقول لك هذا حرام وحلال يجوز أو لا يجوز؟ هذه من قواعد العلمانية أنك ترد الأمور الدينية إلى الناس. أقوال الحكام أو قراراتهم كيف تكون أصلا من أصول الدين؟ ما الدليل على هذا الاستدلال السقيم، الكتاب هو الأصل القرآن الكريم، والكتاب دلنا على أن السنة أصل لأن الله سبحانه قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وهناك آيات كثيرة أكثر من أربعين آية تدل على أن السنة أصل، وجدنا في القرآن أصلا للإجماع، وجدنا في القرآن والسنة أصلاً للقياس بل القياس مسألة عقلية كل الناس يقيسون مسلمون وكفار. أين الدليل على هذا الأصل الجديد الذي اخترعه الشيخ السوداني؟! ولو كان ما يفعله الحكام أصلا من أصول الفقه لما قال الرسول ﷺ: **(إنما الطاعة في المعروف)**، وقيد طاعتهم، وأولئك الذين عين الرسول ﷺ على بعض الصحابة رجلاً منهم، وقال لهم: **(اسمعوا وأطيعوا)**، فغضب في السفر منهم وقال: اجمعوا حطباً فجمعوه، ثم قال: أوقدوا، فأوقدوها، ثم قال: ادخلوا فيها، ألم يقل لكم الرسول أطيعوني، ادخلوا، فقالوا له: إنما اتبعنا الرسول حتى لا ندخل النار أنت تريد أن تدخلنا النار في الدنيا، قال النبي

ﷺ قال: **(لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف)**، ولذلك قال أول الخلفاء الراشدين: (أطيعوني ما أطعت الله فيكم). وضع البخاري أصلا دستوريا عكس هذا الأصل في باب من أبواب كتابه الصحيح، قال إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد هذه قاعدة دستورية أن الحاكم إذا قضى بظلم أو قضى بغير قول أهل العلم فكلامه مردود فليس أصلا من أصول الفقة. في الكلام أيضا تسفيه ليس لأصول الفقه فقط بل لكتب التفسير والحديث وكل المراجع التي يعتمد عليها الناس، ويؤكد لكم هذا دستور كتبه بعض الشباب الذين تأثروا بهذا الفكر». تستبعد.الحركة التجديدية من دائرة ثقافتها كل كتب التفسير القديم ولا تتعامل مع مؤلفات الطبري ابن كثير القرطبي الخ يعتمد على الظلال كتفسير ثوري في جوهره ومنفعل بالعصر" وما علموا المساكين أن صاحب التفسير هذا اعتمد على هذه التفاسير التي يستبعدونها فهذا كأن الإنسان يرضى لنفسه بمصدر ثانوي ويترك المصدر الأصلي. واضح جدا في كتاب ظلال القرآن أنه اعتمد خصوصا على ابن كثير وما أنكر هو هذا! ميزته ، وهذه ميزة العلماء الدعاة، أنه كتب هذا الكلام بلغة يفهمها أبناء عصره. وطبق هذه الأحكام والقيم وربطها بمشكلات عصره، وهذه صفة الدعاة العلماء المجاهدين. قال: «يعتمد على صحيح البخاري وصحيح مسلم بالقراءة المباشرة منهما وليس على طريق شراح الحديث»، هذا دستور! قال: «تؤكد الحركة التجديدية أن التفسير يتوصل إليه الإنسان بالإكثار من التلاوة!» هل رأيتم جنونا أكثر من هذا؟ هناك أناس يحفظون هذا القرآن عن ظهر قلب ولا يعرفون من تفسيره شيئاً! قرأوا كل آية خمسمائة مرة، ألف مرة، ولا يعرفون من تفسيره شيئاً. كيف يتوصل إلى التفسير بالتلاوة!؟ لكن اسمعوا، في مقابل هذا، الحركة التجديدية في مصادرها "كل كتابات علماء النفس والاجتماع والسياسة والفلسفة والتاريخ والاقتصاد" هذه ما فيها استثناء! في الفكر الإسلامي استثناء، وفي الفكر الحديث لا يوجد استثناء! ماذا ستكون النتيجة؟

الردة: قلت لكم إن هذه من سمات الفكر العلماني أن الإنسان حر يقبل أي دين أو يرفض أي دين، ففي الردة قضيتان: أولاً حكم الردة نفسه هل هي جائزة؟ حرام؟ ثم حكم المرتد وهما قضيتان متصلتان. هنالك أشياء حرمها الله ولكن لم يرتب عليها عقوبة دنيوية. هنالك أشياء حرام وجعل لها عقوبة دنيوية، فحكم المرتد أنه يقتل. أذكر أنا لا أتكلم عن واقع. قد تأتي ظروف حتى بعض الأشياء التي نعلم أنها واجبة

نقول والله الآن لا نستطيع أن نفعلها. هذا كلام آخر. نحن نتكلم الآن على صعيد الأحكام كما هي في الكتاب والسنة، الردة فيها أحاديث وفيها عمل أن أناساً قتلوا لأنهم ارتدوا وعليها إجماع. هل يجرؤ إنسان ويقول إنه يريد أن يجدد الدين يراجع ما أجمع عليه المسلمون؟ وعندما نقول إجماع معنى ذلك أن كل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن تبعهم، ومن تبعهم وأئمة المسلمين جميعا إلى هذا العصر أجمعوا على هذا. فهل يأتي إنسان ليراجع هذا؟ ولا تحقروا أنفسكم، بعض الشباب يقولون لي "نحن ما عندنا علم، ما عندنا حجة" تكفيك هذه الحجة ولا تحتاج أن تدخل في التفاصيل. اسأل هل هذا إجماع أم لا؟ فإن قيل لك إنه إجماع فقل أنا لست مستعد أسمع أي كلام مادام يوجد إجماع لأنه لا يعقل أن يخطئ كل هؤلاء المسلمون جميعا ثم يأتي في آخر الزمان شيخ من بلاد السودان ليقول إنه توصل إلى الصواب. وعندما يتكلم عن أن المرتد لا يقتل يتكلم عنها وكأنها قضية بدهية لا يزيغ عنها إلا بليد أو جاهل وهذا كله طعن في كل أولئك العلماء الجهابذة. حجته ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأن الحديث لا ينسخ القرآن. «أرأيتم حديثاً ينسخ القرآن؟» قضية النسخ مشهورة، إذا كان هناك تناقض بين نصين. أين التناقض؟ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، قبل أن يدخل الإسلام. الردة بعد أن يدخل في الدين نقول له ما عندك حرية أن تخرج عندك حرية تدخل القاعة أنت مخير تدخل أو لا تدخل، لكن إذا دخلت ما عندك حرية تخرج قبل نهاية المحاضرة، ما في تناقض في الأمر. ثم قال: «الردة التي توجب القتل ليست ردة نظرية وإنما هي الردة المقرونة بمفارقة الجماعة»، ولولا خشية الإطالة لقلت لكم من أين جاء هذا الكلام. والله هذا كلام سمعته وأنا طالب في جامعة الخرطوم في الخمسينات وأعرف مصدره، رجل أعجمي لا يفهم القرآن ولا اللغة العربية فهماً جيداً، توصل إلى هذا الفهم، وكان هذا الفهم شائعاً بين بعض إخواننا في ذلك الوقت، لا أدري هل استقى صاحبنا هذا الفهم منهم أو توصل إليه بالأصالة.

الردة فيها حديث واضح: **(من بدل دينه فاقتلوه)** فقال: «إن الحديث لا ينسخ القرآن»، وقال: «هذا حديث مبتور» والحديث ليس مبتوراً، الحديث قال: «أوتي علي رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم»، وفي رواية أخرى أنهم عبدوه فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس

فقال: (لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: **(لا تعذبوا بعذاب الله)** ولقتلتهم)، لقول رسول الله ﷺ: **(من بدل دينه فاقتلوه)** هل هؤلاء خرجوا على دولة؟ جماعة ضعفاء خصوصاً في الرواية الأخرى، إنسان جاء يعبدك تقول خرج على الدولة؟ زنادقة هذه ردة فكرية.

الزنديق هو الإنسان المنافق يظهر الإسلام ثم يخونه لسانه، تخرج منه بعض العبارات. فقتلهم، ليس هذا فحسب بل إنه في زمان النبي ﷺ وفي اليمن، ذهب أبو موسى الأشعري على ما أظن ووجد رجلين موثقين فقال للصحابي الآخر الذي كان أميراً ما هؤلاء؟ قال: يهوديان أسلما ثم رجعا عن دينهما فقال له انزل فقال لا أنزل حتى تقتلهما كتاب الله. هل هؤلاء فارقوا أو خرجوا على الدولة؟ واستدلوا على الخروج أن الرسول ﷺ قال: **(فارقوا الجماعة)** الإنسان إذا ارتد عن الدين فارق جماعة المسلمين. فارقها، لم يعد منها. حتى لو كان جالساً في هذه القاعة وقال أنا كافر فهو ليس منها ليس معنى ذلك أنه خرج علينا بالسيف. ثم سخر من الحديث: **(من بدل دينه فاقتلوه)** فقال: «يعني لو واحد نصراني وأسلم، بدل دينه، نقتله؟»، نصراني أسلم نقتله لأن الحديث قال: **(من بدل دينه فاقتلوه!!)**، قلت: طيب قل هذا في القرآن أيضا لأن الله قال: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، إذا يا أيها النصراني إذا ارتددت عن دينك إلى الإسلام فسوف يأتي الله بقوم نصارى آخرين يحبهم الله ويحبونه!! هل هذا كلام؟ من قال هذا؟ ليس فكرا، لعب بالدين المشكلة الطامة الكبرى ليست هذه وإنما هي إباحة الردة. إباحتها. لا يقول فقط إن المرتد لا يقتل قال: «حتى إذا ارتد المسلم تماماً وخرج من الإسلام ويريد أن يبقى حيث هو فليبق حيث هو، لا إكراه في الدين وأنا لا أقول إنه ارتد أو لم يرتد فله حريته في أن يقول ما يشاء شريطة إلا يفسد ما هو متفق بيننا من نظام».

يا أيها الإخوة من أحل ما حرم الله فهو كافر. إذا قال إنسان الخمرحلال فهو كافر شربها أو لم يشربها إذا شربها وقال إنها حرام فهو مسلم عاص. إذا لم يشربها وقال إنها حلال فهو كافر، **فالذي يقول إنه يجوز للإنسان أن يرتد عن دينه هذا كفر. كفر**

صريح. هذه ليست ألاعيب سياسة. الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نقول كلمة الحق نعم لا تكفر مسلماً هذا من الأشياء العظيمة ولكن لا تقل لمن يكفر إنه مسلم إذا كان ذاك خطأ فهذا أيضا خطأ. إن كان صاحبنا جاهلا فعرفوه. وبعد أن يعرف إذا أصر أنه يجوز للإنسان أوكما قال في كلام آخر الإنسان له أن يبدل دينه فهذا كفر بواح مخرج من الملة. «وأردت أن أقول إنه يجوز للمسلم في إطار الدولة الواحدة والعهد الواحد أن يبدل دينه كما يجوز للمسيحي أن يبدل دينه»، الرسول يقول: **(من بدل دينه فاقتلوه)** وهو يقول: «يجوز للإنسان أن يبدل دينه»، ويقول: «إن الردة الفكرية البحتة التي لا تستصحب الثورة على الجماعة ولا الانضمام إلى الصف الذي يقاتل الجماعة كما كان يحدث عندما ورد الحديث الشهير عن الرسول ﷺ فليس بذلك بأس يذكر ولقد كان الناس يؤمنون ثم يكفرون ثم يؤمنون ويكفرون ولم يطبق عليهم الرسول ﷺ حد الردة»، يعني كل علماء المسلمين هؤلاء إما أنهم كانوا بلهاء، بلداء أو جهلاء أو كانوا متآمرين. الرسول ﷺ ما قال اقتلوا المرتد وظل المسلمون منذ عهد الرسالة الأولى إلى قيام الدولة السعودية يقتلون المرتد. كل هذا من غير برهان قاطع من الدين!! هل يمكن أن يحدث هذا؟ ويقول أيضا عن سلمان رشدي: «إنه لو كان في السودان لما حكم عليه بالردة» ويدافع عن أنه لا يقتل! والله أنا بالرغم من سوء ظني بصاحبنا هذا، في هذه المسألة قلت لعل الرجل لم يقرأ الكتاب. لم يقرأ كتاب سلمان رشدي. هذا الكتاب قدر لي أن أقرأه أظن في الأسبوع الأول الذي خرج فيه؛ لأنني كنت في بريطانيا في ذلك الوقت. والله لولا أن الكتاب كلفت أن أقرأه وأكتب عنه، لما استطعت أن أكمله. يا إخوانا هذا كتاب يتهم زوجات الرسول ﷺ بالبغاء. بل يتهم الرسول ﷺ بهذا. وصاحبنا يقول ليس مرتد ولا يقتل[1].

* * *

---

(١) هذه ليست كامل محاضرة العلمانية في ثياب إسلامية، التي قمنا بتفريغها من شريط فيدو وذلك لأن التسجيل في آخر الشريط غير واضح والكلام غير مفهوم وهو قدر قليل، لذا لم نتمكن من تفريغ هذا القدر من آخر المحاضرة.

ثالثاً: البحوث والدراسات

الدعوة الإسلامية والغزو الفكري[1]

أُلقي هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عُقد بالخرطوم (٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ الموافق ٢٨ مارس- ١ أبريل ١٩٨١م) بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري. ثم نُشر في مجلة هذه سبيلي، العدد: ٥، ١٤٠٣-١٩٨٣، ثم نشرته رابطة الشباب المسلم العربي في عام ١٩٨٧م على شكل كتيب صغير.

مقدمة:

ما من شك في أن الغرب بشقيه الرأسمالي والشيوعي يرمي العالم الإسلامي كل يوم بوابل من سهامه الفكرية في صورة نشرات خبرية وأحاديث إذاعية، وتمثيليات ومقالات، وصور، وكتب، ومحاضرات جامعية، ودروس مدرسية وغير ذلك من أشكال الفكر والدعاية. وما من شك في أن هذه مصيبة كبيرة ولكن المصيبة الكبرى هي قبولنا نحن لهذا الفكر كله، وعدم التفرقة بين ما كان منه سماً قاتلاً، وما كان بلسماً شافياً ولذلك فإن عبارة (الغزو الفكري) لا تصف الواقع وصفاً دقيقاً.

إذ لو كنا ننظر إلى الفكر الغربي المسلط علينا على أنه غزو لأعددنا لمواجهته ما استطعنا من قوة، ولقاومناه بقدر الوسع والطاقة، ولكن مشكلتنا أننا لا نعتبره غزواً يَستعبد بل قوة تُنقذ وتُحضر وتُحرر، ولها فإننا لا نكتفي بما يوجهه الغرب إلينا من قذائف، بل نسعى للاستزادة من فكره وحضارته..

(أ) بالذهاب إليه في موطنه لنتعلم منه ليس فحسب العلوم النافعة، ولكن التصورات الفلفسية والقيم الخلقية والقوانين والعادات والتقاليد.

(ب) وبأن نكون رسله المخلصين إلى بلادنا نبث بين أبنائنا ما تلقيناه عليه ونترجمه إلى لغاتنا الإسلامية ونشرحه وندعو إليه وندافع عنه فعل المقلد المعجب المشدود الذي لا ينقد ولا يجتهد ولا يُقوّم..

(جـ) وباستجلاب كتبه ودورياته وصحفه ومجلاته.

(د) وبدعوة أبنائه في شكل مدرسين وأساتذة جامعات وخبراء في شتى المجالات.

فإذا صح أن الفكر الغربي يغزونا، فصحيح أيضاً أن أقوى أدواته لغزونا هم أناس من بني جلدتنا، إنهم حكامنا وإداريونا ومدرسونا وكتابنا ومحررو صحفنا وإعلاميونا

---

(١) عنوان البحث حددته لجنة المؤتمر.

بل وضباطنا وأطباؤنا ومهندسونا وسائر أفراد الطبقة القائدة في بلادنا إلا من رحم ربك وقليل ما هم. ومع هذا أقول إن حل مشكلة (الغزو الثقافي) الغربي للعالم الإسلامي لا تكون بقطع الوشائج الفكرية بيننا وبين الغرب، فإن ذلك غير ممكن وغير مفيد. وإنما يكون بدراسة الحضارة الغربية دراسة تحليلية عميقة للتفرقة بين ما كان منها نافعاً يؤخذ أو ضاراً يترك بميزان علمي خلقي يقبله كل عاقل. وبدراسة الأسباب العميقة لتبعيتنا لهذه الحضارة وسيطرتها علينا ثم بالتماس الحلول التي تؤدي إليها تلك الدراسة. ثم بالعزيمة الصادقة القوية على وضع هذه الحلول موضع التنفيذ. وسأحاول في هذا المقال أن أضيف إضافة متواضعة إلى الجهود التي بُذلت في هذا السبيل، ومن الله العون وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مقتضيات العصر وأهواء العصر:

أنصار الفكر الغربي في بلادنا وكثير من أئمته في بلاده يُصورون الحضارة الغربية على أنها حضارة العصر، لا بمعنى أنها الحضارة السائدة والمسيطرة فيه، فذلك أمر حسي لا ينكره إلا مكابر، ولكن بمعنى أن فكرها وقيمها هي القيم التي يقتضيها العصر.

والإنسان بطبيعه يميل إلى أن يكون ابن عصره، يلبس كما يلبس أبناء العصر، ويسكن كما يسكنون، ويتكلم كما يتكلمون، ويتعلم كما يتعلمون ما يُعينه على أن يعيش كما يعيشون، والأمم تميل مثل هذا الميل فلا تريد التخلف عن ركب الأمم المعاصرة لها في مسكن ولا ملبس ولا قوة ولا علم يسهل الحياة ويوسع الآفاق وينير البصائر، ولكن البون شاسع بين المعاصَرة والإمّعِيّة.

إن المفهوم الصحيح للمعَاصَرة كما أتصوره هو أن تكتسب الأمة تلك العلوم والمهارات والأدوات والأشياء التي يقتضيها العصر، يقتضيها بمعنى أن الأمة التي لا تكتسبها تكون متخلفة بالقياس إلى أمم معاصرة لها في إنتاجها المادي، وقوتها العسكرية، وأثرها الثقافي، وتكون لذلك أمة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، بل أن تنشر فكرها وثقافتها.

فإذا شعرت أمة كالأمة الإسلامية أنها تخلفت عن ركب التاريخ فعزمت على اللحاق به فمن الطبيعي أن تنظر في حال الأمم التي سبقتها لتعرف سر تفوقها فتتعاطاه كي تكون مثلها، ولكن هذا هو الموطن الذي زلت فيه أقدام كثير من القادة

والمفكرين من أبناء الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التي أرادت أن تحذو حذو الغرب لتلحق به، وسبب الزلة أنهم حسبوا أن كل ما في الغرب فهو من لوازم العصر ومقتضياته ولم ينظروا نظرة الباحث المتروي الذي يحاول جهده أن يفرق بين مقتضيات العصر وأهواء العصر، أو بين أسباب التقدم الحقيقية وملابساته العرضية. فكان مثلهم كمثل رجل سبقه آخر في مباراة الجري فقال لكي: «أكون عداء مثله فلا بد أن اتخذ قميصاً كقميصه وتُباناً كتبانه[1] شكلاً ولوناً وحجماً. لا تستغربوا ما أقول فأنا أصور واقعاً ولا أرسم "كركتيراً". ألم يروِ لنا الفيلسوف والأديب المصري الشهير الدكتور زكي نجيب محمود عن نفسه أنه مر عليه زمان كان يرى فيه: «أنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظرٍ إلى الإنسان والعالم، بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل ما يأكلون ونجدُ كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، على ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ، فإما أن نقبلها من أصحابها وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع وأما أن نرفضها وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانباً ونترك جانباً كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال[2].

إن هذا الأستاذ ليس شاذا بين مثقفي العالم الإسلامي، وأقواله هذه ليست فلتات عابرة وإنما هي تعبير عن حال فريق كبير من مثقفي هذه الأمة وعوامّها.

ولكن أصحيح أن كل ما في الغرب من فكر هو من مقتضيات العصر، بحيث يصبح الذي يرفضه متخلفاً عن ركب عصر، أو عائشاً خارج التاريخ كما يقولون ؟ لكي نجيب على هذا السؤال لابد أن نلقى على الفكر الغربي نظرة تحليلية فاحصة لنرى مم يتكون هذا الفكر؟ ولنعرف مكوناته لازم لعصرنا وأيها طارئ عليه.

مكونات الحضارة الغربية:

أن الحضارة الغربية تتكون على وجه الإجمال مما يلي:

أولاً: حقائق رياضية أو طبيعية أو اجتماعية أو نفسية تبثت صحتها بالتجربة الحسية أو البرهان العقل.

---

(١) التبان هو السراويل القصيرة.

(٢) تجديد الفكر العربي دار الشروق، الطبعة السادسة ١٩٨٠م، ص١٣.

ثانياً: نظريات عملية عن الطبيعة أو الإنسان فرداً وجماعة وهي ثلاثة أنواع:

(أ) نوع نجح في تفسير كثير من الظواهر ولم نجد ما يدل على بطلانه وإن كنا لا نقطع بصحته.

(ب) نوع ما زال في طور التجربة

(جـ) نوع ثبت بطلانه.

ثالثاً: تقنية تكاد تشمل كل جوانب الحياة أدى إليها تطور العلوم الطبيعية والرياضية.

رابعاً: مهارات تقنية وإدارية على تلك العلوم.

خامساً: تصورات دينية أو فلفسية للوجود ومكانة الإنسان فيه وللقيم الخلقية والجَمالية ولعلاقة الفرد بالمجتمع.

سادساً: أوضاع سياسية واقتصادية وعلاقات اجتماعية وعادات وتقاليد تسوغها تلك التصورات.

ثامناً: ولكن الفكر الغربي بشقيه الليبرالي الرأسمالي والأممي الشيوعي ليس مجرد خليط من الأفكار والتصورات المتماثلة القوة والفاعلية، بل إن منه ما يمكن اعتباره الفكر المسيطر المهيمن على غيره، والذي يمثل الأصل والإطار التصوري الشامل للفكر الغربي، ويمثل في ذات الوقت معياره التقويمي للحق والباطل، وللخير والشر، لما ينبغي أن يبحث وما ينبغي أن يهمل، ولِما يقبل وما يرفض، بل ويمثل الإطار الذي توضع فيه الحقائق العلمية ومن ثم تفسر تفسيراً يتناسب معه وتستنتج منها نتائج توافقه.

هذا الفكر السائد المهيمن فكر إلحادي مادي فحواه:

(أ) أن الواقع الموضوعي يتكون في النهاية من لبنات مادية متناهية الصغر في حجمها متحركة في فراغ.

(ب) أن كل ما في الوجود فهو إما هذا اللبنات، وإما أشياء مركبة منها، وإما علاقات بينها وما سوى ذلك فلا وجود حقيقي له.

(جـ) إن طبيعة هذه المركبات سواء كانت أجساماً جامدة أو كائنات حية، أو جماعات بشرية تفسرها في النهاية طبيعة اللبنات المكونة لها، هذا على الرأي السائد

بين جمهرة المشتغلين بالعلوم الطبيعية وهنالك رأي لكثير من فلاسفة العلوم يقول أن المركبات تكتسب بحكم تركيبها طبيعة جديدة لا يمكن ردها إلى الأجزاء المكونة.

(د) أنه ينبغي لذلك أن نلتمس تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية والحيوية والفيزيائية في أسباب ضمن هذا الكون المادي، أي أن الكون المادي كون مكتف بنفسه، غير محتاج إلى قوة خارجه تخلقه أو ترسم مساره أو تدير أمره.

(هـ) ولذلك فإن كل عبارة تنطوي على دعوى تخالف في ظاهرها هذا التصور، فإما أن نحكم ببطلانها وإما أن نُعيد تفسيرها، بحيث نجد لها مكاناً داخل هذا الإطار الإلحادي المادي.

(و) وكل ظاهرة يُدّعي أنها خارقة لقوانين الطبيعة فهي إما كذب أو وهم لا أساس له.

(ز) وكل تفسير للظواهر النفسية أو الاجتماعية... الخ بأسباب خارج هذا الإطار لا يُعتبر تفسيراً علمياً، أي أن التفسير العلمي هو بالضرورة تفسير إلحادي، حتى أن كلمة العلم أصبحت في العالم كله تقريباً عَلَماً على هذا التصور الإلحادي للعلم، ولهذا أمكنت المقابلة بين العلم والدين.

هذه الفلسفة الإلحادية تمثل كما قلت إطار الفكر الغربي كله، بما في ذلك الحقائق العلمية، فحتى هذه توضع داخل هذا الإطار ومن ثم ينظر إليها من خلاله، وتفسر تفسيراً يتناسب معه، ولا يستنتج منها إلا النتائج التي توافقه، إن كثيراً من الناس يعتقدون أن الحقائق الجزئية المشهودة هي وحدها المهمة وأن لها الغلبة على التصورات الفلسفية، ولكن الحقيقة أن الإطار التصوري الخاطئ يؤثر على نظرة الإنسان إلى الحقائق الجزئية، ويحجب عنه مدلولاتها الحقيقية.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

أفلم يكونوا يرونها؟ بل كانوا يرونها، وكيف لا يرى الإنسان بلداً كاملاً وهو يمر عليه ذاهبا وآيباً؟ ولكنهم لم يستنتجوا من رؤيتهم لها العبرة التي ينبغي أن

تُستخلص لإن تصورهم المُنكِر للبعث يمنعهم من هذا الاستنتاج، ويقف بهم عند حدود الظواهر.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧].

المثقفون في الغرب كله بشطريه – إلا فئة قليلة – متأثرون على درجات متفاوتة بهذه الفلسفة الإلهية، فمنهم من يقبلها قبولاً كاملا ويعلن كفره بالله وبالدين في صراحة، ومنهم من يعتبرها منهجا علميا ينتهجه إذا دخل معمله أو كتب بحثه، أو ناقش زملاءه، ثم يخلعه إذا ذهب لكنيسته أو بيعته، ومنهم من يقبله حقيقة ولكنه ينتمي إلى الدين اسماً لأنه يفسر كل المفاهيم الدينية تفسيراً لا يخرجُ عن هذا الإطار.

أنا لا أُنكِر أن من المفكرين الغربيين من ينكر الفلسفة المادية وينتقدها، ولكني أقول ما كل من ينكر الفسلفة المادية فهو مؤمن بل إن من أشد أعداء الفلسفة المادية قوم ملحدون، والذين ينكرونها على أساس ديني ينتمون إلى أديان شركية خرافية.

هذه هي أهم مكونات الحضارة الغربية... فماذا نأخذ من هذه الحضارة وماذا ندع؟

يرى فريق من المثقفين في العالم الإسلامي – كما رأينا من قبل- أننا ينبغي أن نأخذ هذه الحضارة كلها بما في ذلك إطارها الفلسفي، ونطرح كل ما خالفها من دين وتراث وعادات وتقاليد، لماذا ؟ لأن إطارها الفسلفي هو الذي يمثل فلسفة العصر، لا بمعنى أن التصور السائد بين جمهرة المشتغلين في الغرب بالعلوم الطبيعية أو البشرية وفلسفتها، فذلك أمر هين وقد يكون حقاً، ولكن بمعنى أنها التصور الذي يقتضيه العصر والذي يعتبر متخلفا عن عصره كل من لا يقول به.

ولكن أصحيح أن هذا التصور الإلحادي لازمة العصر ؟

إن هذا التصور ليس جديداً وإذا ثبت أنه ليس جديداً فقد ثبت أنه ليس مما أنتجه عصرنا، وإنما هو مما أخذه بعض أبناء هذا العصر عن أسلافهم الملحدين ثم روجوا له وألبسوه ثوب العلمية والمعاصرة.

ودليلنا على عدم جدته أن الناس منذ قديم العصور منقسمون في تصوراتهم للوجود إلى فريقين: فريق يرى الكون المادي فقيراً غير مُكتَفٍ بنفسه، شاهداً على خالقه،

الذي ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأن هذا الكون المرئي ليس كل ما خلق هذا الخالق الحكيم، فإن له مخلوقات أخرى منها ملائكة ومنها جن، ومنه جّنة تختلف طبيعة الأشياء فيها عن تلك التي نعرفها في عالمنا هذا وإن اتحدت الأسماء.

وفريق يرى أنه لا حق إلا ما أدرك بالحس المباشر وأن الكون غنيٌ بذاته، وأنه لا خالق ولا بعث ولا ملائكة ولا جن.

وفريق ثالث يتردد بين هذين الموقفين اللذين لا يمكن الجمع بينهما فيميل هنا تارة وهنالك تارة أخرى فتأتي أقواله متناقضة ومواقفه متعارضة.

لنا على على قِدم هذا التصور الإلحادي أدلة كثيرة، نكتفي ببعض ما رواه لنا القرآن الكريم من أقوال الأمم الكافرة، وببعض ما قاله أصحاب الفلسفة المادية من فلاسفة اليونان وببعض أقوال الذين تأثروا بهؤلاء ممن سُموا بفلاسفة الإسلام.

يروي لنا القرآن الكريم أن الكفار من بني إسرائيل بنوا كفرهم على أساس أنهم لم يروا الله الذي يحدثهم عنه موسى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وكرر بعض كفار العرب نفس القول فاشترطوا لإيمانهم أن يأتي الرسول بالله والملائكة قبيلاً.. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١]. ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٢].

واشترطوا لإيمانهم بالبعث أن يُبعث من مات من آبائهم كي يروهم عيانا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥].

وفي مجال الزعم بأن الكون مكتف بنفسه غير محتاج إلى قوة من خارجه قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

وكذلك فسروا حوادث التاريخ بأنه مصادفات من فعل الدهر لا أقدار خالق حكيم. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

قال ابن كثير: «وقالوا قد مسنا البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات...»[1].

وأما الفكر اليوناني الذي يمثل أقوى جذور الفكر الغربي المعاصر فقد كان فكراً شركياً إلحادياً وقد وجدت في هذا الفكر جذور الفلسفة المادية الإلحادية في شكل المذهب الذري الذي قال به ليوسيبس في حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، كما قال به من بعده واشتهر به ديمقريطس، خلاصة هذه الفلسفة أن كل الموجودات تتكون من ذرات مادية صلدة لا تنقسم، وأن هذه الذرات أزلية في ذاتها وفي حركاتها وأنه لا خالق لها ومدبر لأمرها. وأرسطو الذي انتقد هذا المذهب كان هو نفسه معتقداً بأزلية الكون وأزلية الحركة وهو اعتقاد يتنافى مع وجود الخالق ويتسق اتساقاً تاماً مع المادية الإلحادية.

وكما أن **بعض من سموا بفلاسفة الإسلام** من أمثال ابن سينا تأثروا بالفلسفة الأرسطية وقالوا كما قال بأزلية العالم، فقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بالمذهب الذرى فقالوا إن الكون مكون من ذرات وأن الخَلْقَ إنما هو جمع وتفريق لهذه الذرات. ولم يقتصر تأثر المسلمين بالفلسفة المادية الإلحادية على هذا فقط بل إن بعض من سموا بفلاسفة الإسلام كانوا يحاولون جهدهم أن يفسروا كل شيء إسلامي في هذا الإطار الإلحادي اليوناني، فقالوا لذلك إن الملائكة هي قوى الخير والجن قوى الشر، والله هو العقل الفعّال والوحي قوى نفسانية إلى غير ذلك من المسائل التي كفّرهم بسببها علماء الإسلام.

الفريق الثاني من المتأثرين بهذا التصور هو فريق **المنتسبين إلى الإسلام صدقاً أو نفاقاً**، والذين يتصورون الوجود، بل ويحاولون تفسير الإسلام ضمن هذا الإطار

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، ط٣، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٣٧.

الإلحادي كما فعل أسلافهم ممن سموا بفلاسفة الإسلام – هؤلاء في نظري أخطر من الفريق الأول، فالفريق الأول عدو سافر، وهذا عدو مستتر. فنقل الإلحاد إلى جماهير المسلمين بوساطتهم أيسر وتلبيسهم عليهم أشد. ولا يستغربن أحد ما أقول، فإن مؤرخي الفكر الغربي يَرُدون جذور الإلحاد إلى فلسفات "ديكارت" و"كانت" رغم أنهما كانا يؤمنان بوجود الله، ولكن العبرة ليست بما يؤمن به الكاتب في داخل نفسه بل بما يدل عليه قوله وما يلزم عن هذا القول.

أنا لا أريد أن أقول إن كل ما يفسر الإسلام ضمن هذا الإطار ملحد حقاً، مظهر للإسلام – إن أظهره – نفاقاً، ذلك لأنني أظن أن الكثيرين منهم يقبلون هذا الإطار على أنه الإطار العلمي وهم حين نحسن الظن بهم يريدون أن يُبينوا أن لا تعارض بين الإسلام والمنهج العلمي والحياة المعاصرة، ولذلك فإنهم يقدمون تفسيراتهم هذه على أنها التفسير الذي يقتضيه العلم وتقتضيه مسايرة الإسلام لظروف العصر لا على أنه التفسير الإلحادي للدين وهم في هذا سالكون منهج كثير من المفكرين المسيحيين مشابهون لهم أو متَشبهون بهم.

هذا الفريق نوعان منهم من قبل هذا الإطار لا في مجال التشريع العملي فحسب بل وفي مجال العقيدة أيضا، ومنهم من قبل لوازمه في مجال التشريع، وإن لم يقبلها في مجال العقيدة أو ظل على الأقل صامتا عنها في هذا المجال.

ولبيان خطر هذا التصور في مجال العقيدة وشناعته أقول:

إن الإيمان بالله واحداً لا شريك له هو لُب الإسلام وعماده، فهو الإطار الذي يحوي كل تفاصيله، وهو الأساس الذي تبنى عليه كل فروعه، وهو المقدمة التي تستخلص منها كل نتائجه. والعلم بالله تعالى هو أشرف العلوم وأنفعها لأنه كلما ازداد علم الإنسان بالله ازداد إيمانه به وثقته فيه توكله عليه وحبه له وخوفه منه، ورجاؤه وشكره وطاعته وسائر الحالات والصفات المعبرة عن إخلاص العبودية له تعالى. وقد تفضل الله تعالى فعرفنا بنفسه في كتابه المنزل، وعلى لسان نبيه المرسل. وقد كان النبي ﷺ أعرف الناس بالله وأشدهم له خشية، وكان أصحابه من بعده أعرَف هذه الأمة بربها وأشدها له خشية. والطريقة التي سار عليها هؤلاء الأصحاب في فهم ما قاله

الله تعالى عن نفسه، وما قاله عنه رسوله أن يُثبتوا له كل صفة أثبتها لنفسه في القرآن أو السنة على أنها صفة حقيقية وأن ينفوا عنه كل ما نفاه عن نفسه. فإذا قال تعالى إنه سميع بصير حي قيوم، أثبتوا له هذه الصفات، وإذا قال إنه تعالى يُحب ويرضى ويكره ويغضب قالوا عنه ما قال عن نفسه، وإذا أثبت لنفسه وجهاً ويداً قالوا إن له وجهاً ويداً، وإن قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، أثبتوا لله صفة الإستواء وآمنوا بأن العرش والكرسي من مخلوقاته، ولم يُمثلوا شيئاً من هذه الصفات الإلهية بصفات المخلوقين لأنهم يعلمون أن الله ليس كمثله شيء، ولم ينفوها عنه أو يؤولوها تأويلاً يُبطل حقيقتها لأنهم يعلمون أن ذاتاً بلا صفات حقيقية هي وهم لا حقيقة له. على منهج هؤلاء الصحابة الكرام سار من جاء بعدهم من كبار التابعين وتابعيهم وسائر أئمة أهل السنة والجماعة. ولكن هذا العلم بالله تعالى الذي هو أشرف العلوم وأهمها لا يكاد اليوم يُوجد إلا عند قلة من الناس وذلك لأسباب تاريخية منها تأثر المسلمين بعقائد ومذاهب جاهلية أهمها الفلسفة اليونانية المادية. لقد أثرت هذه الفلسفة في علم الكلام، وصار علم الكلام – مع الأسف – هو المختص بموضوع العقيدة وصفات الخالق تعالى، ولكن هذا الاتجاه المنحرف يُعضّد اليوم بأسباب جديدة هي تأثر المسلمين المتزايد بالتصورات الغربية المادية.

لقد كانت المعرفة الصحيحة بالخالق تعالى تقول إنه هو الحق، وكانت تقول إن أصدق كلمة قالها الشاعر " إلا كل شيء ما خلا اللهَ باطل " وإذا كان الله تعالى هو الحق، بإطلاق، فإذا أثبت نفسه صفة كانت في حقه صفة حقيقية يتصف بها على وجه الكمال اللائق به سبحانه، وإذا اتصف المخلوق بهذه الصفة كانت في حقه أيضا صفة حقيقية على وجه النقص اللائق بالمخلوق. فالله تعالى عليم حكيم رحيم سميع بصير والمخلوق موصوف بالعلم والحكمة والرحمة والسمع والبصر، فالأوصاف في الحالين أوصاف حقيقية لا مجازية ولكنها في حق الله تعالى أحق لأنه هو الحق بإطلاق، وهي في حقه أوصاف كمال لا يماثلها ولا يدانيها أوصاف المخلوقين.

ثم تغير الحال، فاعتبر الناس -بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال- وجود المخلوقات المشهودة هي الوجود الحقيقي، فصفاتها هي الصفات الحقيقية، وما لم يكن ماديا مشهودا فهو إلى الفكرة الذهنية أقرب منه إلى الحقيقة الواقعية.

ونتج عن هذا التصور اتجاهان منحرفان:

اتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة فلا بد أن يكون الله جسماً، وإذا نسب لنفسه يداً فلا بد أن تكون كيدنا لحماً ودماً، وإذا قال إنه سميع بصير فلا بد أنه يسمع بأذنين مثل آذاننا ويرى بعينين مثل عيوننا، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً، هؤلاء هم الذين سُموا في تاريخ الإسلام بالمُشَبهة والمُجَسِمَة.

واتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة، وبما ان الله تعالى ليس كهذه فإنه لا يتصف بها حقيقة بل مجازاً، ولذلك فقد رفض الغلاة منهم أن يُثبتوا لله تعالى أي صفة من الصفات فرفضوا حتى القول بأنه موجود، لأن هذا بزعمهم تشبيه له بالمخلوقات، وهؤلاء هم الذين عُرفوا في تاريخ الإسلام بالجهمية.

ولذلك فإن أهل السنة حين يبينون عقيدتهم يميزون أنفسهم عن هذين المذهبين الضالين، فيقولون إنهم يثبتون لله ما أثبت لنفسه من غير تشبيه ولا تمثيل (وهو المذهب الأول) ولا تحريف ولا تعطيل (وهو المذهب الثاني).

وقد أثر هذا الاتجاه الأخير في كثير من الفرق الإسلامية حتى تلك التي تنتسب منها إلى أهل السنة والجماعة فلجأوا إلى مثل تأويلهم التعطيلي لبعض الصفات التي ظنوها لا تكون حقيقة إلا في حق المخلوقين، فقالوا مثلاً عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) أي استولى فكان رد أئمة أهل السنة عليهم أولا أن الاستواء لا يعني الاستيلاء في اللغة فالتفسير خطأ إذن من حيث اللغة، وثانيا على فرض أنه الاستيلاء فهل تقولون إن الله تعالى استوى كاستيلاء البشر ؟ إن قلتم نعم صرتم مشهبة وإن قلتم استولى استيلاء لا كاستيلاء البشر؟ فلماذا لا تقولون استوى لا كاستواء البشر كما قال سلف الأمة الراشدين.

لكن هذا المذهب التعطيلي يعود إلى الظهور من جديد فينتشر بين كثير من المتدينين من المسلمين وغيرهم، وما ذلك إلا لأنه يجد سنداً من التصور المادي المعاصر، هذا التصور الذي يقول كما رأينا سابقا إن الوجود الحقيقي إنما هو وجود الذارت

المادية ومركباتها، ومن البديهي أنه لا مجال للخالق في نطاق هذا التصور، إذا قلنا إن صفاته صفات حقيقية، لابد إذن من تأويل هذه الصفات واعتبارها مجازاً أو رموزاً ولكن هذا معناه أن الخالق تعالى يكون مجرد فكرة في الأذهان لا وجود حقيقي لها في الأعيان. فلا يوصف لذلك بصفة ثبوتية فيقال إنه كذا وكذا، بل تكون كل صفاته سلوبا فيقال أنه ليس كذا وليس كذا، هكذا قالت الجهمية في الماضي، وهذا يقول رجل كالأستاذ محمد أسد: إنه يقول عن الله تعالى ما ترجمته: «..إننا لا نستطيع أن نتخيله» وهذا صحيح، إذا كان المقصود به أن تكون له صورة كيفية في أذهاننا، ثم يقول: «كل ما نستطيع أن نعرفه عنه أنه ليس كذا وكذا»[1]. ثم يمضي لذلك فيؤول صفاته الثبوتية كالاستواء والسمع والبصر بل ويُؤول السماوات والكرسي.

وما يقال عن الله تعالى يقال عن عالم الغيب كله تقريبا. إن المحاولة دائما هي تأويل هذه الحقائق بحيث تصبح قابلة لأن تكون جزءاً من الأطار المادي. يقول الشيخ محمد عبد ه عن الملائكة في كلام طويل في تفسيره: «فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فأنما قوامه بروح إلهي سمى في لسان الشرع ملكاً.، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها، وبه قوامه ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً، لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات»[2]، ثم انتقد تعريف الملائكة بأنها أجسام نورانية قابلة للتشكل بأن النور وحده لا قوام له يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجرم آخر، وأن الشيء الواحد لا يمكن أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة[3].

---

(١) The Message Qoran, London 1980.P.990.

(٢) تفسير المنار، ج١ ص٢٢٣، القاهرة ١٩٧٢م.

(٣) ج١، ص٢٢٥.

يقول تلميذه الأستاذ رشيد رضا - عليه رحمة الله -: «هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة»[(١)].

وأقول لا بأس على الداعية إلى الإسلام أن يقرب معاني ألفاظه إلى الناس بالمألوف من ألفاظهم ومعارفهم، ولكن هذا شيء وتفسير حقائق الإسلام بما يوافق أهواء العصر شيء آخر. وما فعله الأستاذ محمد عبده هنا هو من القبيل الثاني لا الأول، والذي يغرى الداعية الحديث بالوقوع في مثل هذا التفسير هو أن كثيرين من معاصرينا يقبلونه ويرتاحون إليه ويعتبرونه التفسير الذي يقتضيه العقل، ولكنهم إنما يقولون هذا لأنهم متأثرون بثقافة عصرهم، لا لأن عقولهم أكبر من الأسلاف الذي قبلوا حقائق الغيب كما وصفها الله تعالى. إن كل ما يخالف العقل باطل لا محالة، ولكن ما العقل؟ إن كثيرا من المفكرين يسلمون بمقدمات باطلة في تصورهم للكون، ثم يعتقدون أن المعقول هو ما كان موافقا لتلك المقدمات فيخلطون بين الممكن عقلاً والممكن في حدود إطارهم التصوري، بل إن من الخطأ الذي نبه عليه كثير من العماء الغربيين أنفسهم الظن بأن الممكن عقلاً يطابق الممكن في حدود العلم التجريبي.

هذا خطأ، لأن دائرة الممكن عقلاً أوسع من دائرة الممكن تفسيره في حدود العلم التجريبي، إذ لو كان الأمر كذلك لصح أن نقول إن كل ما لا يمكننا تفسيره في حدود علمنا التجريبي، فهو وهم لا حقيقة له، ولو آمن العلماء بهذا المبدأ لتوقف العلم عن التقدم منذ زمن طويل، ولكن القحيقة أن ما لم يمكن تفسيره في حدود العلم بالأمس أمكن تفسيره اليوم وما لا يمكن تفسيره اليوم سيمكن غدا بإذن الله، وذلك لأن دائرة العلم في اتساع دائم، ولكن العلم التجريبي مهما اتسعت دائرته فلن يستطيع تفسير بعض الحقائق، لا لأن تفسيرها غير ممكن، ولا لأنها مخالفة للعقل، ولكن لأنها تقع خارج المجال الذي حدده هذا العلم لنفسه، وكونها خارج المجال لا يعني أنها أوهام أو دعاوى لا دليل عليها بل إن عليها لأدلةً تتناسب مع طبيعتها، ولكن هذا ليس مجال الإضافة في هذا الموضوع.

من الخطأ الشائع تسمية أصحاب هذه المدرسة بالعقلانيين إذ ما كل من ادعى الاحتكام إلى العقل بعاقل وكيف يكون عقلانياً من يحد العقل بحدود الفلسفة المادية

---

(١) ج١، ص٢٢٧.

أو بحدود الممكن تفسير في حدو العلم التجريبي الذي بلغه الناس في زمانه؟ لو كان هؤلاء عقلانيين لصح أن نصف بالعقلانية أولئك الذين أنكروا إسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة، لقد أنكروا أمراً لا نعتبره اليوم مستغرباً حتى بوسائلنا المادية، ولكنهم أنكروه لأن علمهم ضاق فحصر الممكن عقلا في المألوف لديهم من وسائل الانتقال، وكذلك يفعل أصحاب هذه المدرسة المدرسة اليوم، فيضيقون بكل أمر جاء به الذين لا يجدون له – إن أخذوه على ظاهره – تفسيرا في حدود معارفهم فيظنون هذا الظاهر مخالفا للعقل فيؤولونه تأويلات تجعله مناسبا لما حسبوه متقضى العقل وإنما هو مقتضى الأُلف والعادة، ولذلك فإنهم يضيقون بكل ما ورد في القرآن والسنة من أحداث خارقة لمعتاد الناس ويؤولونها تأويلا يجعلها أمرا عاديا، فالطير الأبابيل هي الجراثيم[١]، ونتق الجبل فوق بني إسرائيل إنما كان زلزالا وانفلاق البحر لموسى كان جزراً[٢].

والنوع الثاني هي الذي لا يهتم بأمثال هذه التصورات الأساسية سواء كانت إسلامية صحيحة أو غربية باطلة، ويعتبرها كلها لقصر نظره من الكلام النظري الذي لا يؤثر في الواقع العملي، ولكنه مع ذلك متأثر بنتائج التصور الإلحادي في تصوراته الفكرية وتصرفاته العملية. فهو لا ينظر إلى الفكر الغربي في مجال الاقتصاد أو السياسة أو القانون ... الخ على أنه تقاليد حضارية معينة قد تخطئ وقد تصيب، ولكنه يعطيه صفة الإطلاق فبحسب أن اقتصادهم هو الاقتصاد وقانونهم هو القانون، وإن لم يقل الاقتصاد المطلق أو القانون المطلق فهو يراه على الأقل الاقتصاد أو القانون الذي يقتضيه العصر وتقتضيه الحضارة الإنسانية، ولذلك فإن كل ما في الإسلام مما يخالف التصور الإلحادي ينبغي أن يعاد تفسيره، بحيث يصبح موافقا لمواصفات الحضارة الغربية، والغريب أنهم يسمون كل هذا اجتهاداً وتجديداً، أغريب هو؟ كلا فإن هذا هو المنهج الذي تسلكه كل الانحرافات فكرية كانت أو حقيقية، إنها تسمى أباطيلها بأسماء براقة لا تعبر عن حقيقيتها ألم يقل الرسول ﷺ: **(ليشربنّ ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها)**[٣].

---

(١) محمد عبده.

(٢) محمد أسد.

(٣) حديث صحيح رواه النسائي وابن ماجه وأبوداود.

ألم يقل الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

ألم يقل عن أعداء أنبياء الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

هذه هي النظرة التي جعلت بعضهم يتحرجون وبعضهم ينكرون أشياء مثل تعدد الزوجات، ورجم الزاني المحصن، و قتل المرتد، وحجاب المرأة، وإعفاء اللحي، وتحريم المعازف والربا واختلاط النساء بالرجال.

وسيقت للدفاع عن هذا الإنكار حجج وتَعِلّات من أوهي وأسخف ما يتصوره الإنسان، ولا عجب فإن الداعي إلى الإنكار ليس هو هذه الحجج وإنما معرفة المنكرين بأن هذه الأشياء مما يستبشعه العقل الغربي المعاصر، واقتناعهم بأن كل ما يستبشعه هذا العقل فهو المُستبشَع لأنه إنما ُينكر ويُستبشع ما كان مخالفا للعلم معرقلا للحضارة الإنسانية.

ولم يقتصر أثر الفكر الغربي على التصورات الاعتقادية والآراء التشريعية وإنما تعداه إلى الأذواق والظاهر فالزي القومي في كثير من بلاد ا لعالم الإسلامي أصبح دليل التخلف سيما فيما يتعلق بالنساء، وكل ما يفعله الغربيون رجالا ونساء بشعورهم جميل وكل ما نفعله نحن إن لم نقلدهم قبيح، وإذا احتفلوا برأس السنة الميلادية فينبغي أن نحتفل وأن نحتفل بطريقتهم، وإذا جعلوا لأبنائهم أعياد ميلاد فكذلك ينبغي أن نفعل، إلى آخر ما لايكاد يُحصى من أنواع التشبيه.

إن التقليد في المسائل الشكلية أقل خطراً ما في ذلك شك، ولكنه ربما كان أدل على التبعية العمياء لأنه إن اختلفت للمتابعة في التصورات والتشريعات تأويلات ومسوغات فكرية، فلا يمكن أن يوجد للتقليد في المسائل المظهرية مسوغ غير الافتتان بالمقلَّد، واعتباره المعيار لما ينبغي أن يُفعل وما ينبغي أن يُترك. ولكن التقليد في المظاهر له آثار خطرة قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، إذ من الثابت أن هنالك علاقة بين المظهر والمخبر، وعليه فالذي يوافق طائفةً معينة في مظر تمتاز به ويُعد شعاراً لها خليق أن يجد في نفسه ميلاً لموافقتها في مخبرها، ثم أن المظاهر كثيرا ما تكون تعبيراً طبيعياً عن حالات نفسية ومبادئ تصورية، فالتشبه بأصحاب هذه الحالات والتصورات في مظهرهم، يساعد على إحداث تلك الحالات والتصورات في المُقلّد.

إن كثيرا من مواقفنا السياسية لها جذور فكرية في هذه التبعية للثقافة أو الحضارة الغربية، فاتخاذ الشيوعيين وكثير من اليساريين مواقف مؤيدة لموقف المعسكر الشيوعي في القضايا العالمية حتى ما كان منها خاصا بالعالم الإسلامي هو تعبير عن موقف حضاري قبل أن يكون موقفا سياسياً.

لكن هذه التبعية الحضارية ليست قاصرة على الشيوعيين، فالتبعية الحضارية للمعسكر الغربي نتج عنها نفس الآثار السياسية، فصلح كامب ديفيد مثلا سبقه صلح مع الحضارة الغربية، سبقته كتابات لمفكرين مؤثرين كبار بأن هذه الدول الغربية هي المثل الذي ينبغي أن يحتذي، فكل ما كان أقرب إليها كان أكثر حضارة وأجدر بالاحترام والتوقير، وبما أن إسرائيل هي قطعة من الغرب في البلاد العربية، وبما أن البلاد العربية متخلفة بالقياس إليها فإن معاداتها معاداة للحضارة الغربية ودليل على التخلف.

إن الافتتان بالحضارة الغربية في تصوراتها الاعتقادية وأحكامها التشريعية وقيمها الخُلقية ومظاهرها الذوقية لم ينتج عنه مواقف سياسية موالية للغرب فقط وإنما نتج عنه محاولة لإعادة صياغة المجتمعات الإسلامية كلها في قوالب غربية، في تركيبها الاجتماعي، ونظمها القانونية، وأوضاعها الاقتصادية، وبرامجها التعليمية ووسائلها الإعلامية على اعتقاد بأن هذه الصياغة شرط ضروري لنهضة الأمم الإسلامية وتحويلها من مرحلة التخلف والرجعية إلى مرحلة التقدم والمعاصرة.

ما هي أسباب هذه التبعية:

إن الإنسان بطبعه ميَّال إلى حب الموافقة والتقليد ولذلك قيل إن الناس كأسراب القطا، إن الإنسان مخلوق اجتماعي فأكبر عقاب له أن تعزله عن المجتمع في سجن انفرادي، ولكي يعيش الفرد مع الناس لابد أن يدفع ثمن ذلك موافقة لهم في أفكارهم وعاداتهم ومظاهر حياتهم لأن المجتمع يقسو على من يشذ عنه في هذه الأمور.

والموافقة هذه أمر لا بد منه، وهي ليس شراً في ذاتها وأنما تكون شراً حين تسود في المجتمع عقيدة باطلة أو فكرة خاطئة أو عادة ضارة وبطلب من الفرد أن يتابع المجتمع فيها. هنا يُمتحن الإنسان، فالكثرة من الناس تخشى المفارقة والتميز وترضى بالمتابعة وإن تبين لها الخطأ، والقلة من الرجال والنساء التي تمتاز بقوة العزيمة والشجاعة وحب الحق هي وحدها التي تصمد وتقوى على التميز والمفارقة، وإذا ما تميزت وفارقت تبعها غيرها ممن هو أقل منها جرأة، وتبع هؤلاء غيرهم وهكذا إلى أن يحدث في المجتمع — إن حدث — تيار جديد لا يلبث أن يكون هوالاتجاه الاجتماعي المقبول.

والمجتمع ليس كوماً من الأفراد متماثلي الأهمية والأثر الاجتماعي، ولكنه نظامٌ بعض الطبقات فيه أهم من بعض، وأشد أثرا على غيرها، فإذا تغيرت هذه أو سنت للناس سنة جديدة تبعها غيرها. هذه الطبقات القائدة تشمل طبقة قادة الفكر، وطبقة الحكام، وطبقة الأثرياء، ولذلك فإن النبي ﷺ لم يكن في مبدأ بعثته يوجه الدعوة إلى الأفراد البسطاء فقط وإنما كان يعطي اهتماماً خاصا لرؤساء القبائل، وفي المدينة وجه رسائله إلى الملوك والرؤساء، على أساس أن إسلام هؤلاء يقود إلى إسلام أتباعهم، ولذلك فإن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون نبيه الخاتم من قريش القبيلة التي قال عنها ﷺ: **(الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم)**[1]، وفي رواية: **(الناس تبع لقريش في الخير والشر)**[2].

سألت امرأة الخليفة الأول أبا بكر رضي الله عنه: (ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال فهم أولئك على الناس)[3].

الطبقة القائدة قد ترى رأياً أو تسن عادة لأنها توافق مصلحتها وهواها، وقد ترى الرأي لأنه حق وتسن العادة لأنها تراها حسنة، ثم يأتي كثير من أفراد الطبقات التابعة فيقلدونها في الرأي أو العادة لمجرد أنها قالت به أو سنته و من غير نظر في صواب الرأي وخطئه وحسن العادة أو سوئها.

ويبدو أن ما يصدق على الأفراد في نطاق المجتمع القطري أو القومي الواحد يصدق على الأقطار في نطاق المجتمع الدولي، سيما في عصر كعصرنا تقاربت فيه المسافات وتوثقت الصلات، وتشابكت المصالح، واشتد لذلك التأثير المتبادل.

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قريش.

(٢) مسلم، كتاب الإمارة.

(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية: (عن قيس بن أبي حازم قال: دخل ابوبكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تكلم؛ فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمتة. قال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحل هذا، هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت فقال: من انت؟ قال: امرؤ من المهاجرين، قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش، قالت: من أي قريش انت؟ قال: إنك لسؤول، أنا ابوبكر.

الدول أيضا منها دول قائدة ودول مقودة، فالدولة الأقوى فكرا في معرفة أمور الدنيا والتصرف فيها، والأكثر ثراء، والأشد قوة وبأسا، وهي الدولة القائدة والرائدة التي يحتاج غيرها إلى فكرها وتجربتها ومالها ومنتجاتها، وما كان أقل منها في هذه الجوانب فهي الدول التابعة.

فإذا رأت الدول القائدة رأياً، أو اتخذت في حياتها طريقة، لأي سبب يخصها، قلدتها الدول التابعة تقليداً أعمى.

هذا على فرض أن قادة الدول القائدة بقوا في بلادهم، فكيف إذا نتقلوا إلى البلاد الضعيفة حكاماً ورؤساء، وقادة فكر، كما حدث في العالم الإسلامي في عهود الاستعمار. أو خبراء في شتى نواحي الحياة أو أساتذة أو رجال أعمال كما هو الحال في عالمنا الإسلامي الآن.

إنه حينئذ تجتمع لهؤلاء القادة الوافدين قوتان، قوة الدولة القائدة التي يمثلونه، وقوة المركز القيادي الذي يحتلونه في داخل الدولة الضعيفة.

وبما أن الإنسان لا ينفق إلا مما يملك فإن هذه الدول الغربية القائدة إنما تنقل إلينا ما عندها، معتقدة أن موقفها هو الموقف الطبيعي الذي تُقاس به الأشياء الأخرى، فدينها هو الدين، واقتصادها هو الاقتصاد، فلسفتها هي الفلسفة، ومصلحتها هي المصلحة، فما عندها يُعرّف بالألف واللام، وأما ما عند غيرها فلا بد من تعريفه بالإضافة، فيقال دين إسلامي أو بوذي واقتصاد إسلامي وفلسفة عربية أو صينية أو هندية وكذلك قل عن لغتهم وزيهم وفنهم المعماري وعاداتهم الاجتماعية.

أعود فأقول إن تبعية الفرد للمجتمع سيما إذا كان فردا من الطبقة الضعيفة وتبعية الأمة لجماعة الأمم سيما إذا كانت أمة ضعيفة أقول إن هذا سنة اجتماعية لا يمكن التغلب عليها بمجرد الأماني.

ما الحل إذن ؟

إذا كان التحليل الذي أوجزناه سابقا صحيحا ومقبولا، فإن الحل النهائي الحاسم هو أن يزول التناقض بين الإنتماء إلى الإسلام والإنتماء لمجموعة الدول الضعيفة، وهذا يكون إما بأن تقوى الدول الإسلامية أو بأن تسلم الدول القوية، وكلا الأمرين ممكن، بل إن كل واحد منهما يساعد على الآخر. فإذا قويت الأمم الإسلامية احترمتها الشعوب الأخرى واحترمت تبعا لذلك دينها، أما الآن فإن حال الأمم الإسلامية يفتن الناس عن الإسلام، وتلك مصيبة علمنا القرآن، الاستعاذة منها: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:٥].

وإذا أسلمت الدول القوية القائدة شجعنا ذلك على العودة إلى الإسلام.

لكن دعونا الآن نحصر أنفسنا في أنفسنا، ما الحل بالنسبة لنا؟ قلنا أن الحل النهائي الحاسم هو أن نكون أمة قائدة بالوصف الذي ذكرناه آنفا، ولكن كيف نكون أمة قائدة ومسلمة في نفس الوقت إذا كان تحليلنا يدل على أن ضُعفنا الحالي يغرينا بالتخلي عن ديننا وتقليد غيرنا ؟

والحل في سنة اجتماعية أخرى، وهي أن بعض الأفراد في المجتمع – وهم في الغالب من أفراد الطبقات الضعيفة- قد يشذون عن قاعدة التبعية والموافقة إذا ما توفرت لهم الأسباب، إن لديهم الاستعداد للاستمساك بالحق متى لاح لهم، والعمل لإحقاقه مهما كلفهم من جهد وسخرية اجتماعية، حتى لو كلفهم أرواحهم. إذا عرف هؤلاء الحق واستمسكوا به وأعلنوه وصبروا على الأذى الاجتماعي في سبيله، فإنهم يوشك أن يكونوا طبقة قائدة جديدة بفكرها القوى العملي الحركي، وإذا صاروا كذلك أسرع تأثيرهم في بقية العناصر القوية في المجتمع، وهكذا إلى أن يؤول الأمر إليهم، فإذا آل عملت السنة الاجتماعية الأولى عملها فتبعهم الناس أفواجاً بعد أن كانوا ينضمون إليهم أفراداً أفراداً.

هكذا فعل أنبياء الله، وهكذا ينبغي أن نفعل إذا أردنا لحالنا أن ينصلح. لقد بعث الله نبيه محمد ﷺ من قريش القبيلة القائدة، وفي مكة البلدة القائدة – أم القرى – ولكنه لم يكن حاكما ولا كان ثريا، بدأ الدعوة باللسان – بقوة الفكر – فانضم إليه الأفراد الأقوياء، كثير منهم من الطبقة الضعيفة وقليل منهم من الأشراف. ودفع الضعفاء الحركة الإسلامية بصبرهم على الأذى والاضطهاد والقتل لأنهم أثبتوا أنهم يدافعون عن حق، ودفع الأشراف الحركة بصبرهم وببذلهم أموالهم واستغلالهم مكانتهم الاجتماعية في سبيل نشر الحق وتثبيته. ثم كانت بيعة العقبة وكانت الهجرة فصارت للدعوة الجديدة أرض مستقلة، وانضم الحكم إلى النبوة ثم كانت غزوة بدر الكبرى وهزيمة المشركين عسكرياً بعد أن هُزموا فكرياً، ثم توالت الغزوات وتوالت معها الانتصارات حتى فتحت مكة فصارت الدولة الجديدة دولة مهيبة، عندئذ نزل قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

وهكذا فعل موسى، توجه بالدعوة إلى الرئيس الكبير لعله أن يسلم ففي إسلامه حقن للدماء وانتشار للحق بغير عناء. ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

ولكن إذا كان فرعون من النوع الذي يعميه العلو في الأرض عن رؤية الحق فما كل أفراد الناس في بلده كذلك، لقد جئ بالسحرة ليهزموا موسى وكان أكبر شرف يطمعون فيه أن يكونوا من المقربين لفرعون ولكنهم رأوا الحق ناصعاً فقالوا لفرعون وهو يهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ثم بالصلب في جذوع النخل، قالوا له: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وهم لا يرون من حق إنسان أن يمنع إنسانا من إتباع الحق حين يصدق فجره..

بداية الطريق إذن ابتداء حركة من هذا النوع، ولكن هذه الحركة بحمد الله قائمة بل إنها لحركة تكفل الله تعالى للأمة المحمدية بأن لا يخلو منها زمن من الأزمان، فقد قال ﷺ: **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)**[1] وهذه الطائفة ليست جماعة بعينها واسمها وشعاراتها ولكن يدخل فيها كل إنسان يستمسك بالحق، ويدعو إليه سواء كان من أفراد الطبقة القائدة أو من ضعفاء الناس وسواء كان يعمل مستقلاً أو في جماعة.

وفي العالم اليوم – لا أقول في العالم الإسلامي- بل في العالم كله حركة إسلامية تتمثل في جماعات شتى وأفراد وهيئات رسمية وشعبية كلها تعمل في حدود طاقتها للعودة إلى الإسلام.

فنقطة البداية إذا موجودة ... إنها الحركة أو الدعوة الإسلامية بالمفهوم الشامل الذي ذكرته، والمهم أن تتسع رقعتها ويصلب عودها، بتنمية فكرها وتقويته، وببذل المال، وبمساعدة السلطات الحاكمة ما كان ذلك ممكنا.

إذا حدث كل هذا وهو حادث بإذن الله أمكننا أن نسير خطوات أكثر في مواجهة الحضارة الغربية، لا بإيقاف غزوها لنا فحسب، بل بهداية أصحابها إلى الصراط المستقيم. إن طموحنا ينبغي أن لا يقف عند حدود الدفاع ورد العدوان بل ينبغي أن يتعداه إلى طلب المعتدي ودعوته، كيف ؟

كيف نواجه الحضارة الغربية ؟

كيف نواجهها فنكف أثرها السلبي عنا وكيف نواجهها فنقومها ونصلحها لكي تكون حضارة إنسانية حقا.

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة.

لقد قلت إن هذا لا يتأتي إلا إذا صرنا أمة قائدة وتحدثت عن الخطوة الأولى نحو تلك القيادة وفيما يلي نستكمل بقية الخطوات وبإيجاز شديد:

أولاً: الحكم بالإسلام ومن أهم عناصر هذا الحكم:

(أ) **الاستقلال وعدم التبعية للدول الكبرى** سواء كانت تبعية سافرة أو مقنعة، ولعل هذا الاستقلال هو الآن أصعب الأشياء منالا فهو يحتاج مع الأخذ بكل الأسباب المادية اللازمة له إلى إيمان راسخ وتوكل على الله تعالى وتذكر دائم بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧].

(ب) **حرية سياسية** تشعر المواطن بأنه عزيز في بلده، بين أفراد مساوين في الحقوق الإنسانية وإن علوه ببعض المناصب الدنيوية، وتمكنه من أن يفكر بحرية ويشارك بفكره وجهده في إصلاح حال بلده، يقول للمصيب أصبت والمخطئ أخطأت مهما كان منصبه ثم يذهب لينام قرير العين لا يدهمه بالليل طارق يقتاده إلى الحبس إرضاءً لنزوة حاكم. إن فقدان الحرية السياسية يفقد المواطنين الشعور بالإنتماء لبلدهم ويولد فيهم الإحساس بأن البلد مُلك الحاكم، من رضى عنه نال الحظوة ومن سخط عليه فلأمه الهبل. ولا يُتصور من إنسان يشعر بهذا الشعور أن يقوم بعمل جليل كالذي نريد.

(جـ) **عدل احتماعي**، وهو جزء مكمل ولازم للحرية السياسية، كما أنه عامل فعّال في زيادة الإنتاج. إن الجور الاقتصادي كالجور السياسي ينافي علاقة الأخوة التي هي العلاقة الأساسية بين المسلمين في الدولة ويولد فيهم مشاعر سلبية لا اجتماعية تؤثر فيما تؤثر إلى إنتاجهم الاقتصادي.

(د) **أمر بالمعروف ونهي عن المنكر** نسخر له وسائل الإعلام ومناهج التربية والتعليم ومؤسساتها وتُستغل لتحقيقه كل الأساليب التي تحبب المعروف إلى الناس وتُكره المنكر إليهم مع عناية خاصة بالصلاة في جماعة.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١].

(هـ) **إقامة الحدود** كفاً للمعتدين واستدراراً لرحمة رب العالمين.

ثانياً: تغيير العلوم إسلامياً:

(أ) بتنقيتها من شوائب التصورات المادية الإلحادية وسائر التصورات المخالفة للإسلام والتي تمثل إطارها الفلسفي وإن لم تبرز في مضمونها الحرفي.

(ب) بإطراح كل النظريات التي لم يثبتها واقع والتي تخالف حقائق قررها الإسلام، ولا بأس من دراستها للنقد.

(جـ) باستبدال الإطار الفلسفي الإلحادي بإطار توحيدي.

(د) باعتبار الوحي مصدراً من مصادر الحقيقة وهذا يستتبع إدخال كل ما أثبته القرآن وصحيح السنة في مضمون العلوم، كل حقيقة بحسب العلم المناسب لها.

(هـ) بالسعي نحو الإصالة في كل ما نعالج من مشاكل وما نعطي من أولويات.

(و) بصياغة العلوم كلها طبيعيها وإنسانيها بلغة عربية فصيحة حتى تكون اللغة العربية لغة العلوم، كما هي لغة الدين والأدب.

ثالثاً: دراسة الغرب، تاريخه، وواقعه، مستقبله، تجاربه، من وجهة نظر إسلامية، إننا الآن نقول عن الغرب ما يقوله هو عن نفسه، بل نقول عن الشرق ما يقوله المستشرقون وقد آن لنا أن نعكس الآمر فيكون لنا مختصون بشؤون الغرب يعالجون قضاياه على أساس إسلامي، وأعني بالإسلامية هنا الحقائق التي جاء بها الإسلام كما أعني بها مصالح المسلمين الوضعية.

رابعاً: المرجو من محاولات صياغة العلوم على أساس إسلامي ومن الدراسات الغربية أن تساعدنا في الاستفادة الرشيدة من الحضارة الغربية، ولكن يمكن أن نجمل فيما يلي ما ينبغي أن يؤخذ وما ينبغي أن ينبذ من هذه الحضارة.

١- أما ما نأخذه فهو:

(أ) المنهج العلمي (بعد تنقيته من الشوائب الإلحادية).

(ب) والحقائق الجزئية التي كشفتها العلوم ومعرفتها لا يمكن أن تعزل عن معرفة العلوم التي أدت إليها.

(جـ) وما بنى على هذه العلوم من تقنية في صورة آلات ومهارات وما أدت إليه هذه التقنية من تصنيع.

٢- ثم لابد لنا من الاستفادة من تجربته في كل مجالات الحياة المعاصرة: المؤسسات التعليمية والإعلامية والاقتصادية والعسكرية والفنون الإدارية على أن نكيف ما نأخذه

مع إطارنا الإسلامي ولا نغير هذا الإطار بالنقل الحرفي لكل ما عندهم كما يحدث الآن في العالم الإسلامي.

٢- أما البيانات والفلسفات والآداب والفنون والعادات والتقاليد، فلا علاقة منطقية أو نفسية بينها وبين ما سبق. ولكنني أرى مع ذلك أن لا تقطع صلتنا بها قطعا كاملا بل ينبغي دراستها باعتبارها واقعا ينبغي أن نعرفه باعتبارها هديا نستهدي به، ولذلك أرى أن لا يفتح لها باب الولوج إلى الجماهير الإسلامية بل ينبغي أن تكون موضع دراسة المختصين.

٤- إن أشد اسلحة الغرب الفكرية خطرا علينا وتدميرا لنا بل خطراً على الغربيين أنفسهم وتدميراً لهم، هو التصور الإلحادي للوجود الذي كاد أن يصبح سمة العصر والذي لا يكاد يخلو منه جانب من جوانب الحياة المعاصرة العلمية أو الفنية أو العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وهو أكبر تحد يواجه الدعوة الإسلامية والمفكرين الإسلاميين، فإذا نجحنا في التصدي له بالنقد العقلي العلمي المستنير وإذا استطعنا أن تقدم تصورنا الإيماني بديلا لهذا الإطار الإلحادي وأقمنا الحجج العلمية الشواهد الواقعية على أنه الإطار المناسب للمنهج العلمي ولحقائق العلوم الطبيعية والبشرية وللثقافة الإنسانية وبالتالي للحياة السعيدة تكون قد أسدينا خدمة كبيرة لا لأمتنا الإسلامية فحسب، ولكن للمجتمع الإنساني كله، وذلك أن هذا المجتمع يقترب من الدمار كلما ساد فيه فساد التصور الذي يؤدي إلى فساد السلوك، وكلما خبا فيه نور الرسالة المحمدية.

ولكن هذا عمل عظيم يحتاج إلى صبر ويقين، يحتاج إلى يقين بأنه تصورنا الإيماني هو الحق الذي لا ريب فيه وأن التصور الإلحادي بكل لوازمه وفي كل صوره وأشكاله تصور باطل مفسد.

ويحتاج إلى صبر في مواجهة هذا التصور والتصدي له وعدم مسالمته أو مداهنته بحجة المعاصرة أو الحضارة أو التجيد، مهما طال الزمن وضجت الدعايات وسقط المنهزمون. والصبر واليقين هما الشرطان اللازمان لكل من يريد أن ينال شرف القيادة الفكرية المقتدية بهدي رُسل الله.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

* * *

الأسس الفلسفية للمذهب المادي

وهذه الدراسة نشرت في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن شوال / ذو القعدة ١٣٩٦الموافق أكتوبر / نوفمبر ١٩٧٦م.

في العالم الإسلامي اليوم دعوة إلى التأسي بالغرب لا في تقدمه العلمي أو الصناعي فحسب ولكن في مناهجه الفكرية وأساليب حياته أيضاً. وأصحاب هذه الدعوة لا يريدوننا بالطبع أن نقلد الغرب في مسيحيته أو يهوديته أوخرافاته اليونانية وإنما يريدون لنا أن نأخذ عنه ما يعتبرونه سبب في تقدمه العلمي وتفوقه. ولكن ما كل من يدعو هذه الدعوة بقادر على أن يقدم لنا فكرة متكاملة متناسقة عما يعتبره المنهج الفكري أو المذهب الحياتي الذي أدى إلى التفوق الغربي والذي يريد لنا أن نأخذه عنهم.

ولذلك فإن الكثيرين منهم يكتفون بترديد بعض الشعارات. فالغرب تفوق بزعمهم لأخذه بمبدأ فصل الدين عن الدولة، أو لإطلاقه الحرية للإنسان يفكر ويعبر ويسلك كيف شاء، أو لاتباعه المنهج التحليلي، أو لقدرته على التجربة أو لتركيزه على الواقع المشاهد، بينما نجن لا نزال نعاني من عقابيل المنهج التكاملي، والعجز عن التجريد، والاستغراق في الغيبيات، وتقييد الفكر والتعبير والسلوك بقيود الدين والخلق والاعراف.. الخ.

وأما حين يحاولون تقديم فكرة متكاملة فإنهم إنما يدعون إلى الأخذ بالمذهب المادي في صورة من صوره المتعددة.

فهل يصلح هذا المذهب بديلا عن الدين الإسلامي ؟ وهل يفي بحاجات البشر وهل يحقق لهم السعادة التي ينشدون ؟

لكي نجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نعرف أولا وبشئ من التفصيل ما هي العقائد الأساسية التي يقوم عليها هذا المذهب ثم ننظر فيها لنتساءل أهي حقائق تدركها الحواس أم هي نتائج تستخلصها العقول ؟ أهي متناسقة فيما بينها ؟ أهي موافقة لحقائق العلم ومناهجه ؟ أهي كافية للتدليل على بطلان الدين ؟

أسس المذهب المادي:

فيما يلي نحاول أن نعدد العقائد الأساسية التي يدين بها الماديون ولكن ينبغي أن نذكر أنه إذا كان بعضهم يؤمن بكل هذه العقائد فما كلهم يفعل ذلك، فالبعض منهم يؤمن ببعضها وينكر أو يتوقف في الإيمان بسائرها.

والعقائد هي:

أولاً: لا موجود إلا المادة.

ثانياً: المادة أزلية لم تخلق ولا تفنى.

ثالثاً: كل ما في الوجود من أشياء تكونت بمحض المصادفة من حركات هذه المادة الأزلية.

رابعاً: وإذن فلا إله ولا ملائكة ولا جن وإذن فالأديان كلها باطلة.

خامساً: وإذن فلا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء.

سادساً: طبيعة كل شيء وخصائصه إنما هي نتيجة تركيب معين لذرات هذه المادة.

سابعاً: كل ما نسميه عقلا أو نفسا أو روحا أو فكرا إنما هو شكل من أشكال المادة.

ثامناً: تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة لقوانين الطبيعة لا تختلف وبها يمكن أن نفسر كل الظواهر الطبيعية، والحالات النفسية، والحوادث التاريخية، من غير حاجة إلى الإيمان بقوة وراء الكون تحفظه وتسيره.

تاسعاً: المادية مذهب علمي وليس مجرد ايديولوجية كسائر الايديولوجيات والفلسفات والأديان.

عاشراً: الإنسان سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسؤول عن أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته. وهذا هو المقصود بعبارة "الانسية" Humanism.

مناقشة هذه الأسس:

الأساس الأول: عبارة (لا موجود إلا المادة) التي تكاد أن تكون المبدأ المشترك بين كل الماديين – ما الدليل عليها ؟

(أ) أهي نتيجة بحث علمي استقرائي للكون أثبت أنه لا يوجد فيه إلا ما هو مادي؟

كلا فان شخصا يلتزم بالمنهج العلمي لا يمكن أن يدعي هذه الدعوى العريضة فما أحد يستطيع أن يستغرق ببحثه وتفتيشه الكون كله ليصل إلى مثل هذه النتيجة.

(ب) قد يقول المادي أن ما ذكرتموه (في الفقرة السابقة) حجج ولكن الذي أعنيه أنا بهذه العبارة هو أنني وغيري من العلماء والماديين فتشنا بقدر طاقتنا ووسعنا فلم نجد

في الكون شيئاً غير مادي. ولكن إذا كان هذا ما يعتقده فكان ينبغي أن يصير دقيقا فيعدل العبارة لتصير (نحن لا نعرف موجودا غير مادي) أما أن يستنتج من عدم علمه بوجود غير المادة أنه غير موجود فهو استنتاج باطل، وقديما قال علماؤنا "عدم العلم ليس علما بالعدم".

(جـ) وأما إذا عدل عبارته كما اقترحنا لتصير «نحن لا نعرف موجودا غير مادي» فإنه يهدم الأساس الذي تقوم عليه المادية إذ أن العبارة الجديدة لا تنفي وجود أشياء غير مادية بل تترك الباب مفتوحا للبحث عنها وفيها.

(د) قد يقول المادي أن من الأسباب القوية لإيماني بالعبارة في شكلها الأصلي أن الذين يؤمنون بموجودات غير مادية لم يفلحوا في التدليل العقلي أو العلمي على وجودها وأنا لا أستطيع أن أؤمن بشيء لا دليل لي على وجوده من عقل أو حواس. ونقول له إذا كان من تعرفه من المؤمنين في بيئتك مؤمنين بغيب لا يملكون وسائل اثباته العقلية أو العلمية فما كل المؤمنين بالغيب كذلك، وما كل الأديان تستوي في ذلك، فنحن ندين بدين يقيم الأدلة العقلية القاطعة على صدق مبادئه الأساسية.

ثم أن هنالك مسألة في غاية الأهمية فالذي يقول عن شيء ما أنه موجود أو غير موجود أو أنه لا موجود غيره ينبغي أن يكون لديه تصور معين له بحيث نستطيع أن نتثبت بالبحث الحسي أو العقلي من صحة دعواه. الماديون يقولون أنه لا موجود إلا المادة ولكن ما هي هذه المادة التي لا موجود غيرها ؟لقد ظل الماديون كما سنرى يتراجعون القهقري في تصورهم أو تعريفهم للمادة. فكلما قالوا أنها كذا وكذا ثبت أن ما وصفوه ليس بالموجود الوحيد. قالوا أولا كما يقول عوامهم اليوم أن المادي هو الذي تدركه الحواس وما لا تدركه فهو غير مادي وبالتالي غير موجود وأرادوا بذلك أن يقولوا أن الله تعالى وملائكته لا يدركون بهذه الصفة فهم غير موجودين ولكن تصورهم هذا لا ينفي وجود الله تعالى فحسب بل ينفي معه وجود الفكر والعقل والمشاعر الخ وهي أشياء يدركها كل منا ويدرك أنها ليست مادية بهذا المعنى، لقد حاول الماديون السابقون أن يجدوا مبررات تخرجهم من هذا المأزق فحاولوا أن يقولوا أن الفكر صورة من صور المادة، ولكن هذا أيضاً لا يجدي لأنه إذا كان الفكر وهو

شيء غير محسوس صورة من صور المادة، وإذن فالمادة يمكن أن تكون غير محسوسة. وقال آخرون أن الفكر أثر من آثارها وليس صورة من صورها ولكن هذا أيضاً لا يجدي لأنه يعني أن في الوجود أشياء غير مادية ولن يغير من الحقيقة شيئا كونها أثرا من آثار المادة. المهم أن في الوجود أشياء غير مادية وهذا متناقض مع الأساس الأول للمذهب المادي الذي يقول بأنه لا موجود إلا المادة، ولكن العلم الحديث زاد من إحراج الماديين. فالعلماء يتعاملون مع أشياء لا يصدق عليها وصف المادة بذلك المفهوم الذي يعتبر المادي هو الذي تدركه الحواس. أن الذرات وجزئياتها لا تدرك بالحواس وبعضها كما سنرى لا كتلة له. فهل نقول أن العلم يتعامل مع كائنات وهمية ؟ هذه نتيجة لا يرتضيها الماديون لأن مذهبهم يعتمد على دعوى التوافق بينه وبين العلم. فكيف الخروج من هذا المأزق إذن؟. اقترح لينين تعريفا جديدة للمادة يواكب في رأيه كل تطور علمي. المادي في رأيه هو كل شيء يوجد وجودا موضوعيا أي أنه الشيء الذي لا يعتمد في وجوده على عقلنا أو على وعينا به، هذا التعريف اللينيني للمادة يخرج الماديين فعلا من مأزق مخالفة العلم ولكنه يوقعهم في مأزق موافقة الدين. أنهم كما رأينا يريدون أن يعرفوا المادة تعريفا تكون نتيجته أن الله تعالى ليس موجودا ولذلك قالوا أولا أن المادي هو المحسوس وبما أن الله غير محسوس فهو غير موجود. ولكن هذا التعريف أخرج – كما رأينا – من دائرة الموجودات أشياء يتعامل معها العلم. ثم جاء تعريف لينين ليدخل هذه الأشياء العلمية ولكنه أدخل معها – من غير أن يشعر – أشياء دينية. كيف ؟ أن الله تعالى لا يعتمد في وجوده على وعينا به. هذه من البدائه الدينية، فالله هو خالق الإنسان وخالق وعيه وكان الله تعالى ولم يكن إنسان. ويبقي وكل من عليها فان، فإذن وجوده لا يعتمد على شيء سواه فضلا عن أن يعتمد على وعينا به. فتعريف لينين للمادي يدخل فيه وجود الله تعالى. لعل السبب في أن لينين لم يلتفت إلى المأزق الذي وقع فيه وهو اعتقاده بأن كل من لا ينتمي إلى المذهب المادي فهو مثالي والمثالي هو الشخص الذي يعتقد بأن الوجود الحقيقي للإنسان إنما هو وجود عقلي وأن وجوده الموضوعي الخارجي تابع لهذا الذهني ومعتمد عليه. ولكن هذا ان كان مذهبا لبعض شذاذ الفلاسفة فهو ليس المذهب السائد عند جماهير المؤمنين. فالمؤمن بالله تعالى ليس مثاليا

بهذا المعنى بل هو واقعي يؤمن بأن الأشياء لا تعتمد كلها في وجودها على كونها مدركة لعقل من العقول.

الأساس الثاني: أزلية المادة: أن تطور – أو بالأحرى تقهقر – فكرة أزلية المادة من أطرف ما يقرأ الإنسان في دحض الادعاء بأن العلم التجريبي يسند قضية الإلحاد إذ الواقع عكس ذلك تماما فتطور هذا العلم يؤازر قضية الإيمان ويضعف بل يقوض أهم الأسس التي يقوم عليها الإلحاد وهو الزعم بأن المادة أزلية لا بداية لها، أبدية لا فناء لها. ولكن ما هي هذه المادة الأزلية ؟

ظل الماديون طوال القرون في أمر مختلف بالنسبة لأزلية المادة، فقد ظنوها بادئ الأمر هذه النجوم والكواكب الضخمة التي يشاهدون والتي يخيل لمخلوق ضعيف معدود الأيام كالإنسان أنها أزلية، لأنها فيما يظن بقيت على حالها التي عرفها آباؤه وأجداده، وكل البشر قبله فما المانع إذن من أن كانت على هذه الحال منذ الأزل؟ وما المانع من أن تظل هكذا إلى الأبد ؟وإذا كانت أزلية فإنها لا تحتاج إلى خالق وهذا ما عناه الفلاسفة القدماء من أمثال أرسطو حين قالوا بقدم العالم. وإذا كان الفلاسفة القدماء من أمثال أرسطو حين قالوا بقدم العالم. وإذا كان الفلاسفة قد قالوا بقدم هذه الأجرام السماوية فإن آخرين – منهم البابليون الذين جادلهم سيدنا إبراهيم – قد قالوا بألوهيتها وعبدوها.

وقد كان المفكرون المتدينون فيما مضى يجهدون أنفسهم في استخراج الأدلة العقلية على بطلان هذه الفكرة من ذلك قول الغزالي في تهافت الفلاسفة (تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م، ص١١٢): «ما تمسك به جالينوس إذ قال لو كانت الشمس مثلا تقبل الانعدام لظهر فيها ذبول في مدة مديدة، والأرصاد الدالة على مقدارها منذ آلاف السنين لا تدل إلا على هذا المقدار، فلما لم تذبل في هذه الآماد الطويلة دل على انها لا تفسد».

الاعتراض عليه من وجوه:

الأول: أن شكل هذا الدليل أن يقال إن كانت الشمس تفسد، فلابد أن يلحقها ذبول، لكن التالي محال – وهذا قياس يسمى عندهم الشرط المتصل – وهذه النتيجة

غير لازمة، لأن المقدم غير صحيح.. ولا نسلم له أنه لا يفسد الشيء إلا بالذبول فالذبول هو أحد وجوه الفساد ولا يبعد أن يفسد الشيء بغتة وهو على حال كماله.

الثاني: أنه لو سلم له هذا، وأنه لا فساد إلا بالذبول، فمن أين عرف أنه لا يعتريها الذبول ؟ أما التفاته إلى الأرصاد فمحال، لأنها لا تعرف مقاديرها إلا بالتقريب، والشمس التي يقال أنها كالأرض مائة وسبعين مرة او ما يقرب منه[1]، لو نقص منها مقدار جبال مثلا، لكان لا يتبين للحس، فلعلها في الذبول وإلى الآن قد نقصت مقدار جبال فأكثر والحس لا يقدر على أن يدرك ذلك لأن تقديره في علم " المناظر " لا يعرف إلا بالتقريب.

وهذا كما أن الياقوت والذهب مركبان من العناصر عندهم وهي قابلة للفساد، ثم لو وضعت ياقوتة مائة سنة، لم يكن نقصانها محسوسا. فلعل نسبة ما ينقص من الشمس في مدة تاريخ الأرصاد كنسبة ما ينقص من الياقوتة في مائة سنة، وذلك لا نظير للحس فدل أن دليله في غاية الفساد.

وهذا الذي ذكره الغزالي احتمالا قد أثبته العلم الآن يقينا، فمن المسلم به الآن أن الاشعاع الصادر عن الشمس من كتلتها وإن كان القدر الذي ينقصه ضئيل جداً «تحويل ١٪ من كتلة الشمس من الهيدروجين إلى الهيليم يمدها بطاقة تكفي لإبقائها مضيئة لمدة ١.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ عاماً» (دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦٣).

وإذا كانت كل هذه الأجرام الكبيرة من شمس وأرض وسائر النجوم والكواكب ليست أزلية بل أن لها تاريخا – ولها بالضرورة نهاية فما هو الأزلى إذن ؟

أهو العناصر التي تتكون منها هذه الأجسام من ذهب وحديد وهايدروجين وهيلثيوم... الخ ؟ ربما كان هذا هو المظنون بادئ الأمر ولفظة عنصر تشير إلى هذا المعنى. ولكن العلم في تطوره اكتشف أن هذه العناصر هي بدورها مركبة من جزئيات وأن الجزئيات مركبة من ذرات.

---

(١) الذي يقوله العلماء الآن : أن كتلة الشمس قدر كتلة الأرض (٣٣٣.٠٠٠ مرة) وأن قطرها قدر قطر الأرض (١٠٩) مرات.

فهل الأزلي هو هذه الذرات ؟ هكذا ظن العلماء إلى ما بعد زمان نيوتن بسنين، فالذرة كانت تسمى بالجزء الذي لا يتجزأ وكان المظنون أنها جسم صغير مستدير مصمت لا فجوات فيه فلا أجزاء له.

ولكن العلم أبطل هذا الظن أيضاً فقد تبين أن الذرة نفسها مركبة من أجزاء أخرى عرفنا منها أولا الالكترون والنيوترون والبروتون ثم تبين أن ما تحت الذرة من أجزاء أكثر من هذا بكثير فقد وصل تعدادها حتى الآن إلى ما بعد المائة بقليل.

قد يقول قائل وإذن فقد وصلنا أخيراً إلى المادة الأزلية، إلى الجزء الذي لا يتجزأ أنه هذه الأجزاء التي تكون الذرة.

والرد على هذا من ناحيتين:

أولاهما: أنه قول بغير علم إذ ليس في أجزاء الذرة ما يستدل به على أزليتها بل أن بعض العلماء يعتقد أنها هي الأخرى مركبة وهم يبحثون عن مكوناته.

ثانيا: إذا كان الشيء أزليا لا بداية له فهو بالضرورة مستغن عن غيره. أعنى أنه لا يعتمد في وجوده ولا استمرار وجوده على غيره. وإذا كان الشيء قائما بنفسه مستغنيا في وجوده عن غيره فأنه لا يفني ولا يتغير ولا يتبدل.

لماذا ؟

لكني نجيب على هذا السؤال يحسن أن نسأل سؤالا آخر هو متى يفني الشيء وينتهي من الوجود ؟

خذ مثلا عود ثقاب وأشعله. أنه يستمر مشتعلا لمدة ثوان ثم ينتهي. فلماذا أنتهى ؟ انتهى أما لأن العود الذي كان يمده بالوقود قد احترق كله وأما لأن الأكسجين قد انتهى وأما لأن أحدا نفخه نفخا شديدا فأبعد الشعلة عن العود وأما... وأما.

ملخص القول أن الشعلة انقضت حين تخلف شرط من شروط وجودها، فالشعلة لا تستمر متقدة إلا إذا وجدت وقودا فالوقود إذن شروط ضروري لوجودها ولا تستمر إلا إذا وجدت الأكسجين فهو إذن شرط ضروري لوجودها وهكذا.

نعود إلى سؤالنا: متى يفنى الشيء ؟

والجواب الآن واضح أنه يفنى إذا تخلف شرط من شروط وجوده.

ولكن هذا يعني أن الشيء الذي يفني هو بالضرورة شيء يعتمد في وجوده على غيره فهو إذن غير مستغن بنفسه. ولكنا قلنا أن الشيء الأزلي من الضروري أن يكون مستغنيا بنفسه وإذن فكل شيء جاز عليه الفناء استحالت عليه الأزلية. وإذن فإذا أردنا أن نختبر شيئاً ما لنعرف ما إذا كان أزليا أم لا، فما علينا إلا أن نتساءل أهو شيء يمكن ان يفنى وينقضي. فإذا كان الجواب نعم فالنتيجة أنه غير أزلي.

والآن هل نعرف مادة معينة يصدق عليها القول بأنها لا تفنى ؟

لقد رأينا أن المادة في شكل أجسام كبيرة وفي شكل عناصر وفي شكل جزئيات وذرات قابلة للفناء بل إنها لتفني فعلا واستدللنا بذلك على أنها لا يمكن ان تكون أزلية.

ولكن ماذا نقول عن أجزاء الذرة ؟

إن العلم كما قلنا لم يثبت بعد أن لها مكونات ولكنه أثبت ما هو بالنسبة لموضوعنا أهم من ذلك. لقد أثبت أن هذه الأجزاء قابلة لأن تتحول إلى طاقة وأن الطاقة نفسها قابلة لأن تتحول إلى مادة. ولكن قابلية التحول هذه تعني أن بقاءها في هيئتها المعينة كان معتمدا على ظروف خارجة عن ذاتها فلما زالت تلك الظروف زالت تلك الهيئة وإذن فهي ليست معتمدة في وجودها على نفسها وإذن فقد استحال أن تكون أزلية.

وإذن فالمادة في كل شكل من أشكالها المعينة قابلة للفناء فهي إذن حادثة.

وإذن فالمادة تستحدث وتفني...

ولكن هذه النتيجة تخالف تلك الكلمة التي حفظها الطلاب منذ المرحلة الثانوية وصورت لهم على أنها الدعامة التي يقوم عليها البناء العلمي كله، بل على أنها هي نفسها حقيقة علمية لا شك فيها، أعنى قولهم المادة لا تستحدث ولا تفنى.

إن كثيرا من الأساتذة يرددون هذه العبارة تقليدا وعن حسن نية ولا يعرفون أنها إذا صحت تهدم الأساس الذي يقوم عليه الدين كله وتعتبر أكبر نصر للفكر المادي. والطلاب بدورهم يحفظون العبارة ويرددونها ولا يفكرون في نتائجها الخطيرة.

ما معنى هذه العبارة ؟

إذا كانت المادة لا تستحدث فمعنى ذلك أنه لم يحدثها – لم يخلقها – أحد. أي أن الله لم يخلقها. ولكن هذا يتناقض مع إيماننا بأن " الله خالق كل شيء " وإذا كانت لا تفنى فمعنى ذلك أن أحدا لا يستطيع فناءها وهذا يعني أن الله تعالى لا يقدر على إفنائها. فكيف نوفق بين هذا وبين إيماننا بأن الله على كل شيء قدير وأنه لا يعجزه شيء ؟

المسألة إذن واضحة فإما أن تكون هذه العبارة المشهورة صحيحة فيكون الدين باطلا وأما أن يكون الدين صحيحا فتكون هي باطلة ولا يمكن الجمع بين الإيمان بصوابها وبصواب القول بأن للكون خالقا.

ولكن الذي لا شك فيه أن العبارة غير صحيحة وأن العلم لا يحتاج إليها وأنها ليست من نتائجه ولا قواعده وإنما هي عقيدة فلسفية يونانية تزيت بزى العلم وجازت على كثير من الناس وإليك بيان هذا كله:

١- أما أن العبارة غير صحيحة فهو أمر قد فرغنا منه من قبل حيث أثبتنا أن المادة في كل شكل من أشكالها المعينة التي يمكن أن تشير إليها – ليست أزلية بل هي قابلة للتحلل أو التحول إلى مواد أو طاقات أخرى. وكل ما يتحلل أو يتحول فليس بأزلي غير حادث بل هو بالضرورة حادث. وإذن فالمادة المعينة حادثة فانية.

لقد كررت عبارة المعينة لأميز بين المادة التي نشاهدها أو نعرف آثارها ونتعامل معها في حياتنا اليومية أو في مجالاتنا العلمية والمادة الفلسفية الذهنية التي لا وجود واقعيا لها. وكثيرا ما يخلط طلاب العلوم بل وكبار العلماء بين المادتين فيتحدثون عن المادة الذهنية الفلسفية في الوقت الذي يريدون الحديث عن المادة الواقعية.

إذا قلت لإنسان له إلمام بعلم الكيمياء أو الفيزياء أن المادة تفنى وضربت له مثالا على ذلك بموته هو مثلا أجابك على الفور أنني لم أفن وإنما تحولت إلى مواد أخرى، فإذا قلت له ولكن هذه المواد الأخرى أيضاً تفنى قال محتجا ولكنها هي بدورها تتحول إلى مواد أخرى. فإذا استمررت قائلاً وهذه بدورها تفني وما تتحول إليه يفنى ظل مصراً على رأيه بأن هنالك وراء كل هذا مادة لا تفنى، فإذا قلت له وما هي ؟ لم

يستطع أن يجيبك لأنه في الحقيقة لا يتحدث عن مادة واقعية وإنما يتحدث عن مادة ذهنية فلسفية، ولكي يتضح لك هذا أضرب لك مثالين فقط:

أولاً: هب أنه مات لامرأة طفلها العزيز فهل يعزيها أن تقول لها أن ابنك لم ينته ولم يفن وإنما تحول إلى مادة أخرى ؟ بالطبع لا. لماذا ؟ لأن الذي فقدته وأسيت على فقده هو مادة في صورة معينة وخصائص معينة ومما لا شك فيه أن هذه المادة إذا افترضنا جدلا أن الإنسان مادة فحسب قد فنيت وانتهت. وما يقال عن الإنسان يقال عن كل مادة معينة أخرى فكل مادة في شكل معين لها خصائص تعرف بها فإذا تحللت أو تحولت زالت هذه الخصائص فزالت بزوالها تلك المادة التي كنا نعرفها ؟ وإذن فكل مادة ذات خصائص وصفات معروفة فهي قابلة كما تدلنا التجارب العلمية على التحلل أو التحول. فما هي المادة الأزلية إذن ؟ إنها المادة التي لا خصائص ولا صفات لها ولكن هذه مادة موجودة في الأذهان ولا وجود لها في الأعيان ونحن في حياتنا اليومية والعلمية أنما نتعامل مع مادة عينية لا مادة ذهنية.

ولكي يصير الأمر أكثر وضوحاً فهب أنه لا وجود للمادة إلا في ثلاثة أشكال فقط هي م١، م٢، م٣، وأن كل واحد من هذه قابل لأن يتحول إلى الآخر فإذا انتهى م١ صار م٢ أو م٣ وإذا انتهى م٢ صار م١ الخ فما هي المادة الأزلية ؟ أنها ليست م١ وليست هي م٢ لأن م٢ قابل لأن يصير م١ وليست م٣. وبما أن كل واحد منها قابل للتحول والفناء فكل واحد منها مستحدث.

وإذا افترضنا أن فناء كل واحد منها إنما يعني تحوله إلى أحد الأشكال الأخرى فكل ما نستطيع أن نقوله أنه لن يزال في الوجود م١ أو م٢ أو م٣ وأن هذه الثلاثة لا تفني كلها جميعاً. ولكن هذا نفسه يعني وبالضرورة أنها تعتمد في وجودها على غيرها لأن تحولها من شكل إلى آخر يدل على أنها ليست مستغنية بنفسها بل معتمدة على غيرها.

٢-إذا أحرقت رطلاً من الورق ثم وزنت رماده فوجدته أوقيتين فقط فأين تكون ذهبت العشر أوقيات ؟ إن الرجل الذي لا معرفة له بالكيمياء أو الفيزياء قد يظن أن كمية المادة الموجودة في العالم نقصت بمقدار عشر أوقيات. ولكن آلاف التجارب التي

نجريها تثبت أن هذا الظن غير صحيح لأننا إذا جمعنا كل المواد التي تحلل إليها الورق المحترق ووزناها في نفس المكان الذي وزنا فيه الورق كان الوزن رطلا كاملاً، وإذا حللنا تلك المواد إلى أخرى واستطعنا أن نجمعها ونزنها في نفس المكان كان وزنها أيضاً رطلا كاملاً. وهذا هو الذي دعا العلماء إلى افتراض أن كمية المادة الموجودة في العالم ثابتة.

وعبارة "المادة لا تستحدث ولا تفنى" المقصود منها أنها تعبر عن هذا المبدأ ولكنها كما ترى لا تقتصر على تقريره وإنما تقول أكثر منه بكثير. وهذه الزيادة التي تقررها العبارة لا يحتاج إليها العلم وهي التي تخالف الدين. فهي لا تقتصر على القول بأن كمية المادة ثابتة ولكناه تقول أن هذا الثابت هو مادة أزلية لم تخلق ولا تفني والفرق بين الاثنين كبير كما أن من الواضح أن أولاهما لا تستلزم الثانية.

يقول الأستاذ أنتوني كونتيون ناقدا هذه العبارة " الحقيقة أن مبدأ ثبات كمية المادة لا يتضمن القول بمذهب ذري متكامل لأشياء أزلية. إن حسابا جاريا بالمصرف قد يبقى كما هو لا يتغير إذا كانت كل المسحوبات تعوض حالا بإيداعات، وحجم الماء بالصهريج قد يظل كما هو إذا كان الماء المصبوب فيه من جانب مساويا للماء الخارج عنه من الجانب الآخر. وقد أوضحت هذا بعض التأملات الكونية الحديثة فنظرية الخلق المستمر تقول أنه بالرغم من أن الطاقة تفني بالفعل في عمليات التحولات الذرية تحت درجات الحرارة الهائلة فإن هذا النقص يعوض بخلق طاقة جديدة في مكان آخر ".

الأساس الثالث:

١) هذا الأساس مبني على مفهوم للمادة مضى عليه الزمن وهي كونها مركبة في النهاية من ذرات.

٢) لقد أثبتنا أن المادة يستحيل أن تكون أزلية في أية صورة معينة من صورها.

٣) هذه النظرية هي مجرد افتراض وتخمين لا يسنده علم ولا برهان فكيف يبنى عليها الإنسان تصوره للكون وفلسفة حياته؟ إن كثيراً من الماديين يتبجحون بالعلمية ويتطاولون على المؤمنين مطالبين إياهم بإقامة الدليل على وجود الخالق زاعمين أن الذي يمنعهم من الإيمان به هو عدم هذا البرهان، ولكنهم ينسون أن فلسفتهم المادية كلها

قائمة على افتراضات هي مجرد خيالات وتخمينات لا دليل على صدقها بل كل الدلائل تشير إلى بطلانها.

٤) ولنحاول أن نساير الماديين في افتراضاتهم الخاطئة فنتصور معهم كيف تكونت هذه الأشياء التي نراها ؟ كانت هنالك ذرات سابحة في الفضاء – ذرات أزلية لم يخلقها اله ولم يحركها محرك. ذرة فيها هائمة على وجهها لا تسير إلى غاية مقصودة ولكنها في هيامها هذا تلتقي بذرة أخرى ومن هذا اللقاء تتكون جزئيات Molecules ومن الجزئيات تتكون عناصر وهكذا إلى أن نصل إلى طور هذه الكائنات التي نشاهدها الآن..

من الاعتراضات المعروفة على هذا الرأي أن تكوين كائن كالإنسان من تلك الذرات بالمصادفة أبعد احتمالا من قرد يخبط على آلة كاتبة فيخرج لنا بالمصادفة معلقة امرئ القيس مثلا.

ومن الاعتراضات أيضاً أن المصادفة وحدها ولا سيما في مثل هذه الحال – لا تجدي، بل لابد من أن يكون وراءها تصميم. هب أن لديك عددا كبيرا من اللبن بدأت ترمي به على غير هدى فتكونت منه بالمصادفة حجرة. فالحجرة هنا جاءت من اجتماع اللبن بالمصادفة ولو كان الذي تلقي به بيضا مثلا لما تكونت منه حجرة، وهكذا الحال مع تلك الذرات فإن تكوين الكائنات منها بالمصادفة يقتضي أنها كانت مصممة بحيث إذا اجتمعت بهذه الطريقة تكون منها وإذا اجتمعت بتلك الطريقة يتكون منها ماء وهكذا وإذن فالمصادفة وحدها لا تحل الأشكال لأنها لا تغني عن التصميم.

وإذا كانت هذه النتيجة لازمة لكل من يقول بتكوين الكائنات من ذرات فأنها ألزم ما تكون للذي يقول كما يقول بعض الماديين أن خصائص الكائنات إن هي إلا خصائص مكوناتها الأولية بلا زيادة ولا نقصان.

الأساس الرابع: ما قلناه في نقض الأسس الثلاثة السابقة يكفي لنقض هذا الأساس الرابع وذلك أنه إذا ثبت أن المادة ليست أزلية أو ثبت بالبرهان العقلي القاطع – وهو ثابت – أن للكون خالقا واحدا متصفا بالصفات الواردة في القرآن الكريم، وثبت صدق دعوى الأنبياء في تكليم هذا الخالق لهم ووحيه الرسالات إليهم، وجاء في هذه

الرسالات الخبر عنه تعالى بوجود موجودات ذات طبائع غير التي نعرفها في عالمنا المشهود هذا، فلا مجال لنا إلا الإيمان بوجودها.

وهنا مسألة ينبغي التنبيه إليها فمن المقطوع به أن الله تعالى ليس موجودا ماديا لأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولكن عدم المماثلة هذه من خصائصه سبحانه وتعالى وحده، وكل ما عداه فهو يماثل غيره في شيء وإن خالفه في أشياء. ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة عبارة أن الملائكة أو الجن مخلوقات غير مادية. فكل ما نعرفه عن ذواتها، أن الملائكة مخلوقة من نور والشياطين من نار كما أن الإنسان من طين فإذا أجرينا ألفاظ النور والنار على ظواهرها، فهي في عرف العلم الحديث أشياء مادية. وليس بكثير على الإله الذي خلق من الطين والماء المهين إنسانا يسمع ويبصر ويريد ويعقل، أن يخلق من النور ملائكة أو من النار جنا فكونها ليست كما المخلوقات التي نشاهدها وكونها لا تدرك في صورها الأصلية بحواسنا العادية، كل هذا لا ينتج عنه بالضرورة أن العنصر الذي تتكون منه شيء مخالف تماما للمادة التي تتكون منها المخلوقات التي ألفناها وإذن فحتى لو كانت الملائكة وكان الجن مخلوقات مادية فإنها مخلوقات غير مرئية ولا تناقض في هذا فقد مضى الوقت الذي كان يقال فيه أن المادي هو الذي تدركه الحواس إدراكا مباشراً.

الأساس الخامس: إن المذهب المادي باختلاف صوره ليس مذهبا أصيلا أدى إليه علم أو أثبته نظر وإنما هو مجرد رد فعل ضد الدين، وتعريفات كثير من الفلاسفة الماديين ومفاهيمهم المقصود الأول منها هو إسقاط الدين من الحساب وبيان أنه لا محل له في مجال العلم. ومما يظهر هذا.. حماسهم الشديد في إنكار البعث وهو إنكار لا تستلزمه – فيما أرى – حتى فلسفتهم المادية نفسها.

وذلك أن هذه الفلسفة لها نظرية في الخلق الأول، والبعث إنما هو خلق ثان.. فلماذا يكون الأول ممكنا والثاني محالا ؟ إذا كان الإنسان قد خلق بزعمهم من تلك الذرات مصادفة فما الذي يمنع أن يخلق مرة ثانية مصادفة ؟ لو كان الماديون أصلاء في تفكيرهم لقادهم منطقهم إلى هذه النتيجة ولقالوا أن البعث ليس محالا وليس أبعد احتمالا من الخلق الأول ولكننا لا ندري أكائن هو أم لا.

الأساس السادس: طبيعة كل شيء وخصائصه إن هي إلا المادة المكونة له.

(أ) هذا القول يفترض أن المادة مكونة من ذرات أزلية لا تتجزأ وهو مفهوم قديم. فالعلم الحديث كما قلنا لا يعرف مادة بهذه الصفة ولا يضع حدا فاصلا بين المادة والطاقة.

(ب) أن "العمارة" مكونة من حجارة ولكن لا يمكن إرجاع خصائص "العمارة" كلها إلى الحجارة المكونة لها فتنظيم هذه الحجارة بطريقة معينة يعطي العمارة خصائص لا نجدها في مجموعة حجارتها. كذلك الأشياء لو افترضناها كلها مكونة من ذرات لا تتجزأ فهي ليست مجرد أكوام – مختلفة الأحجام – من الذرات ولكنها ذرات مختلفة التنظيم والتكوين، وهذا التنظيم لا تقل أهميته في إعطاء الشيء خواصه عن أهمية المادة التي يتكون منها ج-وبالإضافة إلى التنظيم فهنالك العلاقات الناشئة بين الأشياء المكونة وهي بحكم كونها علاقات بين أشياء فلا يمكن أن توجد في الشيء الواحد. وأظهر مثال لذلك هو مثال الساعة، فخصائص الساعة لا يمكن ردها كلها إلى خصائص الأجزاء المكونة لها. وما يقال عن الساعة يقال عن سائر "الماكينات" وعن الأحياء من باب أولى.

نلخص من هذا كله إلى أن الشيء المكون يكتسب صفات جديدة حين ينضم إلى غيره، وإذن فخصائص الكل المكون لا يمكن إرجاعها كلها إلى مجموعة خصائص الأشياء المكونة له في حالة انفرادها.

الأساس السابع: كل ما نسميه عقلا أو نفسا أو روحا أو فكرا إنما هو شكل من أشكال المادة إذا كان المقصود بهذا أن العقل والنفس والروح والفكر أشياء مادية محسوسة أو معلومة القدر والعدد فهو بالطبع غير صحيح.

وإذا كان المقصود أن هذه الظواهر متصلة بأشياء مادية كالكائنات الحية فهو بالطبع صحيح ولكنه لا يخدم للماديين قضية. وإذا كان المقصود أن هذه الأشياء كلها لا توجد إلا متصلة بهذه الكائنات المادية بالطريقة التي نعدها فهو قول بغير علم.

ثم ماذا يعني ان نقول أن العقل مثلا شكل من أشكال المادة مادامت المادة نفسها لم تعد "مادية" بالطريقة الغليظة التي كان يتصورها غلاة الماديين ؟

الأساس الثامن: تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة كلها لقوانين طبيعية لا تختلف، وبها يمكن أن نفسر كل الظواهر الطبيعية، والحالات النفسية، والحوادث التاريخية، من غير حاجة إلى افتراض قوة وراء الكون تحفظه وتسيره.

١) لقد أثبتنا من قبل أن الإيمان بالخالق أمر تستلزمه طبيعة المادة نفسها إذا ما دامت المادة حادثة ويستحيل ان تكون أزلية كما أثبتنا فلابد لها من خالق أزلي غير حادث.

٢) وإذا ثبت وجود هذا الخالق فإن ما يسمى بالقوانين الطبيعية التي تحكم سير الكون إنما هو عادة هذا الخالق أو سنته في تصريف شئون خلقه.

٣) وإذا كانت القوانين إنما هن سنن الله تعالى فإن اطرادها إنما يدل على أن الله تعالى لا يغير من عادته هذه، وتخلفها أحيانا إما أن يدل على أن السنة التي عرفناها ليست هي السنة المهيمنة بل فوقها سنن تحكمها، وأما أن يدل على أن أحد شروط تلك السنة قد تختلف وكل هذا يجعل الباب مفتوحا لأن تحدث الحوادث بغير الطريقة التي عهدناها والتي – لذلك – نتوقعها ونستغرب غيرها. ولكن حدوث مثل هذه "الخوارق" إنما هو خرق للعادة التي عرفناها ولا دليل فيه على أن الكون يسير بلا انتظام ولا اتساق.

الأساس التاسع: المادية مذهب علمي: من الحيل المعروفة على مدى التاريخ أن المدافعين عن المذاهب الباطلة والأفعال الفاسدة والسلع الضارة لا يسمون أشياءهم بمسمياتها بل يلبسونها زورا أزياء زاهية جذابة. ولما كان العلم الطبيعي سلعة رائجة في زماننا فإن كل صاحب مذهب باطل يحاول أن يلتجئ إليه ويلوذ بحماه ولكن هيهات. فالمادية كما قدمنا مذهب تقوم قاعدته الأولى على مجرد الدعوى التي لا يسندها دليل بل التي يبطلها الدليل، فأين العلم من هذا؟ والمادية كما أوضحنا مذهب يسير العلم في خط مضاد له، فالعلم هو الذي ما فتئ يبطل تعريفاتهم للمادة حتى ما يستطيعون أن يقولوا ما هي هذه المادة التي يريدون لها الاستغناء عن الخالق الذي جاءت بالدعوة إلى الإيمان به رسل الله تعالى، والعلم هو الذي هدم دعواهم بأزلية الأجرام السماوية ثم بأزلية الجزء الذي لا يتجزأ، والعلم هو الذي اقترب من المنهج الديني حين اتخذ الأثر

دليلا على طبيعة المؤثر، ولم يشترط رؤية الأخير رؤية مباشرة. والعلم هو الذي يتجه الآن لتفسير ظواهر طبيعية وقوي بشرية لا تقع تحت نطاق ما عرف من قوانين الطبيعة الحسية.

الأساس العاشر: الإنسان سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسئول عن أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته:

هذا كلام لا يصح إطلاقه حتى على افتراض أن الإنسان لا خالق له فكيف وقد ثبت أن له خالقا ؟

وهو لا يصح على ذلك الافتراض لأن الواقع الذي يحسه كل فرد منا أنه رغم قوى الإنسان العقلية الفائقة ورغم اطراد تقدمه العلمي واتساع فهمه للكون الذي يعيش فيه فإنه ما زال محكوما في الجزء الأكبر من حياته بعوامل خارجة عن ذاته. فلا أحد منا كان مختار في أن يجئ إلى هذا الكون، ولا أحد منا يدري متى يفارقه، ونحن نجئ إليه بتكوين طبيعي لم نصنعه ولا قدرة لنا على تغييره، وهذا التكوين الطبيعي يفرض علينا نظاما معينا للحياة فلابد من أكل وشرب ونوم ويقظة وعمل الخ.

ونحن لا نجئ إلى الكون مكتفين ذاتيا بل أن متطلبات حياتنا خارجة عن ذواتنا وليست بخاضعة لقوانا وارادتنا، تلك بداهة ما ينكرها عاقل فما ينبغي له إذن أن يقول أنه سيد نفسه ومالك مصيره.

ثم إن تجربة الإنسان الذي افترض أنه سيد نفسه وذهب يضع لنفسه مناهج حياته ويخطط مسار سلوكه تجربة مؤسفة باعتراف أصحابها الذين ذاقوا ويلاتها. أفلا يكفي هذا دليلا على بطلان الافتراضي الذي قامت عليه ؟

المادية مذهب الحادي فماذا يقدم الالحاد للإنسان ؟ أنه يقول له أنك جئت من لا شيء، وإن كنت جئت من شيء فقد جئت مصادفة، فليس لوجودك غاية، ولا لك في الحياة مهمة، وأنك صائر إلى لا شيء، فما بعد الموت من حياة.

والإلحاد بهذه العقائد السلبية يزيح عن قدمي الإنسان الأرضية التي تقوم عليها حياته كلها.

فالإنسان بطبعه مخلوق ذو غـاية وهـدف لا يكـــاد يعمل عملا لا يعرف الغرض منه والغاية مــــن ورائه، والإلحاد يقول له ولكن الواقع أن حياتك في مجملها لا هـدف لها.

والإنسان مفطور على حب الخير وكراهية الشر وعلى جزاء الإحسان بالأحيان، ولكن الإلحاد نقول له أن مصير المحسنين والمسيئين في النهاية واحد، فيخلق في نفسه صراعاً بين نزوعه الطبيعي نحو فعل الخيرات وعبث هذا الفعل الذي يقتضيه استواء مصير المحسنين والمسيئين.

والإنسان بطبعه مخلوق ضعيف لا تكاد حياته تسلم من داء مؤلم أو عدو مؤذ أو عيش ضنك أو فراق صديق عزيز أو قريب حميم وهو في حالات ضعفه هذه كلها بحاجة إلى ملجأ يلوذ به ويعتمد عليه وينشد عنده العزاء والسلوان. ولكن الإلحاد يقول له: الواقع أنك تقف وحدك لا خالق لك تعتمد عليه وتصدق الملجأ إليه.

وحين يسحب الالحاد من تحت أقدام الإنسان هذه الأرضية فإنه يجعل حياته تعيسة ويمزق ذاته شر ممزق، فلا غرو أن يحاول الهروب من نفسه بالمسكرات والمخدرات والملهيات المزعجات، ولا غرو أن يهرب من بني جنسه فيعيش وحده ذرة تائهة بين ذرات، ولا غرو أن تتفاقم لهذا كله مشاكله وأدواؤه النفسية.

إن الارتباط بين فلسفة العبث التي يقتضيها الإلحاد وبين مشاكل الإنسان المعاصر التي أشرنا إلى طرف منها أصبح من المسلمات عند المفكرين الغربيين.

خاتمة:

وبعد.. فإذا كانت تلك هي الأسس التي تقوم عليها الفلسفة المادية وكانت هذه هي نتائجها على معتنقيها فما هو المسوغ لاستجلابها لنا والدعوة إليها بيننا؟ إن إنسانا عاقلا يعرف طبيعة تلك الأسس وآثارها لا يمكن أن يقدم على عمل كهذا، ولكن المشكلة أنه ما كل الناس يعقلون وما كل العقلاء يعلمون، فاللهم عقلاً هادياً وعلماً نافعاً.

* * *

الإسلام وحقوق الإنسان: مناقشة لأفكار غربية

الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م

اهتم كثير من الغربيين اهتماماً كبيراً بقضية حقوق الإنسان من الناحية الفكرية والعملية، وكتبوا فيها المئات من الكتب والأوراق والمقالات. وكان من بين الموضوعات التي اهتموا بها موقف الثقافات غير الغربية من هذه القضية. فمنهم من رأى أن لكل أهل ثقافة الحق في أن يتصوروا الحقوق الإنسانية تصوراً مستقلاً ومخالفاً للتصور الغربي المعبر عنه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. ومنهم من اعتقد أن الحقوق التي جاءت في هذا الإعلان حقوق عالمية تصلح لذلك أن تكون هي المعيار الذي تقوم به الثقافات المحلية. واهتمامنا في هذه الورقة ببعض أصحاب هذا الرأي، وبخاصة أولئك الذين اهتموا بموقف الإسلام والمسلمين من هذه القضية. وبما أن من نخاطبهم أناس لا يشاركونا في الاعتقاد فقد رأيت أن يكون تقويمي لما سأتعرض له من مسائل تقويما عقلانيا، حتى يتسنى لنا أن نتحاور. وأنا حين أقف على أرض عقلانية أؤمن بأنني أقف في الوقت نفسه على أرض إسلامية صلبة، لاعتقادي بأن العقل جزء لا يتجزأ من الدين الحق، وهذه هي المسائل التي رأيت أن أناقشها:

نسبية الثقافة:

تعرف حقوق الإنسان بأنها حقوق للإنسان بما هو إنسان لا بما هو منتم إلى عنصر أو دين أو مكان معين. يلزم عن هذا المفهوم لحقوق الإنسان أن هنالك قيما أخلاقية عالمية مطلقة هي الحاكمة على الثقافات والعادات والتقاليد المحلية. لكن من الكتاب الغربيين أنفسهم من ينكر هذا ويقول إن المعايير الخلقية معايير نسبية. فلكل أهل ثقافة - وهي عبارة تشمل الأديان والقيم والعادات والتقاليد - الحق في أن يقوموا الأمور بمعاييرهم، ولا يحق للآخرين أن يحاكموهم إلى معاييرهم هم أو يفرضوها عليهم، ويعدون هذا نوعا من الاستعمار الثقافي. وعليه فإنهم يرون أن ما يسمى بحقوق الإنسان إنما يعبر عن وجهة نظر حضارة معينة هي الحضارة الغربية، وأنه لا يجوز لذلك أن يفرض على أصحاب الثقافات الأخرى، بما في ذلك الثقافة الإسلامية.

القول بنسبية الثقافة هذا مما ينكره الكتاب الذين أناقش آراءهم، وأنا معهم في هذا الإنكار كما سأبين بعد.

لكنني أعلم أن القول بالنسبية يعجب نوعين من المسلمين:

يعجب بعض الإسلامين المخلصين لدينهم الكارهين للتسلط الغربي لأنهم يرون فيه إنصافا للإسلام، وتعليلا معقولا لمخالفته لبعض ما ورد في الإعلان عن حقوق الإنسان، بل قد يرون فيه المخرج الوحيد للإسلام من تهمة إنكاره لبعض حقوق الإنسان.

لكنه يعجب أيضا بعض الحكام لأنه يعطيهم مسوغا لبعض اعتداءاتهم على هذه الحقوق، مع أنهم لا يرتكبون هذه الاعتداءات في الأصل لأسباب دينية، أو انطلاقاً من قيم محلية، وإنما لتحقيق مآرب شخصية.

لقد ظن كثير من الكتاب، من الإسلاميين ومن الغربيين ممن اهتموا بقضية حقوق الإنسان في الإسلام، أن هنالك موقفين لا ثالث لهما؛ فإما أن تنكر النسبية الثقافية، فتكون نصيراً للإعلان عن حقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة، وإما أن تقول بالنسبية الثقافية وتجعلها مستندا لك في دعواك بإنكار الإسلام لبعض تلك الحقوق.

لكن الحقيقة المبشرة أن هنالك موقفا ثالثا، هو في اعتقادي الموقف الإسلامي الصحيح. ملخص هذا الموقف هو أنه لا تناقض بين قول الإنسان بوجود قيم خلقية عالمية تعد معيارا لتقويم القيم المحلية، وبين قوله بأن بعض ما يدعى بأنه قيم عالمية ليس في الحقيقة عالميا، بل هو معبر عن ثقافة أو حضارة معينة. إنه لا يلزم من إقراري بوجود قيم عالمية مطلقة، الإقرار بعالمية كل ما ادعي له العالمية.

ثم إن القول بنسبية الحقيقة أو القيم الخلقية يتناقض مع القول بعموم الرسالة المحمدية. إن عموم الرسالة يعنى أن ما جاءت به من حقائق وقيم هي أمور مطلقة صالحة لكل البشر بما هم بشر. إن كثيرا من نصوص الكتاب والسنة تؤكد بأن للبشر جميعاً فطرة واحدة فطرهم الله تعالى عليها، وأن الإسلام هو دين هذه الفطرة. وهذا يعني أن كل ما جاء به من عقائد وعبادات وقيم سلوكية ونظم اجتماعية موافق لهذه الفطرة البشرية. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

عالمية حقوق الإنسان:

للعالمية معنيان ليسا بمتلازمين؛ فهي قد تعني كون الشيء موجوداً أو منتشراً في العالم كله، وقد تعني كون ذلك الشيء متعلقاً بفطرة الناس ومهم لها. فالشيء قد يكون عالمياً بالمعنى الأول ومضراً بالناس. وقد يكون عالمياً بالمعنى الثاني وغير منتشر في العالم.

إذا غضضنا الطرف عن معارضة بعض الدول لبعض ما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فيمكن أن نقول إنه عالمي بالمعنى الأول.

لكن عالميته بهذا المعنى، وإن كانت قد تصلح لإلزام الدول الموقعة عليه بتنفيذ ما جاء فيه، فإنها لا تصلح دليلاً على كون كل ما جاء فيه هو عالمي بالمعنى الثاني، أي بكون كل ما جاء فيه هو أمر مرتبط بكرامة الإنسان بما هو إنسان. لكن هذه هي الحجة الأساس التي اعتمد عليها بعض من كتب من الغربيين في الإسلام وحقوق الإنسان، وضرورة أن يلتزم بها المسلمون وغيرهم. وهذه الحجة حجة واهية من عدة نواح:

أولاها: هل هذه الحقوق المعلنة إنسانية لأن الإعلان قال إنها كذلك، أم أن الإعلان قال إنها حقوق لأنها كانت حقوقا قبل الإعلان؟ وبعبارات أخرى: هل الإعلان هو الذي جعل منها حقوقا، أم أنه كان مقراً لكونها حقوقا؟ هل كان الإعلان منشئا ومانحا لها أم كان معبرا عنها؟ لا بد أن يكون الأخير هو الصواب.

ثانيتها: أنه من حق كل إنسان ينكر هذه الحقوق كلها أو بعضها أن يعطى أدلة قوية على كونها حقوقا ينبغي عليه أن يؤمن بها. فإذا ما كانت الأدلة في نفسها من شأنها أن تقنع كل إنسان عاقل، فلا يضر بعد ذلك عدم اقتناع بعض الناس بها. أما أن يقال لدولة تحفظت على بعضها، أو لأشخاص مفكرين مخلصين في تحفظهم عليها إنه يجب عليهم أن يؤمنوا بها فذلك مما ينبغي إلا يقول به عاقل.

ثالثتها: هل هذه الحقوق جامعة مانعة بحيث لا يمكن أن يزاد عليها ولا ينقص منها، أم أن ذلك ممكن؟ لا بد أن يكون ممكنا، فلا أحد يقول عن اجتهاد بشري إنه قد كتب له الكمال. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون للداعي إلى إضافة او حذف حجة يعتمد عليها. فماذا يمكن أن يقول، إذا لم يكن لهذه الحقوق المعلنة مستند غير كونها مما أعلنته هيئة الأمم المتحدة؟

رابعتها: أن هذه الحجة تقيم الدعوة إلى حقوق الإنسان على أساس واه لو كان هو وحده أساسها لما آمن بها ولا احترمها ولا التزم بها إلا قلة من الناس. إذ ما أكثر القرارات التي تتخذها هيئة الأمم ثم لا تجد من يصغي لها. لكننا نعرف المشكلة التي اضطرت كثيرا من هؤلاء الكتاب والكاتبات إلى هذا الموقف. إنهم إن أرادوا إرساءها على قاعدة فلسفية مشتركة بين جميع الأمم فلن يجدوا إليها سبيلا. وإن أرسوها على فلسفة غربية فقدت صفة العالمية، بل واتهموا بأنهم عملاء للاستعمار الثقافي.

إن الأسس الحقيقية التي يقوم عليها التزام الناس بما يلتزمون به مما جاء في الإعلان هي:

(أ) أن بعضهم -ككثير من الغربيين وكالمسلمين- يجد لكثير منها أساساً في ثقافته الخاصة كما ترون في الأوراق المقدمة من بعض الإخوة المسلمين.

(ب) أن بعضهم يلتزم بها تقليداً للغرب، لأنه يرى أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر. فكما أنهم يحاولون أن ينهجوا نهج الغربيين في عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم، فكذلك يحاولون تقليدهم في التزامهم بهذه الحقوق.

(جـ) الضغط السياسي والاقتصادي والفكري الذي تمارسه الدول الغربية على غيرها للالتزام بقيمها، ولا سيما فيما يحقق مصالحها.

حق الأبوة والأمومة:

ولكي أدلل على أن ما جاء في الإعلان ليس جامعاً ولا مانعاً، ولكي أدلل أيضا على أنه يمكن إضافة حقوق أخرى بمسوغات عقلانية مقبولة، أضرب مثلا بحق جعله الإسلام حقا أساسا مطلقا للناس جميعا، لكنه مع ذلك لم يرد في الإعلان، لأنه من الحقوق التي لا تعترف بها الثقافة الغربية، بل تجعل انتهاكها أمرا مشروعا تقره قوانينها. هذا الحق هو حق الإنسان -رجلا كان أو امرأة- في أن ينسب أولاده إليه، وأن لا ينسبوا إلى غيره في أية حال من الأحوال. والله تعالى حين قرر هذا الحق لم يأمر به مجرد أمر، وإنما بين لنا أسبابه، وهي أسباب علمية خلقية يمكن أن يقدرها كل إنسان مهما كان نوع الثقافة التي نشأ فيها. إن عزو الأولاد إلى غيرهم آبائهم وأمهاتهم الطبيعيين لا يجوز للأسباب التالية:

أولا: أنه مبني على دعوى باطلة مخالفة للواقع الحسي. قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فهذه دعاوى ثلاث كان العرب يدعونها، نهى القرآن الكريم عنها كلها لأنها مخالفة للواقع، وبين أن الدعاوى اللسانية لا تغير الحقيقة الواقعية. فكما أنه ليس للرجل الذكي قلبان كما كان العرب يعتقدون، وكما أن زوجة الرجل لا تكون أما له بقوله لها "أنت على كظهر أمي" كما كانوا يدعون، فإن الولد لا يكون ابنا لمن يدعيه كما كانوا يزعمون.

ثانياً: أن الأم الحقيقية للولد هي أمه الطبيعية، لأنها هي التي تولت حمله وولادته. يقول الله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة:٢].

ثالثا: أن العدل يقتضي -لذلك- أن ينسب الولد إلى أبيه، لا إلى متبنيه. يقول تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

رابعا: أن الإسلام حريص على حماية الأسرة بوصفها النواة الأساس للمجتمع. لكن التبني قد يؤدي إلى خلط الأنساب، وإلى أن يتزوج الشخص بأحد محارمه، بل وقد يؤدي إلى ارتكاب فواحش في داخل الأسرة.

ما أظن أن هنالك حقاً إنسانيًا يقوم على كونه حقاً طبيعياً دليل حسي أقوى من دليل الأمومة الطبيعية، ثم الأبوة. ولكن مع هذا فإنه لا يعتبر حقاً مطلقاً في بعض البلاد الغربية، بل إن الإنسان قد يحرم منه لأوهي الأسباب. وقد حدثت لرجل عربي مسلم في الولايات المتحدة قصة مفجعة فحواها أن بعض الناس رأوه يقبل ابنته، فشكوه إلى الشرطة بتهمة سوء استغلال الأطفال! فقضى القاضي بحرمانه من ابنته

وابنه وسلمهما لعائلة نصرانية. استأنف الأب القضية بمساعدة منظمة Cair فقضى القاضي فنقض القاضي الأعلى الحكم الأول، وقرر بأن ما فعله الأب أمر معتاد في ثقافة قومه، ولا علاقة له بأمر جنسي. إلى هنا والأمر معقول ومنصف. لكن المفاجأة المفجعة كانت قضاؤه أن التبني لا رجوع عنه بحسب القانون! أي قانون هذا الذي يجيز نقض الأبوة الحقيقية ويحمى الأبوة المدعاة؟ قلت في نفسي حين سمعت هذا: الآن عرفت لماذا يصف بعض الغربيين القانون بأنه جحش. سمعت أن هذه القصة عرضت قبل بضعة أسابيع في إحدى القنوات الأمريكية، وذكر فيها أن البنت شكت لوالدها الذي سمح له بزيارة ابنيه بأن العائلة النصرانية تجبرهما على أكل الخنزير. أما الابن - وربما كان هو الأصغر سنا - فقد طلب من والده إلا يتصل به مرة أخرى، وأنه لا يعرف والدا له إلا الوالد الذي يعيش معه. وذكرت القناة قصة أخرى لامرأة أمريكية غير مسلمة حرمت من طفلها الوحيد الذي أنجبته بعد عدة سنين بسبب آخر أوهى من هذا.

إن بعض الكتاب الغربين يصفون عقوبات القطع والجلد والقتل والرجم بأنها عقوبات قاسية. فهل رأيتم من عقوبة أغلظ من أن يحرم الوالد من ولده ويعطى لشخص غيره؟ إنني أكاد أجزم بأن والد الطفلين هذا لو خير بين أن يجلد أو تقطع يده، بل وأن يقتل، وبين أن يعطى أولاده لعائلة نصرانية، لما تردد في قبول الخيار الأول.

قد يقول قائل: ولكن أليس للطفل أيضا حق؟ ما ذا إذا كان في وجوده بين أبويه أحدهما أو كليهما خطر عليه، أي نوع من الخطر؟ ونقول نعم إن للطفل لحقا في أن يحمى من الخطر، وقد تكون حمايته بأخذه من أبويه ووضعه تحت كفالة عائلة أخرى. لكن الوالدين يظلان رغم ذلك والديه، ولا يجوز لمن يكفله أن ينسبه إليه.

الحداثة والعالمية:

من الكتاب الغربيين من يرى أنه بما أن مفهوم حقوق الإنسان مفهوم جديد فإنه لا يمكن أن يوجد في شيء من الثقافات الما ضية التي يعدون منها ما يسمونه بالإسلام التقليدي. لكنهم مع ذلك يصرون بأن هذه الحقوق حقوق إنسانية لا يكون الإنسان إنسانا كريما إلا بها. وهذا تناقض؛ لأنها إذا كانت بهذه المثابة فيجب أن تكون معلومة للناس منذ أن وجد الناس، إذ كيف تكون للإنسان حقوق بهذا اللزوم لكرامته ثم تغفل عنها كل الثقافات والأديان الماضية ولا تكتشف إلا في القرن العشرين؟ نعم إنه من

البديهي أنها لم تكن لتوجد بأسمائها لحديثة، وبالصياغة التي صاغها بها محام فرنسي في العصر الحديث. أما أصل الكثير منها وحقيقته فلا بد أن قد كان موجودا في الثقافات الماضية. إن بعض الكتاب الذين يرون أنها لا يمكن أن توجد فيما يسمونه بالإسلام التقليدي أو إسلام ما قبل الحداثة، يقترحون على المسلمين طرقا لإعادة تفسير دينهم ليكون دينا حديثا يتمشى مع هذه الحقوق المعاصرة. لكن المسلم الصادق مع نفسه لا يمكن أن يلجأ إلى الأساليب التي يقترحونها كما سنرى بعد.

حقوق الإنسان في الإسلام:

كيف يقرر المسلم ما إذا كانت الحقوق التي في إعلان الأمم المتحدة متوافقة مع دينه أم غير متوافقة؟ إن بعض الكتاب الغربيين يقترحون على المسلمين أن يبدؤوا بالتسليم بأن هذه الحقوق المعلنة هي حقوق يجب الإيمان بها والالتزام بها. ولكن بما أنها لا يمكن أن توجد في دينهم التقليدي فلا بد لهم من إعادة تفسيره ليجعلوه متوافقا مع ما يسمونه بالمعايير العالمية لحقوق الإنسان. لكن هذه الطريقة لا تليق بإنسان أمين مسلما كان أم غير مسلم. إنه من الافتراء أن تنسب إلى بشر ما كلاما لم يقله. فكيف بالله خالق البشر؟ لو أن فيلسوفا ما معجبا بفلسفة أرسطاليس يحاول دائما أن يعيد تفسيرها ليجعلها متوافقة مع بعض ما يشيع عصره، لاعتبر رجلا غير أمين، وغير جدير بأن يعد في زمرة دارسي الفلسفة الأكاديميين. فكيف بالافتراء على الله رب العالمين. كيف؟ والمسلم يقرأ في كتاب ربه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس:٦٩]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

إن للعالم المسلم منهجا علميا يتبعه لمعرفة ما هو من دينه وما ليس منه. إنه أولا يأخذ كلام ربه مأخذ الجد، فيجتهد ويخلص في معرفة مراد الله تعالى بكلماته التي أنزلها، موقنا بأن كل ما يقول الله تعلى او يقول رسوله ﷺ فهو الحق الذي لا ريب فيه، وأن كل ما يأمر به الله أو رسوله فهو الخير الذي لا ريب فيه، معتقداً اعتقاداً جازماً بأن الله علام الغيوب، وأنه لم يربط هداه بمرحلة زمنية معينة، أو رقعة أرضية معينة، وإنما جعله هدى ورحمة للناس كافة منذ أن بعث رسوله، وإلى قيام الساعة.

ويكون همه بعد سلوك الطريق الصحيح لمعرفة ما أنزل الله تعالى أن يؤمن به ثم يجتهد في العمل به إن كان يقتضي عملا ظاهرا. إنه يأتي إلى كتاب ربه وسنة نبيه ليهتدي بهما لا ليهديهما ولا ليقترح عليهما. إنه لا معنى للإيمان ولا للتدين إلا هذا. وكلما عرضت للعالم المسلم مسألة جديدة فكرية كانت أم عملية، كقضية حقوق الإنسان، فإنه يرجع إلى كتاب ربه وسنة نبيه ليلتمس فيها الهداية. فإن وجد في نصوص الكتاب والسنة ما يؤيد الأمر آمن به، وإن وجد فيهما نصوصا تبطله أنكره، وإن لم يجد لا هذا ولا ذاك اجتهد بحسب قواعد اجتهاد علمية معروفة في علم يسمى أصول الفقه ليصل إلى الحكم الإسلامي في المسألة. فالاجتهاد ليس كما يريدنا أن نفهمه بعض الغربيين من المهتمين بالإسلام وسيلة لتحريف الدين وتبديله ليتناسب مع أهواء العصور المتغيرة. إنه منهج علمي لاكتشاف الحقيقة التي تدل عليها النصص، وهو في هذا أشبه ما يكون بمنهج علماء الطبيعة في اكتشاف الحقائق الكونية. أما إذا اعتقد الإنسان أن في القرآن أو في السنة ما يتناقض مع مسائل عصرية يراها مهمة وضرورية لتحقيق مصالح الناس، فما عليه إلا أن يكون شجاعاً ويعلن عدم إيمانه بأن القرآن كلام الله، وأن محمداً رسول الله، لأنك لا يمكن أن تعتقد بإخلاص أن القرآن كلام الله، وأن محمداً رسول الله ثم تعتقد مع ذلك أن فيهما ما هو باطل أو مضر.

المفاهيم والتصورات:

لقد أمعنت النظر -بحسب هذا المنهج- في إعلان حقوق الإنسان فلم أجد في معانيها العامة ما ينكره المسلم، إلا بنوداً معروفة سبقني الناس إلى التنبيه عليها. لكن هذا لا يعني الموافقة على كل الصيغ التي صاغها بها محام فرنسي قبل أكثر من خمسين عاما.

بيد أن المشكلة الكبرى -كما لاحظ ذلك بعض الكتاب الغربيين- هي أن الناس وإن اتفقوا على بعض المفاهيم إلا أن تصوراتهم لها تختلف بحسب ثقافتهم ومعتقداتهم. لكن كثيرا من الغربيين يفترضون أن تصوراتهم ينبغي أن تكون هي التصورات العالمية التي تتجاوز الثقافات. وأنا لا أريد هنا أن أقرر مسألة نسبية القيم التي أنكرتها في بداية البحث، وإنما أريد أن أؤكد ما قلته هنالك من أن إنكار هذه النسبية لا يلزم المرء باعتقاد أن التصورات الغربية هي التصورات العالمية أو المطلقة.

خذ على ذلك مثالين. إن المعاملة التي عامل بها القاضي ستارك الرئيس كلنتون، والطريقة التي حرص بها على نشر فضائحه هي مما يتقزز منه المسلم، ويعده أسوأ من الفضيحة التي حرص القاضي على إذاعتها. ولا شك أن المسلم يعد هذا أمرا مخالفا للحق الإنساني الذي قرره البند الثاني عشر من الإعلان العالمي. بل إن مبدأ نشر الفضائح هو مما ينكره المسلم ويعده عملا غير أخلاقي. فهذا تصور إسلامي لمفهوم الشرف والسمعة الوارد في هذا البند يختلف اختلافا كبيرا عن المفهوم الأمريكي له، إن كان ما فعله القاضي معبرا عنه. وكذلك مفهوم الحرية الدينية الوارد في البند الثامن عشر والذي يقرر أن من حق كل إنسان أن يظهر دينه أو معتقده تدريسا أو ممارسة أو عبادة أو احتفالاً، هو أيضاً مما يختلف فيه التصور الإسلامي عن التصور الغربي. إن التصور الغربي يفسر الدين تفسيرا يجعله محصورا في إطار النظام العلماني. ولذلك لا يبيح للمسلم أن يمارس أشياء يبيحها له دينه، لأن ممارستها تتصادم مع القانون العلماني للدولة. وبما أن الدولة الإسلامية دولة تقوم على الدين لا على العلمانية فمن حقها أيضا أن تجعل حرية الدين، وحرية الاعتقاد، وحرية الممارسة في نطاق نظامها الديني. لكن شيوع النظام العلماني جعل الناس ينسون هذه الحقيقة، ويفترضون أن النظام العلماني هو النظام الوحيد المناسب للبشرية، فما يبيحه هو المباح وما يحرمه هو المحرم. وهذا أمر ينكره المسلم الملتزم بدينه.

ما الإسلام، ومن الذي يمثله؟

في سبيل الدفاع عن حقوق الإنسان كما وردت في الإعلان العالمي، وفي سبيل تفسيرها تفسيراً يتناسب مع التصور الغربي، يحرص كثير من الكتاب الغربيين على الإصرار على أن الإسلام ليس شيئاً واحداً، وأنه لذلك لا يجوز لمن يسمونهم بالمسلمين التقليديين أن يحتكروا الكلام باسم الإسلام، بل إن من يسمونهم بالمسلمين الليبراليين لهم الحق في التحدث باسم الإسلام كما لأولئك سواء بسواء. ولما كان من يسمونهم بالليبراليين متبنين للموقف الغربي بحذافيره مفهوما وتصورا، ولما كانوا ممن يستمع لنصيحتهم بضرورة إعادة تفسير الإسلام ليماشي التصورات الغربية في حقوق الإنسان وفي غيرها، فإنهم يجدونهم أحب إلى نفوسهم، لأنهم يمثلون حضارتهم مع إصرارهم على التسمي بالمسلمين. تجدهم لذلك يعلون من قدرهم، ويرفعون من

خساستهم، ويشيدون بكتاباتهم حتى وإن كانوا من المغمورين الذين لا تأثير لفكرهم في بلادهم. وصدق الله العظيم: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

مما لا شك فيه أن المنتسبين إلى الإسلام كثيرون، وأن تصوراتهم له مختلفة. ولكن هل يدل هذا على أن الإسلام ليس شيئاً واحداً؟ وأن من حق أي أحد ينتسب إلى الإسلام أن يقول فيه ما شاء كيف شاء، ولا يكون هنالك معيار نميز به بين المحق في دعواه والمبطل؟ إن قلنا هذا وقعنا في مسألة نسبية الحق، وهي مسألة اتفقنا مع الكتاب الذين نناقشهم على إنكارها.

إن الإسلام دين مبني على نصوص مكتوبة بلغة معروفة، فلا بد أن يكون له حقيقة تدل عليها هذه النصوص دلالة عامة على الأقل. فعلى من يريد أن يعرف الموقف الإسلامي الحقيقي من قضية ما كقضية حقوق الإنسان أن يطلع على هذه النصوص فيجعلها معيارا يميز به ـ تمييزا عاما على الأقل ـ بين المحق والمبطل في ادعائه تمثيل الإسلام. وعليه إذا لم يكن قادرا على ذلك أن يقول إنه غير قادر، وأنه لذلك سيعرض آراء الفرق المختلفة من غير أن يقرر من المحق منها ومن المبطل.

إنها لحقيقة بديهية أن الاختلاف في فهم نصوص ما لا يدل بنفسه على أن تلك النصوص لا تعبر عن حقيقة واحدة، وأنها تقبل التأويلات المتناقضة. ماذا إذا طبقت إحدى الدول هذا المبدأ على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فقالت إنها تلتزم بها لكنها تملك حق تفسيرها تفسيرا مختلفا عن الآخرين؟

ختاما: لقد بنيت كثيرا مما جاء في هذه الورقة على كتابات غربية اطلعت عليها. وقد فكرت أولا في أن أشير إليها كما هو المعتاد في الأوراق العلمية، ثم أضربت عن ذلك وقلت أجعلها أفكاراً مجردة لا محاكمة لأفراد معينين. وأرجو لذلك أن يجد فيها المطلعون عليها من الكتاب الغربيين المهتمين بموضوع حقوق الإنسان شيئا من العون على تقدير أحسن لموقف الإسلام والمسلمين من هذه القضية، وعلى إمكانية أكثر للحوار المثمر.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

كتاب: بناء الدولة لفوكوياما

عرض كتاب: بناء الدولة: الحكم والنظام العالمي في القرن الواحد والعشرين، تأليف: فرانسيس فوكوياما، تلخيص: أ. د. جعفر شيخ إدريس، ١٠نوفمبر٢٠١٣م.

مقدمة الملخِص:

كيف تبنى دولة قد تهدمت؟ وكيف تقوى دولة قد ضعفت؟ وكيف تزداد دولة قوية قوة في بعض النواحي التي ضعفت فيها؟ هذا هو موضوع الفصلين الأولين من هذا الكتاب.

يُلخص الكاتب ما توصل إليه المختصون في كل مسألة من مسائل هذه القضية. ويحاول أن يضع ما توصلوا إليه في نظريات عامة يمكن الاستعانة بها على جعل ما توصلوا إليه قابلاً للتعميم. لكنه يعترف بأن هذا ليس ممكناً في كل المجالات (كمجال الإدارة العامة مثلا)، لا لأن هنالك تقصيراً في الدراسة ولكن لأن المادة نفسها ترتكز إلى حد كبير على ظروف محلية وظروف متغيرة لا يمكن الإحاطة بها.

هذه القضية هي كما يبدو لأول وهلة قضية الدول الضعيفة والفقيرة. فلماذا يهتم بها علماء في دول كبيرة؟ الإجابة عن هذا في الفصل الثالث من الكتاب (بعد نهاية الحرب الباردة صارت الدول الفاشية هي أكبر مشكلات النظام العالمي. وذلك لأنها تعتدي على حقوق الإنسان، وتحدث كوارث إنسانية، وتدفع بأمواج ضخمة من المهاجرين، وتهاجم جيرانها، وتؤوي الإرهابيين العالميين الذين يمكن أن يضروا ضرراً بالغا بالولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة).

لكن هذه الدراسات ليست مرتبطة ارتباطا لا زماً بالدافع إليها أو القصد منها. بل إن كثيرا منه مما يمكن الانتفاع به بغض النظر عن هذه المقاصد والدوافع.

وقد حاولنا في هذا التلخيص أن نقتصر على ما نراه من وجهة نظرنا المحلية مفيداً في الكتاب، لكنه تلخيص لا يغني عن قراءة الكتاب والاستفادة من مراجعه التي لا تكاد تخلو منها صفحة.

مقدمة المؤلف:

المقصود ببناء الدولة هو: إنشاء مؤسسات حكومية جديدة وتقوية الموجود منها. أريد أن أدلل في هذا الكتاب على أن بناء الدولة هو من أهم أمور المجتمع الدولي لأن

الحكومات الضعيفة أو الفاشية هي من مصدر لكثير من المشكلات العالمية العظمى من الفقر إلى الإيدز إلى المخدرات إلى الإرهاب. وأريد أن أبين كذلك أنه بينما نعلم الكثير عن بناء الدولة إلا أن هنالك الكثير مما لا نعلمه ولا سيما كيفية نقل المؤسسات القوية إلى الدول النامية.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

حيث يرسم الأول إطارا تحليليا لفهم الأبعاد المتعددة للدولية: مهام الدولة ومقدراتها ومشروعيتها.

ويبحث الثاني في أسباب ضعف الدولة.

ويبين الأخير الأبعاد العالمية لضعف الدولة.

١) الأبعاد المفقودة للدولة:

ازداد حجم الدولة وازدادت مهامها واتسع نطاقها الثلاثة الأرباع الأولى من القرن العشرين. فبينما لم يكن قطاع الدولة يستهلك أكثر من ١٠٪ من الناتج القومي في الولايات المتحدة ومعظم البلاد الأوربية فإن هذا الاستهلاك قفز فيها بحلول عام ١٩٨٠ إلى ٥٠٪ (٧٠٪ في السويد الديمقراطية الاشتراكية)، هذا النمو المتعاظم للقطاع الحكومي أدى إلى أنواع من عدم الكفاءة والنتائج غير المتوقعة، حدث بسببها رد فعل تمثل في ما سمي"بالتا تشرية" و"الريغانية". التي تناقص فيها حجم القطاع الحكومي في كثير من بلدان العالم. لكن حركة تحرير الاقتصاد من التدخل الحكومي صاحبها إضعاف للدولة في الدول النامية وذلك لأن هذا البرنامج خلط بين تقليل وظيفة الدولة الاقتصادية وتقليل كفاءتها وهما أمران مختلفان.

قوة الدولة ومجال عملها:

قد يكون المجال الذي تعمل فيه دولة كالولايات المتحدة ضيقاً من حيث عدم شموله للقطاع الصحي وعدم تشدده في تنظيم السوق، ولكنها مع ذلك تكون قوية إذا ما عرفنا القوة بتعريف مارك فيبر لها (مجموعة بشرية تنجح في دعوى حقها بالاستعمال المشروع للقوة الحسية في نطاق أرضي معين) أي إن جوهر الدولية هو مقدرة الدولة على فرض قرارها بالقوة. هذه القوة هي التي تسمى الآن بـ"القوة المؤسسية". والدول تختلف

في مقدار قوتها أو ضعفها بالنسبة للمؤسسات التي تمثل هذه القوة، فقد يكون بعضها قوياً في نوع من هذه المؤسسات ضعيفاً في نوع آخر، وتكون دولة أخرى عكسها في مجال قوتها وضعفها.

القوة والمجال والنمو الاقتصادي:

كان الرأي السائد في الماضي أن الخصخصة وحدها تكفي للمساعدة على النمو الاقتصادي، لكن تجارب بعض الدول مثل روسيا، وتايلاند، وجنوب أفريقيا، أثبتت أن هذا ليس بصحيح. بل الذي اتضح الآن أنه لا بد للنمو من مؤسسات قوية. قال الأستاذ"فريدمان" أكبر دعاة اقتصاد السوق الحر إن نصيحته لكل دولة تتحول من الاشتراكية " خصخصوا، خصخصوا، خصخصوا" لكن تبين له الآن أنه كان مخطئا. إنه يدرك الآن أن حكم القانون ربما كان أهم للتنمية من الخصخصة.

وقد برهن برنارد دي سوتو Bernando de Soto في كتابه"الطريق الآخر" على أهمية المؤسسات القانونية للتنمية، إذ وجد أن الحصول على رخصة لعمل تجاري صغير يستغرق في مدينة ليما Lima ببيرو Peru يستغرق عشرة أشهر ويمر بأحد عشر مكتبا، ويكلف ١٢٣١ دولارا، بينما لا يستغرق طلبا كهذا أكثر من يومين في الولايات المتحدة وكندا.

التزويد بالمؤسسات:

هناك أربعة نواح متداخلة تحتاج لأن ننظر فيها:

١. تصميم المنظمات وإدارتها (organizational design and management):

إن موضوع الإدارة العامة حقل معرفي واسع ومتطور لكن ليس له ولا يمكن أن تكون له نظرية عامة.

٢. تصميم النظام السياسي (Political system design):

هذا حقل يبحث في العلاقة بين نظام الدولة وبين النمو الاقتصادي. فهو يقارن مثلا بين النظام البرلماني والنظام الرئاسي، وبين أنظمة الانتخابات المختلفة؛ الفدرالية، النظام الحزبي وهكذا. **وهنا أيضا لا توجد نظرية عامة تساعد على التعميم. فقد يساعد نظام سياسي في بلد ما على التنمية لكنه لا يساعد عليها في بلد آخر بسبب**

الاختلاف في المؤسسات التي تساعد الأول وتعوق الثاني. ومن ذلك أن بعض الدارسين يقول إن النظام الرئاسي الذي يعطي الفائز كل شيء ويحد الرئيس بفترة زمنية معينة هو من أسباب عدم الاستقرار وعدم الشرعية في أمريكا اللاتينية.

٣. أسس الشرعية (Basis of legitimization):

إنه لا يكفي للمؤسسات أن تكون عاملة بطريقة صحيحة، بل لا بد من أن يعدها المجتمع شرعية.

٤. العوامل الثقافية والهيكلية (Cultural and structural factors):

أغلب الدراسات في هذا المجال تكون تحت ما يسمى بـ(رأس المال الاجتماعي) إن المعايير والقيم والثقافة تؤثر في الجانب التزويدي للمؤسسات بأن تجعل بعض أشكال المؤسسات ممكنا أو تحد من إمكان وجوده. لكنها قد تؤثر أيضا في جانب الطلب منها. وعليه فإن بعض المؤسسات التي تصلح في بعض البلاد قد لا تصلح في بلاد أخرى مختلفة عنها في بعض هذه الجوانب المعيارية والقيمية والثقافية.

المعارف المؤسساتية القابلة للنقل ومكونات القوة المؤسساتية:

المكون	العلم الذي يدرسه	إمكانية نقله
تصميم النظام وإدارته	الإدارة=الإدارة العامة-الاقتصاد	عالية
تصميم المؤسسات	العلوم السياسية-الاقتصاد-السياسة	متوسطة
أساس الشرعية	العلوم السياسية	متوسطة إلى ضعيفة

المطالبة بالمؤسسات:

لن تكون هنالك مؤسسات جيدة إذا لم يُطالب بها. هنالك تركيز كبير في علم الاقتصاد السياسي على الظروف التي حالت دون إنشاء المؤسسات الناجحة هي تلك التي ولدّها طلب محلي لها، ويضربون مثلاً لذلك بأوروبا الحديثة، والولايات المتحدة بعد الثورة، وألمانيا واليابان وتركيا في القرن التاسع عشر. وكوريا الجنوبية واليابان في الستينات، وشيلي ونيوزيلندا في السبعينات والثمانينات.

إن عدم الطلب للمؤسسات أو ضعفه هو أكبر سبب لعدم تطور المؤسسات في البلاد الفقيرة. ولذلك فإن هذا التطور كثيراً ما يحدث بأسباب خارجية، لكن الدراسات تدل على أنه لا جدوى كبيرة من مؤسسات يحدثها هذا التدخل الخارجي. إنه كثيراً ما يُثنى على الولايات المتحدة بأنها كانت هي السبب في بناء ناجح للأمة nation building في ألمانيا واليابان. لكن الحقيقة أنه كان في هذه البلاد قبل غزوها نظم بيروقراطية كانت هي السبب الحقيقي لتطورها. تنشئ المطالبة المحلية بالمؤسسات الجيدة وبتغيير السياسات.

زيادة الأمر سوءاً:

التدخل ليس فقط لا يحل المشكلة بل كثيرا ما يزيد الأمر سوءاً لأنه حطم كثيراً من قوى المؤسسات في بعض الأقطار. فالدول الإفريقية تدهورت مقدرة المؤسسات فيها تدهورا كبيرا في الثلاثين سنة الماضية بالرغم من مساعدات خارجية لها بلغت عشرة بالمئة من دخلها القومي. والسبب في ذلك أن المتبرعين يريدون أمرين قد يتعارضا: يريدون تطوير المؤسسات التي تساعد على توزيع دواء لمرض الإيدز مثلا، لكنهم يريدون أيضا أن يضمنوا وصول الدواء إلى المستفيدين منه. وبما أنهم لا يثقون بقدرة المؤسسات القائمة على القيام بهذا الأمر فإنهم كثيراً ما يتولونه هم فيأخذون أحسن ما عند المؤسسات المحلية من موظفين بإغرائهم بالمال، فيزيدون بذلك من ضعفها بل قد يحطمونها.

٢) الدول الضعيفة وثقب الإدارة العامة الأسود:

قلنا إن تصميم المنظمات وإدارتها هو أكثر جوانب المؤسسات قابلية لأن يُنقل عبر كل الثقافات. لكننا نقول إنه حتى في هذا المجال الضيق ليس هنالك قاعدة عامة نقول إنها صالحة لكل النظم، وعليه فإن موضوع الإدارة العامة يظل فناً أكثر منه علماً. ولذا فإن قضية تطوير النظام تبقى قضية محلية.

إن التنظيمية مع غناها وتشعبها تدور كلها حول مسألة واحدة هي تفويض سلطة التصرف. هذا التفويض أمر ضروري؛ لأن اتخاذ القرار يحتاج إلى معلومات. ولكن من المتعذر أن تجتمع كل المعلومات اللازمة عند المسؤول الأول، ولذلك لا بد له من أن يُنيب

عنه من يتخذ القرار ممن يعلم أن المعلومات متوفرة لديه. لكن المشكلة هي أن النائب لا يتصرف دائماً باعتباره ممثلاً للمسؤول، بل يدخل في تصرفه مصالحه الشخصية نشأت بسبب ذلك نظرية فرعية عن العلاقات بين الأصل (أو الرئيس أو المسؤول) وبين النائب (أو الوكيل أو العميل).

هنالك نظرية تقول إن الذي يحرك الفرد في عمله داخل المنظمة هو مصلحته الفردية. نشأ فرع من هذه النظرية لفهم العلاقة بين مصلحة الفرد ومصلحة النظام الذي يعمل فيه. من وسائل هذا التوفيق أن يكون عمل الأفراد عملاً تسهل مراقبته، ثم يثاب عليه الفاعل أو يعاقب. لكن مع هذا يصعب أن يقال ما التنظيم الأمثل بالنسبة للمؤسسات وذلك لأسباب ثلاثة:

١. كثيراً ما تكون أهداف المنظمة غير واضحة أو متناقضة.

٢. المراقبة الرسمية لأنشطة العاملين قد تكون متعذرة إما لتكاليفها الباهظة أو لعدم الدقة في تحديد النشاط الذي يراقب. ولذلك فإنه كثيراً ما تلجأ المنظمات إلى وسائل غير رسمية.

٣. درجة التفويض المناسبة تعتمد على عوامل داخلية وخارجية تواجهها المنظمة بعد كل فترة.

العوامل الاقتصادية المؤثرة في نشاط العاملين بالمؤسسة:

«أسمى الكاتب هذا المبحث بإعادة اكتشاف العجلة لأن الأفكار التي فيه كانت شائعة قبل ذلك ثم جاءت أفكار مخالفة لها ثم رُجع إليها».

يبنى الاقتصاديون تفسيرهم لنشاط الأفراد الاقتصادي على افتراض أن هنالك دوافع سلوكية عامة في كل البشر. هذا المنهج يصلح إلى حد ما في تفسير نشاط الأفراد في المنظمات عندما يكونون مدفوعين بالمصلحة الشخصية. لكن تصرفات الناس في المنظمات تختلف عنها في الأسواق. فالمعايير والقيم والتجارب المشتركة والعلاقات الاجتماعية القوية تؤثر في عملهم واختياراتهم أعظم من تأثير المصلحة الشخصية. وبما أن كل هذه عوامل متغيرة وتختلف من حال إلى حال فإنه يتعذر تحويلها إلى نظرية عامة للمنظمات. إن الأمر يعتمد كثيرا على الظروف المحلية.

بناء المقدرة في ظروف الغموض التنظيمي: ما يترتب على السياسات.:

هنالك آثار عملية كبيرة تترتب على القول بأنه ليس هنالك منظمات نموذجية. ليست البرامج الناجحة هي التي تستورد من مكان إلى مكان آخر لأن ما ينجح في ظروف محلية معينة قد لا ينجح في ظروف أخرى. إن البرامج الناجحة هي تلك التي تأخذ في الاعتبار كل الظروف المحلية. إن بعض العادات المحلية قد تكون عائقا لتطوير المؤسسات. مثلا إذا كان الناس في بلد يرون أنه من الواجب عليهم أن يقدموا القريب على البعيد مهما كانت العقود الرسمية أو القانونية، فإنه سيلزم عن ذلك بعض الخلل المؤسسي.

إن القول بأنه لا توجد منظمات نموذجية لا يلزم منه اليأس من إصلاح المؤسسات أو الاعتقاد بأن أي شيء يصلح في الإدارة العامة. كلا لأنه إذا لم تكن هنالك ممارسات نموذجية فهنالك بلا شك ممارسات سيئة يجب تجنبها.

٣) الدول الضعيفة والشرعية الدولية:

ناقش الكاتب في الفصلين السابقين الأسباب الداخلية لضعف الدولة القومية التي تفوق تطور الدول الفقيرة وتنميتها الاقتصادية. لكن ضعف الدولة القومية لم يعد شأنا خاصا بها، ولهذا بدأ يحدث إنقاص للدولة القومية وللسيادة، بل بعضهم يهاجم المفهومين نفسهما. لكن من الذي يملك حق أو شرعية انتهاك سيادة دولة قومية وبأي مسوغ؟ هل هنالك مصدر للشرعية الدولية لا يعتمد هو نفسه على قوة دولة قومية؟ وإذا لم يوجد أفلا يكون مثل هذا التدخل تناقضاً؟ هذه القضايا العالمية هي موضوع هذا الفصل.

بعد نهاية الحرب الباردة صارت الدول الفاشلة هي أكبر مشكلات النظام العالمي. وذلك لأنها تعتدي على حقوق الإنسان، وتحدث كوارث إنسانية، وتدفع بأمواج ضخمة من المهاجرين، وتهاجم جيرانها، وتؤوي الإرهابيين العالميين الذين يمكن أن يضروا ضرراً بالغاً بالولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة منذ سقوط حائط برلين في عام ١٩٨٩ وإلى عام ٢٠٠١ كانت معظم الكوارث العالمية ناشئة عن الدول الضعيفة أو الفاشية إن إمكانية الجمع بين الإسلام الراديكالي وأسلحة الدمار الشامل أظهرت

فجأة أن حوادث تقع في أماكن قاصية يمكن أن يكون لها تأثير كبير على الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغنية القوية. ولهذا فقد اقتضت الدواعي الأمنية أن التدخل في مثل هذه الدول وتغيير أنظمتها.

بالإضافة إلى الدول الضعيفة والفاشية كانت هنالك أنواع من الحكم تسببت هي الأخرى في عدم الاستقرار العالمي: عدم الديمقراطية والتعددية والمشاركة الشعبية في البلاد العربية مما أدى إلى ركودها، بل تدهورها الاقتصادي. كل هذا حدث في الوقت الذي بدأت فيه هذه البلاد تعاني من زيادة كبيرة من شباب لا يمكن تشغيلهم. كان السبب الأساس لهذه المعاناة الاقتصادية هو عدم تشجيع المبادرات الاقتصادية والأسواق ذات الكفاءة.

وبالنسبة للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي كان الخطأ الذي ارتكب في أوسلو هو عدم المطالبة بالمحاسبة الديمقراطية لقيادات المنظمة وعدم المطالبة بإيقاف أنواع الفساد المالي المستشرية فيها على كل المستويات.

الإمبراطورية الجديدة:

بالرغم من أن الولايات المتحدة تنفي أن تكون طامعة في إمبراطورية إلا أن سياستها التي أوضحها الرئيس في خطابه في West Point وفي إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة تحتم على الولايات المتحدة أن تتولى الحكم في الدول التي تهددها بالإرهاب. لكن الإرهاب ما زال يجد مكانا في بلاد ذات حكومات ضعيفة. إن الولايات المتحدة لا يمكنها أن ترسل قواتها إلى كل دولة تخشى من وجود الإرهابيين فيها ولذلك يجب أن تعتمد على حكومات تلك الدول لتتولى هي محاربة الإرهاب. لكن عجزها عن القيام بذلك يؤكد ما تعرضنا إليه في الفصلين السابقين من وجود ثغرات في المقدرات المؤسساتية.

النخر في مبدأ السيادة:

الحكم الضعيف يقوض مبدأ السيادة لأنه يعجز عن حل مشكلات لها آثار داخلية وخارجية مما يضطر بعض الدول الأخرى للتدخل في شؤون الدولة الضعيفة (وإن كانت كارهة) لعلاج مثل هذه المشكلات. من الحجج التي يسوغ بها مثل هذا التدخل أن الظروف التي وُضع فيها مبدأ السيادة في صلح"وستفاليا" قد تغيرت، فعندما وُضع المبدأ كان هنالك تردد في مفهوم الشرعية. بعد انتهاء الحرب الباردة صار هنالك اتفاق

أكثر في المجتمع الدولي لمفهوم الشرعية السياسية والحقوق الإنسانية. لم يعد من الممكن إعطاء السيادة والشرعية لكل من صار امتلاكه للسلطة في بلد ما أمرا واقعاً. صار من واجب الدول الخارجية التي تعمل باسم الحقوق الإنسانية والشرعية الديمقراطية أن تتدخل. أدي هذا في الواقع إلى ظهور إمبراطورية جديدة وإن كانت باسم الأمم المتحدة. (ومع أن الواضح من هذا الكلام هو إعطاء الشرعية لما قام به بوش في العراق إلا أن الكاتب يسارع فيقول إنه ينبغي أن لا يُفهم كذلك لأن مسألة غزو العراق مسألة معقدة دخلت فيها عوامل كثيرة).

بناء أمة:

لقد صار بناء الأمم هو المشروع الأول بالنسبة للسياسات العالمية سواء كان القصد منه إعادة بناء مجتمعات طغت عليها النزاعات أو مزقتها الحروب، أو لإزالة أرض يفرخ فيها الإرهاب، أو لمساعدة الدول الفقيرة لتنمو اقتصاديا. إذا كان هنالك علم أو فن أو تقنية لبناء الأمم فإنها ستحقق كل هذه الأهداف وسيكون الطلب عليها كبيرا.

يرى الكاتب أن الأوربيين محقون في تمييزهم بين بناء الدول وبناء الأمم. إن الأمة هي نتاج ثقافة وتاريخ لا يمكن لجهة خارجية أن تحققه. أما الدول فيمكن بناؤها.

هنالك ثلاثة أنواع من الدول تحتاج إلى إعادة بناء:

دول تحطمت تحطيماً شبه كامل كأفغانستان فهي بحاجة إلى ضرورات الاستقرار من ماء وكهرباء وشرطة وغيرها. إذا تحقق الأمن تأتي المرحلة الثانية وهي إنشاء مؤسسات قادرة على الاستمرار بعد خروج القوة الأجنبية. أما النوع الثالث من الدول فهو تلك التي لها مؤسسات لكنها لا تستطيع القيام ببعض المهام مثل حماية الممتلكات والتعليم الأساس.

لقد ارتكبت الولايات المتحدة ومن معها من المجتمع الدولي أخطاء جسيمة في الماضي في محاولتها لبناء الأمة في بنما والصومال وهايتي والبوسنة، لكن إدارة الرئيس بوش لم تستفد منها بل كررتها في أفغانستان والصومال. الذي حدث هو أن الولايات المتحدة والمجتمع الدولي لم ينجحا في مساعدة مثل تلك الدول على أن تكون لها القدرة على الاستمرار بل إنها في كثير من الأحيان جعلتها أضعف مما كانت. لكن هذا لا يعني أن المحاولات لم يكن لها داع لأن التدخل كان في أساسه لأسباب إنسانية.

المشروعية الديمقراطية على المستوى العالمي:

قليلون الآن هم الذين يدافعون عن مبدأ السيادة في شكله الخالص. لكن القضية هي من الذي له أن يقرر انتهاك السيادة وعلى أي أساس. الأوربيون لا يقرون انفراد الولايات المتحدة بمثل هذا القرار ويرون أنه لا بد من إيجاد نظام عالمي قائم على قاعدة ومناسب مع ظروف عالم ما بعد الحرب الباردة. إنه يزعجهم إعلان الرئيس بوش عن مبدأ فضفاض للمبادرة بالهجوم ضد الإرهابيين أو الدول التي تدعم الإرهاب تكون الولايات المتحدة فيه هي وحدها التي تقرر أين ومتى تلجأ إلى استعمال القوة. هذا معناه أن الولايات المتحدة تطلب من المجتمع الدولي أن يفوضها هي وحدها في اتخاذ مثل هذا القرار لأنها لا تقبل أن تمارسه دولة كروسيا مثلا يرى بعض المفكرين الأمريكان أن من أسباب هذا الخلاف أن الأوربيين بما أنهم أضعف من الولايات المتحدة فإنهم يرون أن من مصلحتهم التقيد بمعايير و بقواعد عالمية تكون ملزمة لأمريكا. أما أمريكا فترى أن من مصلحتها الانفراد بالقرار لأنها أقوى من غيرها سلاحا واقتصادا وتقنية.

ما بعد الدولة القومية:

ما مصدر الشرعية على المستوى العالمي؟ يرى الأمريكان أنها في جذر إرادة الدول القومية الدستورية. ويرى الأمريكان أن أساسها هو مبادئ ليبرالية أعلى من قوانين أو قرارات الدولة القومية. يرى الأوربيون أن كون القرار اتخذ بحسب الإجراءات الديمقراطية لا يعنى كونه موافقا لتلك القيم الليبرالية. لكن الاعتقاد في مثل هذه القيم المجردة قد يكون هو نفسه سبباً في سوء استعمال النخب لها لأنه سيعطيها الحق في أن تفسر إرادة المجتمع الدولي بحسب ما يروق لها. المشكلة الثانية بالنسبة للمفهوم الأوروبي هي من الذي يملك قوة التنفيذ. إن (المجتمع الدولي) وهمٌ لا حقيقة له في الواقع فيما يتعلق بقوة التنفيذ لأن هذه إنما تملكها الدولة القومية.

٤) أصغر حجماً ولكنه الأقوى:

على مدى جيل بكامله، كان هنالك اتجاه لإضعاف الدولنة (stateness). وقد طرأت هذه النزعة لاعتبارات قياسية واقتصادية. فالكثير من الدول في القرن العشرين كانت قوية للغاية: حيث كانت تضطهد الشعوب، وتعتدي على الجيران. ولم تكن تلك الدول دكتاتورية، ومع ذلك أعاقت النمو الاقتصادي وعملت على تراكم سلسلة من حالات الاختلال الوظيفي وعدم الكفاءة بسبب الإفراط في تدخل الدولة في كثير

من المجالات. ولذلك أدى هذا الاتجاه إلى تقليص حجم قطاعات الدولة والتوجه نحو السوق أو الاتجاه إلى مهام المجتمع المدني التي خصصت بأسلوب غير ملائم. وفي نفس الوقت، نمو الاقتصاد العالمي بات يؤدي إلى تآكل استقلالية الدول ذات السيادة، وذلك بزيادة وتيرة انتقال المعلومات، ورأس المال، وكذلك العمل بقدر أقل.

وقد كانت هذه التغييرات بشكل عام ذات مردود إيجابي وفي المصلحة، وأجندة تقليص مجال هيمنة الدول القومية لا يزال نموذجاً حياً في أجزاء كثيرة من العالم: فالركود الذي ظهر في اليابان خلال عقد التسعينيات، وأزمات الأمن الاجتماعي التي ستظهر في كثير من دول الرفاهية في أوربا في القرن الحادي والعشرين مرتبطة إلى حد كبير بتدخلات القانون والدولة في اقتصاديات هذه الدول.

وفي فترة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، فإن الموضوع الرئيس للسياسة الدولية ليس هو كيفية تقليص الدولة (stateness)، بل هو كيفية بنائها. فبالنسبة للمجتمعات الفردية والمجتمع العالمي، فإن إضعاف الدولة ليس من مقدمات الدولة المثالية، بل هو من بوادر الكارثة. والقضية الخطيرة التي تواجه الدول الفقيرة والتي تحد من قدرتها على تحقيق التنمية الاقتصادية، هو ذلك المستوى غير المناسب من التنمية المؤسسية. حيث أنها ليست في حاجة إلى دول كثيرة، بقدر حاجتها إلى دول قوية وفاعلة في إطار النطاق المحدود لمهام ووظائف الدولة.

وفي النظام العالمي، تعرضت الدولنة (stateness) إلى الهجوم والتآكل من الناحية الفعلية وذلك لعدة أسباب. حيث أن جميع الدول في العالم الثالث ضعيفة، ونهاية الحرب الباردة أدت إلى ظهور مجموعة من الدول الضعيفة التي تعاني من المشاكل، من أوروبا إلى جنوب آسيا. وقد شكلت هذه الدول الضعيفة تهديداً على النظام العالمي لأنها مصدر للنزاعات، والانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان، ولأنها أيضاً ستصبح مرتعاً محتملاً لنوع جديد من الإرهاب الذي يمكنه الوصول إلى العالم المتقدم. وتقوية هذه الدول بأشكال مختلفة من بناء الدولة، باتت مسألة حيوية للغاية بالنسبة للأمن العالمي، ولكنها تحت هيمنة عدد قليل من الدول المتقدمة. ولذلك، فإن تعلّم كيفية بناء الدولة بطريقة أفضل، مسألة مركزية لمستقبل النظام العالمي.

وبالرغم من أننا لا نريد العودة إلى عالم القوى العظمى المتصادمة، إلا أنه يجب أن نتنبه للحاجة إلى القوة. وإن ما تفعله، وتقدر عليه الدولة دون غيرها هو تجميع وتوزيع

السلطة الشرعية بشكل هادف. وهذه السلطة ضرورية لتقوية حكم القانون على المستوى الداخلي، وهي مهمة أيضاً للمحافظة على النظام على مستوى العالم. والذين طالبوا "بفجر السيادة" سواء كانوا من أنصار نظام الأسواق الحرة على اليمين أو النظام القائم على التعدد من اليسار- يجب تبيان ما سيحل محل سلطة الدولة القومية ذات السيادة في العالم المعاصر (أنظر إيفانز١٩٩٧). غير أن الذي ملأ هذا الفجوة من الناحية الفعلية هو خليط متنافر من المؤسسات متعددة القومية، والمنظمات غير الحكومية، والمنظمات الدولية، وتكتلات الجريمة، والجماعات الإرهابية وما شابهها من التي تملك قدر معين من القوة أو تلك التي تتمتع بشيء من الشرعية، ولكن من النادر أن تجمع بينهما في آن واحد. **وفي غياب إجابة واضحة، فليس أمامنا من خيار آخر إلا العودة مرة أخرى إلى الدولة القومية ذات السيادة، وأن نحاول مرة أخرى فهم الكيفية التي تعيننا على أن نجعلها قوية وفاعلة.**

ومن الناحية الأخرى، فالقوة العسكرية التي نربطها عادة بالدولة القومية، من الواضح أنها ليست كافية لتلبية احتياجاتها. والأوربيون محقون في أن يكون لديهم بعض من أشكال القوة الناعمة، كبناء الدولة التي يمكن الاعتماد عليها. ويجب على الدول أن تكون قادرة على بناء مؤسسات الدولة ليس ضمن حدودها وحسب، بل في الدول الأخرى التي تعاني من المخاطر وعدم النظام. ففي السنوات الماضية كانت بعض الدول تفعل ذلك بشكل متزامن باحتلال الدولة ومن ثم إضافتها إلى إمبراطوريتها إدارياً. والآن نصر على أننا نسعى لنشر الديمقراطية، والحكم الذاتي، وحقوق الإنسان، وأن أي محاولة لحكم الآخرين هي مجرد فعل مؤقت بدلاً من أن يكون طموحاً إمبريالياً. وسنرى ما إذا كان الأوربيون يجيدون رسم هذه الدائرة أفضل من الأمريكيين. وعلى أية حال فإن فن بناء الدولة سيكون المكون الرئيسي للسلطة القومية، وهو مهم تماماً كأهمية القدرة على نشر القوات العسكرية التقليدية من أجل المحافظة على النظام في العالم..

* * * * *



العلوم الطبيعية

أولاً: المقالات

المقالات عن العلوم الطبيعية التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها:

١-حقائق العلوم التجريبية ...حقائق شرعية:

مجلة البيان ١٤٩ محرم ١٤٢١ ابريل ٢٠٠٠م

يبين الشيخ -حفظه الله- الخطأ الشائع على ألسنة الكثير من المتدينين القول بأن الحقائق العلمية (ويعنون بذلك حقائق العلوم الطبيعية) حقائق متغيرة، فما يثبته العلم اليوم ينفيه غداً، وما ينفيه اليوم يثبته غداً. لذلك يجب ألا يكون لها اعتبار في فهم الحقائق الدينية الواردة في الكتاب والسنة، وألا تستخدم دليلاً على الإعجاز العلمي. لكن إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض؛ وذلك لأن العلوم الطبيعية كما هو معروف منها ما هو حقائق جزئية تقوم عليها أدلة حسية أو عقلية قاطعة، ومنها ما هو حقائق جزئية، أو قوانين عامة تقوم عليها أدلة راجحة لا قاطعة، ومنها ما هو نظريات هي المعرّضة للتغير، ولا سيما ما كان ذا دليل غير قوي فحقائق العلوم التجريبية كلها الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية التي شهد لها الحس أو العقل شهادة قاطعة هي حقائق شرعية. بل إن ما قام عليه منها دليل راجح وإن كان غير قاطع، هي مما يعد بميزان شرعنا علماً يعمل به ثم يذكر الشيخ حفظه الله الأدلة على ذلك.

٢-علاقة العلم بالدين:

مجلة البيان ٢٣٨ جمادى الآخرة ١٤٢٨ يوليو ٢٠٠٧م

بين الشيخ في هذا المقال أنه بسبب العبث في ترجمة بعض الكلمات المهمة مثل كلمة (العلم) أدى هذا إلى خلط تصوُّري عظيم ولا سيما في العلاقة بين العلم والدين. إن كلمة (العلم) من أهم الكلمات القرآنية وأكثرها وروداً في الكتاب العزيز، لكنها عندما أُعطيت ذلك المعنى الخاص ـ معنى كلمة سينس ـ حدث لَبْسٌ عظيم من أمثلته: أننا صرنا نسمع بعض الناس يقولون: هذه مسألة علمية لا دينية. بل سمعنا من يقول: إن القرآن كتاب هداية لا كتاب علم ثم استطرد الشيخ في بيان هذه القضية.

* * * * *

ثانياً: المحاضرات

إسلامية العلوم وموضوعيتها

مجلة المسلم المعاصر السنة الثالثة عشرة، العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ، الموافق ديسمبر١٩٨٧م، يناير، فبراير.

النظرة الساذجة الشائعة حتى بين كثير من المثقفين منا، بل ومن المثقفين الغربيين، بل وحتى بين كثير من المشتغلين بالعلوم سواء منها الطبيعي والاجتماعي تقول إنّ للعلم منهجاً واحداً متفقاً عليه بين كل العلماء الذين يدرسون الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية دراسة علمية، وأن هذا المنهج يُمكّن سالكه من الوصول إلى الحقائق الواقعية وتصويرها كما هي تصويراً أميناً، وتفسيرها التفسير الصحيح الذي يتناسب معها، تصويراً وتفسيراً لا علاقة لهما بمعتقدات العالِم الباحث المفسر، ولا بآرائه الفلسفية، أو قيمه الخُلقيّة أو أهدافه الذاتية، أو حقبته التاريخية، أو بيئته الثقافية. ويظن كثير من عامة المثقفين الذين لا يشتغلون بهذه العلوم، ولا يعرفون شيئاً عن تاريخها وفلسفتها أن أصحابها لا يختلفون فيها اختلاف الفقهاء الذين يكثرون من ترديد عبارة (في المسألة قولان) .وهذا يعني أن قضية المنهج العلمي قضية قد بُتّ فيها ولم تعد تحتاج إلى نظرٍ جديد، وأنه ما علينا إذا أردنا أن نكون علماء، إلا أن نعرف هذا المنهج ونلتزم به في المجالات التي نريد دراستها لكي نصل إلى حقائقها وندرك تفسيرها. هذه النظرة الساذجة للموضوعية هي سرٌ من أسرار تلك الصدمة الشديدة، والحسرة البالغة التي شعر بها كثير من المثقفين في عالمنا الإسلامي إثر سماعهم بالدعوة إلى إسلامية العلوم .لقد سوّل لهم شيطان تلك النظرة أن الدعوة إلى إسلاميّة العلوم لا تعدو أحد أمرين:

(أ) أن تكون مظهراً من مظاهر النظرة الدينية الضيقة المتزمتة التي أفسدت علينا - بزعمهم- حياتنا الاجتماعية والسياسية وتريد الآن أن تمد يدها إلى الحقائق الموضوعية العلمية فتزيفها بأن تلوي أعناقها لتتواءم مع دعواها الدينية .فمشروع إسلامية العلوم حسب هذه النظرة هو أشبه ما يكون بفعل عالم الأحياء السوفيتي لايسنكو الذي حاول أن يجعل علم الأحياء موافقاً للأيدلوجية الشيوعية فأنكر بعض الحقائق المتعلقة

بعلم الوراثة واستغل منصبه الإداري ليمنع نشر أي دراسة تخالف نظرياته، فأدّى ذلك إلى تدهور هذا العلم في البلاد الروسية حتى اضطرت الدول الشيوعية فيما بعد إلى تدارك الأمر فأفسحت المجال للعلماء لكي يعبروا عن اعتقادهم بصحة ما أنكر لايسنكو.

(ب)- أن تكون دعوة جوفاء لا حاصل لها إلا تبديل أسماء بأسماء، أي أن الداعي إلى الإسلامية في أي علم من العلوم سيأخذ بما قال الغربيون من حقائق، وبتفسيرهم لتلك الحقائق أو بأخذ منهجهم العلمي في إدراك الحقائق الطبيعية والاجتماعية، ثم يُسمّى ذلك علم نفس أو اقتصاد أو اجتماع إسلامي.

ما جوابنا عن هذا؟ هل نُسلّم بصحة تلك الصورة الشائعة فيلزمنا إذن أن نلتزم نتائجها؟ أم ننكرها كلها فنقول إن هذه العلوم لا تقوم على شيء من الموضوعية، وإنها لا تعدو أن تكون وجهات نظر في العلم كتب لها أن تسود لأسباب اجتماعية تاريخية لا علاقة لها بصلب العلم؟ أم أن هناك مخرجاً ثالثاً؟ هذه هي القضية .

صورة العلم الواقعية:

يحسن قبل أن نصدر حكماً على صحة الصورة الشائعة أو خطئها وقبل أن ندعو إلى بديل لها أن ننظر في واقع هذه العلوم كما يمارسها أصحابها حسبما وضعها مؤرخوها وفلاسفتها وبعض المشتغلين بها من العلماء الغربيين .فأول ما نبدأ به القول بأنه إذا كان المقصود بالتجرد من الاعتقادات والميول والأفكار أن يخلي العالم ذهنه من كل هذا ويُقبل على بحثه بعقل مجرّد، فهذا شرط يستحيل تطبيقه، وعلى فرض إمكانه فإنه لا يكون شرطاً لحصول العلم بل سببًا في عدم حصوله .أقول إنه شرط مستحيل التطبيق لما يعلمه كل إنسان عن نفسه من أنّه لا يستطيع أن يكف لحظة واحدة وهو يقظان عن حديث مع نفسه أو حديث مع غيره وكلا الحديثين صادر عن أفكار واعتقادات، فكيف والقضية التي يبحثها العالم قد تستغرق منه أشهراً بل سنين؟ فهل يستطيع أن يكف طيلة أيام بحثه هذه عن حديث مع نفسه أو مع زوجه وأولاده وأصدقائه وزملائه؟ وهو سبب في عدم حصول العلم، لأنّ العِلم وإن سُمِّيَ تجريبياً إلا أن التجربة والمشاهدة لا تكون -كما يُنبّه إلى ذلك المختصون المناهج العلمية- إلا في ضوء

سؤال أو افتراض. إن العالِم لا يبدأ بحثه بالمشاهدة ولا بالتجربة، ماذا يشاهد؟ وماذا يجرب؟ إنه يبدأ بفكرة ثم يشاهد من الطبيعة أو المجتمع ما يراه متعلقاً بتلك الفكرة أو يجري تجربة معينة ذات علاقة بإثبات تلك الفكرة أو نفيها .ولأن العلم كما يقولون أمر تراكمي أي أن الجديد المكتشف منه يضاف إلى قديم سبقت معرفته. بل إن القضية الجديدة التي يُراد البحث فيها إنما تنشأ عن معرفة سابقة، والتجربة التي تجري تفترض صحة معلومات سابقة، فلو أن كل باحث بدأ تجربته وهو خال الذهن حتى من تلك المعلومات الخاصة بمجال بحثه لما نمى العلم وما تطور .وأما إذا كان المقصود بالتجرد أن يكون الإنسان مستعداً لأن يقبل ما دلت عليه المشاهدة وما كان نتيجة للتجربة أو لازماً عقلياً من لوازمها، وأن يكون أميناً في نقل ما جرّب وشاهد واستنتج وإن خالف ذلك اعتقاداً سابقاً له أو للمجتمع الذي يعيش فيه، وأما إذا كان المقصود به أن يشاهد الإنسان ويجرب بذهن متفتّح غير مقيد باعتقادات في باطنه تحدد له ما يمكن وما لا يمكن أن يكون، وما يصح وما لا يصح من التفسيرات، فهذا أمر ممكن مرغوب فيه بل هو في رأينا المثل الأعلى للمنهج العلمي. ولكن المثل الأعلى شيء وممارسات العلماء الواقعية شيء آخر، كما ثبت ذلك لمؤرخي العلوم وفلسفتها من الغربيين، ولعلنا نستطيع أن نجعل ما تقرّر في هذا المجال في أن العلماء الغربيين كانوا دائما يضعون أنفسهم -عن وعي منهم أو غير وعي- في داخل أطر أيديولوجية ويتأثرون ببيئاتهم الاجتماعية وحقبهم التاريخية.

أطر العلم الأيديولوجية:

تختلف هذه الأُطر في سعتها وشمولها: فهنالك الإطار العام الذي يحدد للإنسان تصوّره العام للوجود، وهناك أُطر مختلفة داخل هذا الإطار الكبير بحيث أن الذين يشملهم هذا الإطار قد يختلفون في انتماءاتهم .في ضوء الإطار الكبير الذي يمثل ما يسمّى في الاصطلاح الحديث بفلسفة الإنسان في الحياة، يتحدد اعتقاد الناس لما هو موجود وما ليس بموجود ثم يتحدد تبعاً لهذا مفهومهم للعلم والمنهج العلمي والتفسير العلمي وما إلى ذلك من مفهومات أساسية. فالعلم هو العلم بنوع الموجودات التي حددها الإطار، والمنهج العلمي هو المنهج الذي يوصلنا إلى معرفة هذا النوع من الموجودات،

والتفسير العلمي هو الذي يعدّ ما يحدث لبعض هذه الموجودات أثراً لموجودات أخرى من نوعها. وعليه فكل كلام عن موجودات غير التي حددها الإطار فهو كلام غير علمي، وكل ما يدّعى أنه حق فلا بد أن يأتي عن طريق هذا المنهج العلمي، وإلا فهو دعوى بغير دليل، وكل تفسير لظاهرة من الظواهر التي حددها الإطار بسبب خارج عن نطاق الموجودات التي اعترف بها فهو تفسير غير علمي .إذا ما ساد إطار ما في بيئة ما أو عصر ما، وتربّى عليه الصغار وشاب عليه الكبار غفل معظم العلماء وطلاّب العلم عن أنهم يعملون داخل إطار حددته لهم نظرة ما وراثية، وأَعطَوا مفهومات العلم والمنهج والتفسير العلمي التي درجوا عليها صفة الإطلاق والعموم، وحسبوا أنها دون غيرها هي المفاهيم الصحيحة التي يجب على كل مبتغ للبحث العلمي أن يلتزم بها، وإلا فما هو بعالم. وعليه يصبح من اللازم على كل من يريد الانضمام إلى زمرة العلماء في تلك البيئة أو ذلك العصر، أن يعمل في داخل هذا الإطار، حتى لو لم يكن مؤمناً به، وإلا كان من المبعدين عن زمرة العلماء ولا يكون إبعاده -خصوصاً في المجتمعات الديمقراطية- بقرار سياسي، ولكن بما يسمّى بالإرهاب الفكري، والاستغراب وربما المقاطعة والسخرية، إلى أن يأذن الله بأن يستبدل الإطار الفلسفي إطار جديد.

ما الإطار الفلسفي العام الشائع في عصرنا الآن، والذي يعمل في داخله علماء الطبيعة والإنسان؟

لكي نجيب عن هذا السؤال ينبغي أن نتذكر أن هذه العلوم وإن تكن قد انتشرت اليوم في العالم كله، إلا أنها في منشئها -ومن غير إنكار للجهود التي سبقتها وأهمها جهود العلماء المسلمين- عمل أوروبي وما زالت قيادتها الفكرية عند الغربيين .ينبغي أن نتذكر أن هذه العلوم لم تستوِ على سُوقِها وتُؤتِ أُكُلَها إلا بعد معارك عنيفة مع الدين النصراني ممثلاً في الكنيسة ورجال الدين، وأن هذا الدين كان فيه شيء من الحق المختلط بكثير من الأباطيل، وأن العقائد الدينية فيه كانت ممتزجة بالاعتقاد في **السحر والكهانة**، وأن القائمين على هذا الدين من رجال الكنيسة كانت لهم مصالح دنيوية في أن ينفردوا بالسلطة التي يُرجع إليها في الأمور العلمية، وأنه لما تغلب العلم الجديد في النهاية على النصرانية عُدّت غلبته عليها غلبة على كل تفسير خرافي لظواهر الطبيعة، وعدّ الدين أيّاً كان أحد هذه التفسيرات لا فرق في ذلك بينه وبين

السحر والكهانة والتنجيم وما إليها .جاءت هذه العلوم إذن نتيجة صراع مع الدين، وكانت كلما انتصرت عليه في معركة أمعنت في البعد عنه، حتى أسس بنيانها في النهاية على قواعد مخالفة لقواعده، كأن مؤسسيها كانوا يعتقدون أن كل قرب من الدين هو ابتعاد عن الطريق الصحيح للعلم بحقائق الوجود. ولذلك وصفت هذه العلوم بأنه لا دينية أو دنيوية Secular ، في مقابل علم اللاهوت الذي يهتم بالدين وبأمور الآخرة، وسُمِّيَت بالعلوم أو الفلسفة الطبيعية إشارة إلى أن الطبيعة هي مجالها، بل هي مصدرها الذي تأخذ عنه حقائقها، وذلك في مقابل المصادر الدينية من وحي وعلماء الدين .يرى أحد مؤرخي العلوم أن العلم مرّ في تطوره بمرحلتين: أولاهما مرحلة تطور تقني حدث في القرن السادس عشر، وثانيتهما مرحلة ثورة فلسفيّة حدثت في القرن السابع عشر. لكنه يقول: «إن تصوّر المعرفة الذي كان سائداً (يعني في القرن السادس عشر) كان لا يزال مختلفاً اختلافًا جذريًا عن مفهومها اليوم».

ثم يقول في شرحه لذلك المفهوم: «بما أن العالم المحسوس كان متأثراً تأثراً شديداً بالقوى الفاعلة الإلهية والجنيّة والسحرية، كان الغوص في أسراره كذلك آثار من مهمة دنيوية». ثم يقول معلقاً على هذا الذي قرره وهو موضع استشهادنا: "بما أن بعض جذور المفهوم الحديث للعلم كانت في الصراع ضد هذه النظرة إلى العالم، فمن الصعب أن نتصوّر كيف كان من الممكن وجود نظرة علمية في داخلها. وعلى كل فإن المؤرخ يظل حبيس مقولاته المؤقتة إلى أن يتسنّى له الوصول إلى تفاهم مع هذه النظرة».

أما الثورة التي أشار إليها فهي التي قادها بيكون الإنجليزي، وجاليلي الإيطالي، وديكارت الفرنسي وهي التي جاءت بنظرة جديدة إلى الوجود مخالفة للنظرة المسيحية فحواها أن عالَم الطبيعة عالَم ميّت خالٍ من أي خصائص روحية أو شبه بشرية، وأنه ليس من الممكن لذلك أن يكون بيننا وبين الطبيعة أي نوع من الجوار سواء عن طريق الكشف الروحي أو الوحي الإلهي. واتفق جاليلي وديكارت على أن العالَم مكوّن من أجزاء مادية هي من الصغر بحيث لا يمكن أن ترى، وأن الظواهر الكونية كلها هي نتيجة تفاعل بين هذه الأجزاء التي لا إدراك لها ولا هدف، وأن تفاعلها لذلك هو بمثابة التصادم الذي يحدث بين مجموعة من الكرات.

ولكن حتى في ذلك القرن كانت الصلة ما زالت وثيقة بين العلم الجديد والدين، لأن العلماء والفلاسفة كانوا لا يزالون يصفون القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية "قوانين خلق الله" ولأن روّاد الثورة الفلسفية الجديدة، ونيوتن الذي جاء بعدهم، والذي وضع علم الفيزياء الحديث، كانوا جميعاً من المؤمنين بالدين المسيحي. لم تكن هذه الفلسفة إذن نتيجة العلم الجديد، كما قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين، «وإنما كانت تسليماً مسبقاً بمبدأ ميتافيزيقي" هو الذي وضع -مع نهاية القرن السابع عشر- الثقافة الأوروبية، بما في ذلك العلوم الطبيعية على طريقة **العلمانية** الكاملة».

نعود إلى سؤالنا مرة أخرى: ما الإطار الفلسفي الذي تُوضع فيه العلوم في عصرنا؟ إنه كما رأينا:

١) إطار فلسفة لا دينية، فلسفة ترى أن الظواهر الكونية ينبغي أن تفسّر بأسباب من داخل هذا الكون، أي بأسباب طبيعة لا دخل فيها للإرادة الإلهية، ولا للتجارب الروحية. وإذن فعل العالم الطبيعي أن يبدأ باستبعاد مثل هذا التفسير، أي إن عدم فاعلية القدرة أو الإرادة الإلهية ليس شيئاً استنتجه العالِم من دراسته للطبيعة وإنما هو شيء يبدأ بافتراضه ثم يُحاول أن يبنى عليه مشاهداته ونظرياته. هذا أمر يعرفه ويعترف به كثير من العلماء وفلاسفة العلم الغربيين.

(أ) يرى أحدهم مثلاً أن دارون في محاولته إيجاد نموذج لنظرية يفسّر بها تطور الكائنات الحية «كان يبحث عن عملية طبيعية صرفة لا يتضمن أنموذجها تدخل القدرة الإلهية».

(ب) ويرى آخر أن تفسير دوركا يم للظاهرة الدينية بإرجاعها إلى فكرة التضامن مع النظام الاجتماعي مبنيٌ على حجة إلحادية فحواها أن "الأشياء التي يذكرها المنتمون إلى دين ما، يجب أن لا تؤخذ على أنها إخبار عن الله -لأنه من حيث المبدأ- لا يمكن أن يكون هنالك إخبار كهذا". وعليه فيجب تفسيرها بطريقة أخرى، والتفسير الذي يقترحه دوركا يم هو: «أنها تعبير عن الإخلاص للنظام الاجتماعي»

٢) وهي ليست فلسفة لا دينية بمعنى سلبي، بل هي فلسفة معادية للدين ينتقده أنصارها باسم العلم، ويهاجمونه ويسعون لمحاصرته، ويعملون جاهدين على إبعاده عن مجال العلم، ويحرصون على رفض كل نظرية علمية يخشون أن يكون فيها شيء من التأييد للدين. يقول فرد هويل أن علماء الأحياء التقليديين لن يقبلوا نظريته في التطور المخالفة لنظرية

دارون، والتي فحواها أن تطوّر الأحياء على أرضنا لا يسير بالمصادفة وبلا هدف كما تدّعى تلك النظرية، بل أن سيره محكوم بقوى واعية خارج أرضنا، يقول إن هؤلاء العلماء لن يقبلوا هذه النظرية، رغم وجود جبال من الأدلة على صحتها، لأنها قد تؤدي إلى إيحاءات دينية، «ولأن العلماء التقليديين مهتمون بمنع الرجوع إلى الغلّو الديني الذي حدث في الماضي، أكثر من اهتمامهم بالتطلع إلى الحقيقة. إن النظرة الجهنمية التي وصفناها آنفاً قد سيطرت على التفكير العلمي خلال القرن الماضي كله».

لكن معظم الباحثين في صلة العلوم الطبيعية أو الإنسانية بوجهات النظر الفلسفية والقيم والمعتقدات الغيبية اكتفوا ببيان هذه الصلة في نظريات علمية معينة، إما لمجرد بيان الأصل التاريخي للنظرية، أو لاتخاذ هذا البيان ذريعة إلى نقد النظرية. وإليكم الآن أمثلة مما قالوا أظن أن بعضها سيكون مثار دهشة للقراء: قالوا إن نظرية مالثس المشهورة التي انتهي فيها إلى أن الفقر والعناء أمور حتمية ناتجة عن أن عدد السكان يزداد بمتواليات هندسية، بينما الموارد الغذائية تزداد بمتواليات حسابية، كانت في الحقيقة احتجاجاً على قوانين صدرت لصالح الفقراء. ثم جاء سبنسر فحوّل نظرية مالثس إلى نظرية في التطور الاجتماعي، فحواها أن الطبيعة تنتخب أو تنتقي الأصلح للبقاء، وتتخلص مما سوى الصالحين، قال: "إذا كانوا كاملين بحيث يصلحون للحياة فإنهم سيحيون، ومن الخير أن يحيوا؛ وإذا لم يكونوا كاملين بما يهيئهم للحياة فسيموتون، ومن الخير أن يموتوا". هذا ما في رأيه هو مجرى الأمور الطبيعي الذي ينبغي أن لا نتدخّل فيه.

أظن أن الكثيرين منكم تذكروا قول الله تعالى عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

ثم جاء فاستفاد من النظرتين، ففسر التطور في عالَم الحيوان بالانتخاب الطبيعي ثم عاد سبنسر وأصحابه فوجدوا في نظرية دارون تأييداً علمياً لنظريتهم الاجتماعية، التي سُمِّيت بعد ذلك بالدّارونية الاجتماعية، وقالوا إن هنالك صلة بين تفسير دارون للصفات المتفقة وبين المذهب الفردي الذي كان سائداً آنذاك في النظريات السياسية البريطانية،

وأن الأصل في هذا التفسير هو الدفاع عن تقسيم العمل الذي دعا إليه آدم سميث، وأنه بهذا التفسير حوّل نظرية سياسية إلى صورة للعالم الطبيعي.

ولذلك قال انجلز: "إن كل ما فعله دارون في قوله بالصراع من أجل البقاء هو أن حوّل من المجتمع إلى الطبيعة مبدأ هوبز القائل بالمبدأ الاقتصادي البرجوزاي في التنافس، ونظرية مالثس في السُكان ثم لما اكتمل أداء عملية الساحر -هذه- حُولت النظريات نفسها مرة أخرى من الطبيعة العضوية إلى التاريخ وادّعى الآن أن البرهان قد قام على صدقها بكونها قوانين خالدة للمجتمعات الإنسانية ."وقريب من قول انجلز هذا رأي الفلكي الفيزيائي المعاصر فرد هويل الذي يقول في كتاب له حديث "بإمكاني أن أبدا ببياني أن أفكار نظرية دارون كان قد سبق أن احتلت لها مكاناً منذ عام ١٨٣٠م، أي قبل ما يقرُب من ثلث قرن قبل نشر كتاب "أصل الأنواع" لدارون في عام ١٨٥٦م، ولكن بينما كانت الأفكار قد وجدت فإن حال المجتمع لم يكن قد تهيأ لها .كانت هنالك حاجة إلى تغيير مهم قبل أن تستدعي هذه الأفكار، ثم يبين أن هذا التفسير كان في ظهور الشركات التي كانت تتنافس في تجويد منتجاتها، لأن هذا **التجويد** كان وسيلة البقاء بالنسبة لها.ثم يقول "لقد كانت الخطوة قصيرة من تجربة عملية في التجارة إلى مفهوم تحسين النوع عن طريق الانتخاب الطبيعي، ثم يُعلّق على هذا التشابه تعليقاً مهماً فيقول: "إن كل الناس -إلا قلة من العلماء- أغفلوا خطوة خطيرة في قياس الانتخاب الطبيعي على الانتخاب التجاري. إن الانتخاب التجاري إنما يحدث لأن وراءه عقول بشرية تدأب على تحسين نوع منتجاتها ومداها. الانتخاب التجاري بعيد إذن كل البعد عن الانتخاب الطبيعي، ذلك الشيء الذي لا هدف له كما يفترض في علم الأحياء».

اختلافات داخل الأطر:

وإذا كانت الأطر الأيديولوجية تختلف من عصر إلى عصر، فهنالك اختلافات بين العلماء داخل الإطار الواحد وفي نفس العصر الواحد:

(أ) فهنالك اختلافات وطنية، ومما يذكرونه في هذا المجال مقال كتبه الفيزيائي الفرنسي بيير دويم قارن فيه بين طريقة الفيزيائيين النظريين في كل من بريطانيا

وفرنسا في تناول المشكلات المتعلقة بالنظريات الكهربائية. فأوضح فيه أن الفرنسيين يميلون إلى وضع هذه النظريات في قالب رياضي بينما يميل البريطانيون إلى البحث عن نماذج عملية تساعد على فهم الظواهر الطبيعية بطريقة مرئية أو حسية غير رياضية. وقال إن هذين الاتجاهين ليسا قاصرين على علم الفيزياء بل يشملان مجالات فكرية وحياتية أخرى.

(ب) واختلافات في دلالات التجارب، خذ مثلاً لذلك التجربة التي تجري على الفئران فيما يُسمَى بصندوق اسكنر -نسبة إلى العالم السلوكي الشهير-، هذا صندوق مزوّد بجهاز فيه قضيبين كلما ضغط عليه الفأر سقطت إليه قطعة طعام، فلوحظ أن الفأر يظل يردد ضغطه على القضيب ويأكل قطع الطعام الساقطة إليه حتى إذا شبع كف عن الضغط .يستنتج السلوكيون من هذه التجربة وأمثالها ن السلوك الحيواني -بما في ذلك سلوك الإنسان- يقوم على قاعدتين هما: التنبيه "الضغط على القضيب"، والاستجابة "وصول الطعام."ويستنتجون من ذلك أنه لا داعي لافتراض مؤثرات غير مادية كالقرار والإرادة وحتى العقل .لكن خصوم السلوكيين يقولون إن ما استنتجوه من أمثال هذه التجارب ليس هو كل ما تدل عليه المشاهدة وأن هنالك تجارب أخرى تدل على أن دوافع الأفعال ليست محصورة في توقع هذه الجزاءات المادية. فيقول أحدهم:"إن كل من درس حيواناً في صندوق اسكنر يلاحظ أولاً أن الضغط على القضيب يستغرق أقل قدر من وقت الحيوان، فهنالك بالإضافة إلى هذا أنواع أخرى من السلوك المميز للحيوان، كالجري، والانتصاب على الرجلين الخلفيتين، والاستشمام، واستكشاف الصندوق، إن علماء النفس السلوكيين يعتبرون كل نوع من هذه الأنواع السلوكية أجنبياً على موضوع التجربة من الناحية العلمية. «إن السلوك الوحيد الجدير بأن يُشار إليه فيما يبدو هو عدد المرات التي يضغط فيها الفأر على القضيب لينال مكافأة هذا العمل. إن الذي يحدث في هذا الوضع المصطنع هو أن المجرّب قد اعتمد على تعريف انتقائي للسلوك».

وأما إذا أخرجنا الفأر من هذا الوضع المصطنع وتركناه على طبيعته بأن وضعناه على منضدة مثلاً فإن هذا التعريف المنتقى لا يصلح لتفسير سلوكه، ثم يذكر أمثلة أخرى تدل على أن السلوك الحيواني لا يمكن أن يفسّر كله في نطاق أنموذج التنبيه والاستجابة، ثم يقول: "منذ أكثر من خمس وعشرين عاماً والسلوك الإنساني يفسّر على أساس فهم خاطئ لمشاهدة الفئران والجرذان.

(جـ) إن العلوم الطبيعية التجريبية أضبط -كما هو معروف- من العلوم الإجتماعية والإنسانية، وأكثر العلوم الطبيعية دقة وأقربها إلى المثال الرياضي وأساسها وقاعدتها هو علم الفيزياء، لكن حتى هذا العلم المثالي بعيد كل البُعد عن تلك الصورة الساذجة الشائعة. والفيزيائيون بشر يخطئون، بل قد يجمعون على الخطأ لفترة من الزمان، فقد كانوا جميعاً إلى قُرب نهاية القرن التاسع عشر يعتقدون بوجود مادة اسمها الأثير تملأ كل مكان بين الكواكب، وكل مكان بين النجوم، وتُمثّل الوسيط الذي ينقل الموجات الكهرومغناطيسية، حتى لقد قال الفيزيائي الاسكتلندي الشهير ماكسول (الذي اكتشف المعادلات الأساسية التي تحكم القوى الكهربائية والمغناطيسية): «مهما كانت الصعاب التي نجدها في إعطاء صورة متسعة لتكوين الأثير فليس هناك من شك في أن المكان بين الكواكب أو بين النجوم ليس فارغاً بل يحتله جوهر مادي أو جسم هو بالتأكيد أكبر وربما كان أكثر الأجسام التي نعرفها تماثلاً واتساقاً».

وهذا شيء طبيعي، فالذي يُميّز العالِم سواء كان عالِم طبيعة أم مجتمع أم شريعة ليس هو العصمة من الخطأ وإنما الإذعان للدليل والرجوع عن الخطأ. وإذا كان الفيزيائيون يخطئون فإنهم أيضاً يختلفون في تفسيرهم لما يشاهدون ويُجربون، وقد تكون أقوالهم في المسألة الواحدة أكثر من أقوال الفقهاء وأشد تناقضاً، فهؤلاء علماء الميكانيكا الكمية يختلفون في الحقيقة التي تدل عليها حقائقها الواقعية إلى أقوال أوصلها بعضهم إلى ثمانية، فمنهم من يقول إنها تدل على أنه ليس وراء الظاهر الشاهد من حقيقة أعمق، ومنهم من يرى أن الحقيقة تحدثها المشاهدة، ومنهم من يرى أن الحقيقة كلٌّ لا يتجزأ، ومنهم من يرى أن هنالك عدداً متزايداً ومتوارياً من العوالم، ومن يرى أن العالَم مبني على منطق غير المنطق البشري المعهود، ومن يرى أن العالَم مكّون من أشياء مثل الأشياء المعهودة في العالم المشاهد، ومن يرى أن الحقيقة ينشئها الوعي، ومن يرى أن العالَم مزدوج فهو مكّون مما هو بالقوة وما هو بالفعل. والذين قالوا بكل هذه الأقوال والذين قالوا أنه قد تكون الحقيقة مخالفة لكل هذه الأقوال ليسوا فلاسفة ولا رجال دين وإنما هم فيزيائيون مختصون بل إن بعضهم من كبار رجال هذا العلم ومؤسسيه.

مسوّغات إسلامية:

بعض إخواننا من دعاة إسلامية العلوم يعجبهم اعتراف الغربيين هذا بعُسْر الموضوعية أو تعذرها، ويرون فيه أكبر مسوّغ لدعوتهم، فكأنهم يقولون للغربيين: إذا كنتم

تنظرون إلى الواقع من خلال أيديولوجيتكم وفلسفاتكم وتفسرونه في ضوئها، فلماذا تعيبون علينا أن نفعل ما تفعلون؟ هذه حجة ضعيفة غايتها أن تفحم الخصم لكنها لا تصلح أن تكون مسوّغاً لإسلامية العلوم لأنه يلزم عنها:

١- أما القول بعدم وجود حقيقة موضوعية نسعى لإدراكها ولذلك يجوز لكل إنسان أن يقول ما شاء حسب دينه ومذهبه وهواه، وهنا يكون الموقف أسوأ من موقف جماهير العلماء والفلاسفة الغربيين، لأنهم وإن اعترفوا بعُسْر الموضوعية لكنهم لا يقولون باستحالتها.

٢- أو القول بأن هناك حقيقة موضوعية لكنه من المتعذر معرفتها كما هي. بل أنها لا تدرك إلا مصطبغة بصبغة المنظار الأيديولوجي الذي يضعه المشاهد على عينيه.

٣- بل يلزم عنها التشكيك في الحقائق الكبرى التي يقوم عليها الدين نفسه، لأننا لا نريد أن نقول أن الإيمان بالله وبالدار الآخرة وبنبوّة محمد ﷺ إنما هو وجهات نظر لجماعة من الناس يُسمون بالمسلمين، وأنها ليست حقائق موضوعية يمكن أن يُقام عليها دليل عقل صحيح.

إن مسوّغ الإسلامية لا يقوم على التسليم بالنسبية أو القول بالذاتية لأن اختلاف الأطر من عصر إلى عصر، ومن بيئة ثقافية إلى بيئة، ومن حضارة إلى أخرى، لا ينهض دليلاً على المساواة بينهما أو على استحالة تقويمها هي نفسها تقويماً عقلانياً .إن مسوّغ الإسلامية يقوم على الاعتقاد بأن الموضوعية ممكنة، وأن بعض الأطر -بالقياس العقلي- خير من بعض، وأن الإسلامي -بالقياس العقلي- هو خير تلك الأطر وأصلحها. لكن صلاحية الإطار الإسلامي لا تعني أن الأُطرَ الأخرى تحول دون إدراك أية حقيقة بموضوعية أو تصبغها بصيغتها، لأن الإنسان مهما بلغت اعتقاداته من الفساد يظل قادراً على إدراك بعض الحقائق واكتساب نوع من العلم، يقول الله تعالى عن منكري الآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧]. فهم إذن يعلمون شيئاً مما يتعلق بالحياة الدنيا رغم حبسهم لأنفسهم في إطار لا يعترف بوجود دار آخرة. لكن هذا الإطار يحول دونهم ودون إدراك حقائق أخرى.. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠] ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾؛ بلى كانوا يرونها وكيف لا يرى ذو عينين قرية وهو يمر

عليها؟ إنهم يرونها فيعلمون شيئاً هو الذي وصفته الآية الأولى بالعلم الظاهر، لكن إنكارهم للآخرة يحول دونهم ودون تفسير هذا الذي يرونه تفسيراً صحيحاً، يحول دونهم ودون إدراك ما يدل عليه ويشير إليه هذا الواقع المشاهد. وعدم الإدراك هذا نقصان في العقل سببه ذلك الإطار الذي يُنكر الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ﴾ [العنكبوت:٣٥]، أي من تلك القرية، آيَةً - أي دليلاً وشاهداً -﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فرؤية ما بقى من القرية على أنه آية يحتاج إلى كمال في النظرة العقلية لا يتأتى لمن يحبس نفسه في إطار أيديولوجي لا مجال فيه للآخرة .في ضوء هذه الحقيقة يمكن أن نجيب على شبهة كثيراً ما تُذكر لتأييد الإطار الإلحادي أو لإنكار الإطار الإيماني. يقول أصحاب هذه الشبهة: «إن العلوم الطبيعية قد حققت إنجازات كبيرة»، فنقول نعم.

ويقولون: «ولو لم تكن قائمة على حق في تقريرها للواقع وفي تفسيرها له لما نتجت عنها هذه الإنجازات؟" ثم يخلصون إلى القول بأن هذا دليل على صحة الإطار الإلحادي الذي وضعت فيه أو يدل على أقل تقدير على أن هذا الإطار هو الإطار المناسب لمثل هذه العلوم وإن كانت له مشكلاته في مجالات أخرى .هذا الكلام يصح حجة على من يزعم أن الملحد لا يمكن أن يدرك أي نوع من العلم. وقد قلنا بغير ذلك .ويصح لو ثبت أن ما أدرك في حيّز الإطار الإلحادي من علوم لا يمكن أن يدرك في حيز الإطار الإسلامي ولا دليل على ذلك.إن الكافر والمؤمن كليهما يعلمان بوجود الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والأشجار والأنهار، ويعلمان كثيراً من الأسباب الطبيعية ويأخذان بها، فهنالك إذن علم مشترك بين الإطارين.

وإذن فما يعترف به الإطار الإلحادي من حقائق ليس شيئاً خاصاً به أو ناتجاً عنه وحده، وإنما هو أمر مشترك بينه وبين الإطار الإيماني لأنه ليس في الإطار الإيماني ما يمنع من إدراك أية حقيقة تدرك في حيز الإطار الإلحادي .لكن مِيزة الإطار الإيماني -وهو إطار العقل الكامل- أنه يساعد على إدراك حقائق ومؤثرات وتفسيرات أخرى لها نتائج نافعة في حياة الناس العلمية والعملية والنفسية لا مجال لها داخل الإطار الإلحادي. والدعوة إلى إسلامية العلوم هي إذن دعوة إلى تأكيد الموضوعية لا إلى التخلّي عنها، لأنها دعوة إلى أن يكون إطارها الفلسفي نفسه قائماً على حقائق موضوعية، إنها دعوة إلى أن يفكر العالِم ويشاهد ويجرب ويستنتج وهو مؤمن بالله، وبأن محمداً رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن كلام الله، لأن هذه نفسها حقائق موضوعية عنده دليل عقلي على صحتها، إنها ليست دعاوى اعتقادية بل هي إيمان بقوم على علم ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وإذا كان بعض الناس لا يؤمن بهذه الحقائق لجهلهم بها أو لعنادهم، فإن الباحث المسلم لا يرجئ إيمانه بها حتى يذعن الآخرون جميعاً ويسلموا، كما أن أصحاب الإطار الإلحادي لم ينتظروا حتى يصير الناس جميعاً ملحدين. بل أن إيمانه بها وإعلانه لهذا الإيمان وهو يبحث ويفكر ويجرِّب ويكتب ويناقش سيكون من أقوى الأدلة على أنه لا تناقض بين البحث العلمي والاعتقاد الديني الإسلامي، بل إن ما ينتج عن الالتزام بهذا الإطار من ثمار علمية واقعية ونظرية سيكون هو نفسه من أقوى الأدلة على فضله وتفوقه على الإطار الإلحادي المادي.

وإذا كان المسلمون الممارسون للعلم سيفعلون ذلك وهم متفقون على صحة الإطار الإسلامي، فإن إخوانهم المشتغلين بفلسفة العلوم وتنظيرها ومناهجها، أو الجامعيين بين الأمرين جميعاً سيهتمون بالحديث عن هذا الإطار وإثبات حقائقه وبيان فضله على غيره من الأطر، أي أن ما كان يُسمَّى بعلم الكلام أو علم أصول الدين سيكون كثير منه جزءاً مما يُسمّى اليوم بالفلسفة العلمية. وهذا لم يُعد اليوم أمراً غريباً .لقد تطورت بعض العلوم -سيما الفيزياء والأحياء- إلى حدٍ جعل كثيراً من المشتغلين بها يضيقون بالإطار المادي، ويفتحون باب الحديث مرة أخرى عن دلالتها على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وقد كان مجرد الحديث في هذه الأمور يُعد -إلى عهد قريب- نوعاً من الخيانة للعلم، بل كان يقال أن السؤال عن وجود خالق للكون سؤال غير مشروع فضلاً عن أن تكون له إجابة صحيحة أو خاطئة .وحين يُبيّن المُنظّر أو الفيلسوف المسلم فضل الإطار الإسلامي على غيره فإنه لا يتحدث لإخوانه المسلمين فحسب، ولا يقول إن الإطار الإسلامي صالح لعلم دون علم، أو لأمة دون أخرى، بل إن هدفه أن يُبيّن صلاحية هذا الإطار للبحث العلمي أيّاً كان، وللباحث أيّاً كان.

وعليه فمن الخطأ أن ينظر إلى إسلامية العلوم على أنها علوم خاصة بالدين الإسلامي، أو بأحوال المسلمين الراهنة، أو بتاريخهم، فهذا خطأ؛ أولاً لأنه يُسلّم بصحة

النظرة النسبية، فكأنه يقول للغربيين أن نظرياتكم في العلوم الإنسانية صالحة لمجتمعاتكم ونظرياتنا صالحة لمجتمعاتنا. إن العالم الغربي الذي يؤمن بالموضوعية يعتبر نظريته صالحة لتفسير الظواهر التي يتحدث عنها حينما وُجدت، ولا يعتبر علمه خاصاً بالمجتمعات الغربية، كما أن زميله في العلوم الطبيعية لا يعتبر علمه عِلماً غربياً بمعنى أنه يصلح للغربيين وحدهم، أو يفسّر الظواهر الطبيعية المتعلقة ببلادهم.
إن عالِم الاجتماع الغربي يعتبر "القوانين" التي توصّل إليها؛ قوانين للمجتمعات الإنسانية أياً كانت، ونحن كذلك نريد أن نضع أنفسنا في الإطار الإسلامي ونحن نبحث في علوم الفيزياء والكيمياء وسائر العلوم الطبيعية، وأن نضعها في هذا الإطار ونحن نبحث في علم النفس الإنسانية وعلم الاجتماع الإنساني وعلم الاقتصاد الإنساني وعلم التاريخ الإنساني، لا نفوس المسلمين ومجتمعات المسلمين واقتصادهم وتاريخهم فحسب.
إن **القرآن الكريم** يتحدث عن الإنسان في أصله الفطري: الإنسان المسلم، وغير المسلم، فحين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، فإنه لا يعني الإنسان المسلم، لأنه يقول بعد ذلك: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:٢٢]. بل إنه لا يتحدث عن الإنسان في أصله الفطري لأنه تعالى يقول في آية أخرى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، والرسول ﷺ يقول: **(كل مولود يولد على الفطرة)** من حديثٍ رواه البخاري. ومن هنا نخرج بتصوّر عام للإنسان فنقول إنه في أصله الفطري، كذا وكذا، وإذا حاد عنه صار كذا وكذا، وإذا أسلم كان إسلامه امتداداً لذلك الأصل فصار كذا وكذا.

وكذلك حين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، فإنه يعطينا قانوناً اجتماعياً عاماً شاملاً لكل المجتمعات الإنسانية وليس خاص بالمجتمعات الإسلامية. إن ميدان علماء الاجتماع المسلمين لا يقتصر على المجتمعات الإسلامية، بل يشمل المجتمع الإنساني كله، بما في ذلك المجتمعات الغربية، فهم يبحثون في مشكلاتها الإجتماعية والنفسية، ونُظمها السياسية، وعلاقاتها الإجتماعية والدولية، وتاريخها، ومستقبلها، ويطلعون على ما يكتب علماء الاجتماع الغربيون ويناقشونهم، لكنهم يفعلون كل ذلك وهم مستشعرون لإيمانهم بالله وبأن محمداً رسول الله ﷺ وأن القرآن كلام الله، كما أن الباحث الغربي

يدرس تاريخ المسلمين وواقعهم الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي وقد وضع نفسه في إطار غير الإطار الإسلامي .والإطار الإسلامي لن يعصم العالم المسلم من الخطأ، ولن يجعل كل ما يقوله موافقاً للإسلام، ولن يمنع من تعدد الآراء والنظريات واختلاف العلماء المسلمين وتخطئة بعضهم لبعض، لأنه إذا كان كل هذا يحدث في مجال الفقه "والأدلة الشرعية التفصيلية أقرب إليه" فكيف لا يحدث لمن لا يملكون مثل هذه الأدلة التفصيلية ولمن يكتفون -في معظم الأحيان- بمجرد وضع علمهم في داخل الإطار الإسلامي .وإذا كانت الدعوة إلى إسلامية العلوم لا تخالف الموضوعية بل تؤيدها، فإنها تضع للعالم المسلم حلاً لمشكلة نفسية لا يشعر بها العالِم الملحد ولكن يشعر بها كثير من العلماء المؤمنين بالنصرانية أو المعتقدين في وجود الخالق وفاعليته. أعني مشكلة الانفصام بين شخصية الإنسان وهو يبحث في مجاله العلمي ويكتب ويناقش، وشخصيته وهو يتلو كتاب الله تعالى ويصلى ويصوم ويتزوج ويعاشر الناس .والانفصام سببه أن الحالة الأولى تفرض عليه أن ينسى إيمانه أو يعلقه، والحالة الثانية تدعوه إلى أن يذكر هذا الإيمان ويستشعره. والإنسان لا يرتاح إلى الشتات في الأمور الفكرية، فكيف به في الأحوال النفسية؟

فإذا كان العلماء الطبيعيون يبحثون -تخلصاً من الشتات وسعياً إلى الوحدة- عن مبدأ واحد أو نظرية واحدة ترجع إليها سائر النظريات الأساسية حتى تفسّر مظاهر الطبيعة بمبدأ واحد ترجع إليه حقول القوى الطبيعية الأربعة المعروفة حتى الآن، أعنى الجاذبية والكهرومغناطيسية والحقل القوي والحقل الضعيف ."وإذا كانوا يبحثون وراء مظاهر المادة المختلفة الأشكال والألوان والأحجام والخصائص عن اللبنات الأساسية التي ترجع إليها هذه المظاهر، أفلا يسوغ -بل أليس من الأحرى- أن يبحث العالم عن تصور الكون بجمع شتات نظراته الطبيعية والاجتماعية والفردية، بحيث لا يعيش في انفصام بين شخصه وهو باحث علمي، وشخصه وهو رجل اجتماعي، وشخصه وهو ربّ أسرة، وشخصه وهو متأمِّل في ذاته أو متذوق للجمال أو ملتزم بالأخلاق أو مدافع عن الحقوق؟ إنّ المبدأ الذي يجمع هذا الشتات هو مبدأ التوحيد، مبدأ الإيمان بالله واحداً لا معبود بحقٍ سواه، والإيمان بأن طريق محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الطريق الموصل إلى الله.

****

علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية

محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل كل كلامنا طيبا، وأن يجعل كل عملنا صالحا، وأن يجعله كله لوجهه خالصا، وألا يجعل لأحد له فيه شركا.

أيها الإخوة الأعزاء!

إنني بعد شكر الله - سبحانه وتعالى - على أن أتاح لي هذه الفرصة الثمينة لآتي إلى هذا البلد الحبيب إلى قلب كل مسلم، ولأتحدث في هذه الجامعة العظيمة المنتمية إلى هذا البلد الكريم بعد شكر الله - سبحانه وتعالى -، أشكر القائمين على أمر هذه الجامعة الذين تفضلوا فدعوني للتشرف بالحديث إليكم وأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأرجو أن أستفيد من تعليقات وتوجيهات إخواني الأساتذة وأبنائي الطلاب.

أيها الإخوة الأعزاء!

إن الموضوع الذي نريد أن نتحدث عن بعض جوانبه اليوم هو موضوع خطير، وهو قضية كبيرة لها في تاريخ الإسلام تاريخ طويل، انشغلت بها عقول إسلامية كبيرة، وتحدثت فيها شخصيات إسلامية فاضلة، ولكن هذه القضية وهي قضية العلاقة بين العلم أو بين العلوم التجريبية أو الحسية والعلوم العقلية من ناحية والدين من ناحية أخرى، هذه القضية - كما قلت - شغلت عقول كثير من علمائنا في الماضي ولكنها تعود فتطل علينا مرة أخرى في هذا العصر ربما لنفس الأسباب التي جعلت المسلمين يشتغلون بها في ذلك العصر، الذي جعل المسلمين يهتمون بقضية العلاقة بين العقل والدين هو - من بين الأسباب - ترجمة الفلسفة اليونانية من ناحية، ثم عندما اتصل المسلمون بأصحاب الأفكار والفلسفات الأخرى حتى من غير الفلسفة اليونانية وأرادوا أن يردوا على الكفار -ولا سيما الدهريين منهم- نشأت هذه القضية ونحن اليوم نتصل بالفكر الغربي، والفكر الغربي فكرٌ أيضاً يقوم في مجمله على المادية وعلى الإلحاد، فالقضية تطل علينا مرة أخرى ولكن في ثوب جديد، هذا الثوب وهو ثوب

جذاب جداً، فحوى القضية اليوم: أن كثيراً من المشتغلين أو كثيراً من المفكرين الغربيين ومن تأثر بهم من المسلمين يقولون: إن العلم قد نجح نجاحاً باهراً لا يَشكُّ فيه إلا مكابر -أعني العلم التجريبي-، فها هو قد اكتشف كثيراً من الحقائق، وقامت على هذه الكشوف تقنية دقيقة شملت كل أنواع الحياة. هذه التقنية ساعدت في تيسير الحياة على الناس في كل جانبٍ من جوانبها، وهذا العلم لم يقم إلا على الحس وعلى العقل، وإذن يستنتج بعض أصحاب هذه الفكرة من هذا أن الدين لا مجال له، نحن قد استطعنا أن ننجح هذا النجاح الباهر من غير أن نعتمد على وحي ومن غير أن نهتدي بهدي الأنبياء، وإذا كان نجاحنا اليوم محصوراً في النطاق المادي فإننا غداً نستطيع أن نتوسع فتشمل علومنا هذه كل نواحي الحياة وكل ما يحتاج إليه الإنسان وبذلك لا يكون بحاجة إلى الدين. هذا التصور فيه كما ترون كثير من الغرور، وهذا التصور كان سائداً إلى أواخر القرن الماضي وربما بدايات القرن العشرين ولم يخفف من حدته وغلوائه إلا الحروب، الحربان العالميتان الأولى والثانية. شعر كثير من المفكرين الغربيين أن العلم التجريبي وحده لن يحل كل المشاكل.

لكن المهم أن هذا التحدي ما زال قائماً في صورة أو أخرى يواجه به المنتسبون إلى الملل -سواءً كانت الإسلامية أو النصرانية أو اليهودية-. ثم من مظاهر أو من أشكال هذا الادِّعاء أن يقول أصحاب هذه الفكرة: إذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتائج الباهرة بهذا المنهج الذي سلكناه -وهو الذي يسمى الآن بالمنهج العلمي المعتمد على الحس والعقل- يقولون إذا كل دعوى لا تأتي عن هذا الطريق فليست علماً؛ لأن هذا هو المنهج العلمي، كل دعوى لا يقام عليها دليل من النوع الذي يرتضيه العلماء التجريبيون فليست علماً، وإنما هي مجرد دعاوى لا سند لها ولا دليل عليها، ولذلك فإنهم يضعون ما يسمَّى بالعلم في جانب، ويضعون في الجانب الآخر الدين والخرافة والسحر والكهانة، كل هذه يضعونها في حزمة واحدة؛ لأنها كلها في رأيهم ليست علمية ولا يقوم عليها دليل.

كيف نرد على هذا التحدي؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال أريد أن أتعرض لمسألتين:

المسألة الأولى: هل الانشغال بالرد على مثل هذه الدعاوى أمر مشروع، أم أنه تضييع للوقت وانشغال بما لا يفيد؟ كثير من المنتسبين إلى الأديان سواءً كانوا مسلمين أو غير مسلمين يرون رأياً كهذا، يقولون: ينبغي إلا ننشغل بالرد على مثل هذه الدعاوى، وأن الدين ماضٍ في طريقه، وأن حجج الدين واضحة لمن أراد أن يطلع عليها فلا ننشغل بالرد عليها. لكننا نقول: ونحن معشر المسلمين دعاة إلى الخير، والخير أحياناً تحول بينه وبين الإنسان عوائق فكرية -شبهات-، يصعب أن يصل الخير إلى قلب إنسان قامت في ذهنه شبهات، خصوصاً إذا كانت هذه الشبهات متعلقة بالعلم ومتعلقة بالعقل ومتعلقة بالحس، يعني إذا وقر في صدره أن الدين يخالف العقل، يخالف الحس، يخالف العلم، فإذن هو لن يهتدي، ولن يستمع حتى تزول الشبهات، فلذلك لا بد من إزالة الشبهات هذه حتى نستطيع أن نوصل الخير هذا إلى الناس، ولذلك فإن الله - سبحانه وتعالى - عندما أمرنا بالدعوة فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قال بعد هذا: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فنحن مأمورون بالدعوة، ومأمورون أيضاً بالمجادلة حين يستدعي الأمر هذه المجادلة، وعلماؤنا كانوا يقولون: إن المجادلة من قبيل الجهاد والدفع عن الإسلام؛ لماذا ؟ لأن صاحب الشبهة أو صاحب البدعة قد يستطيل بها على الناس، وقد يقول: إنه صاحب عقل، وإنه صاحب علم، وأن معارضيه -إن كان هو ملحداً- من المؤمنين أصحاب خرافة أو قومٌ يتبعون عواطفهم وأهواءهم، أما أنا فأتبع المنهج العلمي، وأبحث عن الحقائق، وكذلك إن كان صاحب بدعة اعتبر مخالفيه من أهل السنة أيضاً أصحاب عقولٍ ضعيفةٍ وأناسٌ نصيّون، لا يفكرون، يحفظون فقط، وهكذا.

فإذا لم تجادله، وإذا لم تبين ضعف حجته، وإذا لم تقهره، استطال على الناس، وهذه الاستطالة تكون حاجزاً ليس بينه هو وبين الدين فقط (بين الدين الصحيح)، ولكن بين كثيرٍ من الناس من غير العلماء، ومن الضعفاء الذين قد يتأثرون بمثل هذه الشبهات، فتكون حائلاً بينهم وبين معرفة الحقيقة، فكما أنك تدافع عن ضعفة المسلمين وتصد عنهم عوادي المعتدين بالقوة المادية، فكذلك يجب أن تدافع عن ضعفة المسلمين وتصد عنهم عوادي الفكر والشبهات المخالفة للدين، ولا تدافع فقط عن

المسلمين، وإنما تدافع أيضاً عن كل إنسان يريد الحق، أو في قلبه ميلٌ إلى الحق، إذا كانت هذه الشبهات تحول بينه وبين الوصول إلى ذلك الحق. إذن لا بد من الرد على أصحاب الشبهات.

المسألة الثانية: هي أننا ينبغي أن نحذر في مجادلتنا لأهل الباطل من أن نأخذ عنهم بعض باطلهم، أو أن نرد بعض حقهم؛ فيضعف موقفنا أمامهم، ليس هذا فحسب، بل إن أخذ ذلك الباطل ورد ذلك الحق يعود فيؤثر في فهمنا للدين أثراً سيئاً جداً. وكلا الأمرين حدثا في تاريخ الإسلام.

أكرر هذه المسألة مرة أخرى، إنك حين تحاول أن ترد على الكفار والمنحرفين تقرأ حججهم؛ لأنك تريد أن ترد عليها، فاحذر من أن تتأثر ببعض القواعد والأصول التي يؤصلونها، فهذا يكون انحرافاً، واحذر أيضاً من أن ترد بعض الحق الذي يقولون به فيسبب لك هذا أيضاً انحرافاً.

كيف يحدث هذا الانحراف؟:

الانحراف الثاني:

يقول الإنسان لنفسه ويعتقد وهو محق في اعتقاده: أن هؤلاء ما داموا كفاراً فهم على باطل. لكنه يستنتج من هذا نتيجة ليست بصحيحة، فيظن أن كل ما قالوا هو إما من أسس باطلهم أو من لوازم باطلهم، وهذا ليس بصحيح، فالإنسان قد يلتزم مذهباً باطلاً ولكنه في داخل هذا المذهب يقول بعض الحق ويقرر بعض الحقائق، فلا تذهب في ردك لباطله وتبالغ حتى ترد بعض الحق الذي قال به.

قلت لكم: إن هذا حدث في تاريخ الإسلام، كلا الانحرافين حدث. مثلاً: الجهمية، يقول الإمام أحمد في كتابه المشهور الرد على الجهمية - مع الأسف نص الحديث ليس معي ولكنه يقول كلاماً فحواه - أن سبب ضلال الجهم أنه التقى جماعة من الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق، أظن اسمهم السمنية، فقالوا له: ما هذا الرب الذي تعبده؟ هل رأيته بعينك؟ قال: لا. سمعته بأذنك؟ قال: لا. شممت رائحته؟ قال: لا. ذقته؟ قال: لا. لمسته؟ قال: لا. قالوا: إذاً أنت تتحدث عن لا شيء.

إذا كان الشيء لا يعرف بهذه الحواس الخمس، فإذن هو ليس موجوداً، ولا وجود له، فتحير مدة من الزمان ثم جاءهم وقال لهم: وجدت الرد عليكم. قالوا له: ماذا؟ قال:

هل لكم عقول؟ قالوا: نعم. قال لهم: رأيتموها بأعينكم؟ قالوا: لا. شممتموها؟ لا.سمعتموها؟ لا. وهكذا كل الأسئلة التي سألوه إياها عن الله سألهم إياها عن العقول فأفحمهم، لكنَّ هذا كان بداية شر عظيم عليه وعلى المسلمين. كيف؟ تلاحظون أنه هنا مثل الله - سبحانه وتعالى - بالعقل، والعقل عرض، العقل ليس شيئاً موجوداً في الخارج، وإنما هو عرض، فالتزم إذن أن الله - سبحانه وتعالى - هو شيء كالعقل، فالتزم لوازم كل هذا التصور، ما دام هو شيء كالعقل، إذن لا يمكن أن يكون في جهة، إذن لا بد أن تؤول الآيات التي تقول (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥) وكذا وكذا. ما دام هو كالعقل فلا يمكن أن يوصف بأنه سميعٌ وبصيرٌ وعالمٌ وكذا وكذا؛ لأنه لا يوصف به، أما أن يوصف بأن له يد ووجه وكذا فهذا من باب أولى.

ألم تسمعوا كثيراً هذه الحجة تتردد الآن؟ كثير من الناس إذا أرادوا أن يردُّوا على الماديين، يقولون لهم كلاماً كهذا الذي كان يقوله الجهم! فالله - سبحانه وتعالى - ليس كالعقل، الله - سبحانه وتعالى - ذات موجودة في الخارج، ليس فكرة، ليس شيئاً ذاتياً كما يقال في التعبير اليوم، وإنما هو شيء - كما يقال في التعبير اليوم أيضاً- موضوعي هو موجود في الخارج، وإذا كان موجوداً في الخارج فلا بد له من صفات، لا بد له من كذا.. -كل الكلام الذي قاله أهل السنة-.

لكن هذا كان سبب ضلالهم، وأخَذَ هذا الكلام كثير، فتأثر بهذا الكلام عقول كبيرة -كما تعرفون-، أبو حامد الغزالي، الفخر الرازي، وقادهم هذا إلى أن يقولوا إن الله ليس داخل العالم ولا خارج العالم ولا كذا وكذا، فقال لهم العلماء من أهل السنة: ليس هناك إلا العالم وخارج العالم، فإذا لم يكن الشيء داخل العالم ولا خارج العالم فإذن لا وجود له. هذه مسألة عقلية فينبغي إذن أن نحذر من هذا.

نعود إلى سؤالنا مرة أخرى كيف نرد على هؤلاء؟

من الأخطاء التي وقعنا فيها نحن أيضاً في الرد على الملحدين والماديين: أننا رددنا بعض الحق الذي يقولونه، وسلمنا لهم ببعض الدعاوى التي يدعونها. هم يظهرون بأنهم يعظمون العقل جداً، فجنح كثير منا إلى التهوين من شأن العقل، يعني كأن الدين لا

يقوم إلا إذا هوَّنَّا من شأن العقل، فإذا كانوا هم قد استطالوا بعقولهم فنحن سلمنا -لا أقول نحن جميعاً؛ بعضنا سلم لهم بذلك-. ولذلك يوصف بعض الناس على سبيل الذم بأنهم عقلانيون، أو أنهم يعتمدون على العقل، وأنتم تعرفون أن أهل السنة لم يكونوا يصفون إنساناً ضالا بأنه صاحب عقل أو أنه عقلاني، ولكن كانوا يسمونها الفرق الضالة أو أصحاب الأهواء؛ لأن هنالك فرقاً كبيراً بين العقل وبين الهوى.

فهذه من المسائل التي وقعنا فيها مع أننا نقرأ كتاب الله - سبحانه وتعالى - من أوله إلى آخره لا نجد فيه أبداً أنه ذم إنساناً؛ لأنه استعمل عقله أو اعتمد على عقله أبداً، بل نجد فيه ذماً للذين لم يؤمنوا بأنهم لا يعقلون، فهذا خطأ.

والخطأ الثاني (الذي وقعنا فيه أيضاً): أنهم قالوا إن علمهم كله مبني على الحس والعقل، فأيضاً أردنا أن نهوِّن من شأن الحس، قالوا: إن الموجود لا بد أن يكون محسوساً، فقلنا نحن كلاماً -أو قال بعضنا- كلاماً قريباً من كلام الجهمية.

لا. ليس من شرط الموجود أن يكون محسوساً وأنا واحدٌ من الذين كانوا يقولون هذا الكلام إلى أن تبين لي أنه خطأ من قراءاتي لعلماء المسلمين ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية -. نعم، إن الموجود لا بد أن يكون محسوساً، محسوساً بمعنى يمكن أن يُحس، ليس معناه أنه يحسه كل إنسان في كل وقت، هذا لا يقوله عاقل حتى عن الأشياء الدنيوية، فنحن -كما قلت- لكي نرد على الماديين أنكر بعضنا هذه القاعدة مع أن علماءنا كانوا يقررونها. شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في كتابه نقض التأسيس: إن الموجود لا بد أن يكون محسوساً، وعلماء أهل السنة كانوا في ردهم على الجهمية والمعتزلة الذين ينكرون رؤية الله - سبحانه وتعالى - هم لا ينكرونها على أساس أنه ليست هنالك نصوص أو كذا ولكن يعتبرونها مبدأ مسألة عقلية: أن الله لا يمكن أن يُرى، فقالوا لهم: إذا كان لا يمكن أن يُرى فهو ليس بموجود؛ لأن الشيء إذا كان موجوداً فيمكن أن يُرى، أما إلا يراه بعض الناس في بعض الأحوال أو لا تراه بعض المخلوقات في بعض الأحوال، نعم هذا ممكن، وهذا أيضاً يصدق على كل موجودٍ غير الله - سبحانه وتعالى -، فإذن ينبغي أن نحذر أيضاً من هذا الشطط.

فهذا عن الحس، أيضاً عن العلم:

ادَّعَوا أن العلم يؤيدهم وفسروا العلم تفسيراً خاصاً، فبدلاً من أن نرد على فهمهم للعلم، ونقول: إن هذا التصور للعلم تصورٌ ليس بصحيح، وقع بعضنا أيضاً في الفخ، وبدؤوا يقللون من شأن العلم، ويجعلون كما يجعل الكفار العلم في ناحية والدين في الناحية الأخرى وهكذا.

ما الإجابة الصحيحة؟

الإجابة الصحيحة: أن نقول لهم: نحن متفقون معكم على أن طرق العلم هي الحس والعقل، هذه طرق العلم ونحن معكم في هذا، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فإذن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً إطلاقاً، فكل علم عندنا جاءنا عن طريق الحس، أو عن طريق الفؤاد الذي نسميه الآن العقل.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد ذكرت السمع والبصر وآيات كثيرة تذكر السمع والبصر؛ لأن السمع والبصر هما أهم الحواس، وإلا فالحواس الأخرى أيضاً ذكرت في آيات أخرى مثلاً: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]. ربنا - سبحانه وتعالى - هنا أنكر عليهم أنهم يلمسون شيئاً بأيديهم ثم ينكرونه، أو يقولون: إن هذا سحر أو كذا أو كذا. وأيضاً الذوق جاء في القرآن الكريم وكذلك الشم: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وهكذا، فكل الحواس مذكورة في القرآن الكريم لكن الحواس المهمة هي السمع والبصر، ولذلك يكون التركيز عليها في القرآن الكريم.

إذن نقول لهم: نحن متفقون.

بعضنا يخطئ هنا، فيقول: هم يقولون الحس والعقل ولكننا نقول: الحس والعقل والوحي. هذا خطأ؛ لأن الحس والعقل طريقان للمعرفة، وأما الوحي فهو مصدر

للمعرفة. هذه مجرد اصطلاحات في الألفاظ وإلا المهم عندي هو المعنى. ينبغي إلا نخلط بين الطرق التي نعرف بها، والمصدر الذي نأخذ منه العلم، فالسمع والبصر والفؤاد طرقٌ للمعرفة، أما الوحي فهو مصدر للمعرفة.

كما أن الكون هذا مصدر للمعرفة، فنحن لا نعرف شيئاً سواءً كان شيئاً محسوساً أو كان وحياً، لا نعرفه إلا بهذه الطرق فقط، وهي الحس والعقل ونضيف إليها ما تركب منهما، فتكون الطرق ثلاثة: حس وعقل وشيءٌ مركبٌ من الحس والعقل.

والآن ما هو الخطأ الذي وقع فيه الغربيون وشايعهم فيه كثير من الذين تأثروا بهم؟ الخطأ الذي وقعوا فيه: أنهم حددوا بطريقة تحكمية، حددوا لأنفسهم منذ البداية، فقالوا إن الموجود هو هذا العالم الذي نراه، هذا العالم المشهود، ولذلك فإذا أردت أن تبحث أية مسألة بحثاً علمياً، فعليك ألا تتجاوز حدود هذا الكون المشهود، عليك إذا أردت أن تفسر ظاهرة ما مهما كانت هذه الظاهرة، أردت أن تفسرها تفسيراً علمياً؛ فابحث عن أسبابها في داخل هذا الكون، إذا بحثت عن سببها في خارج هذا الكون لا يكون تفسيرك تفسيراً علمياً. هذا الكلام هل يقوله العلم، أم أنه تحكم؟ هو تحكم من عندهم، إذن هم خلطوا بين فلسفتهم (وجهة نظرهم) وبين العلم. وتأثر بهذا الفهم - مع الأسف كما قلت لكم- كثيرٌ من الناس؛ لأن هذه الحضارة الغربية هي الحضارة السائدة الآن في العالم، فكل ما يقول به الغربيون يؤثر في الناس، فأريد أن أكرر هذا لطلابي الأعزاء:

مفهوم العلم في التصور الغربي، أصبح مفهوماً مادياً إلحادياً، يعني أدخلوا المادية والإلحاد في مفهوم العلم نفسه. فإذا أردت أن تفسر ظاهرة طبيعية، فابحث عن أسبابها ضمن هذا الكون، بل إذا أردت أن تفسر ظاهرة نفسية، ابحث عن أسبابها في داخل الكون. إذا أردت أن تفسر ظاهرة اجتماعية تفسيراً علمياً، ابحث عن أسبابها داخل هذا الكون. نحن لا نقول هذا، نحن نقول: نعم إن الظواهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية تكون لها أسباب في داخل هذا الكون. ولكننا نقول إن هنالك أسباباً خارج هذا الكون، مثلاً: لماذا انتصر المسلمون في غزوة بدر؟ إذا جاء إنسان مستشرقٌ

وقال: إنني أريد أن أدرس غزوة بدرٍ هذه دراسة علمية، ماذا سيقول؟ سيقول إن المسلمين انتصروا؛ لأن الجانب الذي كانوا فيه كان جانباً رملياً فحدث أن نزلت أمطار، وهذه الأمطار ثبتت الأرض، وصادف أن كان الكفار في جانب طيني، فعندما نزل المطر صار المكان زلقاً، ثم إن المسلمين حدث لهم شيء غريب وهو أنهم نعسوا فناموا وهذا أعطاهم راحة نفسية، وهكذا. كل هذه الأسباب وغيرها ذكرها القرآن الكريم، لكنه لم يعتبر أن هذا هو السبب الأساسي، هذه أسباب ثانوية ساقها الله - سبحانه وتعالى - لتأييد المسلمين كما ساق الملائكة. السبب الحقيقي ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. فالله - سبحانه وتعالى - علم ما في قلوب هؤلاء المسلمين من الصدق والإخلاص وأنهم نصروا الله، فأراد الله - سبحانه وتعالى - أن ينصرهم. هذا تفسيرنا، لكن هذا التفسير بالمفهوم السائد الآن لا يعتبر تفسيراً علمياً، يقول لك هذا تفسير ديني، وهنالك تفسير علمي. وكذلك إذا نظرنا إلى بقية الغزوات. مثلاً غزوة أحد: نحن كثيراً ما نركز على مسألة الرماة، نعم كانت سبباً لكن ما هو السبب الذي ذكره القرآن؟ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. غزوة حنين: ماذا كان السبب الحقيقي، نعم إذا أراد الإنسان أن يقصر نفسه على الأسباب المشهودة، يمكن أن يقول إن الكفار لعبوا على المسلمين، كانت لهم حيلة وكذا، القصة التي تعرفونها. لكن القرآن قال: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ [التوبة: ٢٥]، هذا لا يُعتبر في المفهوم الغربي تفسيراً علمياً. فقلت لا يُعتبر لماذا؟ بدأوا فأنكروا وجود الخالق أو أبعدوه، أنا عندما أقول لهم إنكم تنكرون، يقولون لا. لا نحن ما ننكر العلم ما له علاقة بالدين، فأقول لهم: هما أمران فقط، إما أن تقول إنه موجود أو ليس بموجود، فأنت في علمك هذا افترضت أنه ليس بموجود، فحتى لو كنت تعتقد أنه موجود فوجوده هذا لم يصبح له أثر في هذا العلم.

ماذا نقول نحن؟ نقول لهم بهذا المنهج نفسه الذي توصلتم به إلى هذه الحقائق المشهودة، وبنفس الحس وبنفس العقل، نحن نصل إلى وجود الخالق، أنا طبعاً أحبُّ أن أفتِّح فقط أذهانكم إلى بعض القضايا، لا أحب أن أدخل في تفاصيل هذا الأمر.

لكن ما هو منهجنا في التدليل على وجود الخالق؟ منهجنا هو نفس المنهج الذي يسمونه هم بالمنهج العلمي إذا حذفنا منه هذا التحكم وحصر الموجودات في العالم المشهود هذا الذي أمامنا.

كيف نصل إلى وجود الخالق؟ نقول لهم هذه المخلوقات التي حصرتم أنفسكم فيها هي نفسها تشير إلى الخالق، يعني هذا الكون نفسه يقول إن لي خالقاً، فانتم إذن لم تنظروا إلى الكون نظرة صحيحة بل فرضتم عليه شيئاً ليس من طبيعته الكون نفسه يقول إنه حادث، يقول إنه لا بد لي من خالق ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. كل حادثٍ إما أن تقول: إنه جاء من العدم وهذا مستحيل، وإما أن تقول إنه خلق نفسه وهذا أكثر إحالة؛ لأنه لكي يخلق لا بد أن يكون موجوداً، وإذا كان موجوداً فلا يحتاج أن يخلق. فأن تقول إن شيئاً خلق نفسه تفرضه موجوداً وغير موجود في نفس الوقت. فنحن إذا نقول لهم بالأدلة العقلية وبالمنهج العلمي: إن للكون خالقاً. بعد أن نبرهن أن للكون خالقاً، نستطيع أيضاً أن نبرهن بالأدلة العقلية أن محمداً هذا رسول، وأنه ليس كاذباً وليس مفترياً، وأن هذا القرآن كلام الله - سبحانه وتعالى -. هذا هو الذي يميز الإسلام عن ما يسمى بالأديان الآن في العالم، هذه الأديان لا تستطيع أن تقف في وجه الملحدين ولا في وجه الماديين الذين يقولون: إنهم يعتمدون على العقل وعلى الحس؛ لأن هذه الأديان تقوم على خرافاتٍ فعلاً، وعلى أشياء يبطلها الحس ويبطلها العقل وتطلب من الإنسان أن يبدأ معهم بالتسليم، لكننا لسنا كذلك؛ القرآن علمنا والرسول ﷺ علمنا، أننا إذا دعونا إنساناً، فندعوه أولاً إلى الحق، ثم إذا كانت له شبهة، إذا كان يريد أن يجادلنا جادلناه بالتي هي أحسن، وأوضحنا له بالعقل وبالحس الأصول التي يقوم عليها الدين، فإذا قبل الأصول فقبول الفروع يكون أمراً طبيعياً، فنحن نستطيع بأن ندلل على وجود الخالق وعلى وحدانيته وعلى صدق الرسول ﷺ، وعلى أن القرآن كلام الله، فإذا فعلنا هذا قلنا له إذا العلم له مصدران ليس مصدراً واحداً فقط، ليس هذا الكون فقط هو المصدر، وإنما هنالك مصدرٌ آخر هو هذا الوحي الذي دللنا لك بالأدلة العقلية والحسية على أنه كلام الله - سبحانه وتعالى - والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. لا يمكن أن يكون كلام الله - سبحانه وتعالى - باطلاً.

ننتقل الآن وأختم الكلام بقضيةٍ هي: بعد أن قلنا: إن ما في القرآن علم، ما في القرآن وصحيح السنة علمٌ، وما يأتينا من العالم الخارجي أيضاً علم.

ماذا نفعل إذا تعارض شيءٌ من هذا مع شيء من ذاك؟

هذه أيضاً من القضايا التي شغلت العلماء المسلمين وكثيرون منهم وضعوا قوانين سماها قانون التأويل وكثير من هذه القوانين التي وضعوها ليست صحيحة. لكن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وضع قانوناً أحب أن أقرأ عليكم شيئاً منه، وأنا في رأيي أن هذا هو القانون الصحيح. هذا هو المبدأ الصحيح الذي ينبغي أن نسير عليه حين يقال إنه تعارَضَ شيءٌ من الدين يعني من القرآن والسنة مع شيءٍ من العقل أو من الحس. قال: إذا قيل تعارض دليلان سواءٌ كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً. فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما (يستحيل)، إذا كنا نقطع بأن هذا قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعني الخبر ثابت وفهمنا له قطعي، القرآن ثابت بالتواتر فثبوته قطعي، لكن إذا كان فهمنا أيضاً قطعياً فلا يمكن أن يتعارض نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة مع حقيقة قطعية عقلية أو حسية. لا يمكن أن يتعارض هذا مع ذاك.

- سأشرح لكم الكلام بدل أن أقرأه-

فإذن لا يمكن أن يتعارضا، إذا تعارضا فلا بد أن يكون هنالك خطأ إما أن أحدهما ليس بقطعي بل هو ظني وإما أن ما ظن أنه عقلي ليس في الحقيقة بعقلي وإنما هو شيءٌ توهمه إنسان وقال هذا عقلي، أو ما نسب إلى الدين وقيل إنه قطعي. ماذا نفعل إذا كان أحدهما قطعياً سواءً كان هو السمع أو العقل؟ قال ابن تيمية: نقدم القطعي بغض النظر عن كونه سمعياً أو عقلياً، القطعي يقدم دائماً. ماذا نفعل إذا كانا ظنيين؟ إذا كانا ظنيين نبحث فنحاول أن نرجح أحدهما بما يمكن ترجيحه من الأدلة وأيهما رجح قدمناه على الآخر. كثير من الناس الآن يخطئون في هذا، بعض الناس يقولون: إن الحقائق العلمية تتغير، ولذلك ينبغي إلا نلقي لها بالاً أو لا نفسر بها

القرآن أو كذا أو كذا، الحقائق إذا كانت قطعية لا تتغير، إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فلن نكتشف بعد عشر سنوات أنها مكعبة، هذه حقيقة لا تتغير أبداً، إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فلا نكتشف بعد عشر سنوات أنها مكعبة فهذه حقيقة لا تتغير فهذه حقيقة قطعية فإذن كل فهمٍ لآية قرآنية أو لحديث يخالف هذا الأمر القطعي فيقدم هذا الأمر القطعي عليه وتفهم النصوص في ضوء هذا الأمر القطعي، وكذلك إذا كان الأمر بالعكس عندنا شيءٌ قطعي من الدين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فإذا جاءنا إنسان وقال: أنا عندي دليل وكذا وكذا على أن العالم له خالقان أو كذا. لا يمكن أن نقبل هذا. القطعي هذا لا نقدم عليه شيئاً. إذا كانا ظنيين نبحث في الترجيح. العلوم فيها أشياء قطعية وفيها أشياء ظنية كالنظريات وفيها أشياء ثبت بطلانها، فما كان قطعياً قبلناه، ما كان ظنياً قبلناه ما لم يخالفه شيءٌ قطعي عندنا في الدين أو يخالفه شيءٌ ظني أرجح منه دليلاً، وأما ما ثبت بطلانه فهم يرفضونه ونحن أيضاً لا نقبله. نحن إذاً لا نقابل بين الدين والعلم، ولا نقابل بين الدين والعقل، ولا نقابل بين الدين والحس. هذه المقابلة لا وجود لها في التصور الإسلامي؛ لأن القرآن الكريم فيه الخبر الصادق والخبر الصادق كما يقولون- مركب من السمع والعقل، وفيها الأدلة العقلية، فما كل ما في القرآن مجرد أخبار، بل فيه أدلة عقلية يخاطب بها الإنسان بغض النظر عن كونه مؤمناً بأن هذا القرآن كلام الله، أو ليس بمؤمن، وفيه كلام عن الكون الحسي، كما أن العلوم العقلية فيها ما يتعلق بوجود الخالق - سبحانه وتعالى - وبعض صفاته تفهم بالعقل وبآيات الله - سبحانه وتعالى - وفيها ما يتعلق بالكون وكذلك العلوم العقلية، فإذن نحن لا نقابل، بل نقول: الدين في ناحية والعقل في ناحية، أو: الحس في ناحية، والدين في ناحية أو: العلم في ناحية والدين في الناحية الأخرى.

أيها الإخوة الأعزاء: إن مما سبَّبَ الانحراف في مجادلة الأعداء -كما قلت لكم- أن بعضنا في السابق وفي الحاضر تأثر ببعض أفكارهم أو أنكر بعض الحق الذي قرروه. فما سبب هذا؟

سببه أن كثيراً من الذين يتصدون لمثل هذه الأفكار لا يكون علمهم بالقرآن والسنة وبأقوال السلف لا يكون لهم كبير باعٍ في هذه المسائل، ولكنهم أناس طيبون وفضلاء يريدون أن يدافعوا عن الإسلام بقدر ما يستطيعون، فنحن لا نريد أن يتكرر هذا الأمر، وإن كنت أرى أنه قد تكرر أيضاً، فأريد من إخواننا الطلاب المشتغلين بعلوم القرآن والسنة وأقوال السلف وقراءة كتبهم والتبحر فيها أريد ممن يستطيع منهم أن يلم أيضاً بهذه العلوم المعاصرة وبهذه التحديات العقلية التي تواجه المسلمين، وأن يستعمل ذلك السلاح الذي أعطاه الله إياه -سلاح هذه النصوص وأقوال السلف، وسلاح العقل- في دفع هؤلاء الأعداء الصائلين على المسلمين، أما أن نترك الأمر لأناس طيبين مخلصين لكنَّ علمهم بالكتاب والسنة وبأقوال السلف ضئيل وبضاعتهم فيه مزجاة، فهذا وضع للأمر في غير نصابه. فأنا رجائي-وإن كانت هذه المحاضرة أقنعت بعضكم بهذا أكون قد نجحت وتحقق هدفي- أريد من بعضكم على الأقل أن يهتم بهذه المسائل وإلا يعيش فقط مع كتب هؤلاء السلف، ولأن هؤلاء السلف واجهوا أفكاراً في عصرهم وردوا عليها، فنحن نستفيد من ردودهم. وأنا أقول لكم: أنا درست الفلسفة، وإن كثيراً من نقدي للفلاسفة وردودي عليهم استفدتها من كلام هؤلاء العلماء، ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية أكثر مما استفدت من مجرد تفكيري، وبمجرد استنباطاتي الخاصة. فأريدكم أن تجمعوا بين هذا وذاك، فما ينبغي أن يصول الفكر الشيوعي ويتطاول على المسلمين ولا يجد من يرد عليه رداً قوياً مفحماً رداً عقلياً ونقلياً، لا يجوز أن يتطاول الماديون من غير الشيوعيين أيضاً ولا يجوز أن يتطاول الغربيون وأن يتطاول الملحدون، هذا العصر سمي بعصر الإلحاد؛ لأنه العصر الذي شاع فيه الإلحاد وراج كما لم يرُجْ في عصرٍ من العصور السابقة، ونحن مسؤولون، نحن الذين حبانا الله - سبحانه وتعالى - بهذه الهداية بالقرآن الكريم الذي هو هدىً للقلوب، وهدىً للعقول، وهدىً للفكر، وهدىً للسلوك. نحن - الذين حبانا الله - سبحانه وتعالى - بهذه الهدية الثمينة -، هذا هو واجبنا هو واجب لن يستطيع القيام به من لم يتصل بهذه العلوم، لن يستطيع القيام به من كان نصرانياً أو كان يهودياً أو كان بوذياً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها

محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ١٤٠٧/٧/٢٥هـ – ١٩٨٧/٣/٢٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وبعد، فأشكركم على هذا التقديم الكريم، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يريني وإياكم الحق حقاً ويرزقنا اتبعاه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

عندما طلب مني أن أتكلم في هذا الموضوع، بدأت أفكر – كما لابد أنكم جميعاً فكرتم – في أن مشكلات العلوم الإنسانية هذه كثيرة جداً بحيث لا يمكن أن تسعها محاضرة واحدة. هذا إذا أردنا فقط أن نعددها ونذكر آراء الغربيين فيها.....إلخ، فكيف إذا كنا نريد أيضاً أن نلقي نظرة إسلامية على هذه المشكلات، كما سنحاول إن شاء الله. لذلك فكرت في أن أركز الكلام كله عن مشكلة واحدة من مشكلات العلوم الإنسانية، هي المشكلة المسماة بمشكلة الموضوعية في العلوم، سواء كانت إنسانية أو كانت طبيعية.

واخترت هذا لأسباب منها:

أولاً: إن هذه المشكلات تكاد تكون أمّ المشكلات في العلوم كلها، ربما نقول إن كثيراً من المشكلات الأخرى هي فرع من هذه المشكلة.

وثانياً: لأن النقاش فيها والجدل عاد جذعاً – كما يقولون – عند الغربيين من المتخصصين في العلوم الطبيعية والإنسانية والمتخصصين في تاريخ العلوم وفلسفة العلوم.

وثالثاً: لأن هذا الموضوع هو ألصق الموضوعات بالدعوة التي ننادي بها، الدعوة إلى تأصيل العلوم ووضعها في إطار إسلامي.

فما الموضوعية؟ الموضوعية ربما يصورها الرأي الشائع للعلم عند الناس. العلوم الطبيعية عند عامة الناس لها منهج، هذا المنهج يمكّن الإنسان من أن يشاهد الواقع كما هو ويصوره تصويراً أميناً ويكتشف القوانين التي تحكم هذه الحقائق

أوالظواهر، ويضع النظريات التي تفسر هذه القوانين وتلك الحقائق وتلك الظواهر، من غير أن يكون هناك هوى أو اعتقادا ديني أو رأي فلسفي أو غرض. هذا هو الرأي الشائع للمنهج العلمي عند الناس. وكثير من الناس يظنون – لذلك – أن العلماء، سواء كانوا طبيعيين أو علماء حتى من العلوم الإنسانية، لا يختلفون اختلاف الفقهاء فيقولون: في المسألة قولان، لأن منهجهم يؤديهم إلى معرفة الحقيقة كما هي وإلى تفسيرها تفسيراً صحيحاً. هذه هي الموضوعية في صورتها المثالية.

ولكن هل واقع العلوم هو كذلك؟ قلت لكن إن الغربيين يتناقشون في هذه الموضوعات نقاشاً طويلاً، وكتبت فيه كتب ومقالات وغير ذلك، ولكنهم جميعاً متفقون على أن هذه الصورة المثالية الشعبية ليست بصحيحة. وأن الموضوعية إذا كان المقصود بها أن الإنسان، كما كان يقال لنا في المنهج العلمي، يتجرد من أفكاره المسبقة ومن كذا وكذا ثم يأتي إلى العلم بذهن خالٍ تقريباً ويشاهد الواقع كما هو ويحاول أن يكتشف قوانينه ويحاول أن يفسره، قالوا الموضوعية بهذا المعنى متعذرة على الناس، سواء كان ذلك في العلوم الطبيعية أوكان في العلوم الإنسانية ودائماً إذا قلنا في العلوم الطبيعية فمن باب أولى في العلوم الإنسانية. ما الذي دعا المهتمين والمختصين من العلماء الغربيين يقولون هذا؟ أسباب كثيرة، يمكن أن نذكر منها:

أولاً: ما يعرفه كل إنسان عن نفسه، فالإنسان إذا كان أميناً مع نفسه يشعر أنه حتى وهو يبحث وهو يفكر وهو ينظر ويفسر لا يتخلى عن كل ما عنده من أفكار.

ثانياً: ما ظهر من نتائج بعض العلوم. وأهم ما يذكرونه في هذا النظرية الفيزيائية المسماة نظرية عدم اليقين – نظرية هايزنبيرج – ويسمونها أيضاً مبدأ عدم اليقين (The Uncertainty Principle). ومبدأ عدم اليقين يقول إنه من غير الممكن للإنسان أن يعرف موضع الجزء الصغير من المادة وأن يعرف معدل سرعته في نفس الوقت، لأنه إذا عرف الطريقة التي يعرف بها الموضع تؤثر على معدل السرعة، وإذا عرف معدل السرعة تؤثر على الموضع، ولكن لا يمكن للإنسان أن يتنبأ بموضع هذا الجزء إلا إذا عرف الأمرين معاً، ومن المستحيل أن يعرف الأمرين معاً.

هذا أمر راجع إلى الباحث إذن. إن طريقتنا في معرفة الحقائق تؤثر في هذه الحقائق. لكن أهم ما دعاهم إلى هذا التفكير هو دراسة تاريخ العلم، وهذا أمر أهملناه جداً مع

الأسف. وباستثناء بعض إخواننا الذين اهتموا بتاريخ العلوم عند المسلمين فإن هذا أمر أهملناه. نحن ظننا أن العلم أهميته فقط في واقعه الآن وفي حاضره. لكن تاريخ العلم، حتى لو كانت النظريات التي قال بها العلماء السابقون أصبحت باطلة، تاريخ العلم نفسه هو دراسة، ودراسة هذا التاريخ أوصلتهم إلى نتائج عجيبة. كان أول من كتب عنها أحد الأمريكان واسمه كُون، وكتابه أحدث ثورة تقريباً. عنوان الكتاب (The Structure Of Scientific Revolution) "بنية الثورات العلمية". هذا الرجل كان دارساً للفيزياء النظرية، ثم تحول فبدأ يدرس تاريخ العلوم، ولاحظ شيئاً عجيباً وكتبه في الكتاب، وهو أن الناس من عهد إلى عهد في التاريخ تتغير نظرتهم لما هو علم، لمفهوم العلم وللمنهج وللتفسير وغير ذلك. لماذا؟ قال: في كل حقبة من حقب التاريخ يكون هناك إطار يضع الناس أنفسهم فيه، في ضوء هذا الإطار يشاهدون، وفي ضوء هذا الإطار يفعلون كذا وكذا.

طبعاً لم يوافق الناس جميعاً على كل ما قال، لكن هذه الحقيقة مما قال أصبحت أمراً مسلماً به. طبعاً هو وبعض الآخرين غلوا في تفسيرها، لكن هذا لا يهمنا الآن. المهم أنه من المتفق عليه الآن أن للعلوم أطراً، وهذه الأطر ليست من العلم. يسمونها فلسفة أو آراء ميتافيزيقية ما ورائية أو قيماً، هي التي تؤثر في العلم. سنتحدث فيما بعد إن شاء الله عن مدى هذا التأثير، لكن هذا تقريباً متفق عليه.

ما هي هذه الأطر؟ الذي سأقوله هو من عندي لكنه مستخلص من هذه الدراسات. يمكن أن نقول إن هذه الأطر أنواع، بعضها واسع جداً وبعضها أضيق، بعضها يدخل في بعضها الآخر. الإطار الكبير الذي يمكن أن نسميه بفلسفة الإنسان في الحياة أو دينه أو كذا، هذا الإطار الكبير في هذا الإطار يحدد الإنسان ما هو موجود. أي ما الذي يعترف بوجوده، وإذا حدد ما هو الموجود، إذا تحدد على ضوء هذا ما هو العلم. العلم سيكون بهذا النوع من الموجودات. كل كلام عن أي نوع آخر لم يعترف به الإطار لا يعتبر علما، يعتبر خرافة. ويتحدد المنهج؛ لأنه سيكون هو المنهج المؤدي إلى العلم بهذا النوع من الموجودات وكذلك التفسير العلمي، وهكذا. هذا الإطار يضع فيه الناس أنفسهم في حقبة من حقب التاريخ، ويربون عليه طلاب العلم ويتربون على هذا. لا

يقال لهم إن هناك إطاراً، ولكن يقال لهم الموجودات هي كذا، العلم هو كذا، المنهج العلمي هو كذا وكذا. لأن المدرس نفسه لا يعرف أن هناك إطاراً في الغالب، وإنما يتقمصه من غير أن يعرفه، يُشربه (على طريقة الذين أُشربوا العجل) من غير أن يكون واعياً به. ومعظم الناس يعملون حسب كلام كون Kuhn فيما سماه العلم العادي الذي يضع الإطار الذي أطلق عليه "الثورة العلمية". بعد أن توضع الأطر يأتي معظم الناس والطلاب والعلماء العاديون ويعملون داخل هذا الإطار إلى أن يأذن الله بتغيير لهذا الإطار ووضع إطار جديد. في داخل هذا الإطار الفلسفي العام تكون هناك أطر أخرى.

ننتقل الآن سؤالنا المهم وهو: ما الإطار العام الشائع لكل العلوم، سواء كانت طبيعية أو إنسانية، وما الذي تحدد في ضوئه نوع الموجودات والعلم والمنهج العلمي وما إلى ذلك؟ أنا كنت أقول دائماً كلاماً لإخواننا، وكثيراً ما ينكره المختصون بهذا العلوم. كنت أقول لهم: أنتم تنكرون لأنكم لم تهتموا بهذه الناحية من العلم، من علمكم. هذه ناحية اهتم بها من يسمون بفلاسفة العلوم. وكانوا يظنون أن هذا كلام من عندي. طبعاً جزء منه من عندي، لكن الحقيقة في أساسها هم متعرفون بها. فالآن في هذه المحاضرة حاولت أن أجد قائلين من الغربيين للكلام الذي كنت أقوله. ملخص ما كنت أقوله دائماً إن الإطار الذي توضع فيه العلوم الآن هو إطار الحادي مادي. قلت هذا الكلام سنة ١٩٧٦ في الولايات المتحدة فانبرى لي حد إخواننا الأساتذة وكان دكتوراً في الإحصاء، قال لي: أهذا كلام؟! الآن إذا ذهبت إلى أحد أساتذة الفيزياء وقلت له إن أحد إخوننا من السودان يقول إن علم الفيزياء مثلاً إطاره إلحادي، سيسخر ويتساءل: ما علاقة الفيزياء بالإلحاد؟ سيسخر لأنه لا يعرف هذا الموضوع. أنا ما قلت إن كتاب الفيزياء يبدأ بأن يقول للناس ليس هناك إله ولا كذا وكذا، ولكنه يفترض أنه لا يوجد إله، يفترض هذا افتراضاً. والعلم الذي يفترضه والتفسير الذي يفترضه، إلا يفرق الناس تفريقاً حاسماً بين التفسير العلمي والتفسير الديني؟ ما السبب؟ التفسير العلمي هو أن تفسر الأشياء بأسباب من داخل الكون. هذا هو الافتراض الإلحادي، أنك لا تعترف بأثر خارج الكون. هذا الكلام سأذكر لكن الآن بعض ما قاله الغربيون: أولاً قالوا إن هذا العلم بالرغم من أنه شاع الآن وأصبح شيئاً عالمياً، إلا أنه في

نشأته هو إنجاز أوروبي. ونحن لا بد أن نعترف بهذا مهما قلنا من مشاركة المسلمين وما إلى ذلك. العلم بمعناه الشائع الآن هو إنجاز أوروبي، وهذا العلم نشأ في ظروف خاصة، كلنا يعرف طرفاً منها. أهم ما نعرفه منها – وهو شيء مهم في حد ذاته – هو أن العلم جاء نتيجة الصراع بين أصحاب هذا العلم وبين رجال الدين، فهو في نشأته نشأ مصارعاً للدين المسيحي. ولذلك كان كلما تغلب هذا العلم على المسيحية في معركة من المعارك ابتعد خطوة عن الدين. ما نشأ من أول أمره ملحداً، لا. وكثير من العلماء – كما سنذكر – كانوا هم من المسيحيين. ثم لما تمت له الغلبة اعتبر غلبته على النصرانية أو على المسيحية غلبة على الأديان كلها. وهذا أيضاً من استكبار الغربيين، أي يظنون أنه حتى دينهم الباطل هو أحسن الأديان. ما دام هو ديننا ونحن متطورون فهو لابد أن يكون أحسن دين. وكان من نتائج هذا أن وُضعَ العلم في جانب، ووضع الدين في زمرة السحر والكهانة والخرافات. لماذا؟ لأن الدين الذي صارعه هذا العلم كان مختلطاً بكل هذه الأمور، فاعتبر إذا هذا في جانب، وكل هذه في جانب آخر. واعتبر الدين خطراً على التطور العلمي، ولذلك كلما ابتعد عنه كان هذا أحسن للعلم. أذكر لكم – كما وعدت – بعض من قال هذا الكلام. يقول أحد مؤرخي العلوم وهو كاتب مقال "تاريخ العلم" في دائرة المعارف البريطانية: «إن تصور المعرفة الذي كان سائداً في القرن السادس عشر كان لا يزال مختلفاً اختلافاً جذرياً عن مفهومنا اليوم». ثم يقول: «بما أن العالم المحسوس - يعني في ذلك الوقت - كان متأثراً تأثراً شديداً بالقوى الفاعلة الإلهية والجنية والسحرية، كان الغوص في أسراره كذلك أكثر من مهمة دنيوية». يقصد إذا أردت أن تعرف الكون لا تكتفي بالمشاهدة، فلابد أن تعرفه بمعرفة دينية، لأن القوى المؤثرة فيه ليست قوى مادية فقط. ثم قال: «بما أن بعض جذور المفهوم الحديث للعلم كانت في الصراع ضد هذه النظرة إلى العالم، فمن الصعب أن نتصور كيف كان من الممكن وجود نظرة علمية في داخلها. وعلى كل فإن المؤرخ سيظل حبيس مقولاته المؤقتة إلى أن يتسنى له الوصول إلى تفاهم مع هذه النظرة». وملخص كلامه: كأنه يجد صعوبة، كيف يمكن أن يكون هناك علم في داخل إطار ديني؟ لأن مفهوم العلم الذي يعرفه الآن إنما نشأ ضد هذه النظرة، فهو لا

يكاد يتصور ذلك بالمرة. لذلك سيظل حبيس إطاره الذي عرف فيه العلم. ثم يذكر صاحب المقالة هذه أن العلم مرَّ بمرحلتين، أي أثّر فيه شيئان: التقنية التي حدثت في القرن السادس عشر – ويقول إن الناس حتى ذلك الوقت ما تزال نظرتهم إلى المعرفة نظرة مختلفة – والثورة الفلسفية التي حصلت في القرن السابع عشر. والثورة الفلسفية – كما تعرفون – هي تلك قادها بيكون في إنجلترا وديكارت في فرنسا وجاليلي في إيطاليا. الذي بقي من هذه الثورة التي أعطته الفكر الأوروبي هو ما انتهى إليه ديكارت وجاليلي. وهذا الكلام كنت استنبطه مجرد استنباط، ولكن الآن وجدت من يقول من الغربيين. يقول (وهذا ملخص لكلام الرجل): جاءت بنظرية جديدة إلى الوجود مخالفة للنظرة المسيحية، فحواها أن عالم الطبيعة عالم ميت خالٍ من أي خصائص روحية أو شبه روحية، وأنه ليس من الممكن لذلك أن يكون بيننا وبين الطبيعة أي نوع من الحوار، سواء كان عن طريق الكشف الروحي أو الوحي الإلهي. واتفق جاليلي وديكارت – هذا كلام الرجل – على أن العالم مكوّن من أجزاء مادية هي من الصغر بحيث لا يمكن أن تُرى، وأن الظواهر الكونية كلها هي نتيجة تفاعل بين هذه الأجزاء التي لا إدراك لها ولا هدف، وأن تفاعلها لذلك هو بمثابة التصّادم الذي يحدث بين مجموعة من الكرات. ويقول شخص آخر: ولكن حتى في هذا القرن كان الدين ما تزال له بقايا، وكان العلماء إلى ذلك الوقت يقولون إنهم مهتمون باكتشاف قوانين خلق الله (Laws of God's Creation). ثم أسقطوا بالطبع كلمة الله وصارت "قوانين الطبيعة". ويقول الرجل: هؤلاء الثلاثة ونيوتن الذي جاء بعدهم كانوا رجالا مسيحيين، فالذين وضعوا أسس الإلحاد كانوا مسيحيين. الكلمة المهمة التي يقولها كاتب المقال، وهي النقطة التي أريد أن تتذكروها: لم تكن هذه الفلسفة إذن نتيجة للعلم الجديد، كما قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين، وإنما كانت تسليماً مسبقاً بمبدأ ميتافيزيقي. وما أريد أن أوضحه من كلام الرجل هو أن الفلسفة سبقت العلم وهي التي وضع هذا الإطار.

نعود الآن إلى سؤالنا فنقول: ما هي خصائص الإطار العام الذي يشيع عند الغربيين وعندنا تبعاً لهم؟ ألخص الجواب في ما يأتي:

أولاً: إن هذا الإطار فلسفة لا دينية، فحواها أن الكون مكتفٍ سببياً – كما يقولون – أي ليس محتاجاً إلى سبب من خارجه، وأنه لا تؤثر عليه قوى روحية ولا إرادة إلهية ولا عبادة إلخ.

ثانياً: إنه ليس إطاراً دينياً بطريقة سلبية، وإنما هو إطار معاد للدين.

ثالثاً: إنه ليس إطاراً إلحادياً فقط، بل هو أيضاً إطار مادي. لأن الإنسان يمكن أن يكون ملحداً ولا يكون مادياً. المادي هو الذي لا ينكر وجود الخالق، وإنما ينكر حتى وجود النفس البشرية، ولا يقر إلا بوجود هذا الجسد. أذكر لكم أيضاً بعض ما قاله هؤلاء. يقول أحد فلاسفة العلوم في الدليل على أن هذا الإطار كان إطاراً إلحادياً، يقول عن دارون: كان يبحث عن عملية طبيعية صرفة لا يتضمن نموذجها تدخل القدرة الإلهية. أي أنه منذ البداية يريد أن يفسر هذه الحقائق التي شاهدها تفسيراً لا دينياً. ويقول آخر عن تفسير دوركايم الظاهرة الدينية إنه أرجع الظاهرة الدينية إلى فكرة التضامن مع النظام الاجتماعي، ويقول إن هذا مبنيّ على حجة إلحادية فحواها أن الأشياء التي يذكرها المنتمون إلى دين ما يجب أن لا تؤخذ على أنها إخبار عن الله، لأنه من حيث المبدأ لا يمكن أن يكون هنالك إخبار كهذا. وعليه فيجب تفسيرها بطريقة أخرى. والتفسير الذي يقترحه دوركايم هو أنها تعبير عن الإخلاص للنظام الاجتماعي. ثم يأتي كثير من طلابنا ويذكرون هذا النوع من الكلام على أن هذا هو التفسير العلمي للظاهرة الدينية، تفسير علمي في إطار هذه النظرة. لأنه إذا قال ليس هناك إله، فإن الواقع يشهد أن هناك ديناً. فكيف يفسر الإنسان الملحد الذي لا يؤمن بالله هذا الكلام عن الله، وكيف يجد له تفسيراً في إطار فلسفته الإلحادية، في أنها فلسفة معادية للدين؟ يقول أحد كبار الفلكيين المعاصرين، وهو رجل ممتاز في الرياضيات والفلك وله نظرة في تفسير التطور تختلف عن نظرية دارون، إن العلماء لن يقبلوا نظريته هذه، لأن العلماء التقليديين مهتمون بمنع الرجوع إلى الغلو الديني الذي حدث في الماضي أكثر من اهتمامهم بالتطلع إلى الحقيقة، إن النظرة – أنا سميتها الحُطمة – (Nihilistic) التي وصفناها آنفاً – أي وصفها هو – قد سيطرت على التفكير العلمي خلال القرن الماضي كله. وهويل هذا- اسمه – له بعض الحق فيما

يقول، لأنني أذكر أنه حدث جدل طويل حول نظرية أخرى كانت له أيضاً عن أصل الكون، وفحواها أن الذرات تأتي من العدم. فقامت قيامة كثير من الناس وانتقدوه، لا من ناحية علمية مجردة، ولكن قالوا إن هذا كلام ديني، وإن هذا سيفتح أبوباً، أحدهم قال: ((It's going to open the floodgates of religion)). أذكر أني قلت لبعضهم إنكم سائرون في غير معترك، لأننا نحن لا نؤمن بهذا، نحن نقول: لو صحت نظرية هويل لبطل الدين، لأنه إذا كانت الذرات تأتي من العدم المحض، لا لزوم إذن لوجود الخالق. فهي ليست دينية. لكن ما كانوا أبداً يستنكرون على أنفسهم أن يعترضوا على نظرية علمية بأسباب من هذا النوع.

هذا الإطار العام. ثم هنالك – كما قلت – أطر داخل هذا الإطار العام. وأيضا يعترف العلماء الغربيون أيضاً بأن كثيراً من النظريات العلمية تأثرت بهذه الأطر الخاصة. والإطار الخاص أغلبه هو الفكر الرأسمالي، أعني أغلب ما وجدت من أمثلة فيه. مثلاً: قالوا إن نظرية مالثوس التي تقول إن عدد السكان يزداد بمتواليات هندسية بينما موارد الغذاء تزداد بمتواليات حسابية، فلذلك لابد أن يكون هناك جوع وفقر وموت، قالوا إن هذه النظرية كانت في الحقيقة اعتراضاً على بعض القوانين التي صدرت في صالح الفقراء، فكان ممن يسمون بالرجعيين الذين يريدون أن لا يعطى للفقراء. ثم جاء سبنسر فحوّل هذه النظرية إلى نظرية أشمل من هذه، وقال – هذه عبارة سبنسر -: إنْ كانوا كاملين بحيث يصلحون للحياة، - يعني الناس – فإنهم سيحيون ومن الخير لهم أن يحيوا. وإذا لم يكونوا كاملين بحيث يصلحون للحياة فسيموتون ومن الخير لهم أن يموتوا. يقصد لا تتعبوا أنفسكم وتضعوا قوانين للفقراء وما إلى ذلك. لابد أن كثيرين منكم ذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]. هو لا يريد أن يطعمهم، لكنه يريد شيئاً يستند إليه، فعندما كانت النظرة الدينية هي الشائعة قال هذه هي ارادة الله، لماذا نتدخل في إرادة الله؟ وعندما صارت النظرة الطبيعية هي الشائعة قال هذا قانون طبيعي، لماذا نتدخل في القانون الطبيعي؟ ثم قالوا إن سبنسر هذا هو الذي أتى بكلمة "الانتخاب الطبيعي"، فجاء دارون واستفاد من كلام مالثوس ومن كلام

سبنسر وهو يبحث عن تفسير – كما ذكرنا – للتطور لا دخل للقوة الإلهية فيه، فأخذ هذا وهذا وصنع منه نظريته. وفي هذا قال أحد مؤسسي الفكر الماركسي كلاماً جميلاً جداً. وبالمناسبة كثيراً ما نجد في كلام الماركسيين نقداً جيداً للنظام الرأسمالي، نحن دائماً نقرأ انتقاد الرأسماليين للشيوعيين، لكن ينبغي أيضاً أن نستفيد من نقد الشيوعيين للرأسماليين. قال إنجلز: «إن كل ما فعله دارون في قوله بالصراع من أجل البقاء هو أن حوّل (نقل) من المجتمع إلى الطبيعة المبدأ البرجوازي الاقتصادي في التنافس، ونظرية مالثوس في السكان. ثم لما اكتمل أداء هذه العملية السحرية حُوِّلت النظريات نفسها مرة أخرى من الطبيعة إلى التاريخ، وادّعي الآن أن البرهان قد قام على صدقها بكونها قوانين خالدة للمجتمعات الإنسانية». فحتى نظرية دارون كان فيها رائحة لتأييد التفكير الرأسمالي. فهذا يبين لإخواننا المهتمين بالدراسات الإنسانية أن المسألة ليست كما يقال دائماً أن أصحاب الدراسات الإنسانية هم الذين يأخذون من أصحاب الدراسات الطبيعية، بل العكس أحياناً يحدث. وكثيراً ما يحدث أن صاحب الدراسة الطبيعية يأخذ الفكرة من صاحب الدراسة الإنسانية، ثم يأتي ذاك وتسره عندما تتحول إلى نظرية طبيعية فيأخذها مرة أخرى. كما حدث هذا بالنسبة لسبنسر بعد أن قال دارون بهذا، فجاء السبنسريون بعد سبنسر وسموا نظريتهم "الدارونية الاجتماعية". وهي بضاعتهم ردت إليهم.

هذا – إذن – هو الإطار العام، وهذه بعض الأطر الخاصة التي تأثرت بها العلوم، ثم هنالك أطر أخص من هذا. كل العلوم الإنسانية – كما يقولون – مبنية على تصور معين للإنسان، سواء ذُكِرُ هذا في العلم أو لم يذكر. ما هو هذا القصور؟ لا يأتي به العلم نفسه، وإنما يأتي به الإنسان. كنت قد كتبت مقالا طويلاً قبل ذاك في مسألة مفهوم الإنسان، لكن ألخصه لكم في أن الفكرة الشائعة في الغرب عن الإنسان هي في حقيقتها مأخوذة من الدين المسيحي، ثم أخَذَتْ أشكالا لا دينية. الفكرة المسيحية هي أن الإنسان يولد ومعه الخطيئة. فرويد – نقلتُ عنه كلاماً في ذلك المقال – يقول: «إن الإنسان فيه عنصر من الشر هو جزء من طبيعته، بحيث إنك إذا أستأصلته لا يصبح إنساناً». إذا كان هذا تصوره، تفهمون إذن مسألة الجنس والتفسيرات التي لا تستغربونها. ماركس الإنسان عاش مغترباً طول حياته ولن يكون إنساناً إلا في المجتمع

الاشتراكي. إذن ماله حيلة، يولد في المجتمعات الطبقية هذه ولا يكون إنساناً حقيقياً إلى أن يأتي المجتمع الاشتراكي، وهكذا. فأيضاً من الأشياء التي نتنبه إليها، مثلاً في الاقتصاد، نظرية كينز مبنية على تصور معين للإنسان. وهكذا قل في غير علم النفس. نظريات سكنر في علم النفس مبنية أيضاً على تصور بين للإنسان. بل حتى بعض الدراسات التي يُظن أنها دراسات بريئة جداً، مثل قولهم قمنا بدراسة مثلاً في المجتمع الأمريكي، وقام العلماء الاجتماعيون دراسة وأظهرت أن استجابة الرجال المتزوجين كذا واستجابة النساء كذا والمطلقات كذا، دائماً أسأل نفسك: أين هذا؟ من هؤلاء الرجال؟ إذا ما سألت نفسك هذا السؤال ستعمم هذا وتقول البشر من حيث هم، لكن هذا ليس بالضرورة، نعم ربما هذا ينطبق على كل البشر، لكن ليس دائماً. بل قال كثير من العلماء إن كثيراً من نظريات فرويد مبنية على مشاهداته في البلد التي كان فيها، وإن معظم الناس في تلك البلد ما كانوا طبيعيين. ما الذي نستنتجه من هذا؟ ماذا يكون موقفنا؟ اختلف الناس عندنا في العالم الإسلامي وفي العالم العربي إزاء هذا الموضوع إلى مواقف مختلفة. منهم التي سيطرت على ذهنه تلك الفكرة التي قلنا إنها الفكرة الشائعة، ولذلك اعتقد أن كل كلام عن إسلامية العلوم ما هو إلا محاولة لتحريف العلم.ويقفز إلى أذهان هؤلاء شيء فعله أحد العلماء الروس اسمه لا يسنكو، ظن في بعض النظريات في الوراثة لا تتناسب مع الفكر الماركسي، وكانت له قوة ادارية فمنع هذا النوع من الدراسة وأراد أن يرجع علماء الأحياء. هذا شيء مشهور جداً عند المؤرخين للعلوم. هذا موقف. موقف ثان هو موقف الذين عرفوا أن هناك أطراً فعلاً، وأن الناس يختلفون بحسب هذه الأطر، لكنهم عظّموا الأطر الغربية حتى جعلوها كأنها هي الأطر المعرفة بالألف واللام. ومن أمثلة هؤلاء – وأقولها وأنا متأسف جداً – رجل مصري مفكر كبير يعرف الفلسفة الغربية معرفة جيدة ويشرحها شرحاً جيداً هو الدكتور زكي نجيب محمود. كثيراً ما آسف عندما أقرأ له. نظرية لإنسان معين أو فكرة تسود في الغرب فيصورها لقارئه العربي كأنها فكرة العصر. تأملوا كلمة العصر كلمة مخيفة. فهو كأنه يقول لي إذا أردت أن تعيش في عصرك فهذا هو الذي ينبغي أن تفعله، وذكر بعض هذه الأطر التي ضربت لكم أمثلة عليها، ذكر بعضها واستنتج منها أن هذا هو الإطار المناسب للعلم،

فإذا نحن أردنا العلم فلا بد لنا من أخذ هذا الإطار. موقف ثالث هو موقف إخواننا الذين يدعون إلى تأصيل العلوم، وأيضا هؤلاء ما تزال الفكرة من ناحية التنظير ليست واضحة كل الوضوح في أذهانهم. بعضهم سرّهم هذا الكلام عن عدم الموضوعية، وقالوا: انتهى الأمر، أنتم بإطاركم ونحن بإطارنا. أي المسألة لم تعد علماً، أنتم تنظرون من هنا ونحن ننظر من هنا. طبعاً هذه حجة قد تكون مفحمة للغربي، قل له أنت لك نظرة وأنا لي نظرة. لكن هذه معناها أولا: أنه ليس هناك في الحقيقة علم، وإنما هي مجرد آراء وتحيّزات وما إليها. أو أنه إذا كانت هناك حقيقة فمن المتعذر على الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة. بعض إخواننا قالوا لا، - وربما تابع بعضكم الجدل الذي كان دائراً في جريدة "الشرق الأوسط" عن الاقتصاد وغيره – إن الاقتصاد الذي نريده هو أن هناك علم اقتصاد، واقتصاداً يمكن أن نسميه توجيهياً أو معيارياً. فيقول من ناحية علم الاقتصاد نحن متفقون ولكن مختلفون في المعيار. إذن من ناحية العلم ليس لدينا علم اقتصاد، لكن أين علم الاقتصاد؟ الذي يدرَّس للطلاب في كل جامعات البلاد الإسلامية هو طبعاً الاقتصاد الغربي الرأسمالي، والذي يقول بعض الغربيين أنفسهم عنه إنه هو نفسه جزء من الدعاية الرأسمالية. فهذا الذي يسمى علم الاقتصاد ثم الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الاشتراكي، هذه تحيزات. أما علم الاقتصاد فهو هذا. فهل نقول مثل هذا الكلام؟ هل نحن فعلاً لا نختلف مع الغربيين في النظرة إلى الواقع وفي تفسير الواقع؟ هذا أيضاً ليس بصحيح. إذا قلنا نحن نريد أن نستبدل بذلك الإطار المادي الإلحادي إطاراً إسلامياً، ما معنى هذا؟ هل معناه – كما قلت – أننا نريد أن نستبدل بتحيز تحيزاً آخر؟ في القرآن الكريم ما يدل على أن الإنسان فعلاً إذا وضع نفسه في إطار معين تخفي عليه بعض الحقائق. لكن الذي نستفيده من القرآن أنه حتى حين يضل الإنسان يمكن أن لا تخفي عليه كل الحقائق. فإذن هذا الإطار الذي ننتقده عرف بعض الحقائق، فلا نستطيع أن نقول إنه نظرة ذاتية بحتة لأنه حتى تلك النظرة التي قلنا إنها إلحادية اعترفت بحقائق، أن هنالك مادة وأن هنالك جزئيات وأن هذه تؤثر. فالذي يعترف بهذه الحقيقة يمكن أن يصل إلى نتيجة. لكن لو قال إنسان لا يوجد شيء اسمه مادة وإنها كلها مجرد آراء، وإن السحر هو الشيء الأساسي لا يصل إلى ما وصل إليه هذا التفكير الغربي. ففي القرآن – كما قلت – ما يدل على هذا.

مثلاً، الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، فإذن هم يعلمون. وضعوا هذه الآية مع آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، كانوا يرون ماذا؟ قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ كانوا يرونها، لكن كانوا يرون (ظاهراً)، ما استنتجوا منها النتيجة التي ينبغي أن تستنتج، ما فسروها التفسير الذي ينبغي أن يفسر. هنا تدخّل الإطار ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

جاءوا وهم معتقدون ومصرون على أنه ليس هناك آخرة، فإذا لا يمكن أن نفسر الذي رأيناه تفسيراً. ضع هذه الآية مع آية ثالثة: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، فكأن عدم الإيمان بالآخرة – أي الخلل في الإطار – يكون أيضاً خللاً في العقل، في بعض العقل، أي لا يكون مجنوناً مرة واحدة، لكن يمنعه. فإذن ما الذي نريده نحن؟ نحن نريد نظرة أشمل من هذه النظرة الإلحادية، ستتضمن كل ما اعترفوا به من حق. ولذلك تصل إلى كل ما وصلوا إليه من حقائق أو تعترف بكل ما وصلوا إليه من حقائق. لأن هذه الحقائق هي مما يعترف به هذا الإطار الجديد. لكنه يكون إطاراً صاحبه مفتوح الذهن لأن يجد مؤثرات غير التي يقولها صاحب النظرة المادية، إطاراً يؤمن بالنفس وبأن هناك إرادة. سيختلف هذا الإطار عن الإطار الذي صرعه المنهج العلمي الحديث في أنه لا يتصور الدين كما يتصوره ذلك الإطار. ذلك الإطار كان يعتبر الدين القوى الإلهية كأنها إحدى القوى. هناك قوى إلهية وقوى طبيعية وقوى جنّية وقوى سحرية، وظل هذا في تفكير كثير من المتدينين، حتى كان الآخرون يضحكون منهم، لأنه كانوا دائماً – وهذا أرى أن بعض إخواننا يفعلونه الآن – يسرهم جداً إذا عجز العلم عن تفسير ظاهرة من الظواهر، يقولون هذه إرادة الله، وبعد قليل ينجح العلم في تفسير الظاهرة، فسموه (The God of gaps). نحن طبعاً لا نقول هذا، نحن نقول هذا السبب هو من خلق الله، الله هو الذي خلق الأسباب وهو الذي جعلها أسباباً، فالشيء أو الظاهرة وسببها أو القانون الذي يحكمها، هذا

كله بإرادة الله سبحانه وتعالى. وعندما نتكلم عن الجن أو الملائكة أو القوى الأخرى نتكلم فيها كلاماً منضبطاً، ليس متروكاً لكل عالم أو شخص يقول لنا أنا بحثت في الظاهرة الفلانية واكتشفت أن الملائكة هي التي عملت كذا وكذا، لا، هات الدليل إما من الدين أو من الواقع. سيكون أيضاً الفرق بيننا وبينهم أن ديننا دين يعترف بالواقع المحسوس ويعتبر أن الذي يماري فيه مكابر لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فهذه وسائل المعرفة، سواء كانت معرفة دينية أو معرفة دنيوية.

فإذن كل علم جاءنا عن طريق الحس أو عن طريق العقل الصريح – كما تعرفون كتاب ابن تيمية "موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول" – كل هذا يعتبر علماً. بالنسبة للدين أيضاً الكلام عندنا ليس كلاماً منضبطاً، الدين ليس هو ما يقوله البابا وليس هو ما يقوله الشيخ الفلاني وليس هو ما يقوله الولي الفلاني، وإنما الدين له مصادر معروفة، وله منهج. وهذه مسألة تحتاج إلى محاضرة أخرى. لنا منهج علمي في كيف نصل إلى حقائق الدين. فبهذا سيكون إطارنا مختلفاً عن الإطار الإلحادي من ناحية، ومختلفاً عن الإطار الديني الذي صرعه الإطار الإلحادي.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

س: هل يوجد في مدارسنا -قبل التخصص وبعده- تنافس بين العلوم التجريبية والعلوم النظرية، وإن وجد فما هي نتيجة ذلك؟

ج: الظاهر في كل العالم الإسلامي أن معظم الطلاب يفضلون الذهاب إلى العلوم الطبيعية، أليس كذلك؟ فهناك تنافس بين الناس، وليس بين العلوم. وأظن أن معظم الطلاب يفضلون الذهاب إلى الخط الذي يسمى بالعلم الطبيعي.

س: ما التعريف الإجمالي للعلوم الإنسانية بالتحديد؟

ج: أنا فكرت في هذا، فقلت لعل الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية أن العلوم الطبيعية تدرس الكائنات وهي ميتة، تدرسها كائنات طبيعية لا إرادة لها ولا حس وما إلى ذلك. أما العلوم الاجتماعية فهي تدرس كائناً حياً. حتى العلوم الطبيعية عندما تدرس الكائن الحي تدرسه من جانبه الذي لا حياة فيه. هذا على العموم. لكن العلوم

الاجتماعية تدرس كائناً ذا وعي وإرادة، وتحاول أن تترسم خطى العلوم الطبيعية في أن تكتشف ظواهر معينة يمكن أن توصف بأوصاف اطرادية، في كل كذا يحدث كذا، كلما حدث كذا حدث كذا، أي أوصاف كأنها قوانين. ثم تحاول أن تكتشف فعلاً إن كان هناك قوانين اجتماعية، سواء إذا كان في علم النفس قوانين نفسية، أو إذا كان علم الاجتماع قوانين اجتماعية، أو إذا كان في علم الاقتصاد قوانين اقتصادية، ثم تحاول أن تفسر هذه الظواهر وهذه القوانين كما يفعل الناس في العلوم الاجتماعية. ولعل بعض إخواننا المختصين من الحضور يأتوننا بالتعريف الجامع المانع.

س: إذا كانت العلوم الإنسانية والطبيعية الموجودة مبنية على الإطار الإلحادي، فتعليمها في البلاد الإسلامية كما هي يجلب مضاراً ووبالا على الأمة الإسلامية. أليس كذلك؟ وما سبيل الخروج من ذلك؟

ج: نعم. هذه مشكلة كبيرة. نحن لا نستطيع أن نقول الآن لا ينبغي أن تُعلّم، لكن فلنقلل من ذلك. خطرها الحقيقي في أنها تنقل هذه الروح الإلحادية إلى ذهن الطالب، بدون أن تقول له هذا، تسري هذه الروح إلى ذهن الطالب. فلعله مما يساعد على هذا أن نقول كلاماً كالذي قلته اليوم. أنا كنت بحكم التخصص مهتماً بهذه القضايا، لكني كنت أظن في بداية الأمر أنه لا علاقة لها بمشكلات العالم الإسلامي، فأهملتها مدة طويلة. ثم التفتّ فإذا هي من أهم المشكلات. ولذلك أرى الآن أنه على كثير من إخواننا المهتمين، خصوصاً بتأصيل العلوم، أن يقرأوا بعض الشيء في ما يسمى بالفلسفة العلمية، لأن كثيراً من الكلام الذي يقولونه قد قاله كثير من الغربيين وناقشوه، فلا تبدأ من حيث بدأوا وإنما أنظر فيما انتهوا إليه. وهذا يساعدنا كثيراً. فلو أننا قدمنا بمقدمات مثل هذه في الكتب العلمية وفي كليات التربية، الأساتذة الذين يتخرجون ويدرّسون الطلاب، لو أننا نبهناهم إلى هذا. طبعاً كثيراً من الحقائق التي تقال للطلاب ليس فيها إلحاد، كما قلنا إن النظرية وإن كانت إلحادية يمكن أن تعترف بواقع وتصل إلى حقيقة، لكن الخوف هو من نقل الروح. لا زلت أذكر تجربة لا أنساها أبداً، عندما جئت إلى جامعة الرياض- في ذاك الوقت – كنت في قسم الثقافة الإسلامية فكنت أدرّس طلاب العلوم الثقافة الإسلامية، فكنّا دائماً

نتناقش في مسألة المادة لا تستحدث ولا تفنى، أقول لهم إذا قلتم المادة لا تستحدث ولا تفنى فأين يذهب قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]؟ وأقول لهم: ((لا تستحدث)) هذه ترجمة لطيفة، أما في الكلمة الإنجليزية (لا تُخلق) Not created nor destroyed لا تُخلق ولا تفنى. فإذا كانت لا تفنى ولا تُخلق فكيف الله خالق كل شيء؟ فوجدت عجباً. كل طالب متدين فسرها تفسيراً من عنده. المهم يريدها أن تكون متمشية مع الدين، لكنه يفسرها من عنده. أحدهم يقول معناها أن الإنسان لا يستطيع أن يخلقها. الإنسان لا يستطيع أن يخلق جبلاً ولا ناراً ولا بحراً ولا شجرة. فنظرية داروين – عندي كلام عنها نقلته عن بعض العلماء – يقولون إنه كانت لها آثار ضارة من الناحية الخلقية، من الناحية السلوكية. قال هويل إن من أضر ما نتج عن نظرية داروين أنها جعلت الناس يتصورون أن البقاء هو أهم قيمة. وإذا قلت إن مجرد البقاء أهم قيمة فتصوروا كل أنواع الاتجاهات الانتهازية، أي يحق كل شيء إذا صار البقاء أهم قيمة. فبعض النظريات العلمية لها جوانب في خلق الناس وفي قيمهم توثر فيهم. فهذا هو الذي ينبغي أن نلتفت إليه. وبالمناسبة فإن نظرية داروين هذه، أظن أننا إلى الآن لم نقل فيها كلاماً محترماً جداً، وأنا ألوم إخواننا أساتذة علوم الأحياء. وما يزال كثير من الناس في أنفسهم يصدقونها، حتى من المتدينين، أو يرى أن الحجة فيها قوية جداً أقوى من الكلام الذي يقوله الإنسان المتدين. فلا بد من كلام واضح في هذا. وفي رأي أن من أهم ما ينبغي أن يوضَّح هو الفرق بين التطور والنظرية في التطور. كثيراً ما يخلط الناس بينهما. التطور من حيث هو أن هذا يقود إلى هذا وأن هذا كان كذا ثم صار كذا هذا في خلق الله واضح، ربنا ما خلقني بهذه اللحية البيضاء، كنت كذا ثم صرت كذا وكذا. فإن أردت أن تسمي هذا تطوراً سمّه. فالذي حدث للمخلوق الواحد لا يمنع أن يحدث لجنس المخلوقات. فالتطور من حيث هو حقائق لا شيء فيه. لكن كيف حدث التطور؟ ماهي القوة التي كانت وراء التطور؟ هذه هي نظرية داروين. مشكلة نظرية داروين ليست هي إثبات أن هناك تطوراً، وإنما تفسير التطور بأنه انتخاب طبيعي لا علاقة له بالقدرة الإلهية وانتخاب أعمى... إلخ. حتى هويل هذا الذي قلت لكم إن له نظرية في التطور يقول إن داروين أخذ نظرية التطور من

مسألة التنافس كما قال إنجلز. قال: بعد الثورة الصناعية نشأت الشركات فكانت كل شركة لا تبقى إلا إذا جوّدت منتجاتها. فأصبحت الجودة هي البقاء، أنت تصنع صابوناً وأنا أصنع صابوناً وهذا يصنع صابوناً، فلكي أبقى في السوق لابد أن يكون صابوني أحسن من صابونك، أو على الأقل مثله. فقال هويل: حتى هذه الفكرة الرأسمالية التي أخذها ما أوفاها حقها، لأن الجودة هنا وراءها عقل بشري، هو الذي يفكر ويقول كيف أُجوِّد. أما في نظرية داروين تحولت إلى عبث وإلى شيء لا هدف له. فهذا الجانب – في رأيي – الذي ينبغي أن يذكر للطلاب، وهو جانب تربوي مهم جداً. إذا صارت العلوم على حساب هذا التفكير وهذه القيم يكون ضررها أكثر من نفعها. لكن من الممكن أن نحتفظ بكل منافعها. ومنافعها كثيرة ونحن محتاجون إليها. ونتقي هذ الشرور المصاحبة لها فلسفياً.

س: ألا تعتقدون أن نظرية النظم المتفتحة الآن في الغرب في منهجية العلوم الاجتماعية منسجمة كثيراً مع التصورات الإسلامية، أم أن هذا ما أخذه الاجتماعيون عن نظريات علوم الفيزياء والأحياء وغيرها؟ شاكراً لكم إلقاء بعض الضوء على ذلك.

ج: أنا أعرف نظرية النظم المتفتحة، لكني لست مختصاً. العلم الوحيد الذي أعرف عنه بعض الشيء لأنني درسته مع الفلسفة هو علم الاقتصاد. أما المنهج هذا فأعرفه بحكم الاهتمام بالمناهج. كثير من المناهج، وليس هذا وحده، مفيدة إذا وضعت في الإطار. عندما تقول "نظام" فأنت تفترض أشياء فاعلة كثيرة، وتريد أن تعترف بها كلها. الإطار هو الذي يحدد لك ما هي هذه الأشياء الفاعلة. فأنت، إذن قبل أن تتبنى المنهج محتاج إلى هذا الإطار. فهذا الذي كنت أركز عليه. أما بعد أن نحدد الإطار لا أقول إننا جميعاً سنتفق، في داخل هذا الإطار العام أظن أننا سيكون لنا أيضاً – كما كان لغيرنا – أطر صغيرة، في داخل الإطار الإسلامي سنختلف. وأنا اليوم بعد أن حضرّت هذه المسائل خطر ببالي أن الذي حدث بالنسبة للعلوم الدنيوية حدث أيضاً في الدين. بعض الناس وضعوا أنفسهم في أطر ثم جاءوا إلى القرآن بهذه الأطر، وهذه الأطر منعتهم من أن يروا بعض الحقائق. أليس كذلك؟ الجهمي الذي أتعب أهل السنة، هذا الذي يأتي للقرآن وهو يعتقد أنه من المستحيل عقلاً أن الله سبحانه وتعالى يوصف

حقيقة بأنه عالم أو أنه يرى أو ما إلى ذلك، هذا وضع نفسه في هذا الإطار. لذلك كنت أقرأ قريباً لبعض أهل السنة في الرد قالوا كلاماً جميلاً أنه في الحقيقة ليس هناك فرق بين الجهمية والدهريين، أي الماديين، لأن الجهمي هو في الحقيقة لا يعترف إلا بهذا الواقع. فمشكلته أين يضع الله، إذا كان العلم والعين واليد والسمع والبصر لا توصف بها إلا هذه الموجودات، إذن أين الله؟ فهو يأتي إلى القرآن بهذا التصور، فهما رأى من آيات ومهما رأى من أحاديث سيفسرها في ضوء هذا التصور الذي جاء به. ولذلك يقول ابن تيمية إن بعض هؤلاء لا يصلح معهم النقاش بالنصوص، لأنه قامت في ذهنه شبهة أن هذا مستحيل على الله، أي مستحيل أن الله سبحانه وتعالى يكون هكذا أو أن الرسول ﷺ يقول هذا الكلام. فأنت مهما أعطيته من نصوص لن يقتنع، فيقول لابد أن تبدأ بأن تزيل هذا المرض من ذهنه، تقنعه بحجة عقلية أن هذا الكلام الذي ظنه عقلاً هو ليس بعقل. فأتصور أنه في الإطار الإسلامي سيكون لنا أطر داخل هذا الإطار، سيختلف مثلاً علماء الاقتصاد في مثل هذا النقاش اليسير الذي كان في جريدة "الشرق الأوسط"، مثلاً أحد إخواننا قال – والغريب أنه نفس الأخ الذي قال إنه من ناحية علمية فالناس متفقون على ما هو كائن وأنه لا اختلاف فيه ثم بعد قليل قال – نحن لا نوافق الاقتصاديين الغربيين في أن المشكلة الاقتصادية سببها الندرة. أنا مثلاً لست اقتصادياً، لكنني أختلف معه في هذا. ففي رأيي السبب هو الندرة. وهم عندما يقولون إن سببها الندرة لا يتحدثون عن الإنسان المتدين الذي يأخذ ما يكفيه، لأن الناس مطامعها لا تنتهي وموارد الأرض محدودة. أي إن لم تكن هناك ندرة لما كان هناك بيع ولا شراء. لا أحد الآن يشتري الأوكسجين، لأن كل ما نريده منه ربنا أعطانا إياه، فلا يصبح سلعة. وبعض إخواننا يخلطون بين ما ينبغي أن يكون في القرآن والسنة وبين ما هو كائن. بل يخلطون بين ما هو كائن في مجتمع متديِّن وما هو كائن في المجتمع غير المتدين. بل بعضهم يظن أن علم الاجتماع أو علم الاقتصاد الإسلامي هو للمجتمعات الإسلامية. نحن لا نريد هذا. نحن نريد أن يكون لنا علم اجتماع وعلم اقتصاد يفسر ظواهر، سواء كانت في المجتمعات الإسلامية أو في المجتمعات الغربية، بل نريد أن ننظر إلى تاريخهم من وجهة نظرنا نحن ونفسره بتفسيرنا نحن. ما يحدث

الآن هو العكس، أننا ننظر إلى تاريخنا من وجهة نظرهم هم. المهم أننا سنختلف، خصوصاً في البداية، لكن لا بد من الصبر ولا بد من النقاش والتوضيح لهذه المسائل المعضلة خصوصاً ونحن في بداية الطريق.

س: يقال إن للدين تأثيراً كبيراً جداً في العلم في حياة الغرب. فما هي وجهة نظرك بالنسبة لتأثير الدين على العلم في حياة المسلمين؟

ج: في الحقيقة النقطة الأولى أنا غير موافق عليها. فلا أرى للدين تأثيراً كبيراً. أما بالنسبة لحياة المسلمين الآن لا أظن أن الدافع للدراسات العلمية كان دافعاً دينياً، وإنما الواقع أن الناس اكتشفوا أنهم متخلفون اقتصادياً وحربياً ومادياً ويريدون أن يلحقوا بالغرب. فهي دوافع بشرية عادية. كما أن اليابان حاولت ودول العالم الثالث حاولت، فكذلك المسلمين حاولوا. أما في الماضي فكان الدين هو الدافع، وهذا موضوع آخر، ولكن الآن لا أظن أن الدافع ديني.

مدير الحوار: أود أن أذكّر – أيها الإخوة – خاصة أولئك الذين درسوا في أوروبا والولايات المتحدة أنهم يُسقَون فكرة فصل الدين عن العلم ليس مباشرة، وإنما يقوم المنهج نفسه على هذا الفصل، ونبه لهذا موريس بوكاي في كتابه المشهور في ما يحضرني في الصفحة ١١١ عن هذه القضية، قضية وقوع الطلبة المسلمين في هذا المنهج دون أن يشعروا، ثم بعد أن يعودوا متخرجين يحاولون تطبيق هذا المنهج لأنهم استقوا هذا الشيء.

د. جعفر شيخ إدريس: أذكر في آخر زيارة لي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، في اجتماع رابطة الطلاب المسلمين العرب، طلبوا مني أن أتحدث عن أسباب تخلف المسلمين. قلت لهم من ضمن الأسباب ((أنتم)) وأعني بـ((أنتم)) الطلاب المتدينين الملتحين أصحاب الثبات القصيرة الذين يصلون ويصومون. أنتم، لماذا؟ لأن الواحد منكم يأتي هنا ويدرس أربع وخمس أو حتى تسع وعشر سنوات في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد... إلخ، وما فكر أن يعرف الجانب المتصل بعلمه هذا في الدين، لا في القرآن ولا في السنة. نعم، تصلي وتصوم، فأنت في صلاتك وصيامك ودعوتك العامة مسلم، لكن في العلم الذي ستذهب وتطبقه في العالم الإسلامي أنت دوركايم أو فرويد لكن

بلحية وما إلى ذلك. فأنت تخدعني. ستأتيني في العالم الإسلامي وأراك مُلتحياً وتكلمني، خصوصاً إذا كنت بارعاً وأعطيتني آية من هنا وحديثاً من هناك. كلامك سيكون كلام دوركايم لكن فيه آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأبياتاً من الشعر العربي، فتنطلي عليّ الخدعة، وأنا الآن أصبحت فعلاً خائفاً جداً من هذه الفكرة. أرى أن هذا جانب من العلمانية كنا غافلين عنه. نحن نعلم بالعلمانية في السياسة وغيرها، ولكن هناك الآن علمانية ستأتينا عن طريق العلوم الإنسانية وسيكون من دعاتها أناس من بني جلدتنا يتحدثون لغتنا ويصلون في مساجدنا وهم منا. فقلت لهم لا تخدعنّكم صلاتكم وصيامكم، لأن الإنسان يمكن أن يكون متديناً في شخصه أما من الناحية العلمية فسيكون في وادٍ آخر.

س: إن تحدد الحقائق التي عند الغرب هو نفسه يحتاج إلى ميزان علمي أو منهج علمي وهو محكوم أيضاً بإطار. فكيف يمكن تحديد الحقائق التي يجب أن نبني عليها المنهج الديني الإسلامي؟

ج: تحديد الحقائق موضوع يحتاج إلى تفصيل، ناقشناه في كثير من الندوات التي كانت عن أسلمة العلوم. لكن المسألة في أصلها واضحة. نحن نعترف بكل ما يأتينا عن طريق الحس وبكل ما يقوم عليه دليل عقلي وبكل ما يثبت نقلاً. فلدينا مصدران للمعرفة: الكون المحسوس والوحي الذي أتانا به الله سبحانه وتعالى. فكل ما ثبت من الناحية النقلية فهو حق، وكل ما ثبت من ناحية حسية وعقلية فهو حق، والذي يثبت هنا لا نحتاج إلى أن نؤيده بشواهد من هنا، والذي يثبت من هنا لا يحتاج أن نؤيده بشواهد من هنا، ولكن إن وجدنا الشواهد تؤيد هذا والشواهد تؤيد هذا فهذا من زيادة الخير ومن تظاهر الأدلة. لكن هذه أيضا من الأخطاء التي يقع فيها بعض إخواننا الذين يريدون ما يسمى بأسلمة العلوم أن رأيت أحدهم كتب كتاباً في علم النفس كأنه كتاب في الفقه. كأنه ظن أنه لكي يكون الكتاب علم نفس إسلامي لابد أن كل حقيقة نفسية يأتي عليها بشاهد من الكتاب والسنة. وإذا كان الأمر كذلك، فماذا نفعل في الفيزياء والكيمياء؟ لا المهم أن نقول لأنفسنا إن الله سبحانه وتعالى أقر الطريق الذي نسلكه لمعرفة هذه الحقائق. إذن يكفي هذا. ما دام الله قال لنا إن

السمع والبصر والفؤاد هي وسائل للعلوم فيكفي هذا. بل إن الله ذمّ الذين يكابرون في شيء يلمسونه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ..﴾ [الأنعام: ٧]، إذن هذه مكابرة. كتاب نزل من السماء لمسوه بأيديهم، معنى هذا أنه أعظم من أن يأتيه رسول ويكلمه وينكر. كتاب نزل من السماء تلمسه بيدك فتقول لا أصدق؟! فالشيء الملموس المحسوس من الحقائق، نعترف بها من أي مكان جاءت.

د. أحمد التويجري: في البداية أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذنا وشيخنا على الجهد الكبير الذي بذله في إعداد هذه المحاضرة. ونسأل الله أن يجعل ما ينتج عنها في ميزان حسناته إن شاء الله. لي تعليق بسيط في ما يتعلق بالقضية الأصلية في محاضرة الليلة وهو يتلخص في الآتي: أعتقد أن المشكلة التي تواجهنا دائماً في ما يتعلق بمسائل المعرفة هو الخلط العجيب بين الحقيقة والتصور الإنساني للحقيقة. فالحقيقة شيء مطلق يمثل الواقع كما هو. التصور الإنساني لهذا الواقع قد يوافق الواقع كما هو وقد يتأثر بأداة التصور. وأداة التصور غالباً ما يقع فيها – ما تفضلتم به – من الأطر الصغيرة والكبيرة. والذي أريد أن أضيفه هو أن هناك إطاراً كبيراً آخر غير الدين أسميه "الواقع الحضاري". فالغلبة الحضارية في زمن من الأزمان تتدخل أيضاً إلى جانب الدين. وهذا ما نعاني منه في هذا الزمان وينطبق بالذات على آخر الكلام الذي تحدثتم حوله في ما يتعلق بالمتدينين. هو في دينه ملتزم بالإسلام ومتفاعل معه إلى درجة كبيرة، لكنه في واقعه الحضاري مغلوب بواقع آخر أو بحضارة أخرى. والمشكلة الكبيرة عندما يختلط على هذا الإنسان تأثير الواقع الحضاري وتأثير الدين الذاتي. ونعتقد أن جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية مقصرة تقصيراً كبيراً في مواجهة الأمرين. مقصرة في مواجهة تحديد نظرتنا من خلال تصورنا الخاص، ومقصرة في تبيان تأثير الواقع الحضاري في زمن من الأزمان.

د. جعفر إدريس: أنا موافق معك. لكن استفدت من كلامك أنه يمكن أن نقول إنه كما أن هناك واقعاً ثم تصوراً إنسانياً يقترب منه أو يبتعد، فكذلك هناك دين يقترب منه التصور الإنساني ويبتعد. ليس معنى أننا مسلمون أن كل تصوراتنا تصورات إسلامية. فيمكن أن ننتمي إلى الإسلام ويكون كثير من تصوراتنا جاهلية، **(إنك امرؤ فيك جاهلية)**. فالجاهلية أحياناً تعظم وأحياناً تضعف بسبب المؤثرات الخارجية.

د. عبدالله زرّوق: في الحقيقة هذه المحاضرة فيها أفكار كثيرة خصبة. وهذا المجال إذا لم يكن من تخصص الشخص ولكن لأنه متصل بالمناهج فيمكن أن نعلق على بعض الأشياء ونستفسر عنها. المحاضرة في أساسها عن الموضوعية في العلوم الإنسانية. وبدأ الحديث بشيء عن المقارنة بين محدودية العلم في العلوم الطبيعية بذكر قانون عدم الحتمية هذا وعدم اليقين. فطبعاً هذا القانون خاص بالأجسام الصغيرة جداً، ولكن الإنسان يمكن أن نعتبره جسماً كبيراً، فيجب أن تعدل الحجة أو تصاغ بحيث إن محاولة معرفة سلوك الإنسان يؤثر في السلوك ويجعله غير محدد. وتوجد بعض الملاحظات لسلوك الإنسان، أي يغيِّر الإنسان سلوكه بأمر الملاحظة نفسها. ولكن توجد طرق للتغلب على هذه الصعوبة. ولكن الذي أراه أنه يجوز أن يكون في محدودية المعرفة أساساً – أشار إليه المتحدث والأخ التويجري – أداة التصور نفسها. فمن المعلوم أن الإنسان كعالم للأشياء يود أن يدرك حقيقتها أو حتى حقيقتها المطلقة، وتوجد من الحجج ما يسند القول أن علمه في النهاية محدود ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. أما الحديث عن الأطر، فمن بعض قراءاتي للدكتور جعفر في مقالاته وفهمي لهذه القضية عند قراءة بعض الأجزاء عند الإمام ابن تيمية، قد يجد الإنسان تصوراً آخر لها. أي أن الصورة التي فهمها الآن من المحاضرة قد تكون مختلفة عما كان عنده من تصور، وهو أن المنهج أو الإطار يحدد ما يعترف به الإنسان من موجود أو خلافه. ولكن الغريب أنني أرى أنه يوجد نوع من التوافق الأساسي بين المنهج الغربي والمنهج الإسلامي على حسب فهمي. فإذا قلنا إن الإطار الأساسي هو العقل والتجربة وإن الدين نفسه تبدأ مسلماته الأساسية من هذا المنطلق، لكن بعد ذلك يعترف الإنسان بأشياء لا توصله إليها التجربة ولا العقل. فيمكن أن نعرِّف العلم عموماً، وقد يعترف بعض الغربيين بذلك، بأنه الذي ينفعنا. فالشيء الذي يعتقده الشخص إذا كان واضحاً بالنسبة له يكون علماً، وإذا احتاج إلى دليل يكون له دليل على هذا الاعتقاد، وإذا طعن في هذا الاعتقاد وشُكِك فيه يثبت عند التشكيك. فمن هذا قال ابن تيمية إن الإطار الجهمي له شبهة، فهذه الشبهة أو التصور نعتبره تصوراً خاطئاً، ويمكننا القول إنه الجهل عند الشخص، فيكون نقطة لبدء المحاورة بيننا وبين هذا الشخص. لهذا

وجدت أن الدكتور جعفر استفاد من بعض الأشياء التي أقحم الغربيون أنفسهم فيها. فإذا التزم الشخص بالمنهج التجريبي العقلي وتجرد، وبعض الناس يفعل ذلك، يمكن لنقاط الخلاف الأساسية بيننا وبينهم أن يكون فيها شيء من التقارب. أي مثلاً لا يوجد هدف للكون يمكن أن يفسَّر أنه مكتفٍ بذاته أي في أن وحدة المادة هي الأصل. وطبعاً الدكتور جعفر في مقالته التي كتبها عن أسس المادية حاول أن يذكر أن الغربيين أنفسهم أُحرجوا في النهاية وحاولوا أن يغيِّروا مفاهيمهم بالنسبة للمادة نفسها، وهذا التغيير ربما يقود في النهاية إلى شيء. فمثلاً مسألة الفطرة في تصورنا للإنسان من الأشياء التي يمكن أن تكون من نقاط الخلاف، كالقول إن الإنسان أصله شرير. مع أننا نجد أن بعض الغربيين أنفسهم لديهم شيء قريب من هذه الفكرة. فأقول في النهاية إن نتائج الإطار قد تكون مختلفة. إن الشخص لا يسلِّم بأشياء من المفروض عليه إلا يسلِّم بها. فنحن في البداية نسلِّم بالنص الذي هو مصدر المعرفة، مصدرنا لسلوك الإنسان وللقضايا الكبرى عن الكون. فمن النص يمكن أن نستنبط أشياء أخرى لو توصلوا إلى هذه النتيجة. و شكراً.

د. جعفر إدريس: بالنسبة لهايزنبرج، أنا ذكرتها لا لأدلل به على عدم الموضوعية في العلوم الإنسانية، ولكن ذكرتها على أنها من الأسباب التي دعت الغربيين إلى أن يقولوا بأن الموضوعية الخالصة لا توجد. ودائماً إذا قيل الشيء أنه صعبٌ في العلوم الطبيعية فيكون من باب أولى في العلوم الإنسانية كذلك. أما بالنسبة للكلام الذي قلته أرجو أن أستفيد منه في تعديل كلامي بعض الشيء نعم، إذا أخذنا المنهج باعتبار أن الإنسان يعترف بالواقع المحسوس وبالعقل وبم يستنتجه من هذا الواقع المحسوس، بهذا الكلام المجرد لا خلاف بيننا وبينهم، على الأقل في ما يكتبون. لكن نريد أن نقول الآن إنهم وضعوا هذا في إطار معين. قال: نعم أنا اعترف بالمحسوس وأعترف بالعقل لكن في حدود موجودات ليس فيها الله ولا فيها ملائكة ولا وحي، في هذه الحدود أنا مستعد. حتى يُذْكَر أن أندر هكسلي كان يسخر من بعض العلماء، كان يقول إن العلم يقوم على المشاهدة. ولكن بعض العلماء الطبيعيين إذا رأوا شيئاً يخالف الأسس التي أقروها أداروا وجوههم إلى الجهة الأخرى. ويذكرون شيئاً يُذْكَر عندنا

أيضاً في السودان – ولا أدري إذا ذكر عندكم في السعودية أم لا – يسميه المسيحيون Levitation، أي أن بعض الناس عندما يكون في حالة عبادة أو غضب يرتفع عن الأرض. فقال إن القس فلان الفلاني تحدى كل قوانين الجاذبية، لأنه حسب قوانين الجاذبية لا يفترض أن يرتفع عن الأرض. وذلك لي بعض إخواننا المتخصصين في الفيزياء – أظنه الدكتور محجوب عبيد – أنه جاء أيضاً شاب يهودي لديه قوة سحرية أو ما شابهها في بريطانيا وأزعج العلماء جداً، لأنه كانت لديه قوة يؤثر بها ي المعادن. فمثلاً إذا كان هناك مفتاح في جيبك، يمسك هو بالمفتاح فتجد أن المفتاح قد أعوَّج وهو جالس في مكانه. بل فعل هذا عن طريق التلفزيون، يقول للناس أحضروا الشُوَك والملاعق، وفجأة تجد أن الملاعق والشوك قد اعوجت. إذن، أين الفيزياء؟ لا يوجد. فقال محدثي إن أحد العلماء اهتم بهذه الظاهرة وبدأ يجمع كلاماً من هذا النوع، ثم كتب لزملائه العلماء يطلب منهم أن يدرسوا معه الموضوع، إلا أنهم رفضوا وقالوا: هذا سيهدم كل البناء الذي أعمل في داخله فلا أحب أن أرى هذا. ولذلك أقول لهم دائماً: أنتم تظنون دائماً أن التعصب يكون في الدين فقط، أبداً. أنا عشت معكم فرأيت علماء متعصبين وفلاسفة متعصبين، لا فرق بينهم أبداً وبين رجال بعض الطرق الصوفية لدينا في السودان. غير أن هذا تعصب في الدين أو على ما أعتقد أنه دين وهذا تعصب في مسائل فلسفية يثور فيها الجدل والخصام والتحزبات. نرجع إلى موضوعنا. إن مما يشجعنا أن المنهج الذي ذكره الأخ زروق هو نفسه بدأ يضيق بهذا الإطار. أي أنه هو نفسه أوصل الغربيين إلى حقائق لا تتناسب مع الإطار. لذلك كتب أحدهم فقال إن المادية تتخطى نفسها. المادية كانت تفترض أن المادة هي الأساس، والشيء الأساس لا يحتاج إلى تفسير. أما الآن فهناك نظريات تحاول أن تفسر المادة نفسها. فبمجرد أن تقول ما هي المادة تكون قد خرجت من الأساس وأصبحت ليست الأساس. فالمادة تتخطى نفسها. هناك جدل كبير – يعرفه إخواننا الذين يدرسون علم النفس الآن – عند الأمريكان ويعقدون الندوات من أجلها، وهو أنه طال الوقت الذي أهملوا فيه مسألة النفس، ويذكرون أن السبب هو الإطار الذي وضعه القرن السابع عشر، هو الذي منع من الاعتراف بالنفس، وقالوا الآن هناك دراسات كثيرة نحن نحتاج فيها إلى أن نعترف

بالنفس بكل نواحيها: الإنسان حين يكون مع نفسه وكيف يتصور نفسه.... إلخ. وفي الفترة التي كنت أدرس فيها كان يُعْتَبر الكلام عن الدين كأنه نوع من قلة الأدب. وأذكر أن أحد الأساتذة الإنجليز قال: لدي نظرية أريد أن أشرحها لبعض إخواننا في المحاضرة، وأفضل طريقة هي أن أشرحها بلغة دينية. لغة فقط، لكنني لا أستطيع أن أستعملها لأنني أخاف أن يقولوا إنني جننت. فحتى اللغة ممنوعة. وكان يقال لنا إن السؤال حتى السؤال: كيف جاء الكون؟ ومن الذي خلق الكون؟ هذا السؤال – دعك من الإجابة عليه صحيحة أو خطأ – هو نفسه سؤال غير علمي. سؤال لا معنى له. هذه هي الفلسفة التي تأثر بها أخونا زكي نجيب محمود والتي يسمونها الوضعية المنطقية. الآن تُكْتَب في هذا الموضوع. في السنوات الأخيرة قرأت كتاباً بعنوان ((الفيزياء الحديثة والخالق)) وكتاباً آخر بنفس العنوان، وكتاباً ثالثاً ((علم الأحياء الحديثة والخالق)). لماذا؟ لأنه حصل تطور في هذه العلوم جعل هذا السؤال سؤالا طبيعياً: من أين جاءت هذه المادة؟ هذا السؤال أصبح الآن سؤالا – على الأقل – مشروعاً، سواء أجابوا عليه أو لم يجيبوا. فإذا قلنا إن المنهج بهذا التجرد الذي قاله الأخ زروق فنحن نتفق معهم. ولكنهم وضعوا هذا في هذا الإطار وبدأ هذا المنهج يوصلهم الآن إلى حقائق يضيق بها هذا الإطار.

د. يوسف العالم: أشكر الأخ جعفر على هذه المحاضرة الطيبة. وبمناسبة الحديث عن العلوم الإنسانية ومناهجه وما ذكره الأخ الدكتور جعفر عن مسألة الإطار، في اعتقادي أن المشكلة كلها تتلخص في الاعتقاد الذي يعطي التصور. ونتيجة لهذا التصور تأتي المعلومات والحقائق وقد يرتبط تصرف الإنسان وسلوكه بذلك التصور. ومنهج العلوم – كما ذكر الأخ الدكتور جعفر – محدود في إطار المادية، لأنه لا يؤمن بما وراء المادة من حقائق. وبالتالي لا يصلح أن يكون منهجاً إسلامياً، لأن المنهج الإسلامي بالنسبة للمسلم يعتقد يقيناً أن الله سبحانه وتعالى وهبه دائرة للمعرفة هي دائرة الحس، ودائرة أخرى هي دائرة العقل، ودائرة أعم هي دائرة الوحي. وبالتالي فإن كل ما يكتسبه من معلومات تتجانس، سواء كانت مصدرها الحواس أو العقل أو الوحي. وفي هذه الحالة يمكن أن نقول إن علم الاقتصاد – مثلاً – لو نظرنا إلى الجانب

المادي العقلي أو التجريبي فيه فهذا يمكن أن يكون معترفٌ به في الإسلام كاعترافهم به في الدراسات الغربية، كاقتصاد قانوني أو طبيعي. لكن الإسلام يختلف في منهجه في الاقتصاد كمذهب وكنظرة لمفهوم المال ومفهوم الطريق الموصل إلى المال ومفهوم تملك المال والتصرف في المال أو الإنفاق أو تنمية المال. هذه المفاهيم مرتبطة بالتصور، وهذا التصور مرتبط بحقيقة الإنسان هذا الإنسان كما بينه الله سبحانه وتعالى فيه عنصر مادي وعنصر معنوي، فكيف يتوازن العنصران؟ أوجد الله سبحانه وتعالى منهجاً لهذا الإنسان، إن سلك هذا المنهج فهو في استقامة وإن خرج عن هذا المنهج فإنه في انحراف، مهما نجح في إطار العلم التجريبي أو العلم المرتبط بالمادة. ولذلك لو أردنا أن نضع منهجاً لهذه العلوم لابد لذلك المنهج أن يكون مرتبطاً بذلك التصور الذي ينبثق من العقيدة بالنسبة للمسلم. ولذلك – كما ذكر الدكتور جعفر- إذا أريد علم اجتماع إسلامي حتى لغير المسلمين فذلك لا يصلح لهم لأن ذلك العلم في حقائقه مرتبط بعقيدة، وهو ذكر أن مفهوم الآخرة يوسع دائرة الإطار، وبالتالي إذا كان هناك علم يفصل بين الدنيا والآخرة بحاجز فلا يصلح أن يكون علماً إسلامياً بالمعنى الصحيح. فكل علم في مفهوم الإسلام، حتى العلم التجريبي، ينتقل في تصور المسلم إلى عبادة. عمارة الأرض أمر من الله موجه إلى الإنسان، كيف يعمر الأرض؟ وهبه الله الحواس والعقل ليعمر هذه الأرض عن طريق استنباط القوانين وتسخيرها، وبالتالي لا ينفصل المنهج عن الاعتقاد يعطي التصور. وفي هذه الحالة نجد أن القرآن يبين لنا ذلك بالنسبة إلى اكتساب المعارف ويقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]. إذن، العلم يراد به ما جاء عن طريق معطيات الحواس والهدى، العلم النظري المكتسب عن طريق العقل والكتاب المنير هو الوحي الذي يرسم المنهج الصحيح بالنسبة لتصور المسلم. ولذلك – في آية أخرى – يبين أن الإنسان الذي جحد تلك الدائرة، دائرة الوحي، لن يتقدم قيد أنملة نحو مكانة الإنسانية المكرمة المفضلة، ولذلك يقول: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. إذن لا بد لأي منهج إسلامي أن يرتبط بالعقيدة وبالتصور. عندئذ لا فرق بين العلم المكتسب في جانب المادة أو في جانب الخبر الصادق. وشكراً.

س: قلت إن أصل العلم في الوقت الحاضر هو من الأوروبيين. فما دور المسلمين مع أنكم تعلمون أن العلم يتطور وأصل العلوم من المسلمين والعرب. وهل تأخُر المسلمين الآن يجردهم من العلم الحاضر.

ج: أنا قلت – مع الاعتراف بما قدمه المسلمون – إن العلم في صورته التي عندنا الآن هو علم أوروبي بغض النظر عمّن أخذوه.

س: هناك شيء إلهامي يعترف به بعض الغربيين يسمونه أحياناً بالحاسة السادسة، وهو شبيه بالذي حدث لمكتشف الجاذبية إسحاق نيوتن عندما تأمل التفاحة الساقطة وتوصل إلى الجاذبية. ونجد مثيل ذلك في قول سليمان – عليه وعلى رسولنا الصلاة السلام – في شأن بلقيس: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، وأيضاً: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣]. إلا ترى أن في هذا بعض التأكيد على أن نظرية الإطار الإسلامي تكون مدعومة بهذا المعنى: الإلهام؟

ج: لم أفهم العلاقة بين نيوتن وتفاحته والكلام الباقي. على كل حال، مسألة نيوتن لم تكن فيها حاسة سادسة ولا شيء من هذا القبيل. بل هكذا تحدث المكتشفات والنظريات: أن الإنسان يفكر في شيء، وفجأة ترى شيئاً كنت تراه مئة مرة قبل ذلك بل وألف مرة، فتراه رؤية جديدة لأنك مشغول في فكرة معينة. يحدث هذا حتى في قراءة القرآن. تقرأ الآية ألف مرة ثم في مرة من المرات – مثل الآية التي قرأتها لكم لأنني أفكر الآن في الإطار – استنتجت منها الاستنتاج. وإلا فأنا قرأتها من قبل عدة مرات ولم أفكر فيها هذا التفكير.

س: مما دار من بيان العلوم الإنسانية يبدو لنا جبروت العقل الإنساني، وعليه ننظر للعمل الناتج من العقل بأنه جبروت قد يسيطر على عقول الأجيال التي واكبت عصر التكنولوجيا. فما رأي الدين من موقف العقل؟

ج: العقل الصحيح من الدين. ولذلك لم يرض علماء أهل السنة المقابلة بين العقل والنقل. العقل الصحيح من الدين لأن العقل هو مناط التكليف، لا يكون التكليف إلا بعقل، ولا يُفهمُ الدين إلا بالعقل، والعقل باعتباره قوانين أساسية مما فطر الله سبحانه وتعالى عليه الناس. ولكن يخطر أحياناً ببال بعض الناس مثل الفلاسفة أشياء يظنونها عقلية وهي ليست عقلية، أو كما يقول أهل السنة زعموها عقليات وهي جهليات. لذلك لم يكونوا يسمون المنحرفين عقلانيين كما نفعل الآن. فهم يسرهم هذا الآن، هم عقلانيون ومعناه أنك لا تملك عقلاً. فكان أهل السنة يسمونهم أهل الأهواء أو الفرقة الضالة. لا توجد مقابلة بين العقل والدين. فنحن اعترضنا الآن ليس على ما أوصلته إليه عقولهم ولكن اعتراضنا على أنهم حبسوا هذه العقول في دائرة ضيقة. ونحن نريد أن نوسع هذه الدائرة. والعقل معنا في هذا. وأنا لا أحب كلمة (رأي الدين) لأن الرأي شيء قابل للخطأ والصواب. هو حكم الدين. أما إذا كان رأي جعفر أو فلان فلا بأس.

س: هل تتفق معي بأن مناهج العلوم الإنسانية في الغرب أساسها ليس بصحيح؛ لأنها لا تخضع لمعايير ثابتة؟

ج: بعض أسسها غير صحيح، أو الأساس الذي تحدثت عنه ليس بصحيح. لكن هذا لا يعني أن كل ما فيها ليس بصحيح. كما قلت –ولابد أن نتذكرها يا إخوان – بعض الناس يريدون أن يستنتجوا، وهذا ما سبّب فتنة كبيرة في الغرب وجعلت الملحدين يظنون أن العلم معهم. اعتبروا الأساس صحيحاً ما دام هذا العلم كان قائماً على هذا الأساس وأتى بكل هذه المنجزات. فنحن الآن نريد ان نغير الأساس، فسيقول لنا كثير من الحادبين على العلم أنتم الآن دخلتم في السياسة فقلنا لا بأس، ودخلتم في كذا، والآن تريدون أن تعبثوا بالعلم الذي نريد أن نبني عليه حياتنا. العلم قائم على هذا الأساس، فنحن لابد أن نحل هذا الإشكال. وأنا قلت لكم، إن الحل في القرآن. إن هذا الأساس على الرغم من كونه في عمومه باطلاً إلا ان فيه حقاً. والمنجزات التي حدثت هي ثمرة ذلك الحق الذي فيه ولا تعني أن كل ما فيه حق، وذلك الحق الذي فيه سيكون جزءاً من الإطار الإسلامي.

صالح الصالح: كنت أود من الأستاذ المحاضر أن يعتبر القرآن الكريم مركز العلم كله، وأن يعتبر ما أسماه بالعلوم الدينية أو النظريات أو الإطار مظاهر، وهذه

المظاهر ليس لها كيان قوي. فدوران الأرض أخذ عن القرآن الكريم، اختراق الأجواء العالية، سرعة الضوء الذي يسبق الصوت، كلها مأخوذة من القرآن الكريم. فالقرآن الكريم هو مركز العلوم. ومن أخذ منه سواء كان مسلماً أو غير مسلم فهو إنسان يستفيد من علم الله. والله سبحانه وتعالى توجه للإنسان بشكل عام، فقد ذكر في القرآن خلق الإنسان وبيَّن ذلك وكيف خلقه من نطفة ثم من مضغة ثم من علقة وما إلى ذلك، فهذا كله أساس علمي. حتى بالنسبة للعسل والتمر وفوائدهما -مثلاً ظهرت هذه العلوم عند الغربيين، ولكنها مأخوذة من القرآن الكريم وهي على حق. فوضع الإطار للعلوم بهذا الشكل - في اعتقادي - فيه شيء من التجاوز على الأصل. علينا أن نتحدث عن القرآن الكريم ونظهر العلوم التي تأسست من القرآن وأخذت عنه. حتى علم الإنسان، ونظرية داروين لا تتفق مع العلوم الإنسانية، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]. فهذا الرد ليس تطوراً وإنما هو انحدراً.

د. جعفر إدريس: هذه أيضاً من المشكلات التي ستواجهنا في مسألة أسلمة العلوم. يتصور بعض الإخوان العلوم مثل هذا التصور. معناه أن العلوم كلها فقه. وعلماؤنا لم يقولوا هذا، بل قالوا إن العلوم نوعان: علم تكفل الله ببيانه لأن البشر لا يستطيعون معرفته بعقولهم المستقلة ولا بحواسهم، فبينه ربنا: كيف نصلي وكيف نصوم... إلخ. وعِلْمٌ دعانا الله سبحانه وتعالى لمعرفته وأعطانا القدرة على أن نعرفه، فلا يشترط أن نعرفه من القرآن الكريم. فالعلوم كلها ليست مأخوذة من القرآن الكريم - يا أخي -، فلو كان كل العلوم تؤخذ من القرآن الكريم فلماذا - إذن - ندرس الطب والهندسة؟ لندرس فقط القرآن الكريم ونستخرج منه كل هذا. وإذا قلت هذا سيقول الكثيرون: لماذا أنتم المسلمون ظللتم طوال هذه المدة لم تعرفوا هذا الذي في القرآن الكريم إلى أن جاء هذا الكافر وعرفه؟ والقرآن لدينا منذ قرون ولم يقل أحد ما قلته يا أخي. الحياة الدنيا تعرف ما فيها من دون قرآن، مثل طلوع الشمس في مواعيدها وما إلى ذلك. بل هناك بعض الأشياء الدينية التي يعتمد عليها الدين لابد أن تعرف بالحس. نحن مأمورون بأن نتجه إلى القبلة، فكيف نتجه إليها؟ هل نعرف الاتجاه من المصحف؟ طبعاً لا. فالله

تعالى أعطانا وسائل إدراك، فلا نعتمد في هذه الأشياء على القرآن أو على السنة. ولعلك تذكر حديث الرسول ﷺ: **(أنتم أعلم بأمر دنياكم)**، أي أنتم أعلم من الرسول ﷺ بالأمور الدنيوية لأن هذه ليست من شأنه. فالرسول ﷺ لم يأت ليعلمنا كيف نربي البهائم وكيف نسمنها وكيف نزرع وكيف نحصد، فقد لا يعرف هذا. الأعرابي العادي كان يعرف هذا أحسن من الرسول ﷺ، لأن الله سبحانه وتعالى شرّفه بأحسن العلوم وهو العلم بالله سبحانه وتعالى. أما العلوم الأخرى فقال أنتم أعلم بها. مثلاً النحل أبّر أو لم يُؤبَّر فهذه مسألة بالنسبة له غير مهمة أبداً.

(تعليق): ذكر الأخ الدكتور جعفر أشياء يمكن أن تكون بداية لأن ننظر نظرية جدية في مناهج كل العلوم التي تدرَّس، سواء في المدارس أو في الجامعات. والحقيقة أن المواد التي تدرَّس في الجامعات، سواء كانت المواد الطبيعية أو العلوم الاجتماعية أو العلوم الإنسانية، هي في الغالب الأعم قائمة على أصول إلحادية، ليس في ذلك شك. ولابد لنا، إن كنا نريد أن نرجع إلى الحق، أن نقيم هذه المناهج كلها على العقيدة الصحيحة. هذا هو الأساس الذي يجب أن ننطلق منه. نحن – مثلاً – عندما ندرس التاريخ، سواء في المدارس الثانوية أو في الجامعات، ندرسه كمادة ونتلذذ من بعض الأخبار أو نأخذها كإضافة إلى علمنا الذي سبق. ولكن التاريخ ما كان كذلك أبداً في الدين. إنما التاريخ في الدين عظات وعبر، وليست هناك جامعة إسلامية أعرفها في البلاد الإسلامية تدرّس التاريخ من هذا المنطلق. عندما ذهب الرسول ﷺ غزوة تبوك مر بمكان كان فيه من قبل قوم قضى الله عليهم وهم قوم صالح، فلم يذكر لهم قصة طويلة عن هذا الأمر. إنما ذكّرهم فقط بأن هذه أرض قوم عُذبوا من قبل وأن الذين معه أو الذين يأتون من بعده إن دخلوا هذه الأرض لا يدخلوها إلا باكين. هذا هو التاريخ. فلنأخذ مثإلا آخر من علم الأحياء. أنا من الذين درسوا علم الأحياء في الجامعة وعُلِّمت أن الإنسان هو الذي يفهم وله العقل وأن الأشياء الأخرى لا تعقل. فكيف بنا والله عز وجل يقول لنا في كتابه العزيز عن النملة التي كانت تخاطب إخوتها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]. إذن كانت تعرف هذه النملة سليمان وأن له جنوداً. وأدهى من ذلك وأمرّ أن الهدهد كان في

طلعة أو سفرة فسأل عنه سليمان عليه السلام فلما أتى قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]. هذا طائر في علم الأحياء، إذا قلت في جامعة أوروبية إن الطائر الموصوف بشكله المعروف الهدهد يعرف أشياء كهذه ويخاطب بشراً أو يتكلم بكلام يعقله بعض البشر اعتبروك مجنوناً. وهذا الهدهد في تقديري كان أكثر فهماً من كثير من المسلمين الذين يعيشون اليوم. هذه حقيقة.....

د. **جعفر إدريس:** الهدهد عرف أشياء لم يعرفها سليمان، فدعك من المسلمين العاديين!

... فيمكن أن نقيس على هذا أمثلة كثيرة جداً. خلاصة قولنا إننا إن أردنا أن نرجع إلى الحق فلابد أن نقيم هذه المناهج كلها على عقيدة إسلامية صحيحة وهي عقيدة التوحيد التي ترد على ثلاثة أشياء لا يرد عليها أي شيء آخر. هذه الأشياء الثلاثة هي التي تهمنا: كيف أتينا إلى هذا العالم؟ ولم أتينا؟ وما هو مآلنا في آخر الأمر؟ نحن نعلم أن الله تعالى خلق آدم من طين، وأتينا لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ونعلم يقيناً أننا مسؤولون يوم القيامة. لذلك قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

(تعليق) نشكر شيخنا الجليل جعفر، ولكن نريد أن نزيد إلى الموضوع، ربما لم يُتطرق إليها. فالدكتور جعفر ذكر الأطر وهي شيء أساسي في دراسة تاريخ العلوم، وأن الأطر في حد ذاتها من ناحية علمية هي ليست بعلمية لأنها تحدد ما لا يجب أن لا يحدد اصلاً. لأنه من المنطق العلمي في الغرب – كما يدَّعون – أن موقف العالم يجب أن يكون غير محدد أصلاً، إنما هو استنتاجي بحت. وهذه يجب أن توضح. فما يدعى بالعلم المحض في الغرب هو ليس علما بمعايير علمهم كما وضعوها أنفسهم.

المسألة الثانية هي أن الخطأ ليس أصلاً في الانطلاقة فقط، وإنما في انسيابهم لكيفية الوصول إلى الاستنتاجات، إلا وهي الـ Methodology أي علم الطريقة – ليست الصوفية طبعاً –، فعلم الطريقة – كما يظنونها خاصة في علوم الأحياء – هي ما يدعى بالإنجليزية Empirical Process، أي العلم أو الطريقة التجريبية التي تقبل

الخطأ والصواب. فإذن، من خلالها هي غير مطلقة أساساً. وهذا شيء آخر يجب أن ينوه له بأن لا تُجعل تلك النظريات مقدسة. وكم من النظريات في علوم الفيزياء والكيمياء وحتى الرياضيات أفنت بعضها بعضاً. إذن هي ليست بمقياس يُنظر له على إطلاقه، إنما هي – ونظرة المسلم العادل غير الجاحد لها – ما أسميه Cyclical Knowledge إلا وهو العلم المرحلي. هو علم مرحلي يجب أن يُمر فيه ولو كان عرضه للصواب والخطأ.

أما النقطة الثالثة فهي الاختلاف الأساسي بين نظرة المسلمين للعلم المطلق النقلي – لأنه صادر عن مطلق هو الله عز وجل الحي الذي لا يموت – والنظرة النسبية للعلوم عند البشر، إلا وهي العلوم التجريبية أو ما يعتمد بها على الحواس. ويجب أن يُربط ذلك بميزان العلم النقلي والعلم المحسوس إذا تطرق اليه. لأن في العلم المحسوس ما كل ما يُرى قد يكون حقاً. فإذن ليس هو معياراً. يكفي أن نقول إننا نُسلّم بالعلم المحسوس فقط لأنه ليس أصلاً معياراً مطلقاً، وإلا فكثير من الأشياء التي كان مطلقة في وقتها أتت نظريات أخرى فدحضتها، فلم تعد مطلقة ومُسلّماً بها. فلابد من أن نراها بميزانها الحقيقي. المحسوس صادر عن إنسان والإنسان محدود في خلقه وإلا لما كان هناك وجود لله عز وجل الخالق، مصدر كل شيء غير نسبي، بينما كل البشر والمخلوقات أشياء نسبية تتدارج فيما بينها ولذلك لا نجعل العلم الغربي في الاجتماع أو العلوم التطبيقية لا نجعله مقياس لاريب فيه بحيث نقيس علومنا فيه فقط يؤخذ لا يجحد ولكن ليس بقدسيته كما كثير بعض الناس ينبهر به.

د. جعفر إدريس: العلماء المسلمون في الماضي فكروا في هذا الأمر وكيف يُوفّق بين ما نعتقد أنه حقائق في الدين ونعتقد أنه حقائق عقلية أو علمية، ووضعوا قواعد وقوانين مختلفة. وقد كتبت مرة عن القانون الذي وضعه شيخ الإسلام ابن تيمية، وفي نظري هي أقربها إلى الصواب. فهو يقول مادام أن القرآن هو كلام الله والكون هو خلق الله، إذن لا يمكن أن يكون هناك – من حيث المبدأ – تضاد بين ما يُذْكَر في القرآن الكريم وما يوجد في الواقع. وطبعاً ما نعرفه في الواقع نعرفه بالحس، فليس لدينا طريقة غيرها. إذن، إذا اختلفا فلابد أن ما ظننا انه نقل ليس بنقل صحيح، مثلاً الحديث ضعيف أو موضوع. أو كان النقل صحيحاً لكن فهمنا ليس بصحيح. فهنا تكون القاعدة موجودة، فالخطأ هنا منا. ظنناه نقلاً وهو ليس بنقل، فهمناه فهماً ليس بصحيح، أو ظنناه عقلاً وهو ليس بعقل، ظنناه موجوداً وهو ليس بموجود. لكن إذا

سلمنا من هذا لا يمكن أن يكون هناك خلاف. لكن قال بعد هذا إن ما كل ما نعرفه من الدين نعرفه معرفة يقينية، وليس كل ما نعرفه من الواقع نعرفه معرفة يقينية. لكن أحياناً يكون لدينا يقين هنا وأحياناً يكون لدينا يقين هناك. فإذا كان بعض العلم ظنياً وبعضه قطعياً أيهما نقدم؟ قال: نقدم القطعي أيا كان، سواء كان في الدين أو في الدنيا. أضرب مثلاً بكروية الأرض. عندي آيات يمكن أن يفهم منها بعض الناس أن الأرض مسطحة، وهذه الحقيقة قطعية أقدمها. فإذا قيل إذا كان ظنيين ماذا نفعل؟ قال نقدم أرجحهما دليلاً. فالمقارنة هنا ليست بعلم الله وإنما هي مقارنة علمنا بالواقع وعلمنا بما قال الله تعالى. فالمشكلة التي تحدث لنا هنا قد تحدث لنا هناك. ليس لأن هذا كلام الله فيكون فهمنا له كما أراد الله سبحانه وتعالى. كما أن ليس لأن هذا خلق الله يكون فهمنا له دائماً كما خلقه الله سبحانه وتعالى. وأريد أن أقرر فقط اعتراضا على ما قاله الأخ يوسف العالم. أنا من الذين يعتقدون أن علومنا ينبغي أن تكون علوماً لكي تفسر الحقائق في العالم كله، سواء كانت الحقائق الطبيعية أو الاجتماعية، علم الاجتماع الإسلامي ليس علماً للمجتمعات الإسلامية فقط، والقرآن الكريم وما فيه من السنن ليست خاصة بالمسلمين فقط، بل ربما يكون أغلبها عن غير المسلمين. عندما يقول القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، من هم هؤلاء؟ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ من هم هؤلاء؟ المصلون؟ لأنه قال في النهاية: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢١، ٢٢].

فإذن، القرآن يصف لنا الواقع، واقع المسلمين وواقع غير المسلمين. ويعطينا السنن. بعضها طبيعي في الكون الطبيعي كله، وبعضها إجتماعي يحدث لكل الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين وبعضها يحدث للكفار. مثلاً ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. أي ما حدث لأولئك يحدث لكم أنتم. أو ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ لماذا؟ ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وهذا تفسير نفسي. وهكذا، في القرآن سنن كثيرة، بعضها تفسر لنا واقع المجتمعات غير المسلمة وبعضها يفسر لنا واقع المجتمعات المسلمة، و بعضها يفسر لنا واقع المجتمع من حيث هو

سواء كان مسلما أو غير مسلم وهذا هو الذي ينبغي أن يكون لأننا ماذا نستفيد من علومنا هذه إذا ما استطعنا أن نحلل بها واقع الحضارة الغربية وواقع الكفار ونقول ماذا ستكون نتيجتهم وكيف نواجههم. هل نذهب إليهم ونأخذ منهم نظريات يفسرون بها واقعهم ونقول هذه هي النظريات التي نفسر نحن بها واقعهم لأن واقعهم مختلف عن واقعنا، ولذلك نظرياتهم تتناسب معهم ونظرياتنا تتناسب معنا؟ هذه نسبية لا نريدها أبداً. نحن نعتقد أن هناك طريقة لمعرفة الواقع كما هو. أي أن الموضوعية ممكنه، وأن الإنسان كلما اقترب من الدين الصحيح كلما أعطاه الله سبحانه وتعالى فرقاناً يرى به الواقع ويفرق التفرقة الصحيحة بين ما هو موجود في هذا الكون ويفسره تفسيراً صحيحاً. فنحن نعتقد أن التفسير الخطأ والنظرة الغالطة كل هذا سببه انحراف عن الفطرة الأساسية التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها، والتي جاء القرآن الكريم ليكون امتداداً وتقوية له. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الشيخ محمد الراوي: ما أقوله ليس تعقيباً على محاضرة أخي الدكتور جعفر، وإنما هو في الحقيقة اقتراح نشأ عن المحاضرة. ذلك أننا نحتاج إلى مزيد من الحديث عن الأطر، عن الإطار الديني والإطار الإلحادي لنبصر النتائج في الحالين. لأن القرآن الكريم في الآية التي استشهد بها الأخ الدكتور جعفر ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، أثبت لهم علماً، ولكنه في السورة نفسها نفي عنهم العلم فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وغفلتهم عن الحياة الآخرة تجعل النتائج مدمرة. والنظرة الشاملة الكاملة في الإطار الديني تجعلنا نبصر النتائج على حقيقتها ونقوِّم الأمور كلها على حقيقتها. لذلك أقترح أن تدعو هذه المحاضرة إلى محاضرات يتضح فيها الإطار الديني، لا لنتكلم به أنفسنا بل لنطرحه على غيرنا. لأننا نحن لا نعادي العلوم بحال من الأحوال، بل ديننا يدعونا إلى النظر والتدبر، ولكن لمصلحة الإنسان ولغاية عليا هي معرفة من خَلَق ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩] وشكراً

*****

ثالثاً: كتب ودراسات

التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية

بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ – الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧ م ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ١٢.صفحة ٦١ – ٨٠.

مقدمة:

من الحقائق التي عرفها وقال بها كثير من المفكرين المعاصرين أن كل نظرية سياسية أو اقتصادية أو تربوية، بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان يكمن وراءه تصور معين للإنسان قد يعيه صاحب الرأي أو النظرية فيقول به وقد يفترضه ولا يشعر به.

ولذلك فإن النظر في الإنسان ومحاولة الوصول إلى تصور له يطابق حقيقته ينبغي – من الناحية المنطقية- أن يسبق كل محاولة للنظر في المبادئ الاقتصادية أو النظم السياسية أو المناهج التربوية؛ لأن معيار هذه المبادئ والنظم والمناهج هو مدى صلاحيتها للإنسان. ولا يمكن أن نعرف مدى صلاحيتها له إلا إذا عرفنا أولاً من هو؟.

إننا إذاً لم نتبين هذا الأمر ونكون على وعي به فقد نضع مناهج تعليمية ونعتمد طرقًا تربوية نحسبها إسلامية وما هي بإسلامية؛ لأن الإنسان الذي نفترضه ليس هو الإنسان الذي بين لنا خالقه حقيقته، وقد ننقل عن غيرنا مناهج وطرقًا لا نرى بأسًا في نقلها مع أن النظر إليها من خلال هذا التصور قد يكشف عن خللها وقصورها، ظانين أن كل ما قالوا به فهو غير صالح لنا مع أن وزنه بمعيار التصور الصحيح للإنسان قد يثبت صلاحيته.

هذه بالطبع ليست دعوة إلى إيقاف كل جهد لإصلاح التعليم وتقريبه من هدي الإسلام حتى يتم الاتفاق على هذا الأمر، ولكنها مجرد تذكير بأهمية الموضوع ودعوة للمهتمين بشئون التعليم على أن يولوه عنايتهم ويحاولوا اكتشاف الصلة بينه وبين فروع المسائل التي تشغل بالهم.

ثلاث نظريات في طبيعة الإنسان..

من هو الإنسان؟

أهنالك شيء اسمه الإنسان بهذا الإطلاق الذي لا يؤثر فيه أو يغيره زمان ولا مكان ولا جنس ولا لون ولا لغة ولا بيئة ولا ثقافة؟.

انقسم المجيبون على هذا السؤال إلى ثلاث فرق كبرى.

١- فمنهم من أثار وجود إنسان بهذا الإطلاق ورأى أن الإنسان حين يولد يولد محايدًا كالصفحة البيضاء أو الطينة غير المشكلة، وأن البيئة هي التي تكتب عليه ما تريد وتشكله كيف تريد.

٢- ومنهم من قال بلى إن للإنسان حقيقة، وحقيقته: أنه مخلوق شرير يولد الشر معه مفروضًا في طبعه والبيئة هي التي تحاول أن تهذبه.

٣- وفريق ثالث وافق الفريق الثاني على أن للإنسان حقيقة ثابتة، ولكنه قال إن حقيقته أنه مخلوق خير يولد حين يولد على الخير، ثم قد يطرأ عليه التغيير بعد ذلك، وقد يستمر خيرًا وينمي الخير الكامن في نفسه.

وبكل نظرية من هذه النظريات قال مفكرون كبار وعلى كل منها قامت مذاهب حياة جذبت إليها عددا هائلا من البشر، وكان لكل منها آثاره البعيدة والخطيرة في السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والفلسفات التربوية.

فأي نظرة منها هي النظرة الصائبة المطابقة لواقع الإنسان وكيف نعرف ذلك؟

هذا ما سنحاوله في الجزء الأول من هذا البحث وفي الجزء الثاني منه نثبت أن النظرة التي قلنا إنها صائبة هي النظرة الإسلامية وفي الجزء الثالث نحاول بيان شيء من آثار هذه النظرة على فلسفتنا التربوية.

مناقشة هذه النظريات:

يحسن قبل الدخول في مناقشة هذه الإجابات على سؤالنا أن نبين بشيء من التفصيل ما المقصود بالسؤال نفسه؟

من هو الإنسان؟

هذا سؤال عن طبيعة الإنسان عن الخصائص التي تشكل في مجموعها هذا الكائن المتميز الذي نسميه الإنسان.

والسؤال عن طبيعة الإنسان سؤال:

١- عن طبيعته الجسدية: ما هو التركيب الجسدي للإنسان؟ وما هي القوانين التي تحكم هذا التركيب، وما الذي يناسب هذا التركيب من أنواع المآكل والمشارب والبيئات والعلاقات؟

٢- وعن طبيعته النفسية: ما هو التركيب النفسي للإنسان وما الذي يناسب هذا التركيب من القيم والأفكار والأحوال.

٣- وعن الصلة بين الطبيعتين: والذي يهمنا بشكل أساسي في هذا البحث هو الطبيعة النفسية فهل للإنسان تركيب نفسي معين كما أن له تركيباً جسدياً معيناً، حيث إن أي خلل فيه يسبب له أمراضًا نفسية، كما أن الخلل في تركيبه الجسدي يؤدي إلى علل جسمانية؟

وإن كان له تركيب فما هو؟

نظرية الحياد:

فالنظرة الحيادية لا تنكر أن للإنسان تركيباً جسدياً معيناً، وإنما هي خاصة بتركيبه النفسي وهي إما أن تقول:

أولاً: أن الإنسان لا تركيب نفسي له حين يولد وإنما البيئة الثقافية والبيئة الحسية هي التي تضع نفسه وتبني من لا شيء شخصيته.

وإذا صحت هذه النظرة فإن مثل الإنسان يكون كمثل الطين الذي يضع منه الأطفال أشكالاً مختلفة من الناس والحيوانات والطيور والمنازل.

ولكن إذا لم يكن في طبيعة الطين ما يحدد نوع الأشكال التي تصنع منه كذلك ينبغي أن لا يكون في طبيعة الإنسان ما يحدد الصورة النفسية المناسبة له أي أن طبيعة الإنسان لا تصلح معياراً نقيس به صلاح البيئة أو فسادها وأن هذه البيئة بيئة المناهج التربوية والنظم السياسية والأوضاع الاقتصادية هي التي تضع هذه الطبيعة الإنسانية وتشكلها وهذا يعني أنه بمقياس الطبيعة الإنسانية فإن أي منهج وأي نظام وأي وضع هو مماثل لأي منهج أو نظام أو وضع آخر.

ولكن إذا لم تكن طبيعة الإنسان هي المعيار الذي نقيس به صلاح هذه النظم أو فسادها فبماذا نقيسها؟

لست أعرف أحداً من القائلين بفكرة الحياد هذه يقبل هذه النتيجة التي تستلزمها نظريته فإنك لا تكاد تجد واحدًا منهم إلا وهو ينتقد بعض النظم الاقتصادية أو

العلاقات الإنسانية أو النظم السياسية... إلخ. عن أساس أنها تمسخ الإنسان وتشوهه أو أنها لا تناسب طبيعته... إلخ.

فكارل ماركس مثلاً يقول في مكان إنه ليس للإنسان طبيعة ثابتة وما الإنسان إلا مجموعة علاقاته الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية متغيرة، ولكنه في مكان آخر يتهم الرأسمالية بأنها شوهت حقيقة الإنسان وجعلته شبيهاً بالحيوان. ولعله لم يفطن إلى أن هذا القول الأخير يناقض الأول؛ لأن القول الأول ينكر أن تكون للإنسان طبيعة ثابتة، والقول الثاني يفترض وجود هذه الطبيعة ونعتبرها طبيعة خيرة.

وإما أن تقول:

ثانيًا: أن للإنسان تركيباً نفسياً معيناً ولكنه تركيب محايد بالنسبة للخير والشر، وإنه يميل إلى هذا أو ذاك بعد أن يولد إما بإرادته الخاصة أو بسبب عوامل خارجية، ولكن هذا معناه أنه ليس في تركيبه النفسي ما يجعل الخير ملائمًا له أو الشر مناقضاً له. وهذا معناه أن ما نسميه خيراً كالصدق والإخلاص والشكر وحب الحقيقة ليس خيراً بالنسبة لنفسه وكذلك ما نسميه شراً ليس كذلك بالنسبة لها. فكيف إذن يقنع نفسه بأن ذاك خير ينبغي أن يفعل وهذا شر ينبغي أن يترك؟ ما هو المعيار؟

إن الحياد بهذا المعنى يجعل النفس الإنسانية كالآلة فالسكين مثلا لا يؤثر فيها فواكه قطعت بها أو أحشاء بريء مزقت بها. إنها معدة لأن تقطع فحسب. وكذلك النفس الإنسانية معدة لأن يفعل بها الخير أو يفعل بها الشر ولا تأثير لأحد الفعلين عليها هي. فهل هذا هو الواقع؟

كلا: فإن نفس الإنسان يشقيها ويعذبها الكذب والنفاق والاستكبار والبخل والهوان ويسعدها الصدق والإخلاص والتواضع والجودة والعزة.

ثم لو كانت نفس الإنسان محايدة لم يكن هنالك معنى لعبارات الأمراض النفسية والصحة النفسية.

نظرية أصالة الشر:

وأما النظرة التي تقول بأصالة الشر في النفس الإنسانية فإن الإشكالات عليها أعظم وانفصالها عنها أعسر إن لم نقل أنه مستحيل.

ما معنى أن نقول إن الإنسان في أصله شرير؟

إما أن نقول إن للنفس الإنسانية تركيباً معيناً، وأن الشر هو مادة هذا التركيب ولحمته وسداه.

ولكن يلزم عن هذا أن يرتاح الإنسان نفسياً حين يفعل الشر ويشقى حين يفعل الخير لأن الراحة النفسية إنما هي أن تكون أقوال الإنسان وأفعاله مناسبة لطبيعته.

أو نقول إن معناه أن الإنسان يولد حين يولد والشر لاصق بنفسه لصوق الدرن بجسم الإنسان وأنه إن ترك من غير تهذيب بقي هذا الدرن في نفسه وازداد. ولكن إذا تعهدناه وتعهد نفسه بالتربية والتزكية، انجلى عن نفسه هذا الشر الذي صاحبها منذ ميلادها.

ولكن هذا المعنى يفترض أن الإنسان في أصله خير وأن الشر أمر طارئ عليه ولاصق بنفسه من الخارج، وكل الذي يقوله إن هذا الشر لا يطرأ على النفس بعد الميلاد ولكن قبله وهو قول لا داعي له ولا دليل عليه.

لا داعي له: لأن الفرض الأقرب أن نقول إن الأمر الطارئ يحدث بعد الميلاد، فكما أن العلل الجسمية تحدث في الغالب الأعم بعد خروج الإنسان إلى الحياة. فكذلك العلل النفسية.

ولا دليل عليه: لأنه لو كان الإنسان يولد والشر لاصق به لكانت أيام الصبا من أشقى أيام الإنسان وأتعسها وأكثرها أمراضا نفسية، ولكن الواقع غير ذلك.

والقول بأصالة الشر هو قول المسيحية التي تعتقد أن كل إنسان يولد وارثاً لخطيئة آدم.

ولكن هذه العقيدة المسيحية شأن كثير من العقائد المسيحية الأخرى أخذت أشكالا غير دينية وتزينت بزي العلم والأدب والفن، فصارت أكثر خطراً على المسلمين. فأنت تجدها في صورة نظرية فرويد التي ترى أن الجنس هو الدافع الرئيس لكل أفعال الإنسان بما في ذلك حبه لوالديه وعبادته لربه.

وصورة نظرية ماركس التي ترى أن البحث عن الطعام هو الذي يسير تاريخ الإنسان عن طريق تحسين وسائل الإنتاج وصورة القصص والشعر والفن الذي يجعل الإنسان الشرير هو الإنسان الطبيعي والإنسان الخير إنسان منافق غير ما يبطن أو متكلف يحاول السير ضد تيار طبيعته.

نظرية أصالة الخير:

١- نخلص من كل هذا إلى أن الرأي الصواب هو الرأي الثالث القائل بأن الإنسان ذو فطرة خيرة، وأن الشر أمر طارئ عليه ومجاف لفطرته. هذا هو الرأي الموافق للواقع الذي نعرفه، والمؤدي إلى نتائج مقبولة، وهو الأمر الذي يقول به الدين الحق كما سنبين بعد.

أن يولد الإنسان خيراً هو الأمر الذي تقتضيه رحمة الله تعالى وفضله وحكمته. تقتضيه رحمته لأن الرحمن هو الذي يعطي الخير ابتداء كرماً منه وفضلاً ثم يجازي على الإحسان فبفضل الله ورحمته خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وسماء وليل ونهار وأنهار وحيوان ونبات.

إن الذي خلق الجسم الإنساني حين خلقه سوياً معتدلاً وخلق له كل ما يناسبه من غذاء وكساء وهواء وضياء، لحري بأن يخلق النفس البشرية سوية، ويسهل لها كل ما يناسب استواءها الفطري هذا ويكمله من آيات كونية وحجج عقلية وهداية سماوية.

وهو الأمر الذي يناسب حكمته لأن الحكيم لا يصنع شيئاً لغاية ما ثم يجعل طبعه غير ملائم لتلك الغاية أو غير مهيأ لبلوغها. والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعبده "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فكيف يخلق له نفساً شريرة لا تناسبها العبادة، أو نفساً محايدة بين الخير والشر لا يضيرها أطريق عبادته سلكت، أو سلكت طريق التمرد عليه، كلا. من حكمة الله تعالى في خلقه كله أن يخلقه سوياً، وأن يهدي كل مخلوق إلى ما قدر له أن يخلقه "الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى".

الفطرة في القرآن وفي السنة:

في القرآن الكريم وفي السنة النبوية نصوص تدل على هذا المعنى دلالة صريحة وأخرى تدل عليه بطريق اللزوم وفيما يلي نذكر جانباً من النوعين مع تعليقات موجزة:

إن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الناس لعبادته وأرسل لهم رسلاً منهم ليبينوا لهم الطريق المستقيم إلى هذه الغاية، ولكن هذا الدين الذي جاء به الرسل من عند الله: ليس شيئاً غريباً، على الإنسان بل إن أصله مغروس في نفسه.

هذا الأصل هو المشار إليه بالفطرة في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فالإنسان حين يسدد وجهه للدين الذي شرعه الله ويستمر عليه كما يأمره ربه تعالى إنما يلزم فطرته السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره فالدين الإسلامي هو إذن الدين الطبيعي الذي لا يولد إنسان إلا به، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك. ولهذا قال ابن عباس وجماعة من السلف ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: (أي لدين الله).

وهو المشار إليه بالنور في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال ابن القيم «قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم. وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به في الناس وأصله في قلوبهم»[١].

وقال: «قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة نور على نور، فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثراً، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته فيكون نوراً على نور»[٢].

- وهو المشار إليه بالتسوية في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس ٧- ١٠].

---

(١) التفسير القيم، طبعة بيروت، ص٣٧٢.

(٢) نفس المصدر، ص٣٧٣.

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]».

٤- ولعل هذا الأصل هو المصرح به في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٦].

فالكلمة الطيبة كما جاء في تفسير السلف هي كلمة التوحيد فهي كشجرة طيبة أصلها ثابت في قلب المؤمن وأكلها هو الأعمال الصالحة الناتجة عنها الصاعدة على السماء المقبولة عند الله تعالى.

وأما الكلمة الخبيثة المضادة لكلمة التوحيد فلا أصل لها ولا قرار ولا ثمرة زاكية.

٥- وهو المشار إليه بالإشهاد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٤].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: "ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن الرأي بهذا المراد قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: من آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً ومقالاً. فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾أي التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ﴾.

وفي السنة المطهرة عدة أحاديث فيها مزيد بيان لما قرره القرآن من فطر الإنسان على الخير.

٦- ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كل مولود يولد على الفطرة -وفي رواية على هذه الملة- فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها جدعاء)**؟.

ففي هذا الحديث دلالة على أن الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي السلامة من الشرور كما أن الحال التي تولد عليها البهيمة هي السلامة من العيوب الجسمانية من قطع أنف أو أذن أو شفة وغيرها فكذلك الحال التي يولد عليها الطفل هي السلامة من العيوب النفسية والاعتقادية من يهودية ونصرانية ومجوسية وكما أن تلك العيوب تطرأ على البهيمة بعد ميلادها فكذلك هذه العيوب تطرأ على الإنسان بعد ميلاده.

والدليل على أن الفطرة المقصودة في هذا الحديث ليست السلامة بمعنى الحياد بل بمعنى وجود الخير في النفس أنه صلى الله عليه وسلم قال فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ولم يقل ويجعلانه مسلماً لأن الإسلام هو الأمر الطبيعي، وكل هذه العقائد انحرافات عنه وهذا المعنى جاء مصرحاً به في الرواية الأخرى للحديث: **(كل مولود يولد على هذه الملة)**.

٧- ويزيد هذا المعنى تأييداً وقوة ما جاء في صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم)**.

٨- وكذلك ما جاء في جزء من حديث رواه الإمام أحمد، وأخرجه النسائي في سننه عن الأسود من سريع من بني سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها)**.

وأما الآيات والأحاديث التي تدل بطريق اللزوم على أن الإنسان مفطور على الخير فأكثر من أن تحصى في بحث كهذا.

إن الكلمات المعبر بها عن الشر تدل كلها تقريباً على أن الشر ليس شيئاً أصيلاً وإنما هو انحراف عن الخير وتبديل له مع أن الكلمات المعبر بها عن الخير ليس فيها ما يدل على أنه نقيض الشر وإنما في الكثير منها ما يدل على الزيادة والإنماء والمحافظة على خير أصيل.

من ذلك قوله تعالى في الآيات التي ذكرناها سابقاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنْهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنْهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنْهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنْهَا﴾ [الشمس ٧- ١٠].

فبالإضافة إلى كلمة (سواها) التي تدل دلالة صريحة على أصالة الخير في الإنسان فإن الكلمات "الفجور" و"التقوى" و"التزكية" و"الدس" أيضا تستلزم هذه النتيجة.

فالفجور هو الإفساد والعدول والميل عن الأمر الطبيعي، والتقوى من الوقاية والتزكية تعني النمو كما تعني التنظيف والتنقية، والدس يعني الإخفاء والدفن فالذي يفجر ويفسد، والذي يحمي ويحافظ عليه، والذي يزكو وينمو، والذي يدس فيمنع من النمو، إنما هو الشيء الصالح السوي المستقيم[1].

وهذا هو الذي تستلزمه كلمات الفساد، والفسق، والكفر، والإلحاد، والزيغ والظلم والضلال وكثير من الكلمات الدالة على الشر. وكثير من كلمات الإيمان، والذكر والشكر واليقين، والطمأنينة والاستقامة وكثير من الكلمات الدالة على الخير.

فالذي يفسد هو الأمر السليم والفسق خروج عن شيء سابق، والكفر تغطية وإخفاء لشيء موجود، والإلحاد والزيغ، انحراف، والظلم وضع الشيء في غير موضعه. والضلال عدم الاهتداء إلى الغاية المرجوة.

والإيمان تصديق بحق يضفي على النفس أمنا، والذكر إنما يكون لأمر كان في الأصل معروفاً، والشكر اعتراف بفضل أسدي.

إن في الكلمات الدالة على الخير معاني الثبوت والاستقرار والأصالة والإيجابية. وأما الكلمات الدالة على الشر ففيها معاني النفي، والتغيير، والسلبية وما ذلك إلى لأن الخير هو الأساس وأن الشر إنما هو نفي الخير.

هذا الذي يبدو لي على وجه العموم ولست أزعم أنني استقصيت كل الكلمات فوجدتها مندرجة تحت هذا القاعدة.

لقد وجدت في بعض الكلمات الدالة على الخير معنى السلبية ثم تأملتها فإذا هي لا تخرج على القاعدة بل تؤكدها فالإصلاح إنما يكون للشيء الفاسد، والتوبة والأوبة

---

(١) من مقال للكاتب بمجلة الغرباء (لندن) العدد الثالث، نوفمبر – ديسمبر ١٩٧٣م.

رجوع عن شر، فهل يعني هذا أن الفساد والشر هما الأصل؟ كلا: فالإصلاح إزالة للفساد وعود إلى الأمر الطبيعي والتوبة والأوبة رجوع من طريق الشر إلى الطريق الطبيعي.

إن في القرآن الكريم والسنة المطهرة -إلى جانب تلك الكلمات- ما يدل بطريق اللزوم على أن نفس الإنسان كجسمه حالها الطبيعية أن تكون سليمة معافاة وأن يطرأ عليها مما ينافي تلك الفطرة الأولى هو الأمراض كالأمراض التي تصيب الأبدان. وكما أن الصحة البدنية تكون في المحافظة على الحال الطبيعي وفي وقايته من أسباب الأمراض وفي معالجة البدن حين يصيبه المرض فكذلك صحة القلوب وسلامتها. ومهمة الدين هي المحافظة على هذه السلامة ووقايتها من الأمراض وعلاجها حين تمرض.

حين أراد منكرو الرسالة المحمدية أن يعتذروا عن إنكارهم بأن قلوبهم في أكنة وأنها مغلفة غلافا فطريا يحول دون نفاذ كلامه ﷺ إليها رد عليهم القرآن: بأن الغلاف ليس سببا في الكفر وإنما هو نتيجة له: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

والقرآن الكريم يسمي الشر مرضا يطرأ على القلوب. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣].

وبعض هذا المرض مما يمكن علاجه وأحسن علاج له آيات القرآن الكريم وبعضه يستحكم بحيث يمنع وصول هذه الآيات إلى القلب فما يزيده العلاج إلا مرضاً. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

والنبي ﷺ يشبه ما يطرأ على القلوب مما ينافي فطرتها بالصدأ الذي يصيب الحديد، والدرن الذي يعلق بالأبدان، والدنس الذي يلصق ببيض الثياب. كما أن القرآن يسمي الذنوب (ران) يتراكم على القلوب فيحجبها عن رؤية الحقيقة.

الخير الذي فطر عليه الإنسان:

ما هو هذا الخير الذي فطر عليه الإنسان؟

يؤخذ من مجموعة النصوص التي أوردناها سابقاً أن جوهر هذا الخير يتمثل في:

١- السلامة من العيوب (كما تولد البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء).

٢- الاعتراف بعبودية الإنسان لخالق واحد ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] **(كل مولود يولد على هذه الملة)**. ولكن هذا الجوهر ترتبط به أنواع أخرى من الخير الفطري تدل عليها نصوص أخرى دلالة صريحة تارة وضمنية تارة أخرى.

٣- أصول القيم الأخلاقية: فالله تعالى فطر الإنسان على أن الشكر خير وهو محمود، الجحود شر مذموم، وكذلك قل في العدل والجور، والأمانة والخيانة والاعتراف بالحق وإنكاره.

قال رسول الله ﷺ: **(إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ومن السنة)**. فهذا دليل صريح على أن الناس مفطورون على الأمانة.

ويقول الله تعالى: ﴿**هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ**﴾ [الرحمن: ٦٠]. ويقول: ﴿**أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

فهاتان الآيتان لا تعلمان الإنسان أن جزاء الإنسان ينبغي أن يكون إحساناً، أو أن مصير المحسن ينبغي أن لا يكون كمصير المسيء. وإنما هما تفترضان أن الإنسان يعلم هذا، ولهذا تستنكران عليه أن يحكم بغير هذا الذي يعرفه.

٤- ما يسمى بالقوانين العقلية كالعلم بأن الأشياء لا تأتي من العدم وأن الشيء لا يخلق نفسه، وأن الكلام المتناقض باطل. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥]. ويقول: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢].

٥- القيم الجمالية كحب الجمال والنظافة والنظام.. الخ. إلى جانب هذا الخير المحض الذي فطر الله تعالى عليه الإنسان فإنه منحه القوى وهي في ذاتها خير لكننا يمكننا أن ننحرف بها فنجلعها شرا. من ذلك:

١- القدرة على العمل.

٢- القدرة على التفكير.

وإشارة إلى هذين يقول الرسول ﷺ: **(أصدق الأسماء حارث وهمام)** أي أن هذه أسماء تدل دلالة صادقة على حقيقة الإنسان فهو حارث عامل وهو همام مفكر.

٣- القدرة على الاختيار. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٤- السعي لحفظ النفس والنوع بالأكل والشرب والسكن واللباس والنكاح.

إذا كان الإنسان مفطورا على الخير فلماذا إذن يفعل الشر؟

هذه إحدى الشبهات بل لعلها أقوى الشبهات التي يشغب بها على القول بأصالة الخير في النفس البشرية وهي شبهة تشد كثيرا من الناس وتدعوهم إلى الأخذ بنظرية الحياد.

ولعل أساس هذه الشبهة هو التصور الخاطئ لمفهوم الفطرة. فعبارة الإنسان مفطور على الخير تعني عند هؤلاء: أنه مطبوع على إرادته وفعله طبعا لا ينفك عنه. ولكن الواقع أنه ينفك عنه وإذن فهو ليس مفطورا عليه، بل إنما يولد محايدا: إن شاء فعل الخير وإن شاء تركه وفعل الشر.

ولكن الفطرة لا تدل على هذا المعنى الذي يجعلها متناقضة مع المشيئة الإنسانية، والذي يسوي بين فعل الخير وحركات النباتات والجمادات التي لا إرادة لها.

فطر الإنسان على الخير معناه كما قلنا سابقا

(أ) إن الله تعالى صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير.

(ب) وأنه تعالى تفضل فجعل المعرفة بهذه الحقيقة أمراً مستقراً في نفس الإنسان لا يحتاج لأن يتعلمه من الخارج. وإن كان العلم الخارجي يزيده قوة.

ولكن الله تعالى جعل الإنسان مخلوقاً ذا إرادة إن شاء سار في طريق الخير الذي تدل عليه فطرته، وإن شاء تمرد على فطرته كما يتمرد على الدلائل العقلية والآيات الكونية والرسالات السماوية.

إن الله تعالى يتفضل فيعرف الإنسان بالخير ويبينه له ويدعوه إليه دعوة تأتيه من داخل نفسه ومن دلائل عقله ومن الآيات الكونية ومن الرسالات السماوية ولكنه يتركه بعد ذلك حراً إن شاء قبل هذه الدعوة وإن شاء ردها كافراً.

وفي معنى هذا البيان الفطري يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فلسفة التربية الإسلامية:

الأهداف: من هذا التصور للإنسان يمكن أن نستخرج أهداف التعليم والقواعد العامة التي تحكم وسائله وأساليبه ومناهجه.

فغاية التربية والتعليم هي تمكين الإنسان من أن يكون إنساناً حقيقياً أو تمكينه من أن يكون عبداً صالحاً لأن العبودية هي جوهر الإنسانية، والإنسان كلما ارتقى في سلم العبودية، ارتقى في سلم الإنسانية. ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله ﷺ بالعبودية في أشرف أحواله. كما تنبه إلى ذلك كثير من العلماء: من ذلك قوله تعالى بمناسبة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. وقوله تعالى بمناسبة الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

فوصف الإنسان بالعبودية هو الوصف الجوهري العام الذي يحتم كل أوصافه. وإذن فكل فهم لصفة من صفات الإنسان أو خاصة من خواصه يجعلها متناقضة لصفة العبودية فهو فهم خاطئ.

وهو الوصف الأساسي وكل الأوصاف الأخرى بالنسبة له ثانوية، ولذلك فينبغي أن لا يقدم واحد منها عليه.

وبهذه المناسبة: أحب أن أشير إلى صفتين تفهمان أحياناً فهماً يخرج على هذه القاعدة:

الأولى: وصف الإنسان بأنه مخلوق روحي، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، فالوصف صحيح والاستدلال صحيح ولكن فهم الروحية هذه: بأنها

عنصر إلهي حل في الإنسان: هو الفهم الخاطئ خطأ شنيعاً ينافي العبودية والتوحيد ويجعل الإسلام -كما تنبه إلى ذلك بعض العلماء- أسوأ من المسيحية فالمسيحية قصرت الألوهية -بعد الله تعالى- على بشر واحد وهذا الفهم يعممها فيجعل في كل إنسان عنصراً إلهيا. أن قول الله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ لا يعني أن شيئاً من ذاته تعالى خرج فحل في الإنسان. فالله تعالى لا يخرج من ذاته شيء وهو أحد ليس كمثله شيء وهو مفارق وعالٍ على كل شيء.

إن إضافة الروح إلى الله تعالى ليست إضافة بعضٍ إلى كل كما تقول (يد الله) و (وجه الله) وإنما هي إضافة مملوك إلى مالكه كما تقول أرض الله وسماؤه وكما أن الإنسان ليس روحاً إلهية بهذا المعنى، فإن المسيح عيسى ابن مريم ليس كلمة الله بمعنى أنه خلق وصيغ من الكلمة إن الكلمة ليست عنصره، وإنما هي سببه كما أنها سبب كل مخلوق سواه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وكما يقول الإمام أحمد: فإن عيسى ليس هو الـ (كن) ولكن بالـ (كن) كان.

وأما الصفة الأخرى فهي صفة الخلافة استدلالاً بقوله تعالى:"إني جاعل في الأرض خليفة" ولا شك أن الإنسان خليفة ولكن من الخطأ أن تقدم صفة الخلافة على صفة العبودية كما يميل إلى ذلك كثير من فضلاء كتابنا المعاصرين.

ومن الخطأ: أن يظن بأن تفسير الخلافة: بأنها خلافة عن الله في تعمير الأرض، هو التفسير الوحيد أو المتفق عليه بين العلماء إذ الواقع أن بعضهم أنكر هذه العبارة، وحجتهم في إنكارها قوية قالوا أن عبارة (خليفة الله) لم ترد في قرآن ولا سنة، بل روى أن أبا بكر أنكر على من وصفه بخليفة الله، وقال إنه خليفة رسول الله وقالوا إن الخليفة في اللغة هو الذي يخلف غيره إذا غاب والله تعالى لا يغيب وقالوا: إنه مما يؤيد هذا أنه جاء في بعض الأدعية النبوية وصف الله تعالى بالخليفة فهو الذي يخلف المسافر في أهله وولده كما يصحبه في سفره.

وعلى كل فإن الأمر لا يكون خطيراً إذا فسرت الخلافة بمعنى الحكم أو بمعنى أن كثيراً من المخلوقات مسخرة للإنسان ولكن بعض الكتاب يغلو في تفسير الخلافة حتى ليكاد يشرك بأن الله تعالى قد تخلى عن تصريف جزء من الكون وترك أمره للإنسان.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

* * *

الفيزياء ووجود الخالق

هذا الكتاب ألّفه الشيخ من أجل أن يبين أن القول بالاستغناء عن الخالق لم يكن له ما يسوغه حتى في فيزياء نيوتن، ثم فصل القول في مناقشة الحجج التي يتعلل بها بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق رغم قولهم بنظرية الانفجار العظيم.

وقد طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى عام ١٤١٧الموافق ١٩٧٩م وقد طبعه معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وأما الطبعة الثانية ففي عام١٤٢٢الموافق ٢٠٠٢طبعه المنتدى الإسلامي.

وقد تكون الكتاب من:

مقدمة: بين فيها لماذا كتب هذا البحث؟

الفصل الأول: عن الإلحاد في العصر الحديث.

الفصل الثاني: عن أدلة وجود الخالق.

الفصل الثالث: الفيزياء وأصل الكون.

الفصل الرابع: الإلحاد ونظرية الانفجار العظيم.

الفصل الخامس: رد اعتراضات وتبديد شبهات.

الفصل السادس: مَن الخالق؟

الفصل السابع: ماذا بعد الإيمان بوجود الخالق؟

* * * * *



منهج التفكير



أولاً: مقالات

فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح

كلمة للشيخ جعفر بمناسبة تكريمه في مجلة البيان يوم الخميس ١٤٣٣/٤/١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

«فإن من أشق الأشياء على الإنسان أن يتحدث بين أناس يمدحونه وهو جالس، ما كنت أظن أنني سأمدح هذا المدح بين أخوين جالسين بجنبي.. هذا ما قدر الله وما شاء الله كان.. بالنسبة لي أرى أن تفرقوا بين إنتاجي الفكري وبين سلوكي.. قد تسمعون كلام عني في سلوكي أو في كذا أو في كذا وهذا لا علاقة له بفكري، الإنسان قد يخطئ أخطاء وينحرف.. لكن هذا لا يطعن في منهجه الفكري». حاول الشيخ الاستدلال بآية من القرآن على كلامه لكنه توقف قليلا ثم أكمل قائلا: «أنا مريض ومن آثار المرض النسيان ربنا سبحانه وتعالى ذكر يمكن أن يجمع بين الخير والشر... يمكن أن يجمع بين ما هو سلوك حسن وما هو قول باطل.. الإنسان معرض لهذا ولذاك.. بالنسبة لكتاباتي أظن أنني حرصت جداً على أن تكون كلها على منهج أهل السنة... لكن الإنسان إذا التزم بمنهج هذا لا يعني أنه لا يخطئ.. كثيراً ما أقول إن الالتزام بالمنهج العلمي التجريبي لا يعصم من الخطأ.. لا يوجد منهج يعصم الإنسان من الخطأ.. الإنسان بطبعه يخطئ، إذاً ما فائدة الالتزام بالمنهج الصحيح.. إذاً الإنسان التزم بمنهج صحيح وأخطأ يمكن أن أناقشه.. كذلك بالنسبة للعوم الطبيعة، إذا قال إنسان عن شيء ما أنه خطأ يمكن مناقشته.. هذا هو فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح».

ثم أنهى الشيخ جعفر شيخ إدريس كلمته بالدعاء قائلاً: "أسال الله أن يعينني وإياكم على الالتزام بالمنهج الصحيح.. لا في أقوالنا فقط، بل في سلوكنا وأن يعيننا على الالتزام بالحق ودخول الجنة بإذن الله سبحانه وتعالى..

* * *

ارتكاب أخف الضررين

موقع الشيخ جعفر ١٤١٨الموافق ١٩٩٨م

لقد فطر الله سبحانه وتعالى الناس على مبادئ عقلية يبدهها كل واحد منهم بغض النظر عن زمانه ومكانه ومعتقده وعلمه وثقافته، بل إن بعضها ليبدهه حتى الأطفال منهم. ثم أنزل الله سبحانه وتعالى دينه الهادي للناس موافقاً لتلك المبادئ العقلية التي فطرهم عليها. ومن هنا كان قول العلماء بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وقولهم بأن الدين لا يأتي بمحالات العقول، وإن أتى بمحاراتها. وإذن فوضع الدين في مقابل العقل، أو القول بأن إنساناً ضل لأنه اتبع عقله، كل هذا شيء مخالف لما هو مقرر في هذا الدين. ولهذا لم يكن أسلافنا يسمون المخالفين لمنهج أهل السنة والجماعة بالعقلانيين كما نسمي نحن بعضهم اليوم. بل كانوا يسمونهم بأهل الأهواء، لأنهم لم يجدوا في كتاب الله ذماً لإنسان لاتباعه عقله، وإنما كان الذم للذين لا يعقلون .أما أصحاب العقول فهم أهل الدين الصحيح، وأهل الدين هم أصحاب العقول . انظر كيف جمع الله تعالى بين هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]. وانظر في مقابل ذلك كيف جعل الله تعالى عقاب عدم العقل كعقاب عدم الإيمان. فقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقال في سورة الأنعام: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. لكن القرآن الكريم لا يقرر هذه القواعد العقلية كما يقررها المناطقة والأصوليون - أعني علماء أصول الفقه -، وإنما يفترضها، ويطبقها، ويذم من خالفها، لعلم الله تعالى بأنه فطر العقول عليها، فالناس ليسوا في حاجة إلى من يعلمهم إياها . تأمل قول الله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. تجد أن الله تعالى أنكر على هؤلاء أمراً لا يفعله عاقل، وهو أن يرشد غيره إلى ما يراه خيراً ثم لا يستفيد هو من هذا الخير . وتأمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٦]. فإذا رأيت العلماء

يقررون قاعدة من هذه القواعد بألفاظهم فلا تقل كما يقول بعض الجهلاء مستنكرين: من أين أتى الفقهاء بهذه القاعدة التي ليست في كتاب الله؟ .إنها ليست في كتاب الله بهذا النص الذي ذكروه، لكنها في كتاب الله لأنها متضمنة في كثير من الأحكام التي جاءت فيه.

من هذه القواعد قاعدة ارتكاب أخف الضررين، والقواعد المكملة لها والتي تدور كلها حول فعل ما فيه زيادة للخير أو تقليل للشر، كقاعدة تحقيق أكبر المصلحتين، وقاعدة أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .وذلك أن الهدف العام لهذا الدين في هذه الحياة إنما هو زيادة الخير وتثبيته، وتقليل الشر وقمعه.

إذا خُير الإنسان بين خير واضح وشر واضح فعليه أن يختار الخير .هذا أمرٌ لا شك فيه .لكن الحياة ليست دائماً اختياراً بين خير خالص وشر خالص، بل إن الإنسان كثيراً ما يجد نفسه مخيراً بين خير وخير، أو شر وشر .أو بين شيء فيه بعض الخير وبعض الشر فماذا يفعل؟ بل إن الإنسان قد يجد نفسه في ظرف غير عادي تكون عاقبة فعل ما هو- في العادة -خير، شراً .فماذا يفعل؟ البديهة العقلية تقول إن عليه أن يختار أقل الأمرين شراً، لأنه إذا كان غرضه الخير، فإن أقل الأمرين شراً هو أقربهما إلى الخير .قلت مرة كلاماً مثل هذا الأخ زعيم لجماعة ظننت أنه مقْدِم على أمر فيه ضرر به وبالمسلمين، فكان جوابه"أنا لا أتعامل مع الشر إطلاقاً" .ولكن هذا الأخ نسي أنه إذا أصر على فعل ما هو في العادة خيراً رغم أن الظرف الذي هو فيه يجعل عاقبته شراً، يكون قد تعامل مع الشر من حيث لا يشعر، بل يكون قد فعل ما هو أبعد عن الخير وأقرب إلى الشر.

من أين جاء الأصوليون بهذه القاعدة؟

لقد وجدوها مطبقة ومضمنة في عشرات من آيات القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة .من ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فتحريمهما إذن لم يكن لخلوهما من أي نفع، وإنما كان من أجل أن ما فيهما من شر أكبر مما فيهما من خير . فإذا طبق الإنسان هذه القاعدة على الدخان مثلاً، فلا يملك إلا أن يقول إنه حرام، لأنه قد ثبت أن فيه ضرراً كبيراً ولم يثبت له أدنى نفع. وقال تعالى للمسلمين وهم بمكة:

﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]. لماذا؟ يقول ابن كثير: «وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدة عدوهم...». أمر الله تعالى هؤلاء المؤمنين الصادقين بعدم مقاتلة الكفار مع أنهم كانوا معتدين عليهم وظالمين لهم، ومع أن قتال هؤلاء في الأحوال الطبيعية هو الفرض وهو الخير، لكن لما كانوا في حال لا يأتي معها القتال إلا بضرر أكبر أُمروا بكف أيديهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. قال ابن كثير معلقاً على هذه الآية في تفسيره: «يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين».

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦]. أباح الله تعالى في هذه الآية الكريمة للمؤمن أن يتفوه بكلمة الكفر إذا هُدد بالقتل أو بغيره من أمور يصعب عليه تحملها، فهو هنا يختار أخف الضررين بالنسبة له. ويمكن أن نلمح هذه القاعدة في صلاة الخوف، وقصر الصلاة في السفر، والفطر للمريض والمسافر، وفرضه على الحائض؛ لأن الله تعالى يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، فإذا كان الإنسان في ظرف يجعل ما فرض الله تعالى عليه في الظروف العادية ذا عاقبة فيها ضرر عليه، تغير الحكم.

ما الدليل على أن هذه القاعدة الشرعية هي أيضاً قاعدة عقلية؟

الدليل هو أن كل الناس يلجؤون إليها في حياتهم اليومية حين يحتاجون إليها، وإن لم يسموها باسم معين، بل وإن لم يكونوا على وعي باستعمالهم لها .إن كل إنسان عاقل إذا خيره لص أو إنسان ظالم بأن يعطيه ماله، وإلا قتله، أو قتل أحد أولاده، أو فعل بهم شيء آخر فظيع، فإنه لا يتردد في التضحية بماله إبقاءً على نفسه أو نفوس أولاده، إذا لم يجد مخرجاً آخر .وهو بهذ التصرف يكون عاقلاً لاختياره أخف الضررين. بل إن الأطفال ليتصرفون وفق هذه القاعدة، ولولا ذلك لما أمكن تأديبهم .

إنك حين تقول لطفلك لئن فعلت كذا وكذا لأحرمنك من كذا وكذا ، فإنه ينتهي عن فعل الأمر الأول – مع حبه له– حفاظاً على عدم فقدان الأمر الثاني، أو تفادياً لعقاب تهدده به .وهو في كل هذا يتصرف وفق هذه القاعدة العقلية .والدليل أيضاً أنها قاعدة معروفة –حتى بألفاظها– لأناس من ثقافات وأديان مختلفة .فالمتكلمون بالإنجليزية مثلاً يعبرون عنها بقولهمThe lesser of two evils لكن المشكلة أن كثيراً من المتدينين الذين يتصرفون كغيرهم من الناس وفق هذه القاعدة في حياتهم الشخصية، يخالفونها في بعض تصرفاتهم الدينية ظانين أنه من علامات شدة الاستمساك بالدين أن لا يلقي الإنسان بإلا لعواقب أعماله .فإذا قلت للواحد منهم لا تفعل هذا الأمر في هذا الظرف، أجابك محتقراً إياك بأنه ينفذ أمر الله تعالى وليكن ما يكون .لكنه في الحقيقة لا ينفذ أمر الله تعالى إذ يتصرف تصرفاً تكون عاقبته شراً على المسلمين .وذلك أن الله تعالى الذي أمره بجهاد الكفار مثلاً، أمره أيضاً أن يُقدر العواقب ويحسب الحسابات، ولا يُقْدم على محاربة الكفار إقداماً تكون عاقبته مزيداً من التمكين لهم، أو تكون عاقبته زيادة إضعاف للمسلمين .إن الله تعالى لم يجعل كل أمر أو نهي من أوامره ونواهيه شيئاً مطلقاً ومستقلاً عن بقية الأوامر والنواهي والقواعد العامة .فالذي يطبق أمراً أو نهياً من هذه الأوامر والنواهي من غير نظر إلى العواقب يكون في الحقيقة قد أخذ بعض الدين وترك بعضه .لكن مما ينبغي التنبيه عليه أن هذه ليست دعوة إلى التساهل وترك الأمر الشرعي لأدنى أمر يحسبه الإنسان ضرراً عليه .إن الأوامر والنواهي الشرعية امتحان للإنسان في هذه الحياة ينال عليه أجره في الدار الآخرة .ولا بد أن يكون في الامتحان بعض المشقة خصوصاً في بعض الظروف، فإذا فهم الإنسان من هذه القاعدة أنه يترك الأمر مما أمر الله به أو نهى عنه لأدنى عارض يعرض له، لا يكون عد تصرف تصرفاً عقلياً، بل يكون متبعاً لهواه .فكما أن الإنسان لا يعطي ماله لكل من يهدده أدنى تهديد ، فكذلك لا يترك الامتثال لأمر الله تعالى لأدنى مشقة، أو أدنى حرج. إن قاعدة ارتكاب أخف الضررين قاعدة مهمة ومفيدة غاية الفائدة في كل مجالات العمل، ولا سيما العمل السياسي والاجتماعي، لكن المصالح والمفاسد يجب أن توزن بالموازين الشرعية العلمية وتقدر بها.

* * *

النقد الشامل مستحيل

الاثنين ٢٣ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ٣ يناير ٢٠٠٥م شبكة المشكاة الإسلامية

قال الفتى لشيخه: كتب أحدهم مقالاً في جريدة مشهورة يدعو فيه إلى نقد شامل لا يستثنى منه شيء حتى النصوص الدينية، فما تقول فيه؟

قال الشيخ: أقول إنه إنسان لا عقل له.

الفتى: لم تقول هذا يا شيخ؟

الشيخ: لأن النقد إنما يكون على أساس حقائق يسلم بها الناقد فلا ينتقدها .فإذا لم يكن هنالك أمر غير منتقد صار النقد مستحيلاً.

الفتى: أظنه سيقول إنه العقل هو وحده الحكم، فهو إذاً مقدم على كل شيء بما في ذلك النصوص الدينية.

الشيخ: هو إذا يسلم بأن القوانين العقلية ليست قابلة للنقد؛ لأنها هي التي على أساسها يكون النقد. ثم إذا كان عاقلاً فيجب أن يسلم أيضًا بالحقائق الحسية فلا ينكر شيئًا قام عليه دليل من سمع أو بصر أو لمس أو شم .وإذا سلم بكل هذا يكون قد نقض قوله الأول بأن كل شيء قابل للنقد.

الفتى: هب أنه سلم بهذا .لكنه ظل يقول إن النصوص الدينية قابلة للنقد على هذه الأسس التي ذكرتها .فماذا تقول له.

الشيخ: أقول له: نعم هكذا يبدأ كل إنسان عاقل مع كل دعوى سواء كانت في أمر الدين أو العلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو غيرها .إنك لا تسلم بكل دعوى لمجرد أن صاحبها يزعم أنها نص ديني أو حقيقة علمية.

الفتى: ماذا لو قال لك: فأنت إذا توافقني على أن العقل مقدم على النص.

الشيخ: ليس على كل نص ولا على كل دعوى .ما معنى أن تقدم العقل على أمر شهد العقل نفسه بأنه حق سواء كان نصًا دينيًا أو نصًا تجريبيًا؟ أليس من التناقض الذي ينكره العقل أن تشهد بأن القول قول الله العالِم بكل شيء والذي لا يقول إلا حقًا، ثم تقول لكنني أريد رغم ذلك أن أنظر إذا ما كان حقًا أو باطلاً؟

الفتى: ماذا لو قال لك: إنك تريد إذن أن تعطل النظر العقلي؟

الشيخ: أذكره أولاً بأن النقد ليس غاية في ذاته .إن العقلاء ينظرون وينتقدون لأنهم يبحثون عن الحقيقة، فإذا ما أداهم النظر العقلي إليها توقفوا عن نقد ما أيقنوا أنه حق . أليس هذا ما يفعله العلماء الطبيعيون؟ هل رأيتهم يبدؤون النظر ويعيدونه في كل شيء مهما تضافرت الأدلة العلمية على كونه حقًا؟

الفتى: كلا .لأنهم لو فعلوا ذلك لما تقدم العلم خطوة وإنما يتقدم العلم لأننا نبني بحوثنا الجديدة على التسليم بالحقائق السابقة.

الشيخ: أجل .ونذكره ثانيًا بأن مهمة العقل ليست محصورة في النقد، وإن كان النقد من أخطر مهامه .إن العقل ينظر فيما ثبت أنه حق، ولا سيما النصوص الدينية، لا لينتقدها، ولكن ليزداد فقهًا بها، وليفسر بعضها ببعض وليستنتج منها النتائج، ولينزله.

المقالات عن منهج التفكير الإسلامي
التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

- ليسوا عقلانيين ... وإنما هم أهل أهواء

مجلة البيان ١٤١ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ سبتمبر ١٩٩٩م

يبين الشيخ في هذا المقال أن ما شاع في عصرنا من أن اصطلاح (العقلانيين) وصفاً لأصحاب المناهج المنحرفة عن المنهج الصحيح لفهم الدين وتفسير نصوصه واستخلاص النتائج منها أنه مصطلح غير سديد ثم شرع الشيخ في تفصيل ذلك.

- مفهوم العقل:

مجلة البيان ١٥٨ شوال ١٤٢١هـ يناير ٢٠٠١م

ذكر الشيخ في هذه المقالة أن العقل جزء من الشرع ؛ فكما أنه لا عقل كاملاً بلا شرع فكذلك لا شرع كاملاً بلا عقل، والشرع هو كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم بين الشيخ- حفظه الله- معنى العقل فذكر أن السلف يقولون: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب، فالغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية مِن فَهمْ، وإدراك، وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف إلى آخر، والعقل الغريزي هذا هو مناط التكليف؛ فمن لا عقل له لا يكلف، ومن فقد بعض مقدراته العقلية؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها. والذي أعطي عقلاً ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح، ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين، فلا يؤمن به، لكنه يحاسب على عدم فقهه؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله الاختياري لعقله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]. فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، الرجس في أصله اللغوي هو النتن، فكأن الآيتين الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع ثم ختم الشيخ مقاله بمعاني العقل في القرآن الكريم.

- معايير العقلاء (١):

مجلة البيان ٢١٦ شعبان ١٤٢٦هـ سبتمبر ٢٠٠٥م

بين الشيخ -حفظه الله- في هذا المقال وفي المقالات التي بعده معايير مشتركة بين جميع العقلاء من البشر فذكر في هذه المقالة القوانين المنطقية مثل قانون الاتساق أو عدم التناقض.

- معايير العقلاء (٢):

مجلة البيان ٢١٧ رمضان ١٤٢٦هـ اكتوبر ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ -حفظه الله- من معايير العقلاء شهادة الحس.

- معايير العقلاء (٣):

مجلة البيان ٢١٨ شوال ١٤٢٦هـ نوفمبر ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ -حفظه الله - من معايير العقلاء السنن الكونية

- معايير العقلاء: (٤)

مجلة البيان ٢١٩ ذي القعدة ١٤٢٦هـ ديسمبر ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ -حفظه الله- من معايير العقلاء النفع والضر.

- السلفيون هم العقلانيون

مجلة البيان ٢٤٨ ربيع الآخر ١٤٢٩هـ ابريل ٢٠٠٨م

في هذه المقالة يقرر الشيخ -حفظه الله- أن السلفيين هم أجدر من غيرهم بوصفهم بأنهم عقلانيون إذا كان المقصود بالعقلانية قبول مقتضيات العقل، بأن تقبل النتائج التي تؤدي إليها الحجة العقلية الصحيحة، وبأن لا يقبل التناقض وأن لا تقبل دعوى إلا بدليل، وأن يكون المقصود بالعقلانية إعمال العقل والتفكر، وقد بين الشيخ حفظه الله ذلك من خلال حوار بين عالم سلفي وصاحبه.

* * * * *

ثانياً المحاضرات

الحجج العقلية

محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك..

العقل له مفهوم واسع في التصور الإسلامي، ومفهوم أوسع مما يقال في التصورات الأخرى، وقد بنينا هذا التصور على ما جاء في القرآن الكريم، والإنسان الذي يعرف الحق ولا يعمل به لا يعتبر عاقلاً الآن عندنا ثلاثة أشياء حتى الآن.

أولاً: أن الإنسان بالعقل يعرف إذا الكلام متناقض أو غير متناقض، إذا كان متناقضاً لا يعمل به.

ثانياً: أن الإنسان عقله يقول له ابحث عن الحق.

ثالثاً: أن عقله يقول له إذا عرفت الحق اعمل بمقتضاه، مثلاً في القرآن الكريم مثل أن مفهوم العقل يدخل في حتى المبادئ الأخلاقية عكس ما يقال في الفلسفة الغربية تماماً مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فإذا هذا الكلام معناه أن الذي يرى أن شيئاً فيه مصلحة فيه فائدة، ويكلم الناس ويقول لهم افعلوه وهو لا يفعله فليس بعاقل، فإذا يدخل بالعقل المسائل الأخلاقية، ضربنا مثلا أيضاً بالمسائل الأخلاقية قلنا بأن ما فطر الله عليه الناس بأن يشكر من يحسن إليه، فالذي إذا أحسن إليه أحد لم يشكره نقول إن في عقله خللاً، أيضاً أن الإنسان يختار الشيء الأجمل عن الشيء القبيح، فالذي يختار القبيح سواء كان من المناظر أو من الروائح الذي يختار القبيح عقله فيه خلل كل هذا الذي ذكرناه أشياء منحها الله تعالى لكل الناس كل الناس يعرفون أن الذي لا يقبل الأشياء المتناقضة عاقل، وأن الذي يبحث عن الحق عاقل، وأن الذي يعمل بما يعرف أنه الحق هذا عاقل وأن الذي يختار الشيء الجميل على القبيح أحسن من الذي يفعل العكس، وأن الذي يشكر من يحسن إليه عاقل الناس كلهم يعرفون ذلك، هذا العقل الذي قلنا إن الله أعطاه الناس هو جزء من الدين الإسلامي، وهذا يقودنا إلى شيء مهم جداً هو أهم ما في هذه المحاضرة وأرجو أن تتذكروه لأن العقل جزء من الدين الإسلامي، نحن يمكن أن يكون بيننا وبين غير المسلم العاقل تفاهم، فهنالك

جسر دائما يمكن أن نمده من عندنا إلى الشخص الآخر حتى يأتي إلينا ونذهب إليه يكون بيننا وبينه اتصال.

بعض الأديان وبعض الفلسفات العلمانية لا تعتمد على العقل، ولذلك لا يكون بينها وبين الآخرين جسر، ولذلك إذا اقتنع بها الإنسان لا يأتي إليها بطريق طبيعي هو طريق العقل هذا الجسر وإنما يقع فيها وقوع، يعني لكي يؤمن بها لابد أن يترك عقله، مثلاً العقيدة التي تقوم عليها النصرانية هي أن الله ثلاثة، فإذا دعوا إنساناً وقالوا له آمن بالنصرانية وآمن بأن الله ثالث ثلاثة قال كيف ؟ هذا وهم الذين جعلوا بأن دينهم لا يقبل العقل هم الذين أشاعوا بين الناس أن الإيمان شيء والعقل شيء آخر، وأما في القرآن الكريم فهنالك تلازم بين العقل والإيمان، فالعاقل يؤمن والمؤمن عاقل، مثلاً نحن ما أهم العقيدة الأساسية التي يقوم عليها الإسلام ؟ لا إله إلا الله هل عندنا أدلة من العقل على لا إله إلا الله ؟ أم أننا نقول للإنسان نأتي مثلاً لواحد شيوعي لا يؤمن بالله إذا قلنا له آمن بأنه لا إله إلا الله يقول أنا غير مقتنع نقول له الرسول محمد ﷺ يقول: **(قولوا لا إله إلا الله)** أنا لا أؤمن بأن محمداً رسول الله إذا قلنا والقرآن يقول قولوا لا إله إلا الله والقرآن كلام الله أنا غير مقتنع بأن القرآن كلام الله، لذلك لا بد أن نقنعه بشيء مشترك بيننا وبينه وهو العقل، بعد أن نقنعه بأنه لا إله إلا الله وأن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله، بعد ذلك نطلب منه أن يؤمن بكل ما بُني على هذه الأصول، مثلاً إذا آمن بأن محمداً رسول الله وأن القرآن كلام الله وقلنا له بأن الله قال صلوا في اليوم خمس مرات، يقول من غير العقل أن يقول أعطوني دليلاً عقلياً على أن الصلاة لابد أن تكون خمس مرات، أو يقول أعطوني دليلاً عقلياً على أنني لا ينبغي أن آكل لحم الخنزير، أو يقول أعطوني دليلاً عقلياً على أنه يجوز للإنسان أن يتزوج بأكثر من واحدة، إذا قال هذا نقول ما عندك عقل، لأنك أنت تقول عن هذا كلام الله وتؤمن بأن الله يعلم كل شيء وأن الله لا يأمرنا إلا بالحق وإلا بما فيه خير والآن تقول لماذا يأمرنا وهذا هو الذي نفعله في كل العلوم بعد أن نضع الأساس ونبرهن عليه ما يبنى على هذا الأساس لا نبحث عن حجج عقلية، مثلاً في الرياضيات إذا برهنا على نظرية رياضية، بعد ذلك نبني بعض الحجج الرياضية على أن هذه

النظرية صحيحة، ولا نطلب في كل مرة أن ما بني عليها يعطي حججاً منفصلة عنها، وكذلك في الفيزياء كل هذه العلوم، بعد ما أن يعرف الإنسان الأساس دائما يفترض أن الأساس صحيح ويبني عليه، الآن أريد أن أعطيكم أمثلة من الحجج العقلية لكن قبل ذلك أريد أن أقف قليلاً إذا كان هذا الذي قلته عندهم فيه شيء غير واضح أو غير مقنع، نحن قلنا الإسلام كله يقوم على لا إله إلا الله طيب هذا الكلام أن هناك خالقاً وأن هذا الخالق واحد، وأن هذا الخالق الواحد ينبغي أن يعبد، وأن هذا الخالق الواحد الذي يعبد ينبغي إلا يعبد غيره.

بعض الناس لا يؤمن بهذا؛ أي أنه خالق القرآن عنده حجة عقلية بينة صادقة يقول القرآن ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. القرآن إذا سأل سؤال استنكاري معناه ينبغي أن تعرفوه بعقولكم، معنى هذه الحجة القرآنية أن شيء بهذا إما أن تقول إنه جاء من العدم ما خلقه شيء ولا ثبته شيء كان قبله عدم وفجأة جاء هل يقول هذا عاقل ؟ الآن من المبادئ التي يبنى عليها تبنى عليها العلوم الطبيعية أنهم يقولون لا يأتي شيء من لا شيء، هذه الحجة وهذا الكلام كلام صحيح، وهو مقتضى العقل وتبنى عليه العلوم فهو الذي يبنى عليه الدين فإذاً نقول هذا لا بد منه أم هم الخالقون هو الذي خلق نفسه مثلاً أنا أقول ما جئت من العدم أنا خلقت نفسي لكي أخلق نفسي لا بد من أن أكون موجوداً، إذا كنت موجوداً لا أحتاج أن أخلق نفسي، فالذي يقول إن الشيء خلق نفسه يفترضه موجوداً ويفترضه معدوماً في الوقت نفسه هذه الدعوى التي الآن أنتم ضحكتم بأنها غير معقوله قال بها بعض كبار المفكرين أعني بذلك ماركس، وأنا سأقول لكم كلام ماركس بشيء من التفصيل ماركس قال عنده كتاب اسمه المخطوطات الفلسفية والاقتصادية لعام ١٨٨٤م بهذا الكتاب ماركس يقول الإنسان خلق نفسه، ثم يلعب بالألفاظ، كيف خلق نفسه؟! يقول الإنسان أوجده إنسانان حتى نفرض أنه خلقه إنسانان هل هو خلق نفسه كأنه يقول خلقه إنسانان غيره ولكنه يلعب بالألفاظ؛ قال: لا تسألني من أين جاء الإنسان الأول؟! لماذا لا نسألك؟ قال: لأنك إذا قلت من أين جاء هذا فأنت تفترضه غير موجود، وإذا كان هو غير موجود فأنت غير موجود، وإذا أنت كنت غير موجود لا تستطيع أن

تسأل، فأنا قلت للطلاب هذا كإنسان مثلاً حدث له حادث ووجد نفسه في غرفة العملية بالمستشفى، ووجد الأطباء حوله، فقال للأطباء: كيف جئت أنا؟ فقال له الطبيب لا تسأل هذا السؤال لأنك إذا قلت من أين جئت هنا تفترض أنك لست هنا، وإذا لم تكن هنا لا تستطيع أن تسأل، هذه حجة ماركس في إلحاده وأنتم تعرفون أن إلحاد ماركس انتشر في أوروبا وفي العالم هذه هي الحجة التي أبني عليها، وهي حجة ذكرها القرآن الكريم السؤال الواحد وتكلم عنها كثير من العلماء المسلمين، وقال مستحيل عقلاً الآن القرآن الكريم كأنه يقول إذا كان لا يمكن أن يأتي من العدم وإذا كان لا يمكن أن يخلق نفسه فلا بد أنه خلقه غيره، وهذا الذي خلقه لا يمكن أن يكون مثله؛ لأنه إذا كان مثله يحتاج أيضاً لمن يخلقه، ولذلك قال الله تعالى أن الله ليس كمثله شيء، والله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر الأزلي الذي لا بداية له والأبدي الذي لا نهاية له، هذا دليل عقلي من القرآن، يأتي واحد يقول اقتنعنا أنه خالق فلماذا يكون واحداً، هذا الخالق لماذا لا يكون خالقان؟ هناك في القرآن الكريم آية فيها دليل على هذا بنصه، ولكننا نركز على هذا الجانب، يعني السموات والأرض لو كان يعبد فيهما إله غير الله لفسدتا، فنحن نركز الآن على أن الخالق لابد أن يكون واحداً لنفرض أن هذا هو الكون العظيم وهذا خلقه هذا الجهاز وهذا خلقه، هذا الجهاز يعني مثلاً الشمس خلقها رب والأرض خلقها رب، هذا يقول أنا أريد اليوم أن تشرق، إذا اختلفوا فسد الكون، إذا اتفقوا قال العلماء معناها أن كل واحد منهم ما أصبحت له السيطرة الكاملة على مخلوقاته إلا بموافقة الآخر، فأصبح هذا ناقص وهذا ناقص، ولذلك لابد أن يكون إلهاً حقيقيًّا، هذه الحجج حجج منطقية.

الآن نأتي إلى حجة عقلية خُلقية، إذاً ماهي العبادة؟ العبادة شكر من الذي يشكر الذي قلنا أحسن إليك إذا اعتبرنا أن الله هو الذي أحسن إليك فإذاً نشكره إذا كان هو المحسن الوحيد فهو الذي يعبد، أما إذا كنت أنا أعبد غيره ولا أعبده فكأنك مثلاً أنا أعطيتك هدية بدل ما تقول لي شكراً قلت لهذا شكراً أنا أقول أنا أعطيتك هذه الهدية هذا حال الذي يعبدون غير الله ما عندهم عقل، والذي يقول والبعض يقولون شكراً لله وشكراً لهذا، فالذي يعبد الله ويعبد شيئاً آخر مع الله كأنه شكر الله

على ما أعطاه وشكر هذا على ما لم يعطه، فلذلك لا يشكر أحد غير الله شكراً أصليًا، وإنما إذا شكر الناس يشكرون شكراً فرعيًا أن هذه النعمة من الله، ولكن جعل هذا وسيلة إليه هذا بالنسبة للشكر، لكن قالوا في تعريف العبادة أنها غاية الحب مع غاية الخوف، عندنا أدلة كثيرة على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالقرآن، وهذا القرآن كلام أوحاه الله إليه ليهدي به الناس. هل تتذكرون أن المسلمين هم الأمة الوحيدة بالعالم التي تقول كتابها هو كلام الله علماء اليهود وعلماء النصارى يعرفون متى كتبت كتبهم، ويعرفون أنه كتبها بشر إذاً علماؤهم لا يقولون إنها كلام الله، عند المسلمين العالم والجاهل والصغير والكبير يقولون إن القرآن كلام الله، وكلما ازداد الإنسان علماً بالقرآن، ومعرفة بالرسول ازداد يقيناً بأن القرآن كلام الله، وهم كلما ازدادت معرفتهم بكتبهم ودرسوها دراسة عميقة وعرفوا تاريخها كلما ازداد شكهم بأن هذا كلام الله، فالعلم عندهم يزيد الشك والعلم عندنا يزيد اليقين، نرجع الآن دليلنا أن القرآن هو كلام الله إذا آمنا بأن الله تعالى هو الخالق وهو الذي أنعم علينا بهذه النعم التي نحتاج إليها في أبداننا ونحن نعلم أننا لسنا أبداناً فقط وإنما نحن أيضاً روح وعقول ونحن كما أننا نحتاج للأكل والشراب نحتاج كيف نتعامل مع بعضنا كيف ننظم حياتنا الاجتماعية، كيف نحدد العلاقة بين النساء والرجال، كيف يكون تنظيمنا في الجانب السياسي، فالإله الذي أعطانا كل ما نحتاج إليه من الناحية المادية لا يعطينا ما نحتاج إليه من الناحية الروحية؟ إذاً بالعقل فقط نقول إن هذا الإله لا بد أن يرسل لنا رسولاً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، يعني الذي يقول ما أوحى الله إلى بشر أبداً ما قدر الله هذا معناه أن الإنسان إذا عرف الله فبعقله أن هذا الإله لابد أن يرسل رُسلاً، ولا بد أن يرسل رسالة لنفرض الآن إنسان جلس وفكر وعرف أن للكون خالقاً واحداً وأن هذا الخالق الواحد هو الذي ينبغي أن يعبد وقال أنا أريد أن أعيش نهاية الحياة بطريقة ترضي هذا الإله فأين أجد هذا الإله يذهب إلى النصارى ويقولون له هذا كتاب مقدس يقول لهم هل هو كلام الرسول؟ يقولون لا. هل هو كلام الله؟ يقولون: هو كلام كتبه بعض المؤمنين بعيسى فيقول إذاً

أنتم لستم متأكدين أنه هو كلام الله ويذهب إلى اليهود ويقولون له نفس الكلام، ويذهب إلى البوذيين ويقولون نفس الكلام، ويذهب إلى المسلمين ويقولون نعم هذا القرآن كلام الله إذا كان عاقلاً حتى قبل أن ينظر إلى القرآن يقول في نفسه ما دمت أنا اقتنعت أن الله لا بد أن يرسل رسالة، وما دام أنه ليس هناك أحد بالدنيا ادعى أن ما عنده هو رسالة الله إلا هؤلاء المسلمين إذاً هذا لا بد أن يكون حقًّا، لكن بعد هذا يأتي ويقرأ القرآن ويجد في القرآن أدلة على أنه لا يمكن أن يكون كلام البشر، مثلاً القرآن نفسه يعطينا مقاييس عقلية يقول قيسوني بها لكي تعرفوا أني كلام الله وإلا بأني لست كلام الله، هذا القرآن كلام الله أم ليس كلام الله، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. تذكرون نحن قلنا الاختلاف والتناقض يناقض العقل، وأن الكلام المتناقض كلام باطل، فالله هنا يقول لنا لا يمكن لأي مخلوق بشر ولا غير البشر أن يكتب كتاباً أو يقول كلاماً بحجم هذا القرآن ولا يقع فيه اختلاف، فعدم وجود الاختلاف فيه يدل على أنه من عند الله، الآن أريد أن أفصل لكم بعض الشيء، الإنسان إذا قال كلاماً قليلاً في وقت قصير يمكن أن لا يقع فيه خطأ كلما كثر الكلام زاد احتمال التناقض كلما طالت المدة زاد احتمال التناقض، مثلاً لو أن إنساناً يكتب عموداً في صحيفة، يكتب هذا العمود ويراجعه وقد لا يكون فيه تناقض ربما، لكن يكتبه اليوم ويراجعه لمدة أسبوع ويستمر إلى عشر سنوات هو نفسه إذا جاء وراجع ما كتبه يضحك على نفسه يقول كيف أنا قلت هذا وقلت هذا فيه تناقض، وإذا كان الموضوع واحداً قد يقل التناقض إذا تعددت الموضوعات زاد احتمال التناقض والأخطاء إذا كان يكتب في السياسة فقط يقل احتمال الاختلاف، إذا كان يكتب في السياسة، ومرة يكتب هذا العمود في الاقتصاد، ومرة في علم النفس، ومرة في الأخلاق، ومرة في العبادات عاد احتمال الاختلاف يزداد، ونحن نجد هذا في كتابات وفلسفة ماركس هدفه السياسي أن يحرر الناس لكن نظامه الاقتصادي جعل الناس عبيداً؛ فالشخص أحياناً تكون له أهداف سياسية واعتقاداته الاقتصادية تتناقض مع أهدافه السياسية وتصرفه في السياسة، تتناقض مع مبادئه الخُلقية، والقرآن فيه كل هذه الأشياء؛ فيه السياسة والدين والأخلاق والعبادات، ثم

إن القرآن نزل على النبي ﷺ في ٢٣عاماً آية أو آيات بعد أن اكتمل كل هذا ما وجدنا فيه اختلافاً هذا مستحيل أن يحدث في كتاب من صنع البشر، والدليل على أن القرآن كلام الله أنه منذ أن نزل القرآن إلى الآن منذ ١٤٠٠ سنة وتطور العلوم تطور هائلاً وما وجدنا في كل ما اكتشفناه يناقض ما قاله القرآن، وهذا لا ينطبق على أي كتاب بالدنيا غير القرآن؛ كل الكتب التي كُتبت مما قبل القرآن أو في زمن القرآن أو بعد القرآن بل إلى ما قبل ١٠٠ عام أو ٥٠ عاماً سواءً في السياسة أو في غيرها كل ما تطور العلم نجد فيها أخطاء، هذه بعض الحجج العقلية، وهنالك في العقيدة لا بد أن اقتنع أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله بهذه الحجج بعد أن اقتنعت نقول له أنت عرفت أن هذا كلام الله إذاً هو حق إذاً تلتزم به تستمسك به ولا تقل لماذا قال القرآن كذا، لماذا قال الرسول كذا إلا على سبيل الفهم، لكن لا تسأل سؤال اعتراض، ولا تقل أنا ما أفعل هذا ولا أصدقه إلا من بعد أن يعطوني حجة، تكفيك الحجة الأساسية أنك اقتنعت بأن هذا كلام الله وأن الله لا يقول إلا بحق ولا يأمرنا إلا بما هو خير ولا ينهانا إلا بما هو شر، فتروض نفسك بعد هذا على أن تقبل هذا الحق ولا تقدم عليه أي كلام آخر، لا تقدم عليه كلام البشر، ولا تقدم عليه العادات التي تأصلت في بلدك، ولا تقدم عليه الموضات والمسائل الفكرية، وأرجع مرة أخرى إلى المثال إذا كان كل الناس بسبب الحضارة الغربية يعتقدون أن الزواج بامرأتين أسوأ من الزنا فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تعتقد هذا، يمكن للمرأة المسلمة أن لا تريد أن تتزوج مرة أخرى هذا من حقها، لكن إذا قالت أنا من رأيي أن الرجل لا يتزوج إلا واحدة تكون قد ناقضت كلام الله، ويكون هذا كفر، فلا بد أن نفرق بين آرائنا وبين أن نكون مشرعين شرعاً مخالفاً شرع الله، قلنا إذا كان الإنسان لا يؤمن بالإسلام ؟ وقلت إننا نستطيع أن نتفاهم مع كل إنسان عاقل سواءً كان شيوعيًّا أو غيره وضربنا أمثله على هذا قلنا وجود الخالق أن القرآن فيه دليل على وجود الخالق هل يمكن أن يقول لي باختصار ما الدليل على وجود الخالق ؟ أنا لم أقل لا تتحدث عن الخالق، أنا أقول إذا قال الإنسان أنا لا أؤمن بالخالق كيف تعطيه دليلاً؟ وأنا شرحت لكم هذا ما الدليل على أن الإله خالق لا يمكن الشخص أن يخلق نفسه ولا يمكن

الشيء أن يخلق نفسه؛ لأن ثلاثة أشياء إما أن تأتي من العدم أو تخلق نفسها أو لها خالق هذا هو ثم بعد هذا أن الخالق لابد أن يكون هذا الخالق متصفاً بصفات الخاق، مرة ثانية كل شيء من نبات أو إنسان أو جماد إما أن يوجد من العدم وهذا مستحيل، أو يخلق نفسه أو يخلقه شيء آخر، إذا كان الأول مستحيلاً والثاني مستحيلاً ما بقي إلا الثالث فهذا واضح ، وأما ما يقال في المصادفة فدائماً تكون من أشياء موجودة نقول مثلاً أنا خرجت من هنا وواحد جاء من هنا بالمصادفة تقابلنا، لكن المصادفات لا تخلق، وإذا خلقت من شيئين موجودين. الأصل سؤالنا الآن عن وجود الأشياء كيف جاءت ؟ فما وجدت هكذا، لا يمكن أن تخلق نفسها لابد لها من خالق، هذا الخالق من هو؟ لنفرض أن الجواب الطبيعة الرياح والأنهار والأشجار، إذا قلنا الطبيعة خلقت هذه من أوجدها الآن في العلوم في علم الفيزياء، وكذا هذه النظرية تقول إن مادة الكون كلها كانت مجموعة واحدة وشكلاً واحداً، السؤال الآن من أين جاءت هذه المادة الأولى؟ إذا قلت من الطبيعة تكون أنت ما أجبتني إلا أن تقول هذه جاءت من العدم أو تقول هناك شيء آخر أوجدها. العقلاء يفهمون هذا، وكثير من الفيزيائيين يبحثون عن الإجابة على هذا السؤال سؤالاً معقولاً، الآن إذا قلنا من العدم مستحيل تخلقها مستحيل قلنا الإجابة إنه خلقها شيء آخر، الآن الاختلاف سيكون في نوع هذا الشيء الذي خلقه إذا قلت هذا خلقه هذا، وهذا خلقه هذا، وهذا خلقه هذا، إذا كان هذا مثل هذا سيحتاج إلى خالق إذاً الخالق لابد أن يكون مختلفاً عنهم حتى لا يحتاج إلى خالق أهم ما يتبع الإنسان للدين أن قدرات مثل هذه ما كان موجوداً فوجد مثلاً كل واحد فينا ما كان موجوداً إذا قلت من الأب فنقول من أين جاء الأب، وإذا قلت من آدم نقول من أين جاء آدم؟ إذا قلت من الزهر ومن الحيوانات نقول من أين جاءت؟ وإذا قلت بداية من الماء نقول ومن أين جاء الماء؟ إذاً لماذا نسأل هذا السؤال؛ لأن كل هذه الأشياء ما كانت موجودة فوجدت إذاً هذه لها كلها لابد أن يكون لها بداية إذا لم تكن لها بداية لا نفهم من أين جاءت، ولذلك الذي يقول من خلق الله؟ سؤال ما فيه عقل لماذا؟! لأنه كأنه يقول ما الشيء الذي كان قبل الشيء الذي لا شيء قبله، إذا قلت فلان أول من خرج من هذا الباب فهل تقول من الذي خرج قبله هو أول واحد، إذا

قلت إن الله أزلي إذاً لا شيء قبله، وإذا سألت من الذي خلقه كأنك تقول هناك شيء قبله لذلك السؤال عن مسألة من خلق الله سؤال ما له معنى، فإذاً أول صفة من صفات هذا الخالق أنه أزلي، وما دام أنه أزلي فلابد أن يكون الأول لأن الذي لا أوله لا يمكن أن يكون له نهاية، ننتقل إلى مثال آخر الدار إذا قال إنسان ما الدليل على هناك دار بعد البعث بعد الموت نقول له أولاً هل تؤمن بوجود الله إذا قال نعم نقول إذا نبدأ معك بهذا، ونقول نعطيك دليلاً عقليًا من القرآن يعني كأن القرآن يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. هل يصح من الخالق الحكيم العادل أن يجعل مصير الذين يعملون السيئات مثل مصير الذين يعملون الحسنات لا يمكن إذا لم تكن هناك دار الآخرة كانت الدنيا هذه كلها مبنية على لا عقلانية لأن الدنيا لا تصلح إلا ببعض أعمال الخير ولكن ما كل الذين يعملون الخير يجدون جزاءهم في الدنيا إذاً لابد من دار آخرة غير هذه الدار يجد فيها المحسن جزاء الإحسان ولا بد من أن يكون هناك دار آخرة بعض الناس سيقولون نعم لا بد لكن كيف يبعث الناس بعد أن يموتوا وكان العرب يأتون إلى النبي ﷺ بعظام لأموات يفتتونها أمامه ويقولون كيف هذا يُبعث هل تعرفون الإجابة على هذا السؤال من القرآن إذا كان هو خلقها وما كانت موجودة لا يستطيع أن يخلقها الذي يخلق أول مرة هل ما يستطيع أن يخلق ثاني مرة، إذا الدليل من القرآن أن البعث ممكن وليس مستحيلاً عقلاً، وأنه مقدور الله يقدر على ذلك، وأن صفات الله ورحمته وعدله يقتضي أن يكون هناك بعث إذاً لابد من بعث، وفي القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يحيي الأرض بعد موتها فالذي يحيي الأرض بعد موتها يستطيع أن يحيي البشر بعد موتهم، الآن نرجع إلى موضوع العقل نضرب بعض أمثلة تصرفات عقلية وتصرفات غير عقلية في مبادئ وكلها تقريباً من القرآن الكريم مثلاً إذا قال الإنسان كلاماً ولكن قاله بدوافع سيئة أو أن هذا الكلام يقوله بعصبية، فهل نقول إن هذا الكلام خطأ أو نقول صواباً يعني كونه خطأ أو صواب لا علاقة له بدوافع الشخص الذي قاله، وإنما خطؤه وصوابه بالكلام الذي يقوله كثير من الناس يسلكون في هذا سلوكاً غير عقلي، يقول إنه إذا بين

الدوافع السيئة فقد أقام الدليل على أن الكلام خطأ، مثلا يقول هذا الكلام كلام تقوله الصهيونية أو الماسونية أو الرأسمالية أو الشيوعية، إذاً هذا خطأ. القرآن يعلمنا أولاً أن الكلام خطأ إذا كان خطأ ثم يبين أن دوافع الشخص سيئة، أو نقول إن الكلام هذا صحيح، ولكن هذا الذي قاله ما قاله لأنه صحيح، فلابد من الأمرين معاً، أحياناً من عدم العقل أن بعض الناس يكرهون الحق؛ لأنه جاء من شخص يكرهونه، هذا مختلف عن الأول أو يكرهون الحق إذا كان في مصلحة من يكرهونه، مثلاً إذا قلت هذا الكلام الحق سيستفيد منه العدو فأنا أغيره، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٨] هذا شيء يقتضيه العقل لكن كما قلنا ما كُل شيء يقتضيه العقل يستطيعه كل الناس فالإيمان يعطينا قوة على أن نقبل مقتضيات العقل، أحياناً أيضاً من الأخطاء التي يقع فيها الإنسان أنه يجد في بعض المذاهب، أو عند بعض الناس كلام حق يعجبه هذا الكلام فيؤمن ببقية الكلام كله.

وهذا كان من أكثر الأسباب التي انتشرت به الشيوعية في العالم يأتي الشيوعي مثلاً يقول نحن ندعو إلى إنقاذ العمال، وهو يرى أن هذا الكلام معقول، ولكنه بسبب هذا الذي أقتنع به يقبل النظرية الشيوعية كلها، أذكر أني قلت لأحد زملائي كان شيوعياً، قلت له إن كارل ماركس ألحد قبل أن يضع النظرية الماركسية فقلت له إنه ألحد وعمره سبع عشرة سنة، وقلت له إن إلحاده لا علاقة له بالاشتراكية، فقال كنت أقول في نفسي إذا قلت ننصف العمال أقول ليس هناك إله ولكنني قبلت هذا ثمناً لهذا، أو إنسان يسمع الخميني يقول كلاماً إن أمريكا ظالمة وعلينا نصرة المظلومين بالعالم، ولابد من نصر الثورة هذا الكلام يعجبه ويقبل المذهب الشيعي مع أن المذهب الشيعي فيه أشياء باطلة، وأن الإنسان سلك هذا السلوك لأنه ما من مذهب مهما كان ضالاً إلا وبه بعض الحقائق هل كل ما تقوله الكاثوليكية باطل لا هل ما يقوله الماركسية باطل لا فالإنسان لا يقبل المذهب كله لأنه أعجبه أحياناً، أيضاً من عدم العقل الإنسان إذا رأى إنساناً شريراً أو معادياً للدين ينسب إليه كلاماً لا يقوله هذا الشرير، ويظن إن هذا من الدفاع على الدين هذا قريب من المثل الذي قلناه أن

اعدلوا ولو كان ذا قربى فينبغي للإنسان العاقل لاسيما إذا كان مسلماً أن لا ينسب إلى الناس حتى ولو كانوا أعداء للدين لا ينسب إليهم كلاماً لا يقولونه، المثل الأخير من عدم للعقل أن تنسب إلى الدين كلاماً لا دليل عليه من الدين، نحن قلنا من عدم العقل أن تنسب إلى الإنسان حتى لو كان عدواً كلاماً لا يقوله، ثم تنسب إلى الله وإلى الرسول كلاماً لم يقله، ولكن كثيراً من الناس فعلوا هذا من المنتسبين إلى الدين، أنت إذاً كنت مسلماً تقول أنا مؤمن بالله، وأن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله، فإذاً كأنك أنت تقول إن هذا الدين ما له مصدر إلا القرآن والسنة النبوية، وما بني عليهما استنتج منهما، يعني أي شيء تقول هذا من الدين لابد أن تقول إنه في آية قرآنية من القرآن أو حديث نبوي يدل عليه، أو يمكن أن يستنتج بالعقل من القرآن أو السنة أو أن المسلمين كلهم قالوا إن هذا من الدين هذا يدل على أنه من الدين، الأصول التي نأخذ منها الدين هي فقط القرآن والسنة، عندما نقول القياس، القياس هو في الحقيقة معناه ما نستنتجه بالعقل من الكتاب والسنة، هو مبني على الكتاب والسنة والإجماع معناه هو دليل على أن هذا الكلام هو من الكتاب و السنة، غير هذا كل كلام ينسب إلى الدين بغير هذه الأدلة كلام بدون دليل، تعرفون أن المسلمين الآن يسمون يقولون هذا سنة، وهذا شيعة كيف نعرف من الذي على الحق ومن الذي الباطل نقول إن الذي على الحق هو الذي أقواله من الكتاب والسنة، والذي على الباطل هو الذي يقول كلاماً ليس عنده دليل من الكتاب والسنة، أو أن في الكتاب والسنة ما يدل على أنه باطل، هذه مسألة بالنسبة للشيعة وبالنسبة لغيرنا لابد أن تأخذوها مأخذ الجد ولا تتهاونوا في دينكم، الآن أريد أن نأخذ بعض الأمثلة من عقائد الشيعة، ونرى هل لها دليل من الكتاب والسنة أم لا؟ هل تعرفون بعض العقائد التي عليها الشيعة؟ يقولون إن الأئمة معصومون، ما معنى العصمة أن كل كلام يقوله الواحد من هؤلاء لابد أن يكون صحيحاً، وإذا قلنا إن هذا كلامه صحيح أن هؤلاء الأئمة صاروا مثل الرسول ﷺ لأن الإنسان إذا كان معصوماً فكلامه صحيح دائماً والرسول دائماً كلامه صحيح، فأصبح ليس هناك فرق بين الرسول وبين الأئمة، صاروا من الناحية العملية بدلاً من أن يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كأنهم يقولون لا إله إلا الله وأن محمداً وعلياً وكذا وكذا رسول الله، ونحن عندنا دليل على

أن المعصوم هو النبي ﷺ فقط مثلاً قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ما قال هذا عن أحد غير الرسول، وقال تعالى عن الرسول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣]، والله قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، يعني لا تجعلوا أي كلام غير كلام الله والرسول مقدماً على كلام الله و كلام الرسول والمسلمين الصحابة أجمعوا أن كل إنسان بعد الرسول يخطئ ويصيب، عندنا أدلة كثيرة على أن المعصوم هو الرسول ﷺ إذا قال الإنسان أن هناك يوجد من هو معصوم غير الرسول فلابد من دليل ثم إذا كان هؤلاء جميعاً معصومين فلابد أن يكون كلامهم جميعاً صحيحاً وإذا كان كله صحيحا فلا يمكن أن يكون فيه تناقض، لكننا نجد فيما ينسبونه إلى الأئمة كلاماً متناقضاً هذا يقول كلاماً وهذا يقول كلاماً مخالفاً بل أحياناً ينسبون إلى الإمام الواحد كلاماً متناقضاً، التقية أنا في رأيي من السهل أن أناقش شيوعياً ولا أناقش شيعياً لأن الشيوعي عنده كتب يعترف بأن هذه كتب الشيوعية، وإذا قلت له كارل ماركس كان يقول كذا ويقول انجلز كذا يقول نعم، الشيعي بسبب هذا المبدأ الذي عنده (التقية) إذا رأى الناس أغلبهم من أهل السنة يقول أنا موافق؛ يُقر، الشيعي بسبب التقية ينكر ما يعتقده، فإذاً صعب أناقشه أمام الناس تقول له فلان وفلان يقولون كذا يقول لا أنا لا أقول، وإذا كان الجو مناسباً معه نقول له أنتم تقولون كذا يقول نعم نقول، وهذا معناه أن المذهب كله مبني على إباحة الكذب، والكذب هو أبعد ما يكون عن الدين الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]،

وأن المؤمن ممكن أن يزني وممكن أن يشرب الخمر، ولكنه لا يمكن أن يكون كذاباً يعتاد الكذب؛ لأن صفة الكذب تتناقض مع الدين، فهذا هو أيضا مبدأ ما له علاقة بالدين، مثلا من الأشياء المتعة عند الشيعة هي أسوأ من اتخاذ الخليلات بنظام الخليلات، الإنسان يكون له صديقة واحده دائماً، ولكن في نظام المتعة يمكن أن

يذهب إلى امرأة، ويقول أنا أتزوجك ثلاثة أيام، ويعطيها شيئاً يسيراً من المال ولا يكون لها حق عليه أبداً غير هذا الذي أعطاها حتى إذا ولدت منه ولداً فلا يرثه، فالشيعي ينام اليوم مع هذه المرأة واليوم الثاني مع امرأة ثانية واليوم الذي بعده مع ثالثة وهكذا حتى قالوا ولو مع الأب كله جائز، لو كان المسلمون يفعلون هذا لانتشر الإيدز بين المسلمين من عشرة قرون، لكن الله سلم. لو كان كل دين الشيعة صحيحاً إلا هذا الذي قلناه فصحة ذلك لا تسوغ قبول هذا الباطل، وهم أنفسهم لا يعدونك شيعياً إذا ما قبلت هذا الباطل، ومثل ما قلت حتى الماركسية والكاثوليكية فيها أشياء صحيحة، إيران الآن لا يقولون هذا فقط بل يفعلونه أن أعرف بعض البنات المسلمات اللاتي يدرسن في أمريكا وكنَّ من أهل السنة وبعد الثورة صرن من الشيعية فصرن يمارسن المتعة. وافرض أن دوافعي سيئة فهل هذا الكلام الذي قلته عن الشيعة صحيح أم لا ؟ إذا كنت لا تصدقني لا تقول إن كلامنا خطأ قول ربما يكون خطأ وربما يكون صحيح وأذهب وأبحث في كتبهم، إن من عقائدهم أنهم يقولون إن كل الصحابة ارتدوا وكفر ماعدا أربعة ،أكثر من يكرهون من الصحابة أبوبكر وعمر رضي الله عنهما وأبو بكر وعمر كانا أقرب صحابيين إلى رسول الله ﷺ ويتحدثون عن عائشة وهي زوجة الرسول ﷺ، أنا لا أرضى أن أحداً يتحدث عن زوجتي، ولا أحد منكم يرضى أن أتحدث عن زوجته، وهل يرضى الرسول ﷺ أن يتحدث أحد عن زوجته ويتهمها؟! الرسول ﷺ مات بين يدي عائشة فهل هذه تكون امرأة فاسدة، الذي يطعن في عائشة ويطعن في أصدقاء الرسول كأنه يطعن في الرسول ﷺ، إذا كان لي أصدقاء وصادقتهم لمدة عشر سنوات وجاء إنسان وقال لي أنت رجل طيب وكذا وأصدقاؤك كلهم فاسدون وهذا يتهمني بأحد أمرين إما أنه يقول إنني أعرفهم ولا أقول بهذا، أو أنني مغفل وأجلس معهم عشر سنوات وأعاشرهم ولا أعرفهم، هل يمكن الرسول ﷺ يكون كذلك؟ ولذلك بعض العلماء يقول إن الذي يطعن في أبي بكر وعمر أو أنه يطعن في عائشة فهو كافر؛ لأن القرآن برأها والذي يتهمها يكذب القرآن، وأما بالنسبة لأبي بكر وعمر لأن هؤلاء كانا أحب الناس إلى الرسول الله ﷺ من أصحابه، فالذي يقول إن هؤلاء مجرمون ينبغي أن يُضربوا، وكان الرسول ﷺ يحبهم فهذا طعن في الرسول ﷺ وإذا كان كل الصحابة ضالين إلا أربعة،

فمن أين عرفنا هذا الدين؟ بعض الشيعة قالوا إن هذا القرآن غير صحيح من الذي نقله إليك هؤلاء الأربعة فقط؟ ولذلك بعض الشيعة قالوا هذا القرآن ليس بصحيح قالوها أو ما قالوا سوف ينتج عن كلامه يعني إذا كان الصحابة كذابين ويفترون على الرسول ﷺ يقولون إن الرسول قال علي هو الخليفة ويعارضونه ويتآمرون ويجعلون أبا بكر الخليفة الذي يفعل هذا لا يؤتمن على نقل القرآن، فينتج من اعتقاد الشيعة هذا أن الإسلام انتهى منذ وفاة الرسول ﷺ، ولذلك اخترعوا ديناً من عندهم لا على كتاب الله ولا على سنة نبيه لكن مع الأسف في الواقع يسمون أنفسهم مسلمين ويفعلون بعض الأشياء الإسلامية ويفعلون بعض الأشياء الإسلامية، ويضعون بعض العبارات الإسلامية ويسمون أنفسهم جميعاً من مسلمين، بل بعض الناس -مع الأسف- يقول إنهم مثل أهل السنة أو أحسن، والحركة الإسلامية والصحوة الإسلامية بدأت أولاً عند أهل السنة مثل حركة الإخوان المسلمين والذي انتقلت إلى البلاد العربية الأخرى بما فيها السودان ونحن كنا ندعو إلى العودة إلى الإسلام ولا نعرف شيئاً عن الشيعة، وكذلك في باكستان الجماعة الإسلامية بقيادة الأستاذ المودودي، بل إن حركة الشيعة اعتمدت على كثير من كتب الحركة الإسلامية، وبعد أن قامت الثورة الإيرانية ولكن كان لها أثر سيئ على الصحوة الإسلامية في كثير من بلاد العالم وإنها شقت صف الحركة الإسلامية كان واحداً، كان كل الشباب بالصحوة الإسلامية من أهل السنة فجاءت الحركة الشيعية وشقت هذا الصف صار بعضهم شيعياً وبعضهم سنة، ولكن لنفترض أن فعلا الثورة الإيرانية حركت المسلمين لنفرض هذا سنقول إن هذا ولكنه لا يسوغ الجوانب السيئة بل إن هذا شيء عرضي، والأصل هو الفساد، لأنه أحياناً الناس يتحركون حتى بسبب بعض الآراء والحركات الباطلة، فهل نقول إن هذه حركت المسلمين معناها أنها صحيحة، لا تقيسوا الشيعة بمجرد الشعارات الشيعية مذهب له عقائد وله كتب وله رجال ينشرون هذا المذهب في العالم، ولا نقول لأن هؤلاء يتكلمون ضد أمريكا معناه أن كلامهم صحيح أكثر من كان يتكلمون ضد أمريكا ويخرج في مظاهرات ويقف حاجزاً دون سيطرتها على بعض البلاد كانت الشيوعية في أسوأ حالاتها، ولذلك كثير من الناس في العالم ما رضوا سقوط الشيوعية، قالوا هذا سيخلق جواً لأمريكا، فهل نقول إن الشيوعية حسنة لأنها تعادي أمريكا ؟

من هم الذين تأثرت بهم وماهي جهودكم في الدعوة إلى الإسلام ؟

أكثر من تأثرت بهم بعض أقاربي كانوا يدعون إلى إحياء السنة في السودان، لأنه في السودان كما عندكم هنا كان أبي وأمي والناس من حولي كلهم ينتمون إلى طرق صوفية، في زمن الإنجليز كنا مستعمرين، وما كنا نعرف كثيراً عن سنة الرسول ﷺ، وهؤلاء الأقارب كلموني وأنا صغير، يمكن عمري خمس عشرة سنة، ولذلك بدأت أهتم بسنة الرسول ﷺ وبعد ذلك عملت في حركات أخرى مثل حركة الإخوان المسلمين، وعملت في السياسة في السودان، وبعدها ذهبت إلى السعودية استفدت كثيراً جداً من الشيخ عبدالعزيز بن باز، وكان عمري خمسين سنة، كنت أذهب وأجلس مع الشيخ عبدالعزيز في درسه مع التلاميذ بعضهم من أبنائي لأنه في رأيي هو أعلم الناس في العالم بسنة رسول الله ﷺ، ومن الأشياء التي كانت سيئة وأثرت علينا تأثيراً حسناً أنه لما كنت طالباً كانت هناك الحركة الشيوعية أيام ستالين، وبدأت بالاصطدام مع الحركات الشيوعية، وكانوا يدعون إلى الإلحاد علناً، وهذا أعطانا حماساً بأن ندعو الناس للسنة، ونقف ضد الشيوعية، وبدأنا نقرأ عن الشيوعية، وبدأت أقرأ عن كارل ماركس وأنا في سن العشرين .

س: هل حصلت لك مواقف مع بعض الملحدين ؟

ج: نعم؛ لأن بعض الناس عندنا كانوا ملحدين، وكان عندنا رجل بالسودان مفكر من أكبر الناس الضالين في العالم اسمه محمود محمد طه، كنا نتجادل معه، وقد قتل مرتداً، وعندما دخلت الجامعة كان الطلاب الشيوعيون يسيطرون على اتحاد الطلاب، وكنا الطلاب الإسلاميين أكبر مجموعة، وكنت في فترة من الفترات رئيس الاتحاد.

س: ما هو موقف حكومة السودان من تطبيق الشريعة؟

ج: نعم الذين كانوا في السودان كان بعضهم من الرجال العساكر من ناحية سلوكهم الشخصي وتدينهم أحسن حكام مروا على السودان، ويحاولون تطبيق الشريعة فقط بعض الأشياء القليلة، ولكن الأمر يحتاج إلى مجهود أكبر، والحكومة تقف ضدهم وهي تقول ليس لأنهم مسلمون ولكن لأنهم حكم عسكري، نحن أيضاً لا نريد أن يكون البديل للحكم الإسلام حكماً عسكرياً، وبعد قليل يصير حكماً إسلامياً ومدنياً، والحكم العام تسيطر عليه جماعة من الجماعات الإسلامية، ولكن

نرجو في المستقبل أن تتسع الدائرة لكل الجماعات الإسلامية وكل الأفراد المتدينين؛ حتى يشعر الناس أن هذه الحكومة لهم جميعاً وليست لجماعة واحدة، وإن شاء الله إذا حدث هذا سوف يتوطد الحكم الإسلامي أكثر، وإذا الدولة صارت قوية تتعامل الدول العالمية معها.

س: ما رأيك في انتشار الإسلام في أوروبا والعالم؟

الإسلام لا يشكو من قلة العدد عددهم كبير ولكن النوع هو المهم؛ لأن بعض المسلمين في إندونيسيا هؤلاء مائة مليون حكمهم الهولنديون، فيما بعد حكمهم اليابانيون، المسلمون ليسوا قليل، لذلك نحن نتحدث عن الشيعة لأننا نريد أن نسير بالإسلام إلى الطريق الصحيح لو كان المسلمون أقل من ربع هذا العدد مستمسكين بالدين في عقائدهم وفي عباداتهم وفي أخلاقهم وفي جهادهم، كان يسيطرون على العالم، الآن كثير من الناس يدخلون في الإسلام ولكن عندنا مشكلة وهي أن العلماء قليلون، وكثير من الناس يصيرون مسلمين ولكن حالهم يكونون قريبين من المسلمين في بقية العالم الإسلامي، فلا يكون همكم دائماً أن العدد يكون كثيراً، نريد أن نسعى دائماً وأن تقولوا نحن نريد من أنفسنا بقدر الإمكان أن نكون كما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ، طبعاً لن نكون مثلهم تماماً لكن إذا جعلناهم هم القدوة تحسنت أحوالنا.

س: ماهي انطباعاتكم عن أحوال المسلمين في البوسنة؟

ج: الحقيقة أن الإسلام هنا ضعيف، ونحن طبعاً نعلم أن نعرف أنه كانت حروب والحمد لله أن بقي هذا بعد كل ذلك الاستعمار والتجارب المريرة، ونحن لا ندري لو حصل لنا ما حصل لكم، هل يبقى لنا الإسلام ونحمد الله أن سلمنا مما ابتلاكم به ونحمد الله سبحان وتعالى على أن ظللتم مسلمين لأنه أكبر نعمة ينعم الله بها على العبادة هي أن يسيروا إلى الطريق المستقيم، ويكون حمدكم لله وشكركم له أن تعودوا إلى هذا الدين وتستمسكون به استمساكًا حقيقيًا، لا يكون مجرد تعصب أو مجرد مسألة قومية، نريد أن تكونوا مسلمين بمعنى مستسلمين لله تعالى، وثقوا بأنكم إذا نصرتم هذا الدين فإن الله سينصركم، ويمكّن لكم في الأرض. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي

(محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا).

١. مقدمة:

إن الحمد لله نحمده نستعنيه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل الله فلا هادي له، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد المبعوث بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين، وبعد فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ونحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على هذا اللقاء الذي لم يكن يدور بخلد أحد منا ولا في منامه قبل بضع سنين أنه يمكن أن يكون.

نحمد الله تعالى الذي أنجانا وأنجى البشرية من ظلام الشيوعية وظلمها. ونسأله أن يديم علينا نعمة الإسلام والحرية والأمن والسلام. وإن من تمام شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة أن نتعاون على استئناف السير – بعزم أكيد – على صراط الله المستقيم، وتجنب كل السبل التي أدت في الماضي إلى ضعفنا وبعدنا عن ديننا وهواننا على غيرنا. ولما كان ديننا هذا قائماً على العلم، فإن أول ما ينبغي على ما يريد أن يهتدي بهداه أن يعرف الطريق المؤدية إلى ذلك الهدى. ومن هنا تجيء أهمية الموضوع الذي أتشرف بالحديث إليكم فيه في هذه المناسبة السعيدة.

أيها الإخوة الكرام:

إن المنهج العلمي الموصل إلى الحقائق المتعلقة بأمر ما له ركنان:

أولهما: التماس تلك الحقائق في مصدرها الصحيح

وثانيهما: سلوك الطرق المناسبة للبحث عن الحقائق التي يتضمنها ذلك المصدر.

والدليل الدال على وجود حقيقة ما يتكون من مجموع هذين الأمرين. فالذي يدعي وجود حقيقة ما عليه أن يثبت أنه وجدها في المصدر المناسب لها، وسلك إلى معرفتها الطريق المناسب لها، فإذا لم يكن لها سند لا من هذا ولا ذاك كانت دعواه باطلة. والحقائق كلها مهما كانت أنواعها مصدران لا ثالث لهما. الكون والوحي، أو قل خلق الله، ووحي الله، فإذا ادعى إنسان دعوى ليس عليها دليل من هذين المصدرين أحدهما أو كليهما، كانت دعواه باطلة. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ

عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠]، وقال تعالى في المعنى نفسه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]، فعبادة هؤلاء لما عبدوه من دون الله تتضمن الدعوى بأنهم أرباب والرب لابد أن يكون خالقاً، والعلم بأنه خالق يكون إما بمشاهدة ما خلقه في الكون، أو بوحي من الإله الذي ثبت أنه خالق، فإذا لم يكن لهذه الدعوى سند لا من خلق الكون المشهود ولا من كلام الإله الخالق، كانت – بالضرورة – باطلة، وبما أن المنهج العلمي قائم على هذين الركنين لا غير، فإنه يستبعد الدعاوى القائمة على أشياء مثل التخيلات، والظنون، والأهواء والأماني، والآراء المجردة، والتقليد. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨]، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٤].

والحقائق منهاما يمكن أن يوجد في ذينك المصدرين كليهما – أعني الكون والوحي – ومنها ما لا يوجد إلا في أحدهما، فإذا ادعى مدع وجود حقيقة في غير المصدر المناسب لها لم تقبل منه، بل إن الحقائق المعلقة بالمصدر الكوني متنوعة، ولكل منها مصادر متميزة في داخل ذلك المصدر الكبير. فحقائق الفيزياء مثلاً لا تلتمس في السلوك الحيواني، ولا في الأحوال النفسية، وحقائق علم الأحياء لا تلتمس في الجمادات ولا في تقاليد المجتمعات، وهكذا، والمناهج تختلف باختلاف المصادر.

فالحقائق الكونية سواء منها ما كان متعلقاً بالطبيعة أو بالمجتمعات البشرية إنما تعرف أساساً بالمشاهدة والتجربة، ثم بالاستنتاج العقلي مما شوهد وجرب، ثم بكلام الثقات الذين شاهدوا وجربوا أو استنتجوا، وهذا الطريق الأخير مع أنه آخر في الرتبة إلا أنه أول في انتشار المعرفة، فقلة من الناس هم الذين يطلعون على الحقائق اطلاعاً مباشراً، وإنما يعرفها معظم الناس عن طريق ما يقول هؤلاء، كما يعرفون بعضها عن طريق وحي الله. وأما الحقائق الدينية فإن مصدرها الأساس هو وحي الله إلى عباده. والوحي يعرف بطريقين. طريق خاص بالأنبياء الموحى إليهم، وطريق عام ما ينقله لنا أولئك الأنبياء عن ربهم.

وبينما الصفة المميزة للحقائق الكونية هي كونها موجودات، أو صفات أو أحوال أو علاقات لتلك الموجودات كان المنهج الأساس الموصل إليها المشاهدة. وبما أن الحقائق الدينية تأتينا في صورة كلام، كلام الله تعالى، أو كلام أنبيائه، فإن المنهج الموصل إليها إنما هو اللغة التي تؤدى بها... قرآناً عربياً لعلكم تعقلون". فالعقل – بمعنى الفهم – لما يقال هنا، هو بمثابة المشاهدة للتجربة هناك. ولكن كما أن عالم الطبيعة يستنتج بالطرق العقلية مما شاهد ما لم يكن قد شاهد، فإن عالم الدين أيضاً يستنتج من الحقائق التي دلت عليها النصوص دلالة مباشرة حقائق أخرى لازمة عنها وإن لم تكن مذكورة صراحة فيها. وكما أن النقل عن الثقات هنالك هو الطريق الأول لنشر العلم فإنه هو الطريق لذلك النشر هنا أيضاً. وكما أن بعض الحقائق الدينية توجد في المصادر الدينية فإن بعض الحقائق الدينية الأساسية تستنتج من الحقائق الكونية:

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:٨]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

أقول بعد هذه المقدمة الموجزة في بيان المصادر والمناهج في كل من العلوم الطبيعية والعلوم النقلية، إن غرضنا هنا إنما هو المنهج العلمي المتعلق بمعرفة الحقائق التي جاء بها الإسلام. نريد أن نعرف:

ما مصادر الحقائق الدينية الإسلامية وما المنهج المؤدي إلى معرفتها؟ إن المتأمل لما أصاب المسلمين من فرقة واختلاف، وما حدث في دين الكثيرين منهم من انحراف، لا يجد له سبباً إلا عدم الالتزام بمصادر الدين التي هي مصادره، أو عدم سلوك المنهج الصحيح لمعرفة ما تضمنته تلك المصادر من حقائق.

مصادر حقائق الدين الإسلامي:

إن الإسلام هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ، فمصادره عند من يؤمن بأنه رسول الله، هي تلك التي قرر هو ﷺ أنه مصادره، ولا يحق لأحد غيره أن يضيف إليها، ولا أن يحذف منها. بل كل أمر أخذ من غيرها فليس من دين الله في شيء، وكل أمر ترك منها فهو ترك لبعض هذا الدين، وقد حدد ﷺ تلك المصادر بقوله: (**فانه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**)[1]. والقرآن الذي أنبانا الرسول ﷺ بأنه مصدر للدين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات:١]، ويقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، ويقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران:١٠٣].

هذان هما مصدرا الدين الأساسيان. فكل حقيقة لا تؤخذ منهما أخذاً مباشراً، أو لا يكون فيهما دليل عليها، فليست من دون الله في شيء، لكن بعض المنتسبين إلى الإسلام أنكر بعض هذين المصدرين، وبعضهم أضاف إليهما مصادر أخرى.

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

فالخوارج – وهم أول طائفة تنحرف عن جادة الطريق الإسلامي – أنكرت سنة رسول الله ﷺ. وما زال في الناس من ينكر هذه السنة كلها أو بعضها، وما زال فيهم من يؤمن بها إيماناً نظرياً لكنه يعطلها واقعياً. وبعض الغلاة من أهل الفرق الضالة زعموا أن القرآن الذي بين أيدينا حدث فيه تحريف بالنقص والزيادة. وآمنوا بأن أئمتهم معصومون فنزلوا ما نسبوه إليهم من كلام المنزلة التي لا تجوز إلا لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وغلاة المتصوفة زعم بعضهم – كابن عربي – أن كتابه الذي كتبه وحي من الله، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، وعد بعضهم رؤاه وكشوفه مصادر مستقلة يعتمد عليها فيما يعد من الدين ومإلا يعد. والفلاسفة والمتكلمون سلموا بقواعد حسبوها عقليات – وإنما هي جهليات – وجعلوها ميزانا يقيسون به ما يقبلون وما يرفضون مما في الكتاب والسنة، وبعض الناس في زماننا جعل ما تواضع عليه الغرب من قيم هو ذلك الميزان، وبعضهم جعل أهواءه الذاتية وثقافته العصرية، هي المعيار الذي يعيد به تفسير النصوص القرآنية والسنية، وظن أنه بذلك إنما يتبع حكم العقل، ويجعل الإسلام متمشياً مع العصر. والمتعصبون، دعاة التقليد من أهل المذاهب قدموا ما يجدونه في كتبهم المذهبية على ما يجدونه في كتاب الله تعالى، وفي دواوين السنة النبوية، واعتلوا لذلك بحجج هي نفسها مخالفة لما قرره الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، والغريب أن كثيراً من هؤلاء الذين يدعون إلى وجوب التقيد بمذهب معين من المذاهب الأربعة إنما يتقيدون بها في مسائل الفقه الفرعية التي اختلف فيها أولئك الأئمة، ثم يخالفونهم مسائل أصول الدين التي اجتمعت كلمتهم عليها، فتجد أحدهم يصف نفسه بالمالكي – أو الشافعي أو الحنفي أو الحنبلي – مذهباً والأشعري عقيدة، والقادري أو التيجاني أو النقشبندي طريقة، هذا والأئمة الأربعة – مع اختلافهم في المسائل الفقهية الفرعية – كانوا متفقين اتفاقاً كاملاً في المسائل الاعتقادية، وفي تحريهم لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمور التعبدية. فهؤلاء يقلدونهم في المسائل التي اختلفوا فيها ويجمعون على خلافهم في المسائل المهمة التي أجمعوا عليها، فإذا أردنا أن نكون هداة مهتدين، ورثة لرسول رب العالمين، نحمل مشعل النور الذي جاء به إلى عصرنا ليهتدي بها في حل مشكلاته النفسية والعقلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإذا أردنا

للأمة التي تنتسب إلى الإسلام أن تكون أمة مسلمة حقاً، تقود البشرية وتهديها، وتنال من العزة والعلو ما نال أسلافها، فلا بد من أن تعقد جماعة منا العزم على الرجوع المباشر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقديمها على ما سواهما مما يدعي أنه مصادر للدين، لكن الرجوع إلى الكتاب والسنة لا يعني إهمال أقوال الأئمة وجهودهم، وإنما يعني أن تكون تلك الأقوال – كما أراد لها قائلوها – وسائل تعين على فهم ما في ذينك المصدرين لا بديلا عنهما.

فهل هذا ممكن؟

يشكك بعض دعاة التقليد في إمكانية ذلك بحجج منها:

(أ) أن فهم القرآن يحتاج إلى مهارة في اللغة العربية، لم تعد متيسرة للناس في عصرنا.

(ب) وأنه يحتاج مع ذلك إلى معرفة بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، .... وهي أمور لا يستطيع المتأخر معرفتها معرفة مباشرة من قراءته للقرآن الكريم.

(ت) وأن الأحاديث النبوية من الكثرة بحيث لا يمكن للمتأخرين أن يحيطوا بها، مع أن الإحاطة بها مهمة لمعرفة الأحكام المتعلقة بأي أمر من أمور الدين كالصلاة أو الزكاة أو الجهاد، وإلا تصور الإنسان لهذه الأمور قاصراً، وقد تمكن العلماء الأئمة المتبوعون من مثل هذه الإحاطة، فما علينا إلا أن نكتفي بأقوالهم.

(ث) أن الأحاديث النبوية فيها – كما في القرآن الكريم – ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، وفيها ما هو حوادث عين، وما هو أحكام عامة، وغير ذلك. فإذا هجم إنسان لا علم له بهذا كله على كتب الحديث وبدأ يقرأ فيها ويستدل بكل حديث يصادفه فيها على تخطئه هذا الإمام أو ذلك، أن الإفتاء في هذه المسألة أو تلك، كان حرياً أن يضل ويضل.

(جـ) أن الأخذ المباشر من ذينك المصدرين الأساسيين يؤدي إلى اختلاف أكثر مما هو موجود الآن، وذلك أنه إذا كان أهل السنة الآن مختلفين في الفقه إلى مذاهب أربعة فقط، فإن عدد المذاهب آنذاك سيكون بعدد الآخذين من الكتاب والسنة. نبدأ ردنا على هذه الحجج بملاحظة عامة عليها قبل الدخول في الرد الخاص على كل منهما فنقول:

أولاً: إن هذه الحجج كلها قائمة على افتراض أن من يدعو إلى الأخذ من الكتاب والسنة يدعو إلى أن نكون جميعاً مجتهدين اجتهاداً مطلقاً، وهذا ليس بصحيح. إن كثيراً من الناس يظنون أن المرء إما أن يكون مقلداً تقليداً أعمى، لا يعرف نصاً ولا يفهمه، ولا يستطيع الاستدلال به، بل إنما يفعل ما يأمره به علماً مذهبه، وإما أن يكون قد بلغ درجة من الاجتهاد تمكنه من النظر المستقل في النصوص واستخراج الأحكام منها في كل أمر من الأمور. لكن الواقع أن بين هاتين الدرجتين درجات أخرى يستطيع الوصول إليها الألوف من الناس.

ثانياً: أن هذه الحجج تفترض كذلك أن الدعوة إلى الأخذ المباشر من الكتاب والسنة، معناها الاستغناء الكامل عن كل ما كتب العلماء لا يبدأ مجتهداً، وإنما يتعلم تلاوة القرآن من القراء، ويتعلم تفسيره من المفسرين الأحياء والأموات، وقل مثل ذلك عن تعلمه للسنة، واللغة العربية، وغير ذلك من العلوم، بل إنه حتى بعد أن يبلغ درجة الاجتهاد لا يسعه الاستغناء عن النظر في أقوال غيره من العلماء، ولا سيما صحابة رسول الله ﷺ. فالدعوة إذن إنما هي إلى أن لا يعد التقليد هو الأصل الذي يلزم به كل الناس. إن الأصل هو أن يحاول كل إنسان أن ينال من العلم ما يجعله الله به قادراً على فهم أوّلي لآيات القرآن الكريم إذا تليت عليه، ولأحاديث الرسول ﷺ إذا رويت له. ثم يتدرج بعد ذلك في سلم العلم، فيزيد علمه بالقرآن وبأحاديث الرسول ﷺ. امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولقوله ﷺ: **(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)**. وفقه الدين إنما هو فقه كتاب الله تعالى، وفقه أحاديث رسوله ﷺ. إن التقليد هو الدرجة الدنيا التي لا يلجأ إليها المرء إلا مضطراً، ولذلك أجاز العلماء للجاهل أن يقلد قياساً على الأعمى الذي لا بد له من تقليد غيره في التوجه نحو القبلة، إذ أنه يستحيل عليه أن يعرفها استقلالاً. فكيف تجعل هذه الحال هي الحال التي يجب أن يكون عليها كل الناس؟

ثالثاً: إن التقليد الذي تدعو إليه هذه الحجج يلزم عنه أمر شنيع ما أظن أحداً من القائلين به يمكن أن يوافق عليه، إن الذي يلزم عنها هو الاستغناء الكامل عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال صحابته رضوان الله عليهم، بل وأقوال الأئمة

المتبوعين أنفسهم، بوصفها مصادر للعلم بالدين، والاستعاضة عن ذلك كله بما كتبه المتأخرون من رجال المذاهب، وعزوه إلى الأئمة المتبوعين، وهذا اللازم كما قلت أمر شنيع، لا يمكن أن يقول به إنسان في قلبه إيماناً، لأن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ خاتماً للأنبياء، وتكلف بحفظ النور الذي جاء به، ليكون هادياً للناس إلى يوم القيامة. فكيف يسوغ للناس في أي عصر من العصور، مهما بعد عن عصره النبوة، أن يستغنوا بأقوال العلماء - مهما كانوا - عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهدى أصحابه رضوان الله عليهم. وما أحسن ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد: ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض نقله عن أمر الله ورسوله ويبقى كل إمام في اتباعه بمنزلة النبي ﷺ في أمته، وهذا تبديل للدين يشبه ما عاب الله به النصارى في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

رابعاً: إن هذه الدعوة الحارة الملحة إلى التقليد دعوة متناقضة؛ لأنها هي نفسها اجتهاد، وهي بعد اجتهاد مخالف لإجماع أولئك الأئمة الذين تدعو إلى تقليدهم، والتقيد بمذهب واحد منهم وعدم مخالفته. وذلك أن كل واحد من هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم وأجزل ثوابهم حذروا الناس من مثل هذا التقليد، وعدّه انحرافاً عن الدين.

نأتي بعد ذلك إلى الرد الخاص بكل حجة من تلك الحجج:

(أ) إن كل المقصود بها أن إتقان اللغة العربية إتقاناً يجعل الإنسان مجتهداً لم يعد سهلاً فنعم. وأما أنه متعذر فلا؛ لأن الله تعالى الذي تكلف بحفظ نصوص هذا الدين قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، لا يمكن أن يكون قد عنى حفظ هذه النصوص حفظاً متحفياً كما تحفظ النصوص المكتوبة بلغات مصر القديمة مثلاً. وإنما عنى بحفظها حفظ الفاظها ومعانيها. هذا يستلزم حفظ اللغة التي صيغت بها. يؤكد هذا حديث الرسول ﷺ المشهور: **(لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)**[1]. ترى

---

(١) البخاري، من حديث معاوية رضي الله عنه.

هؤلاء الظاهرين على الحق في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة هم ظاهرون به بمجرد حفظهم للنصوص القرآنية والحديثية من غير فقه لها؟ كلا! فإن الله تعالى ذم أقواماً مضوا ما كان حفظهم من العلم بكتابهم إلا ثلاثه، فقال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

فكيف يمدح رسوله ﷺ أقواماً من أمته لا يكون لهم من علم القرآن والسنة إلا حفظهما. ذلك إذا كان المقصود أن يكون الإنسان مجتهداً أما إذا كان قصده أن يفهم الآيات والأحاديث فهماً أولياً يمكنه من معرفة وجه استدلال العلماء بها، ويمكنه كذلك من الأخذ بها وترك ما خالفها من أقوال، فإن الأمر في غاية اليسر بحمد الله تعالى. كما يدل عليه حال الآلاف المؤلفة من العلماء وطلاب العلم المعاصرين، حتى من دعاة التقليد. ثم إنه قيل إنه لا يمكن للناس في هذه العصور المتأخرة أن يعرفوا اللغة العربية معرفة تمكنهم من فهم كتاب الله تعالى، فليقل أيضاً إنها لا تمكنهم من فهم كتب الفقه، خصوصاً وأن المتأخر منها – والذي هو الشائع بين طلاب العلم اليوم – مكتوب بلغة يجد الطالب من الصعوبة في فهمها أكثر مما يجد في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

(ب) هذه الحجة مبنية على افتراض أن من يدعو إلى الارتفاع عن طور التقليد إنما يدعو كل من هب ودب إلى قراءة نصوص الكتاب والسنة، و استخراج الأحكام منها من غير استعانة بالكتب التي تفسرها، وبدون الرجوع إلى العلماء العارفين بها. وإنما الذي ندعو إليه هو أن تدرس نصوص الكتاب والسنة كما تدرس كتب الفقه المذهبي، بالقراءة على العلماء، وبالاستعانة بالشروح التي تفسرها. فإذا سلك الطالب هذا الطريق عن الناسخ والمنسوخ، لأن العلماء جزاهم الله خيراً اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة، فهم لا يذكرون في تفاسيرهم للقرآن وشروحهم لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم نصاً إلا بيّنوا أناسخ هو أم منسوخ؟، وإذا كانت مسألة الناسخ والمنسوخ عقبة في فهم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فإنها لعقبة أشد بالنسبة لأقوال أئمة المذاهب. فما منهم إلا وقد حذر من أن الرأي الذي يراه اليوم قد يغيره غداً إذا بدا له أنه خطأ. قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمعه مني فإني

قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد»[١]. بل إن أصحابه قد يكتشفون بعض أخطائه بعد موته، إذا اطلعوا على أحاديث لم يتيسر له الاطلاع عليها. ولهذا، لما اجتمع أبو يوسف – وهو أفضل أصحاب الإمام أبي حنيفة – بالإمام مالك فسأله عن مسألة الصاع، وصدقة الخضروات، ومسألة الأجناس، فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك فقال: «رجعت إلى قولك يا أبا عبدالله، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع إلى قولك كما رجعت»[٢].

(جـ) ما من شك في أن علماءنا الأوائل كانوا جبالا في العلم، وقد هيأ الله تعالى لعدد كبير منهم معرفة واسعة بالأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة! لكن لا أحد من الناس – ولا حتى من الصحابة – بلغ درجة الإحاطة بكل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. قال الإمام الشافعي: " لا نعلم أحداً جمع السنن فلم يذهب عليه منها شيء. فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها، أتى على السنن. وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره[٣]، وقد كان للجهود الكبيرة التي بذلها أولئك الأوائل في جمع الأحاديث وتبوييبها وبيان درجتها الفضل الكبير في تيسير العلم بها لمن جاء بعدهم، فنحن بفضل الله تعالى – ثم بفضل تلك الجهود – لا نحتاج اليوم إلى كبير عناء في دراسة الآثار النبوية. لذلك لم يخل عصر – بما في ذلك عصرنا – من علماء وفروا أنفسهم لدراسة السنة الشريفة، وبلغوا في ذلك درجات عالية، حتى إنك لا تكاد تسأل أحدهم عن حديث إلا استطاع أن يبين لك مصدره وراوية، ودرجته، ولو أننا أصلحنا نظامنا التعليمي، فأعطينا هذا النوع من الدراسة عناية أكبر، لتضاعف عدد أمثال هؤلاء العلماء الأفذاذ لكننا نكرر بأن الإنسان لكي يرتفع عن حضيض التقليد إلى الاتباع للسنة، وطريق الصحابة لا يحتاج إلى هذا التبحر في العلم، بل يكفيه أن لا يتقيد بقول إمام واحد، وأن يقدم القول الذي يسنده الدليل الصحيح على القول الذي لا دليل عليه، أو ما عليه إلا دليل ضعيف.

---

(١) الألباني، الصلاة: ص٤٧.

(٢) الفتاوى، جـ٢٠/ ص٢١١.

(٣) الرسالة، ص٤٣.

(د) إن العلم بكل هذا متيسر لمن أراده في الكتب التي تشرح الأحاديث النبوية، والتي لابد من قراءتها لمن يريد فهم الأحاديث، أو الاستدلال بها.

(هـ) هذه من أغراب الحجج التي سمعتها - وقد سمعتها فعلاً من أحد إخواننا - هدانا الله وإياهُ إلى سواء السبيل..

إن الاختلاف بين أفراد المسلمين في بعض القضايا ليس أمراً مستغرباً، ولا مضراً فالاختلاف كما قال العلماء هو نتيجة العلم الناقص. وبما أن نقصان العلم أمر لازم لكل مخلوق، فإنه حتى الملائكة يختلفون كما جاء في القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩]، لذلك وقع الخلاف حتى بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وأئمة الهدى من بعدهم، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، دليل على إمكانية وقوع الخلاف بين المسلمين، لكن الخلاف إن كان راجعاً إلى مجرد نقصان في العلم فإن ضرره قليل، وعلاجه ممكن، كما تبين الآية الكريمة. وإنما يكون الخلاف فتنة، وشراً ما حقاً ونزاعاً يسبب الفشل، ويذهب بريح المختلفين، إذا كان مبناه على الهوى. وشر أنواع الخلاف المبني على الهوى هو الخلاف الجماعي. أعني الخلاف الذي يكون سببه التعصب لحزب، أو طائفة، أو جماعة، أو بلد، أو شيخ، أو مذهب. إن الأفراد المتعصبين لشيء من هذا لا يسألون عما يتلقونه من هذه الجهات: أحق هو فيتّبع؟ أم باطل فيطرح؟ وإنما يقبلونه، ويقولون به، ويدافعون عنه، لمجرد خروجه من تلك الجهات التي نصبوها مصادر يأخذون منها الحقائق. وهذا يقودهم إلى أن يخالفوا كل من لا يوافقهم على تقديس تلك المصادر التي قدسوها. وبذلك يتحول الخلاف بينهم وبين غيرهم إلى خلاف جماعي يشترك فيه كل من ينتمي إلى حزبهم أو جماعتهم أو مذهبهم، عالماً كان أو جاهلاً. أما الخلاف الفردي - ولا سيما العلمي منه - ولا ينتج عنه مثل هذا الضرر، لأن الفرد من الناس سيخالف فرداً آخر في قضية، ويوافق ثانياً في القضية نفسها. ثم قد يوافق - في قضية ثانية - من كان خالفه في القضية الأولى، وقد يخالف فيها من كان وافقه في تلك. ولهذا لا يكون الاختلاف العلمي الفردي سبباً في تقسيم أفراد الأمة إلى فرق أو مذاهب ثابتة متناحرة.

منهج اكتشاف حقائق الدين الاسلام:

أما وقد أيقنا بأنه لا مصدر لحقائق الدين الإسلامي إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقد آن لنا أن نعرف الطريقة المناسبة التي نتوصل بها إلى إكتشاف الحقائق المتضمنة في تلك المصادر، كما يكتشف عالم الطبيعة حقائقها من الكون الذي هو مصدرها.

هنالك مسلكان لمعرفة الطريقة المناسبة لاكتشاف الحقائق. سواء كانت كونية أو شرعية. فإما أن تعرف العلماء الذين نجحوا في معرفة هذه الحقائق، واشتهروا بذلك، فتقول لنفسك مادام هؤلاء قد نجحوا في معرفة هذه الحقائق فلا بد أن يكون منهجهم هو المنهج المناسب لمعرفتها، فتسلك سبيلهم. وإما أن تنظر في نوع المصدر الذي تريد اكتشاف الحقائق المتضمنة فيه لتعرف من طبيعته مبادئ الطريقة المناسبة لمعرفة حقائقه، فإذا كان المصدر حقائق طبيعية ثابتة كان أول الطريق إليها هو المشاهدة، وإذا كانت حقائق غائبة كان الطريق إليها الاستنتاج من الحقائق القائمة، وإذا كان كلاماً كانت بداية الطرق إلى حقائقه معرفة لغته. وهكذا.

إن سلوك أي من هذين المسلكين يؤدي بصاحبه إلى معرفة الطريقة المناسبة لاكتشاف الحقائق من مصدرها، لأنهما مسلكان متلازمان، فمعرفة الطريق الذي سلكه العلماء تؤدي إلى معرفة المنهج الصحيح، ومعرفة المنهج الصحيح تؤدي إلى معرفة الطريق الذي سلكه العلماء. هذان المسلكان هما اللذان يسلكهما فعلاً دارسو مناهج العلوم الكونية. كما يسلكها دارسو مناهج العلوم الشرعية، ففي عصرنا اليوم علم يسمى "فلسفة العلوم" يهتم المختصون بدراسة القضايا الفلسفية والفكرية التي تثيرها العلوم التجريبية، ولا سيما الطبيعية. ومن أهم ما يدرسونه مناهج هذه العلوم. فهم يبدؤون بملاحظة الطريقة التي يسلكها العلماء فعلاً للوصول إلى حقائق علومهم، ثم يدرسون هذه المناهج نفسها ليعرفوا لماذا أدت تلك الحقائق.

وكذلك كان دارسو مناهج العلوم النقلية عندنا يفعلون. فما المنهج العلمي المناسب لإدراك حقائق الدين الإسلامي الذي يدل على صحته هذان المسلكان؟ إنه منهج يجعل اللغة والعقل شرطين لمعرفة معاني النصوص، ويدعو إلى تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة، وتفسير السنة نفسها بالسنة، وتفسير القرآن والسنة بأقوال الصحابة،

وباعتبار الإجماع دليلاً قطعياً على وجود الحقيقة المجمع عليها في الكتاب والسنة، وبأن القياس الصحيح طريق إلى استنباط الحقائق من النصوص.

وفيما يلي نقدم شرحاً موجزاً لكل عنصر من هذه العناصر المكونة للمنهج، وللأدلة الدالة على ضرورة الالتزام به، لمن أراد معرفة الحقائق الدينية المتضمنة في نصوص الكتاب والسنة. وسنرى: أن من الأدلة على صحة هذا المنهج أنه يقوم شاهداً عندنا على صدق الحقائق التي انتهى إليها كبار أئمة أهل السنة والجماعة منذ عهد الصحابة فيما بعدهم رضي الله عنه.

كما سنرى أنه ما من طائفة وصمها أولئك الأئمة بالضلال والانحراف، إلا كان في منهجها خروج عن هذه القواعد المنهجية، التي سنقيم الأدلة على أنها هي التي يمكن أن تؤدي إلى الوصول إلى الحقائق المعبر عنها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد كان السبب الغالب لخروج من خرج عن هذه القواعد – ولا يزال – هو اعتقادهم في أصول باطلة، لزم عنها إنكار حقائق دينية تدل عليها نصوص الكتاب والسنة، فاضطروا إلى الحياد عن المنهج الصحيح حتى يجعلوا النصوص موافقة لتلك المعتقدات. وهكذا فإن الباطل الذي اعتقدوه قادهم إلى باطل آخر في المنهج الذي انهجوه.

اللغة:

إذا كان المصدر الأساس للعلوم الطبيعية موجودات محسوسة، فإن المصدر الأساس للعلوم الشرعية النقلية نصوص مقروءة. ومن البديهي أن أول شرط لمعرفة ما يتضمنه النص المقروء – أي نص كان – هو معرفة اللغة التي كتب بها. وأول حقيقة يبديها الناظر في القرآن الكريم – إذا كان على علم بشيء من العربية – أنه مصوغ بلسان عربي فإذا ما بدأ يقرأ فيه وجد في الكتاب نفسه آيات تؤكد على هذه الحقيقة. من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

لكن اللغات يحدث فيها على مر الزمان تغيير قد يكون كبيراً وقد يكون قليلاً. فالبون شاسع بين اللغة اليونانية التي كتبت بها نصوص فلاسفة اليونان المشهورين، وبين اللغة التي يتحدثها اليونانيون اليوم، بل إن هنالك اختلافاً غير قليل بين اللغة الإنجليزية التي كتب بها شكسبير شعره في القرن السادس عشر الميلادي وبين اللغة التي يتحدثها الإنجليز في القرن العشرين. لا يكفي إذن لمن يريد معرفة المعنى الحقيقي لنص ما أن يعلم نوع اللغة التي كتب بها، بل لابد أن يكون على علم بهذه اللغة كما كانت تفهم في الزمان والمكان الذي كتب فيه النص. وإلا فهو قمين أن يفهمه على غير مراد من تكلم به، إذا أعطى بعض كلماته أو بعض تعبيراته معاني طرأت عليها بعد العصر الذي كتبت فيه.

إن الالتزام بهذه القاعدة المنهجية يستدعي:

(أ) إعطاء المفردات الواردة في القرآن والسنة المعاني التي كانت تعرفها العرب منها في زمن الرسالة. هذا كما قلنا هو تطبيق للقاعدة البديهية التي يلتزم بها كل من يريد فهم نص من النصوص، أياً كانت لغته، وأياً كان قائله. لكن أصحاب المعتقدات الباطلة وجدوها قيداً مانعاً لهم عن تحريف كلام الله وكلام رسوله، فاطّرحوها جانباً حتى يفتروا على الله ما شاءوا فمن أمثلة ذلك:

أن الذين جعلوا دينهم بغض أصحاب رسول الله ﷺ، وأقرب الناس إليه، قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، أي عائشة. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ٩٤] أي أبابكر وعمر.

والذين اعتقدوا في وحدة الوجود، فلم يفرقوا بين خالق ومخلوق، قالوا: «صح قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]»[1]. وقرؤوا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، فقالوا في تفسيره: قالوا هذا عارض ممطرنا "أحسنوا الظن بالله. ريح هي الراحة عذاب أليم هو

(١) ابن عربي، الفصوص.

عين النعيم. تدمر كل شيء من الذنوب. إلا مساكنهم: قلوبهم. (المرجع السابق)، والفلاسفة ترجموا كلمة فيلوسوفوس اليونانية بعبارة – حب الحكمة ثم استدلوا بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، على أن القرآن يمدح الفلسفة، والذين جعلوا الله تعالى شيئاً مجرداً كالعقل، فأنكروا لذلك أن يوصف بأي صفة توصف بها الموجودات، راحوا يؤولون كل صفات الله الدالة على كونه موجوداً وجوداً حقيقياً خارجاً عن الأذهان، بأن يعطوا اللفظ معنى تدل عليه اللغة أصلاً، أو معنى تدل عليه في غير السياق الذي وردت فيه الآية، أو بشروط لم تتوفر في السياق. فقالوا في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي استولى. وفي قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] «أي جرح قلبه بالحكم والمعارف تجريحاً»[1]، وفي قوله لما خلقت بيدي أي بقدرتي، وهكذا.

(ب) وما يقال عن الألفاظ المفردة يقال أيضاً عن الجمل المركبة. فهذه أيضاً ينبغي أن تفهم بالطريقة التي كانت معهودة عند العرب.

العقل:

إن العقل لا يستقل بمعرفة الحقائق الواقعية سواء كانت حقائق كونية طبيعية أو حقائق وأحكامٌ دينية. وإنما يستمد العقل مادته العلمية مما يأتيه عن طريق الحواس، ولا سيما السمع والبصر. لكن ما تأتي به الحواس إنما هو بمثابة إعادة الخام. فالعقل هو الذي يحولها إلى معان. ولذلك مثّل الله تعالى حال الذين يسمعون القرآن ولا يعقلونه بحال البهائم التي لا تسمع من الراعي معاني وإنما تسمع منه مجرد أصوات، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، فالعقل إذن شرط في فهم كلام الله وكلام رسوله، كما أنه شرط في فهم كل كلام، وفي فهم كل واقع. لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

---

(١) ابن القيم، الصواعق، ج١، ص٢١٧.

فلو أنزله للعرب بغير العربية لكان بالنسبة لهم مجرد أصوات لا معنى لها، ولو لم تكن لهم قلوب يفقهون بها لكان أيضاً بالنسبة لهم أصواتاً لا معنى لها. وبالعقل يربط الإنسان بين المعاني التي تأتي بها لغة المتكلم، ويدرك نسبة بعضها إلى بعض، ويحكم عليها بالبطلان إذا كانت متناقضة في نفسها، أو كانت مخالفة لحقائق أخرى كان قد عرفها، وبالعقل يستطيع الإنسان أن يستنبط من الحقائق التي عرفها معرفة مباشرة، حقائق أخرى تتضمنها تلك الحقائق وتلزم عنها.

والعقل يفعل كل هذا بالمبادئ التي ركزها الله فيه وجعلها بمثابة الميزان الذي يزن به ما تأتي به الحواس. فالله تعالى الذي خلق في قلوب الناس هذا الإدراك العقلي، هو الذي أنزل إليه الكتاب الهادي، فيّسر معرفته على العقول التي خلقها، وجعله موافقاً لموازينها، فليس فيه ما يحيله العقل أبداً، بل فيه كل ما يجعله العقل ويخضع لعظمته: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

لكن العقل كما أنه يدرك هذا الإدراك النظري فهو أيضاً يحكم لما عرف أنه حق بانه يجب أن يقر به ولما علم أنه باطل بأنه يجب أن ينكر. لكن القوى العقلية تنازعها هنا الأهواء والشهوات والإنسان مخير بين أن يستجيب لحكم عقله أو يخضع لأهوائه وشهوته، فإذا ما خضع لها، كان غير عاقل لا بمعنى أن الله تعالى لم يخلق في قلبه القدرة العقلية ولكن بمعنى أنه لم يستجيب لحكم العقل، بل قدّم عليه الأهواء والشهوات.

لذلك نجد القرآن يصف الكفار تارة بأنهم عقلوا ما قيل لهم، مع وصفه لهم دائماً بأنهم لا يعقلون. ولا تناقض بين الأمرين. فهم قد عقلوا العقل النظري، لكنهم خالفوا ما حكم العقل بأنه حق فبهذا وصفوا بأنهم لا يعقلون، لأن العاقل لا يخالف حكم العقل. قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال عن أمثال هؤلاء: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨]، ولولا أن الذين ذمهم الله تعالى في الآية الثانية بأنهم لا يعلمون كانوا قد عقلوا ما سمعوا بالمعنى الذي قررته الآية الأولى لما كان لذمهم وجه، لأن الإنسان إنما يذم على منكر فعله عن قصد وهو يعلم أنه منكر.

نخلص من هذا إلى أن معارضة الشرع بالعقل سواء قال بها المدافعون عن الشرع او قال بها المدافعون عن العقل، هي خلط لا مسوغ له، لأن العقل جزء من الشرع فلا يصح أن يجعل أحدهما في مقابل الآخر. وما أحسن ما قال الإمام ابن القيم: "إن العقلاء هم الذين يرون الحق حقاً فيصدقون به ويتبعونه، ويرون الباطل باطلاً فينكرونه. والمؤمنون يزدادون بالإيمان قوة في عقولهم النظرية والعملية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر:١٨].

وأنظر كيف جعل الله عقاب الذين لا يؤمنون مماثلاً لعقاب الذين لا يعقلون فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠].

فالعقل إذن طريق إلى معرفة الشرع، لا بمعنى أنه يستقل بمعرفة كل ما جاء به الشرع، بل بمعنى أنه يعقل ما جاء به الشرع، ويعتبر بعضه ببعض، ويستنبط منه، ويحكم به على الوقائع ويشهد لصحة بعض ما جاء به خصوصاً في مسائل أصول الدين، كوجود الخالق سبحانه، وقدرته، ووحدانيته، وعظمته، وعلوه على خلقه، وعلى أن القرآن كلامه، وأن البعث لابد منه، وهكذا.

والعقل مهم أيضاً للدفاع عن الدين والرد على المنكرين والمنحرفين، لكل هذا ينبغي لقارئ القرآن والسنة أن لا يكتفي بمجرد التلاوة لهما، بل يحرص على فهم ما يقرأ ويتدبره، ويعتبر بعضه ببعض، ويعتبره بما يشاهد في الواقع، ويجعله حكماً على غيره مما يقرأ أو يسمع. وهو إذ يفعل هذا يكون ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩].

القرآن:

ترى الذين يؤلفون الكتب في عرض آراء المفكرين وشرحها يحرصون على جمع ما استطاعوا من مؤلفاتهم وأقوالهم حتى يستطيعوا أن يخرجوا منها بتصور متكامل لما كان يعتقده المفكر. وتراهم يستعينون على بيان ما قاله في موضع بما قاله في موضع

آخر ومناسبة أخرى. وهذا منهج سديد. إذا كان هذا هو مقتضى العدل والإنصاف في كلام بشر يخطئون ويتناقضون، فالأولى أن يكون هو المنهج الذي يتبع في كتاب: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، كتاب قال عنه منزله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، كتاب متسق المعاني، محكم التركيب، لا يشذ معنى فيه عن بقية المعاني، بل يشبه كل معنى فيه سائر معانيه ويمت إليها بسبب. ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

لهذا كان من شرط التفسير الكاشف عن مضمون آيات القرآن الكريم، أن لا يعطي آية منها معنى يتناقض مع آية أو آيات أخرى، وأن لا يؤخذ المنسوخ ويترك الناسخ. بل كان من شرطه أن يفسر القرآن بالقرآن، فإن من طريقة هذا الكتاب العزيز أن يجعل في مكان ما قد يفسره في موضع آخر، وأن يختصر في مكان ما قد يبسطه في موضع آخر. خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

من هم الذين أنعم الله عليهم؟ إن المعنى اللغوي العام لمن أنعم الله عليهم مفهوم. لكن سياق الآية يحدد أن المقصود بالإنعام هنا الإنعام الروحي لا المادي. بدليل مقابلة من أنعم الله عليهم بالمغضوب عليهم وبالضالين، هذا المعنى العام الذي فهمناه من اللغة ومن السياق، تفصله لنا آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]، ففي آية النساء بيان للشرط الذي يجعل الإنسان في زمرة من أنعم الله عليهم؟ إنه طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ. وفي الآية الثانية بيان

لبعض الصفات السابقة التي امتاز بها السابقون ممن أنعم الله عليهم. وفي الآيتين تفصيل لأنواع الناس الذين يشملهم وصف من أنعم الله عليهم، ليس هذا فحسب، بل إن المعتبر لآيات القرآن بعضها ببعض يستطيع أن يدرك الروابط بينها، فيدرك أن المعنى الذي قررته هذ الآية يلزم عنه لزوماً عقلياً المعنى الذي قررته تلك الآية، وأن القاعدة العامة التي قررتها آية كذا، يدخل تحتها الحقائق والأحكام التفصيلية التي قررتها آيات كذا وكذا، وكل هذا يعطي الدارس دربه على أن يدرج تحت هذه القاعدة العامة حقائق وأحكاماً أخرى لم ترد بنصها في الكتاب العزيز، أو في السيرة النبوية.

فالقرآن إذن أنه هو المصدر الأساس للحقائق الدينية، فهو أيضاً – بما أن بعضه يفسر بعضاً ويبينه – الوسيلة المعنية على اكتشاف حقائق ذلك المصدر.

السنة:

والسنة المطهرة هي الأخرى مصدر ووسيلة إنها وسيلة للكشف عن حقائق القرآن الكريم، وبما أن بعضها يفسر بعضاً فهي أيضاً وسيلة لكشف المعاني التي تضمنها هذا المصدر السني. إن بيان السنة للقرآن هو في الحقيقة من بيان القرآن؛ لأن القرآن هو الذي أحالنا على السنة النبوية فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وهو الذي جعل التسليم لحكم الرسول ﷺ شرطاً لا يكون بغيره إيمانا. فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، إلى غير ذلك من عشرات الآيات الآمرة بالاستمساك بسنة الرسول ﷺ، والمخرجة لمن أنكرها عن زمرة المؤمنين، وقد امتثل الرسول ﷺ لأمر ربه فبين كتابه أوضح بيان، وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، لذلك قال العلماء إن منزلة السنة من القرآن أنها مبينة وشارحة له تفصل مجملة وتوضح مشكلة وتقيد مطلقة، وتخصص عامة، وتبسط ما فيه من إيجاز[1].

---

(١) أبو شهبة، دفاع، ١٠.

من أمثلة هذا البيان النبوي:

(أ) بيانه للمقصود الشرعي الذي لا يدل عليه مجرد المعنى اللغوي لبعض الألفاظ، من ذلك بيانه أن المقصود بالظلم هو الشرك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، وتفسيره للحساب اليسير – بالعرض – في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٧-٩].

وتفسيره للبر والإثم بقوله: البر حسن الخلق. والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس. رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وتفسيره للخمر تفسيراً عاماً – لا يجعلها محصورة فيما يصنع من شيء معين بقوله: **(كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام)**[1]، وتفسيره للسبيل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥]، بقوله: **(خذوا عني. خذوا عني. خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلا. البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)**[2].

(ب) وكشفه عن معاني شرعية لبعض الآيات لا تتبادر إلى ذهن القارئ وإن كان عربياً قحاً. من أمثلة ذلك أن أم المؤمنين عائشة لما قرأت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، قالت: يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: **(لا يا ابنة الصديق. ولكنهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم)**[3]، التفسير وعزاه على الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول.

---

(١) مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مسلم.

(٣) تفسير ابن كثير.

(جـ) ومن بيانه لما أجمل القرآن بيانه لتفاصيل الصلاة، وأوقاتها، وعدد ركعاتها، وكيفياتها، وما هو فرض منها، وما هو نفل، وهكذا. كذلك بيانه لتفاصيل الصيام والزكاة والحج. وقد بين ﷺ كل ذلك بالوصف القولي المفصّل أحياناً كما في وصفه الصلاة للأعرابي الذي أساء أداءها ولفعله أحياناً. فقد كان الناس يشهدون كيف يصلي وكيف يحج، وكيف يقرأ، فيفعلون كما يفعل ثم يصفون ما رأوا، لأنه ﷺ كان يقول: (**صلوا كما رأيتموني أصلي**)[١]. ويقول: (**خذوا عني مناسككم**)[٢]، بل حتى في مسائل الإيمان وأحوال الآخرة جاء صلى الله عليه وسلم بتفاصيل تعين المؤمن على فهم ما ورد من ذلك في القرآن الكريم، وتصوره تصوراً صحيحاً، ويدخل في تفسير السنة للقرآن وكشف حقائقه معرفة سيرة الرسول ﷺ وخلقه وشمائله، لأنه ﷺ كان المثل الأعلى للمؤمن الملتزم بما في كتاب الله تعالى. فقد كان خلقه القرآن كما قالت عنه زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولا شك أن رؤية المثل العملي الواقعي أمر ضروري لمعرفة ما ورد في القرآن الكريم من وصف لأحوال المؤمنين الباطلة والظاهرة وبيان لما ينبغي لهم فعله ويجدر تركه من الأقوال والأفعال.

كما أن القرآن يفسر القرآن فكذلك تفسر السنة. ففي الحديث الذي ذكرناه آنفاً قال ﷺ كل مسكر حرام، ثم زاد هذا بياناً في حديث آخر. فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**ما أسكر كثيره فقليله حرام**)[٣]. ثم بيّن ﷺ أنه إذا كان الخمر ينبذ فما كل ما ينبذ حرام. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ ينبذ له الزبيب في السقاء، فيشركه يومه، والغد وبعد الغد وإذا كان مساء الثالثة شربه وسقاه فإن فضل شيء أهراقه)[٤]. (مسلم)

الإجماع:

يعد علماء الأصول الإجماع والقياس من مصادر التشريع الإسلامي. لكنهم يقررون أنهما مصدران ثانويان؛ لأنهما يعتمدان على المصدرين الأساسين: الكتاب والسنة. فلا

---

(١) البخاري.

(٢) مسلم.

(٣) بلوغ المرام. وقال المصنف رحمه الله: «أخرجه الأربعة وصححه ابن حبان».

(٤) مسلم.

بأس إذن من أن نعدهما وسيلتين للوصول إلى ما في ذينك المصدرين من حقائق وأحكام.

الحقائق والأحكام التي يجمع عليها نوعان:

(أ) حقائق وأحكام منصوص عليها في الكتاب أو السنة (أو فيهما جمعياً. الإجماع على أركان الإيمان، وأركان الإسلام وكثير غيرها من تفاصيل الأحكام، وكالإجماع على معاني كثير من آيات القرآن الكريم.

يستغرب بعض الناس من جدوى الاستدلال بالإجماع على أمر ورد في الكتاب والسنة، وينسون أن الإجماع يزيد الأمر المجمع عليه قوة ويعطيه حكماً لا يعطى لما لم يجمع عليه وإن كان وارداً في الكتاب والسنة. والذي ينكر أمراً دل عليه حديث صحيح قد يعذر بالجهل. لكن الذي ينكر أمراً أجمع عليه المسلمون كالصلاة أو الصيام أو الرجم أو إباحة الزواج بأكثر من امرأة، لا عذر له بل هو كافر خارج من الملة.

(ب) حقائق وأحكام لا نجد بنصها في ذينك المصدرين. لكن الإجماع عليها يدل على أنها حق، وأن عليها دليلاً منهما، وإن لم نهتد إليه، لأن العلماء ولا سيما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتصور أن يجمعوا على أن أمراً ما مباح في دين الله أو حلال أو حرام أم بمجدر آرائهم بل لا بد أن يكون لما أجمعوا عليه أصلاً في الدين.

الصحابة:

أقوال الصحابة نوعان:

(أ) أقوال أجمعوا عليها فهي داخلة في باب الإجماع الذي ذكرناه آنفاً، بل إن الإجماع المعتبر بالمعنى الثاني هو إجماعهم لا غير؛ لأنه بعد ازدياد عدد المسلمين وتفرق علمائهم في البلد لم يعد من الممكن التحقق مما هو موضع إجماع بينهم.

(ب) وأقوال اختلفوا فيها، فيختار العالم منها ما يراه أقوى دليلاً، ولا يستحدث رأياً جديداً.

لماذا هذه المكانة الخاصة لأقوال أصحاب رسول الله ﷺ؟ لم يعطهم العلماء هذا الوضع، لأنهم يعتقدون في عصمتهم فالمعصوم هو الرسول ﷺ وحده، ولم يعطوهم

هذه المكانة لمجرد أمر عاطفي، وإنما أعطوهم إياها، وأجمع الأئمة الأربعة على إعطاؤهم إياها لأسباب علمية موضوعية. فأصحاب رسول الله ﷺ هم أعلم الناس باللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول ﷺ. فقد كانت هذه اللغة لغتهم التي يتحدثونها في حياتهم اليومية. وهم أعلم الناس بالمناسبات التي نزلت فيها الآيات القرآنية وقيلت فيها الأحاديث وحدثت فيها الأفعال النبوية. وهم أفقه الناس بدين الله بشهادة رسول الله ﷺ. فقد قال عنهم: **(خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)**[1].

وقد سمعت البعض لا يقدر هؤلاء الأصحاب حق قدرهم، يقول للناس إن هذ الخيرية إنما هي خيرية صحبتهم للرسول وليس فيها ما يدل على علمهم، أو كلاماً قريباً من هذا، لكن هذا القائل نسي أن الرسول ﷺ ربط بين الخيرية والعلم في حديث آخر، إذ قال ﷺ: **(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)**[2]. ومن الأدلة على سعة علمهم وحسن فقههم وجودة عقولهم ما روى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل). هذا وقد قال الله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ**﴾ [العنكبوت:٤٣].

وذلك لأن رؤية الرسول ﷺ ليست مجرد رؤية حسية، وإلا لاستوى فيها المؤمن والكافر. ولكنها رؤية معها إيمان، ورؤية الرسول ﷺ مع الإيمان به تثمر اهتماماً بأمره، وسيرته وأحواله. وكل هذا يثمر حباً له قلّ أن يتأتى لمن يره. هذا لأن الذي يراه معها ما يشع منها من دلائل صدقه، وتقواه، وقربه من الله تعالى، فيزداد إيماناً وله حباً. ألم يقل عبدالله بن سلام إنه لما رأى النبي ﷺ عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب؟ ومن كان هذا حاله من رسول الله ﷺ، فحري به أن يصغي لكلامه، ويحرص على مراقبة أحواله وينفعل بهذا كله. فأين يكون العلم بدين الله إن لم يكن مع هؤلاء.

---

(١) البخاري.

(٢) البخاري ومسلم.

القياس:

القياس أيضاً مما يعده الأصوليون من مصادر التشريع لكنهم يؤكدون أنه مصدر تابع لأن القياس لا يكون إلا على أصل ورد في الكتاب أو السنة أو الإجماع يجد العالم في هذه المصادر أمراً أعطاه الله تعالى حكماً معيناً، كالتحريم مثلاً ثم يجد شيئاً مشابهاً له في العلة التي من أجلها كان ذلك الحكم، فيستنتج من هذا أن حكم الفرع الذي لم يذكره بعينه في الشرع لابد أن يكون كحكم ذلك الأصل المذكور في الشرع، فيفتي بأنه حرام.

والقياس بهذا المعنى مبني على قاعدة: أن حكم الشيء حكم مثله وهي من القواعد والموازين العقلية التي فطر الله عليها عباده، ولذلك يمارسه حتى الأطفال منهم. فإذا اكتشف تلميذ أن إجابته عن سؤال كانت مثل إجابة زميل له اعطي درجة أكبر من درجته، ذهب إلى أستاذة مستفسراً وشاكياً، ولا حجة له يعتمد عليها في احتجاجه وشكواه إلا ما فطره الله عليه من أن الأمرين المتماثلين لا يعطيان حكمين مختلفين هذه القاعدة العقلية الفطرية هي من الدعائم التي يقوم عليها كل علم من العلوم بما في ذلك العلوم الطبيعية. فمما يفترضه علماء الطبيعة في علومهم قاعدة تسمى: اتساق الطبيعة؛ أي – أنه إذا وجد لشيء طبيعي صفة ما فإن كل الأشياء المماثلة له يجب أن تكون لها نفس الصفة، إذا تشابهت الظروف. مثلاً: إذا اكتشفنا أن سائلاً ما في بلد ما ووقت ما يغلي في درجة ما قلنا إن كل سائل مثله يجب أن يغلي في تلك الدرجة، بغض النظر عن زمانه ومكانه فإذا وجدنا سائلاً يماثله لكنه يغلي في درجة أقل أو أكثر من درجته: جزمنا بأن هناك اختلافاً في ظرفيهما. كأن يكون أحدهما في درجة ضغط أقل أو أكثر من الآخر.

وما القياس الشرعي إلا تطبيق لهذه القاعدة في مجال الوحي، الذي هو مصدر العلوم الدينية، كما طبقها عالم الطبيعة في مجال الكون الذي هو مصدر العلوم الطبيعية.

وإن المرء ليعجب لذلك من قول بعضهم: بأن علماء أصول الفقه تأثروا بالمنطق اليوناني، ليصل من ذلك إلى نتيجة مدمرة للدين، فحواها أنه وإن كان القرآن والسنة لا يتجددان: إلا أن أصول فهمهما تتجدد، وأنه إذا كان علماء أصول الفقه التقليدي قد

بنوا فهمهم على المنطق اليوناني، لأنه هو المنطق الذي كان سائداً آنذاك فعلينا نحن أن نأخذ بالمنطق الجديد الذي سائد في عصرنا.

وإن المرء ليعجب مرة أخرى: أين هو هذا المنطق الجديد الذي يقوم على قواعد للفهم مختلفة عن المنطق القديم، والذي نحن مدعوون للأخذ به، لنجدد من فهمنا لكتاب ربنا. إن ما صح من علم المنطق الذي وضعه أرسطو قائم على قواعد فكرية لم يخترعها أرسطو وإنما هي من الموازين العقلية التي فطر الله فيها عبادة قبل أن يخلق اليونان وفطرهم عليها بعد أن ذهب اليونان، فأرسطو لم يأت بقواعد للفهم أو التفكير جديدة، وإنما وصفها واستحدث أسماء لها وجمع ما استطاع جمعه من أنواع الحجج القائمة عليها، لذلك تجد علماءنا يمثلون ما فعله الشافعي بالنسبة لأصول الفقه بما فعله أرسطو بالنسبة للمنطق، أو ما فعله سيبويه بالنسبة لنحو اللغة العربية. فلا أحداً من هؤلاء أتى بعلم لم يكن يعرفه الناس، وإنما كان فضلهم في جمعه وتصنفيه وتيسير تعلمه. ومؤرخو علم المنطق من الغربيين قد لا يرون هذا التمثيل مناسباً لأنهم يقولون أن أرسطو كان مسبوقاً في وضع هذا العلم بمؤلفين من اليونان، بل ومن الصين والهند. وقد كان الفيلسوف البريطاني "روجر بيكون" يسخر ممن يظن أن القواعد المنطقية هي من اختراع أرسطو، فيقول: نعم إن كثيراً من علمائنا الذين كتبوا في أصول الفقه درسوا المنطق اليوناني، لكن تأثرهم به لم يعد التأثر بالمصطلحات التقسيمات خصوصاً فيما يتعلق بالمسائل اللغوية أما جوهر القياس فلم يكن للمنطق فيه من تأثير. وهذا الغزالي ولعله أكثر من درس المنطق، وأكثر من تأثر بالفلسفة من علماء الشريعة. ينتقد حتى تعريف الفلاسفة للقياس في أول كتابه المستصفى.

عصرنا أيضاً لم يأت بقواعد منطقية جديدة لم يكن يعرفها الناس في العصور الخالية كما قد يتبادر إلى ذهن من يسمع عبارة المنطق الحديث، وإنما توسع في تلك القواعد الفطرية فأضاف إليها ما كان أرسطو قد أهمله كما توسع في أنواع الحجج المبنية عليها ووضع لها رمزاً حتى صار المنطق علماً صورياً قائماً بذاته، كعلم الرياضيات.

وبعد كيف يخطر ببال إنسان يقدر الله تعالى قدره أن يعتقد أنه يمكن أن ينزل كتاباً ويرسل رسولاً إلى الناس كافة، ثم يجعل فهم ما في كتابه وما يقوله رسوله معتمداً على علم يأتي به اليونان، أو يأتي به الأوربيون بعد مدة من الزمان؟

كيف يخطر ببال من يقدر الله تعالى حق قدره أن يعتقد أنه يمكن أن يرسل رسالة هي خاتمة الرسالات، ثم لا يجعل لها مضموناً واحداً، بل يجعل معانيها خاضعة لتقلبات الزمان والمكان ولا يخترعه الناس من علوم ولما يسنح لهم من أفكار؟

إن الله تعالى ما كان ليجعل من شرط لفهم رسالته الموجهة للعالمين أجمعين إلا المقدرة العقلية المشتركة بينهم، وإلا معرفة اللغة التي اختارها سبحانه لتكون وعاء لحمل تلك الرسالة، والقياس واحد من أهم هذه القدرات العقلية التي ركزها الله تعالى في الفطر البشرية. فهو وسيلة للوصول إلى الحقائق، كما أنه وسيلة للوصول إلى الأحكام وهو من أكثر الموازين العقلية التي يلجأ إليها الناس في حياتهم اليومية، وفي فنونهم العلمية. قال ابن تيمية في كتاب المسودة في أصول الفقه راداً من حصر القياس في الأحكام لا في إثبات الحقائق هذا كلام لا طائل تحته. بل القياس – قياس التأصيل والتعليل والتمثيل يجري في كل شيء وعمدة الطب ومبناه على القياس وإنما هو لإثبات صفات الأجسام. وكذلك عامة أمور الناس في عرفهم مبناها على القياس في الأعيان والصفات والأفعال. ومتى ثبت أن الأمر الفلاني معلل بكذا، ثبت وجوده حيث وجدت العلة، سواء كان عيناً، أو صفةً، أو حكماً، أو فعلاً. وكذلك إذا ثبت أن لا فارق بين هذين إلا كذا، ولا تأثير له في الأمر الفلاني.

الكون:

إن الحقائق الدينية لا توجد مقررة إلا في المصدرين الوحيدين. لكن في الكون دلائل على صد تلك الحقائق:

(أ) ففي الكون الخارجي كما في داخل العقل البشري ودلائل على أن للكون خالقاً موصوفاً بصفات الكمال. كما فيه دلائل على أن البعث أمر ممكن بل أنه أمر لا محالة كائن: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ

كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد٢-٣].

(ب) رتب الله سبحانه وتعالى كثيراً من الأحكام الشرعية على مظاهر طبيعية، وحقائق واقعية. فلا يمكن أن تمتثل تلك الأحكام إلا بمعرفة هذه المظاهر والحقائق. إن الشرع يحدد لنا أوقات الصلاة والصوم والحج لكننا لا نستطيع معرفة تلك الأوقات إلا بالنظر في الكون. فبالشرع نعرف وصف الأوقات، وبالكون نعرف حقيقتها المطابقة لتلك الأوصاف.

(جـ) وفي الكون أيضاً نجد تصديق ما يخبرنا الله تعالى به من وقائع المستقبل، فنزداد إيماناً بالله تعالى وثقة به سبحانه، كما نزداد معرفة بما أخبرنا به حين نراه قائماً أمامنا نشهده بحواسنا! فإنه ليس من رأى كمن سمع: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]. ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، وإذن، فكما أنه من الخطأ والجهل أن يقابل الإنسان بين الوحي والعقل، فكذلك من الخطأ والجهل أن يقابل بين ما هو مقرر في الوحي وما هو ماثل في الكون.

فيقول مثلاً: أنا أؤمن بما قال الله تعالى، وإن كان مخالفاً لما أثبته الحس. أو أنا أقدم ما أثبته العلم التجريبي على ما قررته النصوص الصحيحة. كل هذا خطأ وجهل، لأنه يقوم على افتراض باطل هو، إمكانية التعارض بين كلام الله والواقع الذي خلقه الله، مع أن التعارض بينهما يستحيل أن يكون تعارضاً حقيقياً في أي أمر من الأمور، طباً كان، أو زراعة أو فلكاً، أو غير ذلك، مما هو داخل في مجال العلوم الطبيعية

التجريبية، إذ ما كان الله تعالى ليجعل الخلق على هيئة ثم بصفة تخالف تلك الهيئة. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً كبيراً عظيماً في الرد على الذين ادعوا إمكانية معارضة العقل للنقل، وقرر فيه.: أن صحيح العقول موافق لصريح المعقول. ووضع في أوله قانوناً مقابلاً للقانون الذي وضعه علماء الكلام الذين قالوا بتقديم العقل على الشرع. والقانون الذي قرره هو القانون الصحيح، وما قاله عن العقل يدخل فيه ما يشهد به الحس. قال رحمه الله: إذا تعارض دليلان - سواء كانا سمعيين أو عقليين، أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً - فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين، أو يكونا ظنيين؟ وإما أن يكونا أحدهما قطعياً والآخر ظنيا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما، سواء كانا عقلين أو سمعيين، أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً. وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان، وأحدهما يناقض مدلول الآخر، للزم الجمع بين النقيضين، وهو محال، بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية، فلابد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين. فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين. وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر، فإنه يجب تقديمه، لاتفاق العقلاء سواء كان هو السمعي أو العقلي، فإن الظن لا يرفع اليقين، وأما إن كانا جميعاً ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم، سواء كان سمعياً أو عقلياً[1].

الاستعداد الروحي:

إن اكتساب العلم - أياً كان نوع العلم - لابد من نظر عقلي ومن استعداد نفسي. وكل ما ذكرناه - حتى الآن - داخل فيما يساعد طالب العلم على صحة النظر الفكري والتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أما الاستعداد النفسي والروحي فإنه إن كان لازماً لكل العلوم، وألزم ما يكون في العلوم المراد اكتسابها من الوحي الإلهي. فلابد لطالب هذا العلم إذن من الإقبال عليه بحالة نفسية تناسب مع جلال قدره.

(١) الدرء، ج١، ص٧٩.

لكن هذه الحال إن كانت مختلفة عن الحال التي يقبل بها طالب العلم الطبيعي على الكون، فإن هناك تشابهاً عجيباً بينهما. إن طالب العلوم الطبيعي يقبل على الطبيعة معتقداً أن الحق ما تدله هي عليه، لا ما يتخيله هو، أو يتصوره قبل استنطاقها. وكذلك طالب العلم الشرعي يقبل على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في تواضع وخشوع ليتعلم منهما، معتقداً أنه لا مصدر لهذا العلم إلا فيهما. وطالب العلم الطبيعي لا يخطر بباله أبداً أن هناك أمراً عقلياً مخالفاً لما يجده في الطبيعة، ولا ينشأن عنده أبداً سؤال عن تقديم العقل على الطبيعة، أو تقديم الطبيعة على العقل، لأنه يعلم أن عقله لا يستقل بمعرفة حقيقة من حقائق الطبيعة، لا تأتيه منها عن طريق الحس، ويعلم أنه ما كان ليفهم ما يأتيه منها من مادة ويحولها إلى علم، إلا بوساطة العقل. كذلك الحال بالنسبة لطالب العلم الشرعي، إنه يعلم أنه لو كان ما جاء به الرسول ﷺ مما يمكن أن تعمله العقول استقلالاً، لما كان لإرسال الرسل من داع. ولترك الله سبحانه وتعالى هذا العلم للناس يكتسبونه بحواسهم وعقولهم، كما يكتسبون العلم بأمور الحياة الدنيوية. لكن الله تعالى يقول – حتى لرسوله صلى الله عليه وسلم وقد كان أذكى الناس عقلاً، وأشدهم بحثاً عن الهدى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وكما أن عالم الطبيعة يجد فيها ما يحير العقل ولا يجد فيها ما ينكره، فكذلك كان علماؤنا يقولون عن الشريعة: تأتي لمحارات العقول ولا تأتي بمحالات العقول. وعالم الطبيعة يقبل على دراستها موقناً بأنه لا تناقض في حقائقها. فإذا أداه بحثه إلى شيء من التناقض أيقن أن الخطأ منه لا من الطبيعة، وذهب يراجع ما توصل إليه، راجياً أن يكتشف موضع خطئه. وهذا الفصل بين إمكانية خطئه واستحالة وجود تناقض في الطبيعة نفسها، يجعل مشكلته دائماً مشكلة فكرية نظرية، لا مشكلة نفسية كما كانت ستكون لو أنه بدأ يشك في أن الطبيعة نفسها متناقضة، وأنه لا أمل لذلك من سلك حقائقها عليهما وهو موقن بأن القرآن تنزيل من حكيم حميد، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن من دلائل إعجازه أنه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ

ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، وموقن كذلك بأن الرسول ﷺ معصوم لا ينطق عن الهوى، وأنه ما خرج من فيه ﷺ إلا الحق الذي لا ريب فيه.

لذلك يعتقد أن كل ما قد يبدو له من تناقض بين آية وآية، أو بين حديث وحديث، أو بين آية وحديث، إنما تناقض ظاهري راجع إلى نقص في علمه هو لا إلى تناقض حقيقي في ذينك المصدرين. ولذلك فإنه لا يسبب له حرجاً ولا يدخل في قلبه شكاً، بل يبحث المسألة بحثاً علمياً مجرداً، سائلاً الله تعالى أن يهديه إلى سواء السبيل. لكن يبقى هنالك فارق كبير بين العلم الذي يكتسبه الإنسان من مصدر دنيوي، والعلم الذي يكتسب من مصدر إلهي. إن الله تعالى يعطي العلم بالدنيا – كما يعطي الدنيا نفسها – للبر والفاجر أعني أنه يعطيه منها علماً حقيقياً، يفيد منه ويستفيد في هذه الحياة. أما علم الدين الحقيقي. أعني العلم الذي هو ميراث النبوة. العلم الذي يداخل القلوب ويصلحها ويصلح العمل والسلوك، ويكون حاملة سراجاً هادياً للناس فإنه لا يحل إلا قلباً قد تهيأ بنور الإيمان ليتقبل نور القرآن، نوراً على نور. وكلما ازداد الفرد إيماناً، وازداد قلبه صفاء، وزاده الله تعالى بدارسة القرآن والسنة انتفاعاً، وفتح له من أسرار علميهما الحقيقي ما لا ينال بمجرد الدراسة والنظر. إن تقوى الله تعالى تحبب لمن وهبه الله إياها حب كلامه وكلام رسوله، وتجعله شغوفاً بهما، وتمنحه من القوة والصبر على دراستهما ما لا ينال بمجرد الاجتهاد الذي لا تصاحبه تقوى. بل إن تقوى الله تعالى لتقوي من حدة النظر العقلي نفسه، وتعينه على الوصول إلى مراقي منه لا يوصل إليها بمجرد الذكاء الفطري الذي لا يعينه توفيق إليهي. إنك إذا تأملت في حال من تستطيع تأمل حالة من علمائنا الكبار. أئمة أهل السنة والجماعة، من لدن عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا لم يخالجك شك في أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون آفاق علمية سامقة بمجرد النظر والاجتهاد – مع ما كان لهم منهما من النصيب الأوفى – وإنما وصلنا إلى تلك الدرجات العلى من العلم بدين الله بما وقر في قلوبهم من إيمان بالله ورسوله، وحب خالص لهما، وتوقير لهما لا يدانيه توقير. اللهم ارزقنا من الإيمان بك وبكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت ما نزداد به على مر الأيام علماً نافعاً وهدىً وتوفيقاً.

* * *

علاقة العقل بالشرع

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

والقضية هي علاقة العقل بالشرع هذه آية واحدة من آيات كثيرة في هذا الموضوع ما العلاقة بين العقل والشرع، قلنا إن هذا الدين هو دين الفطر ومن أهم ما فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليه هو العقل، فإذا كان الدين دين فطرة فلا بد أن يكون موافقا للعقل الذي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليه العقل مهم جداً للبشر فبالعقل يفهم الناس معنى الكلام حتى كلام الله سبحانه وتعالى.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

هذا الكلام عن الكفار فربنا سبحانه وتعالى شهد بأنهم عقلوه يعني فهموه لأنه إذا لم يفهمه لا يحاسب ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يرسل رسولاً إلا بلسان قومه فإذا أرسله بلسان قومه عقلوا ما يقوله يعني فهموه وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

الكلام هنا موجه إلى العرب فهو أنزله قرآناً عربياً ليعقله هؤلاء العرب المخاطبون وغير العرب من الذين جاءوا بعدهم يعقلون الترجمة التي ترجم إليها كتاب الله سبحانه وتعالى لا يستطيعون أن يعقلوه في لغته الأصلية وبالعقل يميز الإنسان بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق العبادة.

قلنا أولاً بالعقل يفهم.

وثانياً وهذا الأهم بالعقل يميز بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق العبادة.

سيدنا إبراهيم في مجادلته لقومه وسيدنا إبراهيم كان كثيراً ما يستعمل هذه الحجج العقلية قال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، يعني لو كنتم عقلاء لو كنتم تستعملون عقولكم ما عبدتم شيئاً لا ينفعكم ولا يضركم فهذا دليل على أنه بالعقل يعرف الإنسان من الذي يستحق العبادة ومن الذي لا يستحق أن يعبد، وبالعقل يحكم الإنسان على الأشياء والتصرفات أهي حسنة أم قبيحة أم مناسبة أم غير مناسبة.

وكذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ليس هناك إنسان عاقل يفعل هذا إنسان يستعمل عقله يأمر الناس بالبر وينسى نفسه؛ لأنه إذا كان يعتقد أن هذا البر شيء حسن فأولى به أن يأمر به نفسه ولا ينسى هذه النفس.

من أكثر العلماء الذين اهتموا بقضية العلاقة بين العقل والشرع أو بين السمع والعقل شيخ الإسلام ابن تيمية كتب في هذا كتب ورسائل كثيرة، وكتب منها كتابه المشهور "درء تعارض العقل والنقل" أو "موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول".

وأنا أنقل لكم هنا كلاماً نفيساً لبعض الرسائل وأركز عليه لأن بعضه قد يحتاج إلى شرح قال: «وأما أئمة أهل السنة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم من أئمة المسلمين فهؤلاء أتوا بخلاصة المعقول والمنقول إذ كانوا عالمين بأن كل أدلة السمعية والعقلية حق»، هذا كلام يعني قليل من الناس ما يقولوه حتى من المتدينين أن كلاً من الأدلة السمعية والعقلية هي حق الأدلة السمعية معناها التي في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ والعقلية هي التي يدل عليها كما يقول صحيح العقل ليست الآراء والأمزجة وكذا وكذا لكن التي يدل عليها صحيح العقل وأنها متلازمة أن السمعية والعقلية متلازمان يعني أن السمعي يؤدي إلى العقلي والعقلي يؤدي إلى السمعي فهما متلازمان، فمن أعطى الأدلة اليقينية حقها من النظر التام علم أنها موافقة لما جاءت به الرسل ودلته على وجوب تصديق الرسل فيما أخبروا به ومن أعطى

الأدلة السمعية حقها من الفهم علم أن الله أرشد عباده في كتابه إلى الأدلة العقلية اليقينية التي بها يُعلم وجود الخالق وثبوت صفات الكمال له، وهكذا يعني أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا في القرآن الكريم أدلة عقلية على أمهات مسائل الدين منها وجود الخالق سبحانه وتعالى، وكثيراً ما يذكر هذا الشيخ في كتبه يقول إن كثيراً من الناس -مع الأسف- يظنون أن القرآن لا يخاطب إلا من كان مؤمناً به، وأنه وحي من عند الله سبحانه وتعالى ولكن الحقيقة أن القرآن في كثير من آياته يخاطب الناس العُقلاء حتى قبل أن يؤمنوا، وبهذه الأدلة العقلية يدعوهم إلى الدين.. ما زال هذا كلام ابن تيمية: «وقد أخبر الله في كتابه بما دل به على أن كلاً من العقل والسمع يوجب النجاة فقال تعالى عن أهل النار ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾، يعني السمع هنا مقصود به ما جاءت به الرسل: ﴿أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، لكن ما حصل هذا ولا ذلك ولذلك كنا من أصحاب السعير. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فدل على أن مجرد العقل يوجب النجاة وكذلك مجرد السمع ومعلوم أن هذا أيضاً أن السمع لا يفيد دون العقل الذي هو الدين الذي جاء به الرسل لا يفيد دون العقل فإن مجرد إخبار المخبر لا يدل إن لم يُعلم صدقه وإنما يعلم صدق الأنبياء بالعقل ولولا ذلك لولا استعمال الناس لعقولهم لما عرفوا الذي يدعي النبوة وهو كاذب والذي يدعي النبوة وهو صادق فهذا من أهم الأدلة على التلازم بين العقل والشرع ولذلك أختم بأن من الخاطأ جداً التسمية الشائعة عند بعض الناس يصفون الذي يزيغ في بعض مسائل الدين يسمونه بالعقلاني هؤلاء ليسوا عقلانيين وإنما هم أصحاب هوى كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]»، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

* * *

منهج التفكير الإسلامي

من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه

المنهج هو: الطريق الذي يفكر به المسلم.

مادة التفكير: شيئان: حقائق وأحكام:

١- الحقائق: ما عليه الواقع وما توجد فيه.

٢- والأحكام: ما يراد كونه أو فعله. وهي ما تسمى حديثاً تقويم الشيء. قال تعالى: " وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً " حقيقة + حكم ومنها القيم وهي:

قيم أخلاقية – قيم جمالية – وغير ذلك.

-من أين يأتي الإنسان بهذه المادة (الحقائق والأحكام) يأتي بالحقائق من الواقع فهو مصدر من مصادر الحقائق.

-مصادر المعرفة: (مصادر الحقائق أو المعرفة):

١- الكون المادي والاجتماعي.

٢- الوحي وقد يسميه بعضهم الخبر. ومصار الخبر: الوحي، البشر، الجن.

لهذا كان علماء المسلمين إذا فصَّلوا لا يجعلون الوحي قسماً بل داخل ضمن الخبر.

مع أن هناك مبادئ فطر الله الناس عليها ولا يحتاج فيها الإنسان إلى أدلة عليها، بل يعرفها بحكم ما وهبه الله من عقل مثل: الجزء أقل من الكل، فالإنسان يدرك بعقله ولو كان صغيراً.

وسائل المعرفة:

وهو الطريق الذي نحصل به تلك الحقائق:

١- الحواس.

٢- العقل.

ما هي الطرق التي نحصل بها على المعرفة؟ (الحقائق والأحكام):

لأبد لنا من تقسيم المعارف إلى أنواع لنتمكن من دراسة ومعرفة كل نوع على حدة.

١-الحقائق الطبيعية:

وتدرس الحقائق الطبيعية عن طريق الحواس والعقل من غير عكس ومنهج المسلم في الحقائق الطبيعية هو المنهج العلمي التجريبي.

٢-حقائق الوحي وأحكامه في القرآن:

منهجنا فيه هو المنهج العلمي.

وقد اختلفوا في ذلك لأنهم اختلفوا في الطريق الموصل إلى تلك الحقائق.

والإنسان عندما يفكر لابد أن يكون عنده حقائق وأحكام.

الغرض من دراسة هذه المادة:

(الغرض من دراسة منهج التفكير والفائدة العملية منه):

١- مدى ما وصل إليه الإسلام، وكذا القصور الذي حصل الآن.

٢- أننا نواجه مشاكل فكرية وعملية في عصرنا الحاضر وكثير من هذه المشاكل تحل وتعالج بطرق غير إسلامية؛ لأن الطريقة المهيمنة على العالم هي الطريقة الغربية في منهج الفكر الغربي.

ونحن متأثرون بهذا الفكر الغربي، فنريد أن نعرف ما هي خصائص منهج التفكير الإسلامي. وما الذي يميزه عن المناهج الأخرى.

وكلمة المنهج معناها المسلك والطريق، إذا أردنا أن نعرف التصور الإسلامي للتفكير لابد أن نعرف التفكير: ما معناه في اللغة وما المقصود به. ثم بعد ذلك نوضح مدى ما حصل الآن من اختلاف الاستعمال الشائع لهذا المعنى.

ما هو المنهج الذي نتبعه لكي نعرف التصور الإسلامي للتفكير؟

نعرف ذلك من مراجع اللغة وقبلها ورودها في القرآن.

أما إذا استعملنا المعاني الشائعة للفكر فقد نفسر القرآن بغير لغته وهذا من أخطر شيء.

٣-للرد على الشبهات التي يذكرها بعض اليهود والنصارى وغيره بأن المنهج الإسلامي ليس منهجاً علمياً.

٤-بيان خصائص منهج التفكير الإسلامي للتفكير.

مادة الفكر في القرآن:

قال تعالى "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد " سبأ.

قال الطبري في تفسير: مثنى: يقوم الرجل منكم مع آخر ويتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد ﷺ جنوناً قط. ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر، هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الروم: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ..فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]. فأتى بالفكر..

ما هي طبيعة التفكير:

عملية عقلية (عملي – عقلي).

مادته: في الآيات الكونية – النفس الإنسانية– الأحوال – الكون – الدنيا والآخرة.

فمادته: حقائق وهذه الحقائق نحولها إلى أشياء ذهنية ثم نفكر فيها

غايته: الغاية حقائق أخرى نتوصل إليها من الحقائق الأولى. ولولا هذا النظر لما وصلنا إلى هذه الحقائق.

والحقائق الأولى هي التي تدلنا على الحقائق الثابتة.

ما هي الحقيقة التي بدأنا بها. وما هي الغاية التي نتوصل إليها.

تذكر الآيات ".. يسألونك عن الخمر والميسر.. تتفكرون في الدنيا والآخرة كذلك نبين الآيات لعلكم تتفكرون ".

فالآيات تدعونا إلى أن نتفكر في الدنيا والآخرة حتى نصل إلى نتيجة والفكر الصحيح يؤدي إلى عاطفة سليمة وهذه العاطفة تؤدي إلى عمل صحيح والتفكر يؤدي إلى نتيجة وهي الإقلاع والابتعاد عما نهانا الله عنه وأن ما نهانا الله عنه ينبغي أن نبتعد

عنه. وما أمرنا به ينبغي أن نأتمر به ولهذا مدح الله يعلمون تفكيرهم عكس من لم يفكروا لم يعمل فكرة الذي أعطاه الله.

ما هي الحقائق التي دعانا القرآن إلى التفكر بها:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الروم: ٨] كأن الآية تقول: فكروا في الحقائق التي في أنفسكم، قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فيعلموا فحذف فيعلموا للدلالة عليها، ومعنى إلا بالحق: إلا للحق. وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فإذا فكرتم: علمتم أنكم ما خلقتم عبثاً. والعبث هو الباطل. ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

من مجموع الآيات الماضية نستخلص عناصر التفكير:

إذاً مفهوم التفكير في الآيات السابقة:

١-الموضوع: مثل السماوات والأرض، النفس، الدنيا، الآخرة، الرسول ﷺ.

٢-المشكلة: كقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، والمثال أنه جنة.

٣-التأمل والاعتبار: حينما أفكر في الموضوع، أنظر ما هي أحواله، وما علاقته بالموضوعات الأخرى، وما هي الصفات التي توصلني إلى النتيجة؟

٤-النتيجة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وهذا ممكن أن يكون لأي فكر.

بعض خصائص الفكر الإسلامي:

١- الغاية الوصول إلى الحق. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فربنا أعطانا شيئاً يساعدنا على التفكير.

٢-التنبيه على الأمور التي تعيق عن التفكر: فالقرآن يتكلم عن كثير من الناس فإنهم يرون الأشياء ولا يعقلونها.

٣-إطار للتفكر (يساعد الإنسان على التفكر).

مثال على التفكير وليس فيه كلمة تفكر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ..﴾ [الأنعام: ٧٤]... ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤، و٧٦، و٧٨].

هنا أراد أن يعلم قومه كيف يفكرون.

قال ابن كثير: «لم يكن ناظراً وإنما كان مناظراً، فهو أراد أن يعلم قومه كيف يصلون إلى الحق. ففي البداية قال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾: قال هذا لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب، فهو بدأ معهم كما يقولون. ثم قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾: أي لا أحب أن يكون الآفل إلهاً لي. والآفل هو الذي يغيب».

بعض علماء الكلام الذين تأثروا بالفكر اليوناني قال الأفول معناه الحركة فكل متحرك محدث وأرادوا أن يطبقوا هذا على قصة إبراهيم فما دام الكوكب متحركاً فهو حادث، وما دام حادثاً لا يصلح إلهاً.

ورد عليهم العلماء: أن إبراهيم رأى القمر بازغاً ولو كان متحركاً لقال لا أحب البازغين لكنه قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وفي النصارى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ١٨]، والغني لا يحتاج إلى ولد، لأن الولد يدل على النقص.

فموضوع التفكير قوله: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]، حيث قال في آية أخرى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، والله خالق كل شيء، فكيف تقولون: إن له ولداً. فموضوع التفكير ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

المفهوم الشائع للفكر:

الفكر في المفهوم الشائع له معنى واسع جداً. أما في القرآن فمعناه محدد. فالفكر نتيجة التفكر .

والقرآن ليس فكراً وإنما هو وحي، ففيه فرق بين النصوص الشرعية وبين الفكر الإسلامي: والقرآن والسنة وحي ولكن ما نصل إليه نحن المسلمون من نتائج مستعينين بالقرآن والسنة يسمى فكراً.

نظرية المعرفة:

قلنا: إن منهج التفكير الإسلامي المقصود به الطريق الذي يسلكه المسلم للوصول إلى الحقائق والأحكام، ولكن الحديث عن منهج التفكير أو المنهج العلمي يسبقه في العادة حديث عما يسمى بنظرية المعرفة.

والمقصود بها: البحث والرأي في مسائل تتعلق بالمعرفة كإمكانية المعرفة ومدى المعرفة البشرية.

ويسمونها نظرية: لأنهم يرون أن الاختلاف فيها اختلاف في الرأي.

فمن الغربين مثلاً من يقول:

١-إن الوسيلة الأساسية للمعرفة هي الحواس والتجربة القائمة على هذه الحواس؛ ولذلك يسمون بالتجريبين.

٢-ومنهم من يرى أن وسيلة المعرفة الوحيدة هي العقل؛ ولذلك يسمون بالعقلانيين.

وسائل المعرفة:

يخلط بعض الناس بين وسائل المعرفة ومصادر المعرفة فيقولون: مثلاً: إن وسائل المعرفة بالنسبة للإنسان المسلم هي الحواس والعقل والوحي، مع أن الوحي ليس وسيلة من وسائل المعرفة، وإنما هو مصدر من مصادرها، والمقصود بوسيلة المعرفة هي ما زودنا الله بها من الآلات لنصل بها إلى المعرفة، وأما المصادر فهي الجهة التي تأخذ منها هذه الوسائل المعرفة.

فهنالك إذاً وسائل معرفة، ومصادر معرفة، وأنواع معارف.

والمقصود بأنواع المعارف: حقائق وقيم أو حقائق وأحكام.

والحقائق تقسم إلى حسية ومعنوية وغيبية ومشهودة.

وسائل المعرفة في الإسلام: (في القرآن والسنة).

١- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والوسائل المشتملة في هذه الآيات هي:

١- السمع " الأذن ".

٢- البصر "العين".

٣- القلب.

٤- الفؤاد.

٥- اللب

ما يستنتج من الآيات الماضية:

١- أن الإنسان يولد جاهلاً: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

٢- حقائق المعرفة التي ذكرت في هذه الآيات:

- الآذان للسمع.
- والأعين للبصر.
- والقلوب والأفئدة: للعقل والفقه.

وهذا بحسب القرآن. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

٣- الملاحظة الثالثة: هناك بعض وسائل المعرفة لم تذكر في هذه الآيات: كاللمس والشم والذوق، ولعل الحكمة في ذلك أن الوسائل المذكورة هي المهمة. وكل ما ذكر القرآن من وسائل المعرفة يذكر هذه الثلاث المتقدمة.

٤- الرابعة: أن الحاستين اللتين ذكرهما القرآن – السمع – البصر لم يعين بها المعرفة التي تأتينا مجردة عن القلب.

وإنما المقصود بالسمع والبصر في الآيات القرآنية هو السمع والبصر المتعلقان بالقلب والمرتبطان به.

وإذا وقفنا على حدود المعرفة الحسية كالسمع فلا يكون هناك معنى ونحن إذا تحدثنا عن الوسائل لا نتحدث عنها مجردة وإنما يترجمها القلب إلى معان.

دليل ذلك من القرآن "مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء" فهو مثله كمثل الراعي لا تسمع منه إلا دعاء ونداءً، وقد يتكلم الراعي مع البهائم فتجده يناديها، ولكنها لا تسمع إلا صوتًا ولا تميزه.

وكلمة العقل في القرآن لم ترد إلا فعل (عقل) وهذا هو أساسها في الحقيقة وهي مصدر عقل يعقل عقلاً: وهي تسمية للشيء بفعله أو بمصدره.

لكن العرب تتجاوز ذلك فتسمي المكان باسم الفعل، فسميت الأذن سمع من سمع يسمع سمعاً. وفي القرآن لا يوجد هذا.

الآيات التي تتحدث عن البصر:

١- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣- قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، والمعنى رآه كما هو بدون زياده أو نقصان وما طغى: وما زاد.

٤- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

٥- وقال تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

٦- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ..﴾ [الملك: ٤].

٧- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧-٩].

الآيات التي تتحدث عن السمع:

١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

٢- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

٤- وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣].

في القرآن الكريم نوعان من الآيات المتعلقة بوسائل المعرفة:

١- نوع عن الآلات والآلات نوعان: أ-الآذان ب-الأعين. فالأذن محل السمع، والعين محل النظر. وهذه لا إشكال فيها.

٢- هناك آيات مسماها محل الإدراك وهو: القلب – الفؤاد – اللب – الصدر . وهذه الآلات محال وقد تكون شيئاً واحداً عبر عنه بتعابير مختلفة.

والفقه، والفهم، والعلم، والمعرفة، والشعور، والوعي، وما تخفي الصدور، والنظر، والتفكر، هذه أفعال الآلات.

أما العقل: في لغة القرآن ليس محلاً وليس آلة، وإنما هو فعل ويدل على هذا أن كلمة (عقل) لم ترد في القرآن إلا فعلاً ولم ترد مصدراً ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

أما في الاستعمال الحديث: فيستعمل مكاناً ومحلاً للإدراك. إما بمعنى حسى ويكون مطابقاً للمخ، أو بمعنى غير حسي، إذا في الاستعمال الحديث: العقل هو الآلة التي ندرك بها.

أما في القرآن فالآلة التي ندرك بها هي القلب، والعقل هو فعل هذا القلب. فالقلب هو الذي يعقل ويفهم ويشعر ويحب ويبغض، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]. فتكون لهم قلوب يفقهون بها.

أما في الاستعمال الشائع يفرقون بين العقل والقلب..

يجعلون القلب محل العواطف من الحب والبغض.. الخ ويجعلون العقل محل التفكير.

ولكننا لا نجد هذه الازدواجية في استعمال القرآن الكريم فالقلب هو الذي يحب ويبغض، كما أنه هو الذي يتفكر وينظر وأما في الاستعمال العلمي الحديث فإنه يجعل المحل واحداً كما في القرآن الكريم. لكن هذا المحل هو المخ.

وأحياناً يجعلون العقل مرادفاً للمخ. وأحياناً يجعلونه شيئاً منفصلاً عنه (أي شيئاً غير حي).

وهناك جدل طويل بين العلماء الغربيين المختصين بالعلاقة بين العقل والمخ.

إذا فالمحل واحد في القرآن هو القلب، وفي الاستعمال العلمي الحديث هو أيضاً واحد وهو العقل أو المخ.

أما في الاستعمال الشائع فليس محلاً واحداً.

والعلم الحديث – الطبي – يستعمل كلمة المخ أو الدماغ بدل كلمة القلب (في القرآن).

يقول ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل: «وتلك الألفاظ تكون موجودة مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس لكن بمعان أخرى»، فيحصل الاشتباه كلفظ العقل.

لفظة العقل في لغة المسلمين:

التصريف: عقل – عاقل – معقول.

فإن لفظ العقل في لغة المسلمين إنما يدل على عرض. أما مسمى مصدر عقل يعقل عقلاً، وإما قوة يكون منها العقل وهي الغريزة وهم المتكلمون والفلاسفة "يريدون بذلك جوهراً قائماً بذاته".

إذاً: العقل في لغة القرآن والسنة عرض وليس جوهراً.

أما المخ فهو جوهر.

الجوهر: ما يقوم بذاته، العرض: ما لا يقوم إلا بالجوهر.

الطريقة التي نصل بها إلى الحقائق:

كل معرفة تأتينا عن طريق السمع أو البصر أو القلب فهي معرفة معتبره شرعاً وما دام القرآن اعتبر الحس وسيلة للمعرفة فنتائج العلوم الطبيعية التي تعتمد على الحواس مع العقل فهي ثابتة شرعاً، إذاً: العلم الشرعي يدخل فيه العلم التجريبي.

يقول ابن تيمية: «وأما كونه شرعياً فلا يقابل بكونه عقلياً وإنما يقابل بكونه بدعياً»، إذاً: فما ثبت بالحس لا يمكن أن يناقض ما ثبت بالشرع.

ولكن كما قلنا: القرآن الكريم لا يستعمل السمع والبصر لإدراك المحسوسات فقط بل يدخل فيها إدراك المعقولات.

عن أي طريق يأتينا الشرع "الوحي؟".

يأتي عن طريق السمع. فما يأتينا عن طريق حاسة السمع هو العلوم الشرعية.

لكن القلب ينفرد بعلوم لا تأتينا عن طريق الحس وهي علوم فطرية غير مكتسبة وهي:

١- التوحيد والدليل على أنه فطري: (**كل مولود يولد على الفطرة...**)، وفي الحديث القدسي: (**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**)، وقوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٧]، وقوله تعالى: ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [الروم: ٣٠].

٢- أصول العلوم العقلية كأصول المنطق. وأهم شيء في المنطق أن الكلام المتناقض غير مقبول (باطل) مثل: نصف الشيء لا يمكن أن يكون أكبر منه.

٣- أصول الأخلاق: كالشكر على نعم الله. فهذا فطرى حيث لا يعلم الدين أصل الأخلاق وإنما يعلم الناس الالتزام بها.

النتائج لوسائل المعرفة:

قلنا في نظرية المعرفة: إن وسائل المعرفة:

الحس: السمع – البصر.

العقل: القلب.

نخرج من هذا بنتيجة:

١- بما أن الإسلام يعتبر الحس وسيلة من وسائل المعرفة. فهو إذاً يعتبر كل ما يأتينا عن طريق الحس علماً، إذاً فالإسلام يعتبر ما نسميه العلوم الطبيعية التي مبناها على الحس علوماً شرعية. وذلك أن العلوم الشرعية نوعان: كما يقول ابن تيمية:

٢- نوع بينه الكتاب والسنة وفصلاه، فلا تحتاج لأن نكتسبه بجهدنا.

٣- ونوع أرشدنا الدين إلى دراسته ومعرفته.

والنوع الأول مثل الحلال والحرام ومسائل العقيدة، وبعضها نعرفها، والنوع الثاني مثل علوم التاريخ والفلك والعلوم العسكرية، وكل ما يحتاج المسلمون إلى دراسته يعتبر نوعاً كفائياً.

وكذلك الأمر بالنسبة لما يسمى بالعلوم العقلية:

١- وأيضاً بما أن الإسلام يعتبر العقل وسيلة من وسائل المعرفة إذاً فكل ما يأتينا عن طريق العقل الصريح فهو علم مقبول شرعاً، فالعلوم العقلية جزء من العلوم الشرعية، ولذلك لا يصح أن يقابل العقلي بالشرعي، فإنه إذا صح عقلاً فهو صحيح شرعاً وإذا صح شرعاً فلا يكون في العقل ما يناقضه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول).

٢- العقل المقصود هنا هو العقل الصريح كما ذكرنا، لاكما يدعى أنه عقل، ككثير من أصول المعتزلة والجهمية من الفرق الإسلامية أو أصول الماركسية والفلسفات الغربية التي يظن أصحابها أنها عقلية فإذا وجدوا خلافاً بينها وبين النصوص الدينية أولوا هذه النصوص بما يوافق أسسهم وإن كانوا من الفرق الإسلامية. واستدلوا بهذه المخالفة على أن ما ذكره الدين دعاوى مخالفة للعقل إن كانوا من أصحاب المذاهب الفلسفية.

٣- ما هي العلوم التي تأتينا عن طريق العقل ؟

أو ما هي العلوم العقلية التي فطرنا الله سبحانه وتعالى على معرفتها ؟

للإجابة عن هذا: الإنسان أول ما يولد جاهلاً ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] ، فالفطرة ليست علماً ، فالإنسان يولد وكأن في قلبه بذرة لهذه العلوم، فإذا ما نما فإن هذه البذرة تنمو بنمو العقل ما لم تصادف شيئاً يضادها.

فكأن الإنسان إذا ترك وفطرته ينمو عقله بطريقة توحي إليه أن له خالقاً واحداً هو الله سبحانه وأنه المستحق للعبادة.

لماذا يتعلم الإنسان اللغة بينما لا يتعلمها الحيوان ؟

لأن الإنسان عنده استعداداً من البداية، وإذا استغل هذا الاستعداد تعلمها. أما الحيوان فليس لديه استعداد لذلك.

إذاً الفطرة ليست علماً، وإنما هي للخير فقط. أي أنها شيء إيجابي، ولكن مع هذا فالإنسان لديه استعداد للخير والشر، فأوضح تعبير لها أنها بذرة إذا حصلت الجو الصالح لها فإنها تنمو "ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها".

مصدر الحقائق والقيم هو الوحي:

والوحي هو القرآن والسنة، وهذا لا يحتاج إلى دليل وإنما لما قامت هناك دعوى أنه يوحي إليه، وأنه يستطيع أن ينزل عليه فلابد من إقامة دليل على أن القرآن وحي من الله.

ما هو الدليل على أن القرآن وحي من الله ؟

١- إعجاز القرآن البياني.

٢- أنواع أخرى من الإعجاز منها:

(أ) التناسق وعدم التناقض.

(ب) قوله تعالى: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً".

٣- حفظه من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل.

٤- المعجزات التاريخية (الإخبار بما يقع في المستقبل).

٥- المدة لنزول القرآن على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، فكلما كثرت المدة كان الكلام متناقضاً، وكلما قصرت كان خالياً من ذلك.

٦- القدر (الكمية كبيرة).

٧- تنوع المواضيع.

والتناسق نوعان:

١. تناسق داخلي.

٢. تناسق خارجي وهو مدى انطباق المواضيع على الواقع. إذا كان القدر كبيراً فيكون احتمال التناقض مع الزمن أكبر وأهم من ذلك إذا طالت المدة، هل نجد

الواقع كما قال، فلو أن إنساناً كتب كتاباً عن الأمراض فهل يكون مستمراً صالحاً للتطبيق نحن لا نرى كتاباً صالحاً للتطبيق على مدى الأزمان غير القرآن.

فهل القرآن الذي جمع في مصحف واحد منذ أكثر من ١٤٠٠ عام هل يوجد فيه تناقض. ليس هذا فحسب، بل نجد أن هناك ما لم يعرف في الواقع واكتشفوه في القرآن. فكيف إذاً كان القائل أمياً معزولاً عن الأمة اليونانية، أو الرومية، ولم يكن يقرأ ولا يكتب، ولا يوجد فلاسفة، فالكفار ينبهرون لذلك مثل موريس بوكاي وغيره.

ومن العجائب أن الإنسان ينكره أو يطعن فيه في حالة الشباب والطيش، فإذا زاد عقله وكبر سنه رجع إلى الإسلام، وما سمعنا أن إنساناً رجع إلى المسيحية بعد ٤٠ سنة بل العكس فهذه النوعيات للعقول تدل أن القرآن وحي من الله.

- الشريعة (الأحكام) فيها دليل على أن القرآن من الله.
- الإعجاز العلمي.
- كلام القرآن عن الله يختلف عن كلام أهل الأديان والفلاسفة فيما يقولونه عن الله فتجد التناقض عندهم ولا يصفون الله بما وصفه به القرآن، فالفلاسفة يجعلونه شيئاً مجرداً.

والنصارى بالغوا في بعض الرسل، واليهود ذموا الرسل حتى جعلوهم أدنى من الناس والقرآن جعلهم مثاليون وقدوة للبشر.

٦-خلق الرسول أي سيرته: كيف يدل خلق الرسول على أن القرآن وحي من الله ؟

(أ) أن الرسول ﷺ عرف بالصدق والأمانة قبل أن يبعث يقول هرقل: «ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله». وقد لبث ٤٠ سنة قبل البعثة، فكيف يكذب بعد هذه المدة، وهذه حجة عقلية على أن صدق الرسول ﷺ يدل على أن القرآن وحي من الله، ولهذا كان الرسول يعرف ذلك عن نفسه ويعرف بين العرب بالصادق والأمين .

(ب) وأيضاً الرسول ﷺ قد عاش في القرن السابع الميلادي وهو أمي لم يدخل مدرسة ولا تعلم. وفجأة يأتي بكتاب الله الذي فيه أخبار الأمم السابقة وما حدث لها مع أنبيائها وكيف كانت النتيجة بالنسبة لهم.

(جـ) فكل من يدرس سيرة الرسول ﷺ والظروف التي عاش فيها يعرف أنه لا يمكن له أن يأتي بكتاب مثل هذا من عند نفسه، وهو القائد والمنتصر في المعارك والموجه للأمة، ولم يتعرض لطلب الدنيا، وإنما همه القيام بواجب الدعوة إلى الله، فسيرته قبل البعثة وبعدها تدل على أنه صادق.

(د) وأيضاً انتصاره على قريش في معركة الفتح حيث دخل مكة متواضعاً شاكراً لله على نصره له.

فسيرته تتمثل في:

- صدقه.
- الأمية.
- الانتصار.

٨-مفهوم الألوهية والنبوة: فجميع الكتب التي تنتسب للأديان الأخرى لا تجد فيها تصوراً كاملاً عن الخالق مثل ما تجده في القرآن، أما القرآن فقد وصف الله بصفات تليق به ونزهه عن كل نقص لا يليق به.

أما النبوة: فاليهود فرطوا في حديثهم عن الأنبياء حتى نسبوا إليهم أشياء يترفع عنها الكفار فقالوا: نوح شرب الخمر، ولوط زنا بابنتيه، ونحو ذلك من الاتهامات التي يتنزه عنها أضعف البشر.

والنصارى رفعوا الرسول إلى درجة الربوبية .

والقرآن وصف الرسول بأرقى المقامات (بأنه عبد)، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، لكن في الناحية الأخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فكل ما يتصف به البشر من صفات الكمال يتصف به الرسول ﷺ وهذا لا يوجد في الكتب التي تنتسب إلى الأديان الأخرى.

٩-الشريعة: إذا قورنت بالشرائع التي قبلها، والشرائع المعاصرة للرسول ﷺ فإن الشريعة الإسلامية ترتفع عليها، ومن ذلك العدالة.

المنهج الذي نسلكه مع إنسان ملحد لا يؤمن بالله (برهان وجود الخالق):

١-التنظيم المحكم: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ويسمى دليل العناية.

٢-دليل الخلق: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

هذه الآية موجهة للإنسان الذي لا يؤمن بوجود الخالق. فالله يقول له: وجودك يمكن أن يفسر بأحد ثلاثة أمور:

(أ) إما أن نقول:إنك جئت من العدم ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ فالعقل لا يقبل هذا.

(ب) وإما أن نقول: إنك خلقت نفسك ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾. وهذا لا يقبله العقل لأنه مستحيل لأنه إذا أراد أن يخلق لابد أن يكون موجوداً.

(جـ) وهذا لم يذكره القرآن. فالأشياء البديهية التي يعرفها الإنسان يسأل عنها القرآن سؤال استنكار فلابد من خالق، فالآية تريد أن تثبت أن الشيء الحادث كالإنسان لابد له من خالق.

ومنه عالم فلكي من علماء الغرب اسمه (فريد هويل) له نظرية (الكون المتسع) وملخصها: أن الكون الذي نشاهده تتباعد أجزاؤه فلا نراها بعد ملايين السنين.

لكن التجارب التي أجروها دلت على أن هذا لا يحدث فأصبح فيه إشكال فهو قال: هنالك خلق مستمر كلما انتهت مادة جاء بدلها مادة أخرى وقال إنها تأتي من العدم. ولم يوافقه العلماء على هذا، وكثير منهم ظنوا أن نظريته هذه موافقة للدين لأنهم يظنون أن الذين يؤمنون بالله يقولون إن الأشياء تأتي من العدم، بل نحن نقول الله خلقها هذا مجرد مثال لقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾.

أما المثال لقوله: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فهو ما قاله كارل: إن الإنسان يخلق نفسه، لأن الإنسان نتيجة إنسانين فكان إنساناً أتى بإنسان ثم كل واحد من الإنسانين جاء نتيجة إنسانين أيضاً، ويقول أيضاً: لا أحد يسألني عن الإنسان الأول فهو أيضاً أتى بمغالطة لأنك حين تسال عن الأول تفترض أنه لم يكن موجوداً، فإذا افترضته غير موجود فأنت غير موجود، لأنك جئت من الإنسان الأول على حد زعمه.

فنحن نقول: ما دام لا يأتي من العدم ولا يخلق نفسه، فلابد أن له خالقاً غير نفسه.

وبعض الملحدين يقولون: نسلم بهذا الكون، ولكن لماذا تقولون إن الخالق هذا الموجود الموصوف بالصفات الموجودة في القرآن الكريم.

فالماديون يقولون: الطبيعة والمادة والمصادفة.

فنرد عليهم بأن نقول:

١- الطبيعة والمادة ماذا تقولون فيها، ومن أين أتيا؟ للأسف لم يبق في العالم من يدافع عن الألوهية والدين إلا أهل الإسلام فقط.

٢- ما المقصود بالطبيعة: فإذا فسرها وعرفنا قصده، رددنا عليه بالأشياء السابقة وهي أن كل شيء لابد له من خالق.

٣- ما المقصود بالمصادفة: تقول المصادقة لا تخلق، وإنما هي أن يتقابل شيء بآخر من غير ميعاد.

٤- ما المقصود بالمادة: يقولون: إن الكون خلقنا منها، فليست منفصلة عنه، فكأنهم يقولون إن هناك كمية ثابتة من المادة أزلية لم تخلق منها، فتكون الأشياء كالإنسان والحيوان ثم يفنى ويرجع إلى أصله مره أخرى، .فنقول: ما الذي حدث عن طريق المصادفة، فقد حدث أن التقى الأكسجين بالهيدروجين إلا يدل هذا على أنهما قد صمما إذا التقيا وجد ماء. فالمصادفة وحدها لا تفيد شيئاً إذا لم يكن هذان الشيئان قد صمما من قبل.

الرد على كون المادة أزلية:

أن الشيء إذا كان أزلياً لا بداية له، فلابد أن يكون أبدياً لا نهاية له ومعنى كونه أبدياً: أن يبقي على حاله لا ينقسم إلى أقسام فيحتفظ بصفاته ويبقى بذاته، فالأزلي لا يحدث في صفاته ولا ذاته تغيير، ونقول لهم: ما هي المادة التي لا يحدث لها تغيير في ذاتها ولا صفاتها؟

قالوا: هي الأجرام السماوية.

فنقول: إنه بفضل ما أعطانا الله من العلوم الحديثة كالفلك والفيزياء نعلم أن هذا ليس صحيحاً فالأجرام السماوية تتغير لأنها تنقص. ثم هذه الأجرام السماوية تصير مادة أقل منها وهي العناصر مثل:الأكسجين والنيتروجين والذهب والفضة، فهي الأشياء التي ليست مركبة فالذهب شيء خالص وهكذا، وقد ظنوا أن الأشياء المادية الأخرى

تتكون من هذه العناصر كالماء فهو مكون من الهيدروجين والأكسجين، والهواء والخشب والأرض، فهذه ليست عناصر لأنها مركبة.

ومعنى كلمة عنصر: المكونات الأساسية للمادة.

ثم بعد هذا: حدث أن اكتشفنا أن هذه العناصر مركبة من جزيئات يعني إذا فتتنا الذهب واستمرينا في ذلك في النهاية نصل إلى جزيء هو ذهب، والظن أنه آخر شيء. ثم اكتشفنا أن هذه الجزيئات مركبة من ذرات. فالذهب يمكن أن يكون من ذرات.

فوجدوا أن الفرق بين عنصر وعنصر أحياناً يكون في عدد الذرات أو في طريقة تركيبه، لكن عددها وطريقة تركيبها تجعل الشيء المكون منها مختلفاً.

فكل الفلسفات المادية الحديثة مبنية على أساس أن الذرة هي المادة الأزلية، وكل الأشياء الأخرى مكونة لها.

فإذا قيل لهم: كيف تكون هذا العالم؟

قالوا: هناك ذرات أزلية سابحة في فراغ يلتقي بعضها ببعض بالمصادفة ليس عن تدبير، فإذا التقت تكونت فيها جزئيات ثم جزيئات أخرى، ثم يتكون من هذه الجزئيات عنصراً بالمصادفة ثم آخر ثم يتكون من العنصر مركب ثم مركب آخر وهكذا.

والرد عليهم: أن الذرة تنقسم وقد وصل العدد إلى أكثر من مائة (مكونات الذرة) وقد يقول إنسان: إن مكونات الذرة هي المادة الأزلية.

١- يقول العلماء: ليس عندنا دليل على هذا؛ لأنه ربما نكتشف أنها مركبة فالعالم الطبيعي يقول: أنا لا أقول إنها أزلية لأني ما زلت أبحث فقد تكون مركبة.

٢- أن هذه المكونات تفقد شرط الأزلية وهو أن لا تفقد ذاتها ولا تتغير صفاتها، ومعلوم أنه لا فاصل بين المادة والطاقة أي القوة فكل منها يتحول إلى الآخر.

فبفضل ما أتانا الله من العلوم تيقنا أنه لا توجد مادة مشاهدة يقال إنها أزلية، لكن بعض الناس يشتبه عليهم الأمر فيقولون الأشياء تتغير لكن المادة ثابتة، فالإنسان لا يبقى إنساناً لكنه يتحول إلى أملاح وهكذا، ولكن هناك فرق بين المادة باعتبارها مجرد مفهوم ذهني والمادة الواقعية ففي واقع الحياة ليس هناك مادة يمكن أن تشير إليها بأنها أزلية أما بالمعنى الذهني فتوجد مادة.

ونحن نتحدث عن الأزلية الموجودة في الخارج لا في الذهن، والشيوعيون لهم رأيان ينقض بعضهما بعضاً. فبعض مؤسسي الفكرة الشيوعية يقولون: إن المادة تنقسم إلى ما لا نهاية لها.

فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك مادة أزلية.

وماركس يقول: المادة التي لا صفات لها ولا خصائص أي المجردة هي من اختراع الفلاسفة (شيء ذهني)، وهذا صحيح، فإذا جمعنا كلام كل منهما إلى الآخر فيخرج لنا أنه ليس هناك مادة أزلية فكلام كارل ماركس صحيح؛ لأن الذي في الذهن ليس شيئاً موجوداً في الأعيان.

هذا برهان موجز على أن المادة ليست أزلية فلابد لها من وجود خالق أزلي له صفات نريد أن نعرفها، ومعرفتها مهمة في ذاتها، وهي تبرهن على أن المادة لا يمكن أن تكون هي الخالق.

فإذا كان خالقاً فهو أزلي وأبدي وليس كمثله شيء، ولكن كيف وصلنا إلى هل هذا الخالق يخلق بإرادة، أم أن المخلوقات تأتي عنه كما تأتي من الآثار الطبيعية؟، فالزرع ينبت من المطر لا بإرادته. وما الدليل على أن هذا الخالق لا يلد وإنما يخلق بإرادة لأنه أزلي غني قيوم لا يحتاج إلى غيره، وإن الابن يكون من جنس أبيه، فلو كان يلد لصرنا من جنسه والسبب الطبيعي يحتاج إلى أسباب أخرى، كالجنين سببه الأب، لكن هل الأب يستقل به أو الأم ؟الجواب لا فلابد من سبب آخر، فإذا جعلناه سبحانه سبباً ظنياً فلابد أن نقول إنه محتاج إلى غيره تعالى عن ذلك، فلابد أن يكون صدور المخلوقات عنه صدور إرادة لا صدور ولادة.

فإذا كان مريداً أي خلق عن إرادة فلابد أن يكون عالماً لأن الإرادة تقتضي العلم، فإذا كان مريداً وعالماً فيكون حياً، فنستنتج كثيراً من الصفات، وبعض الصفات يمكن أن تعرف بالعقل وإن كان قد ورد بها الشرع كصفة العلو.

توجيهات قرآنية ومن السنة تتعلق بالمنهج العلمي:

١- الحث على طلب العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

٢- قلة العلم البشري: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

٣- فضل العلم والعلماء (**فضل العالم على العابد..**)، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ...﴾ [فاطر: ٢٨].

٤- الدعوة إلى التفكر. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٥]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

٥- ارتباط العلم بالإيمان والعمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ..﴾ [الصف: ٢].

٦- النهي عن القول بغير علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ..﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ [الحج: ٣].

٧- التثبت في الرواية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ..﴾ [الحجرات: ٦].

٨- وسائل اكتساب المعرفة: ﴿﴾ [] " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً... ".

٩- الإنسان يولد جاهلاً، وقد يعود جاهلاً: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

١٠- الجهل يشمل عدم العمل بالعمل: (**اللهم إني أعوذ بك أن اجهل أو يجهل علي**)، ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ..﴾ [النساء: ١٨].

١١- النهي عن التقليد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

المنهج العلمي عند المحدثين: (منهج المحدثين في إثبات دعواهم):

ما هي دعوى المحدث ؟

دعواه: قال رسول الله ﷺ أو فعل رسول الله وهو دليله على أن الرسول أو كان رسول الله (قوله – فعله – إقراره – وصفه).

ما هو دليل الدعوى ؟ (منهجه أو دليله):

١-منهج.

٢-الدليل. ولا يمكن أن يكون مشاهداً أو تجربة.

فمنهجه: الرواية. ومنهجه في الرواية: التثبت من صدق الرواية، ويشترط في الرواة الضبط والعدالة. والسبب في اشتراط الضبط والعدالة التأكد من أن هذا الكلام الذي نقل إلينا صحيحاً.

وهذه الشروط علمية ليست اعتباطاً. والضبط والعدالة يجمعان كل الشروط، ولكن قد يختلفون في تطبيق هذه الشروط، يختلفون في مدى تصعيد هذه الشروط، وشرطا العدالة والضبط عقليان ينبعان من الدليل.

كيف يتأكد من الضبط والعدالة ؟ هل لدينا مقاييس لذلك؟.

نحن في الإسلام لدينا ضوابط أكثر من الآخرين، لأن الآخر قد يختلف (ما جربنا عليه كذباً) ولكن الإنسان قد يكون ما جرب عليه كذب لكن يمكن هناك أشياء أخرى تطعن في عدالة:

فإذا تأكدنا من تلك الأشياء واشتهر عنه تقصير في العبادات فهذا قد يقع فيه بعض الناس.

ولكن العدالة لا تعني أن الإنسان لا يأتي بمعصية في حياته قط. وإذا كان الإنسان ورعه شديد جداً، فورعه هذا يجعله لا يقول على الرسول إلا الحق.

ونحن لا نقول إن الصحابي معصوم، ولكن نقول: إنه لا يكذب على الرسول ﷺ، وبعض الناس قد يسكر أو يأتي ببعض المحرمات ولكن لا يكذب على الرسول ﷺ، فالصحابي من باب أولى.

وهناك شروط أخرى غير الضبط والعدالة منها:

٣-اتصال السند: ونحن لا نشترط أن يتصل به، وإنما نشترط إمكانية الاتصال (اللقاء به) وهذا الشرط شرطه البخاري، ونحن نشترط أن يعاصر، وهذا ما دعاهم إلى دراسة التاريخ والشخصيات.

أما البخاري فيشترط اللقاء.

ومسلم ينتقد هذا الشرط (اللقاء) فيقول هل تشترطه في كل حديث ؟

فإذا لم تشترط ذلك فلم يكن بينك فرق وبين الذين يشترطون المعاصرة دون اللقاء.

٤-عدم الشذوذ والعلة: الشذوذ: مخالفة الثقة من هو أوثق منه. والعلة: الشيء الذي ليس له ضابط.

لعل هذا دليل علمي ؟

نعم هو دليل علمي مناسب للدعوى، وإذا صح صحت الدعوى.

***

وحدة الموضوعات العامة

من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

أولاً: مدارك العلوم:

عندما جئت إلى هذه الحياة مولوداً جديداً لم تكن تعرف شيئاً ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنك الآن تعرف أشياء كثيرة فهل سألت نفسك ذات يوم كيف حصلت على هذه العلوم؟ هل سألت نفسك قائلاً: ما الخصائص التي تجعل البشر يعلمون ويزدادون علماً بينما الجمادات والحيوانات لا تزداد علماً؟

إذا كنت قد قرأت القرآن الكريم فلابد أنك وجدت الجواب في بقية الآية التي مرت بك الآن هذه البقية هي: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، إذن فالعلوم تأتينا عن طريق هذه الأجهزة التي منحنا الله تعالى إياها، وهي السمع والبصر والعقل، ولذلك فإنه سبحانه أمرنا بحسن استخدامها وجعلنا مسؤولين عن ذلك ومحاسبين عليه فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ما هو العلم؟

العلم هو أن يكون التصور الذي في أذهاننا مطابقاً للواقع، أو أن يكون تعبيرنا عن هذا التصور مطابقاً للواقع، فالعلم أصله في العقل، واللسان والقلم يعبران عما في العقل.

لكن كيف تنتقل صورة الواقع إلى أذهاننا فتكون علماً؟

لقد أشرنا إلى أنها تنتقل إلينا عن طريق الحواس من سمع وبصر ولمس وشم وذوق فإذا قلت إنني أرى أمامي شجرة خضراء مورقة وارفة الظل وكان أمامك في الواقع شجرة بالوصف الذي ذكرت كان ما تصورته وعبرت عنه علماً، وإذا لم تكن هناك شجرة كما وصفت لم يكن علما بل وهماً. والحواس إذن هي التي تنقل إلى أذهاننا صورة الواقع الخارجي، ولكن الحواس لا تستطيع أن تفعل لك إلا بمساعدة الدماغ والعقل، وسيشرح لك أستاذ العلوم أن العين مثلاً لا تنقل لك صورة الشجرة كماهي

وأن الأذن لا تنقل لك كلاماً وإنما تنقل موجات صوتية، وأن عقلك هو الذي يجعلك ترى شجرة وتسمع كلاماً.

نزيد ما ذكرنا لك شرحاً وتفصيلاً فنقول إن العلوم ثلاثة أنواع:

١- صورة حسية تنقل إلينا عن طريق الحواس الخمس بمساعدة الدماغ.

٢- مبادئ عقلية فطرنا الله تعالى عليها وركبها في عقولنا وجعلها تنمو معنا حتى تبلغ تمامها، من هذه المبادئ علمنا بأن القول ونقيضه لا يجتمعان، فإذا قلت لك – بل إذا قلت لطفل تعلم الكلام – (الشمس طالعة وليست طالعة) أو (أنا جوعان وشبعان) علمت وعلم أن هذا مستحيل. كذلك إذا قلت لك (إن نصف الشيء أكبر منه) كأن نقول مثلاً (إن نصف التفاحة أكبر من التفاحة) أو أن شيئاً وجد من العدم بغير سبب أوجده فستقول هذا مستحيل. فمن أين عرفت هذه الاستحالة؟ عرفتها لما ركز الله في عقلك من مبادئ، ولم تعرفها عن طريق الحواس ولا تحتاج أن تتعلمها من غيرك بل أن الإنسان الذي لا يعرف مثل هذه المبادئ لا يمكن أن يتعلم شيئاً ونقول إن بعقله خللاً.

٣- أخبار يعلمها غيرنا مباشرة وينقلها إلينا أقوالاً. فوسيلتنا لإدراكها هي السمع إذن. ولكن الأذن كما ذكرنا لا تنتقل إلينا إلا موجات هوائية، لا تنقل لنا إلا أصواتاً والأصوات وحدها لا تكون كلاماً إذا كانت بلغة لا يفهمها السامع فإنه يسمع صوتك ولكنه لا يعي ما تقول. كذلك إذا حدثته بلغة يفهمها لكنه كان غافلاً عنك أو لم تكن له رغبة في معرفة ما تقول فإنه يسمع صوتك، ولكن لا يدرك قولك. ولذلك قال تعالى عن المشركين المعرضين عن القرآن الكريم: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، يقول تعالى إن مثل الكفار حين يتلو عليهم النبي ﷺ القرآن كمثل بهائم يتكلم معها راعيها، فكما أن البهائم لا تفهم كلام الراعي، وإنما الذي يصلها منه دعاء ونداء أي أصوات بلا معنى، فكذلك هؤلاء الكفار لا يسمعون القرآن سماعاً حقيقياً ولا يرون آيات الله رؤيا حقيقية، فهم كمن انسدت فيه كل نوافذ المعرفة فلا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يتكلم.

والأخبار نوعان:

(أ) أخبار بشرية: وهي التي تأتينا من بشر أمثالنا فهذه ينبغي الا نتسرع في قبولها بل ينبغي أن نزنها بموازين الحس والعقل التي زودنا الله تعالى بها، فإذا قال لنا إنسان

كلاماً يخالف ما علمناه واستقيناه لم نصدقه، وإذا قال كلاماً مناقضاً لم نقبله، وإذا قال كلاماً معقولاً لكنه لم يكن رجلاً ثقة لم نتسرع في قبول كلامه، بل تريثنا حتى تتجمع لنا أدلة أخرى تثبت صدقه أو ترجحه.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، وأما إذا كان المتكلم ثقة والكلام معقولا قبلناه.

(ب) أخبار إلهية: وهي ما يوحيه الله تعالى إلى رسله ويوصله هؤلاء الرسل إلينا وهي تشمل بالنسبة لنا نحن المسلمين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وبما أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، وبما أنه سبحانه منزه عن صفات النقص من كذب وغش ونسيان وغفلة فإن كل ما يقوله في كتابه، أو على لسان رسوله هو الحق الذي لا ريب فيه وهو العلم اليقيني الذي لا يحتاج إلى مراجعة وتثبت، لكن الذي يحتاج إلى مراجعة وتثبت أمران:

أولهما: نسبة القول إلى الرسول ﷺ وقد كفانا علماؤنا الأقدمون هذه المئونة فشيدوا صرحاً قوياً لعلم الحديث وميزوا بين ما صحت نسبته إلى الرسول ﷺ وما لم تصح نسبته أو ضعفت.

وثانيهما: الفهم الصحيح للنصوص فنحن مثلاً لا نشك في أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، ولكننا قد نشك في تفسير أحد المفسرين لهذه الآية فنحتاج لمراجعته والتثبت من صحته، وكذلك الأمر بالنسبة لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا نرتاب في أن ما ثبتت نسبته إليه قول صحيح، ولكننا قد نحتاج لأن نراجع فهمنا لما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

العلم البشري والوحي الإلهي:

١. **العلم البشري** ونعني به العلم الذي يمكن أن نحصل عليه بمداركنا البشرية (الحواس والعقل) مستقلة عن الوحي والإلهي.

وهذا العلم نوعان:

(أ) نوع – وهو أكثره – يتعلق بحياتنا الدنيوية وهو علم هام جداً لأننا نستطيع بواسطته أن نتصرف في حياتنا الدنيوية فنعرف كيف نزرع النبات وكيف نبني

المنازل، وكيف نصنع الثياب، وكيف تخترع الآلات التي تسهل لنا الحياة، وكيف نتقي ما يضرنا من جوع وظمأ وبرد وحر ووحوش وهوام الخ... وكيف نجلب ما ينفعنا من أكل وشرب ولبس ودور ومواصلات... الخ.

وقد ظل هذا العلم ينمو باطراد تقريباً مع تقدم الأيام، فما كان يعرفه الناس قديما عن التربة والمياه والبحار والنباتات والمعادن والعناصر لا يكاد يساوي شيئاً بالنسبة لمعارف القرن الحالي في هذه المجالات، وعليه فإن ما صنعه الناس في هذا القرن من آلات وشيده ومبان ومصانع وما أنتجوه من طاقة وما استهلكوه من خيرات هو أضعاف أضعاف ما فعل الناس في القرون الماضية.

(ب) أما النوع الثاني من أنواع العلم البشري وهو أهم من النوع الأول فهو المتعلق بالخالق سبحانه وتعالى. وذلك أن الله تعالى فطر العباد على معرفته وتوحيده، وجعل لهذا التوحيد شواهد وأدلة في عالمنا الذي نعيش فيه. فنحن نستطيع إذن – حتى قبل مجيء الوحي أن نعرف أن لنا خالقاً واحداً ينبغي أن نفرده بالعبادة، ونستطيع أن نعرف بعض صفات هذا الخالق بما نشاهد هذا من آثار صنعه.

٢-**الوحي الإلهي**: وبما أننا لا نستطيع أن نعرف كل ما ينبغي أن نعرفه عن هذا الخالق سبحانه فلا نستطيع بعقولنا وحدها أن نعرف كل صفاته، ولا نستطيع أن نعرف كيف نعبده ونشكره، ولا نستطيع أن نعرف كيف نتصرف في حياتنا بطريقة تسعدنا وترضيه سبحانه، فإنه تفضل فأرسل إلينا رسلاً يبلغونا علماً بهذه الأمور لا نستطيع أن نستقل بمعرفته فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم يأتوننا بعلم مفصل عن الله تعالى، وعن مكارم الأخلاق ومحاسن السلوك، وعن العبادات كيفياتها وأوقاتها وشروطها، وعن الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن ننظم بها حياتنا: ماذا نأكل وماذا نشرب وماذا ندع من ذلك، كيف تكون صلة الرجال منا بالنساء، وما هي حقوق الأقارب والجيران، وكيف ننظم حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وإلى غير ذلك من علوم نحن في أشد الحاجة إليها لسعادتنا الدنيوية والأخروية، فالوحي الإلهي إذن مكمل لعلومنا البشرية ومتمم لنقصها وهو أهم العلوم وأشرفها؛ لأن العلم البشري متعلق أكثره كما رأينا بشؤون الدنيا، فغايته أن يصلح حياتنا الجسدية، ولكن الوحي الإلهي هو الذي يصلح حياتنا القلبية والروحية والإنسان إنما يكون إنساناً، وإنما يسعد بسلامة قلبه ورقي روحه. ولذلك قال تعالى ذاماً أولئك الذين يكرسون كل

جهدهم لمعرفة الدنيا ويجهلون الآخرة ومذكراً لهم بأن هذه المعرفة ما ينبى عليها من تطور عمراني تكون في النهاية وبالاً على أصحابها. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٦-٩].

المنهج العلمي:

أننا لا نستطيع أن نحصل على شيء من العلوم إلا بحواسنا وعقولنا ولكن هل تكفي هذه للحصول على العلوم؟ كلا بل لابد من اتباع نهج أو طريق يوصل إلى العلم الذي نريد الحصول عليه، هذا الطريق الموصل إلى العلم هو ما يسمى بالمنهج العلمي. وبما أن العلوم مختلفة فإن مناهجها مختلفة كذلك والمنهج الذي يوصلنا إلى العلم هو أيضاً دليلنا وشاهدنا على ذلك العلم، ولذلك فإن الذي يميز العلم عن الافتراء والظن والخرص هو أن العالم بالشيء يستطيع أن يقدم الدليل الذي يشهد بصدق ما يقول، أما الذي يكذب أو يظن أو يخوض فلا يستطيع أن يقدم مثل هذا الدليل والبرهان، والعلوم مختلفة وهي تختلف باختلاف المعلومات والمدركات.

❖ فمن الأشياء ما يدرك إدراكاً مباشراً كالمحسوسات من جبال وأنهار وأشجار وشمس وقمر وغيرها، ومنها ما نستنتج بعقولنا وجوده من وجود هذه المحسوسات. مثلا أنت ترى القمر، وتراه بحجم معين فهذه معرفة مباشرة ولكنك تقول لنفسك إنني لاحظت أن الشيء كلما يعد كلما صغر حجمه في عيني فحجم الطائرة وهي في الهواء يبدو أصغر من حجمها عندما نراها راسية في المطار إذن فيما أن القمر بعيد عنا فلابد أن يكون أكبر مما يبدو. هذا شيء يمكن أن يستنتجه كل شخص عادي لكن إذا تطور عملك وعرفت مسافة بعد المقر عنا، وحجمه البادي لنا فإنك تستطيع أن تستنتج حجمه الحقيقي من غير أن تضطر إلى السفر إليه في مركبة فضائية.

❖ ومنها ما يدركه غيرك مباشرة أو استنتاجاً، ولكنك لا تستطيع لظروف وخاصة بك أن تدركه مثل هذا الإدراك فسبيلك إلى معرفته هو الخبر الذي ينقله إليك من أدركه مثلاً إذا حدث حادث وشهده بعض أصدقائك ولم تشهده أنت فسبيك الوحيد لمعرفته هو وصف أصدقائك له. كذلك إذا حدث شيء في الماضي فلا سبيل لنا نحن أبناء هذا القرن إلا نعرفه من الأخبار التي تركها لنا من شاهدوه (وقد نستطيع استنتاج ما حدث إذا كانت له آثار باقية).

ولكن هناك أموراً لا يستطيع البشر إدراكها وهي أمور الغيب من جنة ونار وملائكة فلا بد أن يعتمدوا في معرفتها على الأخبار الإلهية.

مناهج الحصول على المعلومات:

وإذا كانت المعلومات مختلفة فإن مناهج الحصول عليها والأدلة والبراهيم الدالة عليها تختلف باختلافها.

❖ فإذا كان الشيء مما يمكن أن نحسه فالطريق إلى معرفته هو الحس المباشر والدليل الوحيد الذي نقبله على صدقة هو هذا الحس مثلاً إذا قال لنا إنسان أن بالمكان الفلاني شجرة غريبة ساقها أسود وأوراقها حمراء وثمارها زرقاء، فلما ذهبنا إلى المكان الذي وصفه لم نجد شجرة بالوصف الذي ذكر، ولما سألنا عن دليله على وجودها قال إنه رآها في المنام، إننا لن نقبل مثل هذا الكلام دليلاً عليه ينبغي أن يكون المشاهدة المباشرة.

❖ وإذا كان الشيء مما يمكن أن يستنتج نظرنا في طريقة الاستنتاج فإن كانت صحيحة قبلنا النتيجة و اعتبرناها علماً وإلا لم نقبلها.

❖ وأما إذا كان الشيء مما تعتمد معرفتنا له على إخبار غيرنا فالمنهج الصحيح أن نتثبت من نوع الخبر والمخبرين ومن معقولية الخبر.

العلوم التجريبية:

العلوم التجريبية علوم بشرية وسميت تجريبية؛ لأن الطريق الأساسي لحصولنا عليها هو التجربة الحسية، وإن كان كثير منها يأتينا عن طريق الاستنتاج العقلي مما عرفناه بالتجربة والعلوم التجريبية كثيرة لكن أساسها علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء وسائرها بمثابة الفروع لهذه العلوم الأساسية:

وكل علم من العلوم التجريبية – يشمل ثلاثة أشياء:

(أ) حقائق عينية عرفناها بالمشاهدة أو بالاستنتاج اليقيني كالقول بأن الأرض كروية، وأن القمر لا يصلح للحياة التي ألفناها وأن الشمس غاز ملتهب، وأن الأسماك تتنفس داخل الماء، كل حقيقة بهذه المثابة دل عليها الحس المباشر، أو البرهان القاطع، فلا يمكن أن تخالف نصاً قرآنياً أو حديثاً صحيحاً، وإذا توهمنا الخلاف فإنما يكون ذلك بسبب سوء فهمنا للنص وعدم مخالفة أي من هذه الحقائق التي اكتشفها العلم لأي نص قرآني أو حديث صحيح، بل موافقة كثير منها لما قررته نصوص الكتاب العزيز هو من دلائل إعجاز القرآن الكريم، وأنه كتاب من عند الله تعالى وكذلك السنة المطهرة، ذلك لأن هذا الأمر لا يصدق على أي كتاب غيره سواء في ذلك الكتب التي زعم أصحابها أنها كتب مقدسة كالتوراة والإنجيل التي بين أيدي اليهود والنصارى اليوم أو كتب من تأليف البشر.

إن الحقائق التي تكتشفها لنا العلوم التجريبية تتضاعف كل مدة من الزمان، ولذلك فما من إنسان كتب كتاباً في أي علم من العلوم البشرية مضى عليه مائة عام إلا وأظهرت التقدم العلمي بعد ذلك أن بعض ما قرره مؤلفه فيه لم يكن صحيحاً. لكن القرآن الكريم مضى على نزوله أربعة عشر قرناً وتعرض لشتى أنواع العلوم وقد تطور العلم التجريبي منذ نزول القرآن حتى الآن مئات المرات ومع ذلك فلم يكتشف العلماء حقيقة واحدة تعارضه، وتعجبوا كيف قرر القرآن هذه الحقائق في ذلك الوقت والناس لم يعرفوها إلا في هذا العصر، وفي ذلك يقول الطبيب الفرنسي موريس بوكاي راداً على من زعموا أن القرآن من تأليف محمد ﷺ "كيف يستطيع أي الرسول ﷺ إعلان حقائق علمية ما كان بإمكان إنسان غيره أن يكتشفها في ذلك الوقت ويفعل ذلك من غير أن يخطئ أدنى خطأ، ثم يقول عن دراساته العلمية للقرآن الكريم: «أن النتيجة التي تؤدي إليها هي أنه لا يعقل أن يستطيع بشر يعيش في القرن السابع الميلادي تقرير حقائق في القرآن في موضوعات شتى لا تمت بصلة إلى عصره، وتكون مع ذلك موافقة لما لم يُعلم إلا بعد قرون متأخرة، الذي أراه أن القرآن لا يمكن أن يفسر بأنه من صنع البشر»[1].

---

(١) موريس بوكاي عن الترجمة الإنجليزية لكتابه الكتاب المقدس والقرآن والعلم.

(ب) قوانين طبيعية: وهي القوانين التي تحكم سير الكون الطبيعي، فالله سبحانه وتعالى له نوعان من السنة والأوامر النوع الأول ما نسميه بالأوامر أو السنن الشرعية وهي التي يأمرنا الله تعالى بفعلها ويترك للناس الحرية إن شاءوا ونفذوا أمره ونالوا ثوابه وإن شاءوا عصوا فعوقبوا على ذلك، وذلك كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتطبيق الحدود الشرعية:

أما أوامر الله تعالى الكونية فهي أمره للشيء بأن يكون، وإذا أمر الله شيئاً بأن يكون كان ولا خيار له في ذلك ولا رأي. قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكل شيء يحدث في هذا الكون يحدث بإرادة الله وقدرته وأمره ولكن الله تعالى جعل لحوادث الكون طرقاً مطردة تحصل بها والمقصود باطرادها أن الأشياء المتماثلة تكون لها نتائج متماثلة، فإذا حدث شيء في حال معين ثم تكرر ذلك الحال حدث شيء مماثل لما حدث في الحال الأول. مثلا إذا وضعت ماء في إناء ثم وضعته على النار فغلى الماء بعد خمس دقائق ثم كررت هذه التجربة بعد يومين أو عامين فوضعت المقدار نفسه من الماء في إناء مماثل للإناء الأول وعلى نار مماثلة للأولى وفي ظروف مماثلة فإن هذا الماء سيغلي بعد خمس دقائق كما فعل الأول، فمن أهم ما يسعى العلماء التجريبيون لاكتشافه معرفة السنين الكونية الأساسية التي تحتم سير الأشياء المادية من هذه القوانين أو السنن، فمثلا القانون الذي يسمى قانون الجاذبية، والجاذبية قوة جذب تكون بين الأشياء المادية تزداد قوتها بزيادة الكثافة العادية للشيء وبزيادة قربه من الشيء الآخر.

هل فكرت يوماً في ظاهرة سقوط الأشياء على الأرض بدلاً من ارتفاعها إلى السماء؟ أعني هل سألت نفسك يوماً ما لماذا لا تظل الكرة تصعد إلى فوق إذا ضربها اللاعب إلى أعلى بدلاً من أن تعود إلى الأرض؟ لماذا يقع الكوب على الأرض إذا فلت من يدك بدلا من أن يصعد إلى السماء أو يظل معلقاً في الهواء؟

السبب في ذلك أن هناك قوة تجاذب بين هذه الأشياء وبين الأرض، ولكن بما أن كتلة الأرض أكبر من كتلة هذه الأشياء فإنها تجذبها إليها كما أنه إذا أخذ رجل قوي طرف حبل وأخذ طفل ضعيف طرفه الآخر وحاول كل منهما أن يجذب الآخر فإن الرجل سيجذب الطفل إليه؛ لأن قوة جذبه أكبر من جذب الطفل.

بقانون الجاذبية هذا نستطيع أن نفسر ظواهر كونية كثيرة غير سقوط الأشياء على الأرض، فيه نفسر مثلاً دوران القمر حول الأرض ودوران الكواكب حول الشمس.

وجود هذه القوانين أو السنن الإلهية يدل على وحدانية الخالق وحكمته وعظيم قدرته وإتقانه، ولذلك فإن دراسة العلوم إذا أحسن الإنسان الاستفادة منها تكون دراسة في التوحيد وطريقاً لمعرفة صفات الله تعالى، ولذلك أرشدنا الله تعالى إلى التأمل في مخلوقاته والاعتبار بها؛ لأن وجودها آية على وجوده وتصرفاتها وحركاتها شواهد على صفاته ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

نظريات علمية:

النظرية رأي يراه عالم أو فكرة تخطر بباله يحاول أن يفسر بها الحقائق الغيبية أو القوانين الطبيعية، والفرق بين الحقائق العينية والقوانين الطبيعية من ناحية وبين النظريات من ناحية أخرى أن الأولى شيء موجود في الواقع، وأما النظرية فهي شيء يخترعه العالم نفسه ليفسر به هذه الحقائق الواقعية.

فالنظريات إذن ليست حقائق ولكن هذا لا يعني أنه لا فائدة فيها، بل هي مفيدة كما قلنا في تفسير الظواهر الكونية، وربما ساعدتنا على اكتشاف حقائق جديدة، لكن النظريات كلما أفلحت في تأكيد الحقائق المراد تفسيرها كانت أقرب إلى الصواب، بل إن صحتها قد تثبت بالتجربة والمشاهد، فلا تكون عندئذ نظرية بل تصبح قانوناً، وكلما ازداد عدد الحقائق التي تعجز عن تفسيرها كلما كانت النظرية أبعد عن الصواب، وربما ثبت بطلانها باكتشاف حقائق مناقضة لها.

لقد أخطأ كثير من الناس إذ خلطوا بين النظريات العلمية والحقائق العلمية فاحذر من هذا الخلط، سيما في حديثك عن علاقة العلم التجريبي بالدين الإسلامي، إن حقائق العلم التجريبي كما أوضحنا لا يمكن أن تصادم حقائق الدين بل إنها تخدمها وتجاريها؛ لأن منزل الدين هو خالق الكون، ولذلك فإن من المفيد أن تعتبر أحدهما بالأخرى، أما النظريات فقد تكون باطلة وتكون لذلك مخالفة لما قرره الشرع، وقد تكون ظنية الثبوت فينبغي أن لا نتسرع في التماس التأييد لها من نصوص الكتاب

والسنة، وقد وضع شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة جليلة في العلاقة بين نصوص الشرع ونتائج العقل، أو بين الأدلة السمعية والأدلة العقلية فقال: «إذا قيل تعارض دليلان، سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً، فالواجب أن يقال لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين، أو كان أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا»، وهذا متفق عليه بين العقلاء، ثم قال: «وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيًا دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء، سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يرفع اليقين، وأما إن كانا جميعاً ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًا أو عقليًا».

نستفيد من هذا الكلام النفيس عدة أمور منها:

(أ) أن الحقائق الدينية القاطعة لا تختلف فيما بينها.

(ب) أن الحقائق العلمية القاطعة لا تختلف فيما بينها.

(جـ) أن الحقائق الدينية القاطعة لا تخالف الحقائق العلمية القاطعة.

(د) أنه قد يحدث خلاف بين مسألة دينية ظنية وحقيقة علمية قاطعة، ففي هذه الحالة نقدم الحقيقة العلمية ونشرح بها المسألة الدينية.

(هـ) أنه قد يحدث خلاف بين مسألتين ظنية وحقيقة دينية قاطعة، ففي هذه الحالة نقدم الحقيقة الدينية.

(و) أنه قد يحدث خلاف بين مسألة علمية ظنية ومسألة دينية، ففي هذه الحالة نقدم ما كان من المسألتين أرجح.

العلوم التجريبية:

ليس للعلوم التجريبية - كما يظن كثير من الناس - منهج واحد متميز يمكن تطبيقه على كل المجالات التي تبحث فيها؛ لأن هذه المجالات مختلفة فمنها ما يشاهد بالحواس مباشرة ومنها ما يشاهد بوساطة الآلات ومنها ما لا يمكن مشاهدته ولكن يستدل على وجوده وصفاته بآثاره، ولكل من هذه المجالات طريقة تناسبها أما الأشياء المشاهدة مباشرة أو بواسطة فنوعان إن أردت أن أعرف أثر الحرارة على قطعة من

الحديد أو أثر التبريد على الماء فبإمكاني أن أسخن قطعة من الحديد أو أبرد قدراً من الماء ثم انظر ماذا يحدث وبإمكاني أن أعيد هذه التجربة مرات كلما دعا الأمر لذلك.

لكن إذا أردت أن أعرف كيف يحدث الكسوف أو الخسوف فكل ما أستطيع فعله هو مشاهدة هذه الظواهر عند حدوثها؛ لأنني لا أستطيع أن أحدث كسوفاً أو خسوفاً.

ومما يميز العلوم التجريبية في هذه المجالات أمران متداخلان:

أولهما: أن العالم بها لا يكتفي بالتقدير العام للأشياء المعتمدة على الحواس الإنسانية العادية، بل يحاول أن يصف الأشياء وصفاً رياضاً دقيقاً فأنت وكل إنسان يستطيع أن يفرق بين الماء البارد والماء الحار، ولكن العالم يريد أن يعرف الفروق الدقيقة بين درجات الحرارة أو البرودة، وقل مثل ذلك عن سائر المقيسات والموزونات وعن النسب بين الأشياء. لذلك يقولون إن الرياضيات هي لغة العلوم، وقد ظل علم الرياضيات يتطور مع تطور هذه العلوم التجريبية.

ثانيهما: أن العالم يحاول دائماً استعمال الآلات الدقيقة ليستعين بها على قياس أو وزن ما لا تقيسه الحواس البشرية، ولمشاهدة ما لا تشاهده هذه الحواس، بل ولإجراء كثيراً من العمليات، وأداء كثير من الأعمال التي يصعب أداؤها بالأعضاء البشرية، أما الأشياء التي يستدل عليها بآثارها فإن العالم التجريبي يحاول أن يكون استدلاله دقيقاً ومضبوطاً، ولذلك فإنه يلجأ هنا أيضا إلى الآلات وإلى لغة الرياضيات.

خطوات المنهج:

الخطوة الأولى: في العلم التجريبي هي تحديد السؤال أو الشكل تحديداً دقيقاً.

الخطوة الثانية: هي مشاهدة الواقع الخاص بالمشكلة التي يراد حلها أو إجراء التجارب إن أمكن إجراؤها.

الخطوة الثالثة: هي وصف نتائج التجربة والمشاهدة وصفاً دقيقاً.

الخطوة الرابعة: محاولة تفسير هذه النتيجة.

إما في ضوء القوانين والنظريات العلمية التجريبية وهو الغالب.

*****

ثالثاً: كتب ودراسات

مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية

وهذا الكتاب قام بإصداره مركز البيان وهو عبارة عن مجموع مقالات في مجلة البيان وموضوعات أخرى سبق أن نشر بعضها في مجلات عربية وإسلامية، وقد قسمت هذه المقالات والموضوعات في الكتاب إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- الأجوبة الإسلامية عن الأسئلة الفلسفية

وهي في الأصل مقالة نشرت في صحيفة منار السبيل العدد ٨ رمضان ١٤١٤الموافق فبراير – مارس ١٩٩٣م.

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن بعض الأسئلة الفلسفية والأجوبة الإسلامية عليها، من هذه الأسئلة: أسئلة حول نظرية المعرفة ما تعريف العلم؟ هل العلم ممكن؟ هل هنالك علم سابق للميلاد؟ أم أن المولود يلد صفحة بيضاء؟ كيف نعلم؟ ثم أجاب الشيخ علن هذه الأسئلة من منظور إسلامي.

٢- مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة

تحدث الشيخ في هذه المقدمة عن معنى المنهج العلمي، وتطرق إلى الشبهات في فهم النصوص، وانتقد أصحاب المنهج الذاتي الذين يرتبون نتائج خاطئة عند قولهم بأن النصوص هي كلام الله والفهم فهم البشر، كما يرد على المنهج النسبي، وذلك أن ثقافة الناس هي التي تحكم فهمهم للنصوص فبالتالي يكون فهمنا للنصوص الشرعية مختلفاً بالنسبة عن فهم السلف، ثم ناقش هذه النسبية الخرافية، وأخيراً ختم المقالة بضرورة الالتزام بالمنهج العلمي المرتكز على القواعد الموضوعية التي تكون هي المعايير التي يميز بها بين صحيح الفهم وسقيمه.

٣- النسبية

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد١٦٠ ذو الحجة ١٤٢١ مارس ٢٠٠١م وقد أشرنا إليها في قسم المقالات.

المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي

وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في روسيا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

وتحدث فيها عن مصادر الدين الإسلامي وما المنهج المؤدي إلى معرفتها كما أشار الشيخ إلى شبهة دعاة التقليد والرد عليها، وتحدث عن الخلاف وما كان سببه قلة العلم أو الخلاف الذي كان سببه الهوى، كما تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن منهج اكتشاف حقائق الدين الإسلامية وعناصر المنهج العلمي لإدراك حقائق الدين الإسلامية.

ثم تحدث عن اللغة وأنها أساس للعلوم الشرعية النقلية وكذلك العقل وأنه شرط في فهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ثم تحدث عن مصادر التشريع وهي القرآن والسنة والإجماع وأقوال الصحابة والقياس، ثم تحدث عن الكون كمصدر من مصادر المعرفة ومعرفة الأحكام الشرعية، ثم ختم المحاضرة عن الاستعداد الروحي وأثره في اكتساب العلم.

القسم الثاني: الفطرة ومعايير العقلاء:

ويحوي الموضوعات التالية:

١-التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية

وهو بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة ١٢ربيع الثاني ١٣٩٧هـ الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧ وقد نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ١٢ وفي هذا البحث تحدث الشيخ عن ثلاث نظريات في طبيعة الإنسان وهي:

(أ) نظرية الحياد.

(ب) ونظرية أصالة الشر.

(جـ) ونظرية أصالة الخير.

ثم ناقش هذه النظريات، ثم تحدث عن الفطرة في القرآن والسنة وفي السنة كما تحدث عن الخير الذي فطر عليه الإنسان، وناقش أن الإنسان مادام مفطوراً على الخير فلماذا يفعل الشر ثم ختم بحثه عن فلسفة التربية الإسلامية.

٢-مفهوم العقل

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد ١٥٨ شوال ١٤٢١يناير ٢٠٠١م وقد أشرنا إليها في قسم المقالات.

٣-معايير العقلاء

وهي خمس مقالات نشرت في مجلة البيان في الأعداد ٢١٦ شعبان ١٤٢٦الموافق سبتمبر ٢٠٠٥م، ٢١٧رمضان ١٤٢٦ الموافق أكتوبر ٢٠٠٥م، ٢١٨شوال الموافق نوفمبر ٢٠٠٥م، ٢١٩ذو القعدة ١٤٢٦الموافق ديسمبر ٢٠٠٥م، ٢٢٠ذو الحجة ١٤٢٦الموافق يناير ٢٠٠٦م تحدث في المقال الأول من المعايير عن القوانين المنطقية، وفي الثاني عن شهادة الحس، وفي الثالث عن السنن الكونية، وفي الرابع عن النفع والضر، وفي الأخير عن القيم الخلقية.

القسم الثالث: -نظرية المعرفة واسلامية العلوم:

ويحوي الموضوعات التالية:

١-مشكلة الموضوعية في العلوم

وهي محاضرة بعنوان مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥ رجب ١٤٠٧الموافق ٢٥مارس ١٩٨٧م تحدث فيها الشيخ عن الموضوعية، وهل هي منهج علمي متفق عليه أم أن ذلك دعوى ليست صحيحة.

ثم تحدث عن الأطر لمناهج البحث، وتحدث عن خصائص الإطار العام الذي يشيع عند الغربيين وعندنا تبع لهم، ثم تحدث عن الأطر الخاصة، ثم ختم بحثه بماذا يكون موقفنا؟ وما الذي نريده؟

٢-إسلامية العلوم وموضعيتها

وهو بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ٥٠ ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٨الموافق ديسمبر ١٩٨٧م يناير، فبراير ١٩٨٨م.

وتحدث الشيخ في هذا البحث عن قضية المنهج العلمي، وأنه قد بت فيه وأن هذه القضية لم تعد تحتاج إلى نظر جديد، وناقش الشيخ هذه الدعوى وأجاب عنها.

ثم تكلم عن أطر العلم الأيدلوجية، وما هو الإطار الفلسفي العام الشائع في عصرنا الآن والذي يعمل في داخله علماء الطبيعة والإنسان.

ثم ختم الشيخ بحثه بالحديث عن مسوغات إسلامية العلوم، وأن هذا يؤدي إلى تأكيد الموضوعية وليس التخلي عنها.

٣- قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي:

وهي محاضرة نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض.

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن مجالات الفلسفة العلمية، وذكر أن هناك مجالين؛ المجال المعرفي والمجال الميتافيزيقي.

ثم تحدث الشيخ عن وحدة العقل البشري، وكذلك مجالات مباحث فلسفة العلوم أو أصول العلوم، كما تحدث عن إسلامية العلوم، ومفهوم السببية وفاعلية الأسباب، وهل الأسباب متعددة؟

ثم ختم بحثه بذكر قضايا متشابهة في الفلسفة الغربية الحديثة لآراء أهل السنة أقرب منها آراء الفلاسفة.

القسم الرابع: علوم الدين والعلوم التجريبية:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- علاقة العلم بالدين

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد ٢٣٨جمادى الآخرة ١٤٢٨يوليو٢٠٠٧م وقد أشرنا إليها في قسم المقالات.

٢- حقائق العلوم التجريبية. حقائق شرعية

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد ١٤٩ محرم ١٤٢١ أبريل ٢٠٠٠م

٣- علوم الدين والعلوم التجريبية

وهي محاضرة ألقاها الدكتور بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد بدأ الحديث عن العلاقة بين العلوم التجريبية والحسية والعقلية من ناحية، والدين من ناحية أخرى، والرد على شبهة من قالوا إننا بالعلم التجريبي نجحنا نجاحاً باهراً من غير الحاجة والاعتماد على الوحي.

ثم ذكر حفظه كيفية حدوث هذا الانحراف عند الإنسان، وما هو الخطأ الذي وقع فيه الغربيون ومن شايعهم ممن تأثر بهم؟

ثم ذكر أمثلة على ذلك، ثم ختم محاضرته بماذا نقول لهم؟ وكيف نصل إلى وجود الخالق، وأخيراً ذكر الشيخ ميزة الإسلام على غيره من الأديان في مواجهة الملحدين والماديين.

* * * * *


موضوعات متنوعة

أولاً: المقالات

الصحفيون وتحريف الكلام

جريدة المسلمون السعودية العدد ٤٤٣

يُطلب منك أن تُلقي كلمة أو محاضرة أو تعد بحثاً، فتجلس تفكر في عناصر موضوعك، وفي كيفية ترتيبها، وفي أسلوب كتابتها، وفي المراجع المُعينة عليها. فتنظر في كتاب بعد كتاب.

وتتأمل ما فيها، ثم تجلس لتعاين كتابة موضوعك؛ فتنتقي له الألفاظ والعبارات التي تراها مناسبة، ثم تنظر فيما كتبت، فتضيف كلمة أو جملة هنا، وتحذف كلمة أو جملة من هنالك، وتستبدل بهذه الكلمة أخرى غيرها، وتنقل هذه الفقرة إلى مكان غير مكانها الحالي. ثم تريد أن تتأكد من صواب ما كتبت فتدفع به إلى بعض الأصدقاء لمراجعته، حتى إذا غلب على ظنك أن ما أعددته هو أقرب ما استطعت إلى الصواب شكلاً ومحتوىً، توكلت على الله فنشرت ما كتبت أو قرأته حيث دعيت لقراءته. ثم تقرأ في إحدى الصحف العربية ما نُسب إليك من كلام زعم أنه تلخيص لما ذكرت، فتكاد تُصعق.

الأفكار ليست أفكارك، والكلام ليس كلامك، والأسلوب ليس أسلوبك. وتجلس حزيناً أسفاً أن مئات الناس سيقرؤون هذا الكلام المنشور فينسبون إليك أفكاراً تنكرها، وأسلوباً تستهجنه، وكلاماً لا تشك في بطلانه. فماذا تفعل؟ عبثاً تحاول أن تصلح الصحيفة ما أفسدت، لأن سمعتها أهم عندها من سمعتك، وثقة قرائها بها أهم عندها من ثقة الناس بك.

ألقيت مرة كلمة عن التعليم في مؤتمر علمي بموسكو، ثم أُنبئت بعد مدى أن إحدى صحفنا العربية حولت ما قلت إلى كلام سياسي في نقد حكومة ومهاجمة وزير بعينه، وهو رجل بيني وبينه نوع من الود، جاءني شقيقه يبلغني عتبه علي، فأكدت له أن ما كان يُنشر إنما هو محض افتراء، وأنني حاولت أن أكذبه فلم أفلح.

وألقيت محاضرة باللغة الإنجليزية عن دعوة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب استغرق مني إعدادها أسابيع، ثم ألقيتها على جماعة من الأمريكان من غير المسلمين،

وخرجت مسروراً لما وجدت من شدة إصغائهم، وجودة أسئلتهم، وما بدا من حرصهم على معرفة حقائق الإسلام. وبعد مدة من إلقاء المحاضرة التي كانت مكتوبة، جاءتني منشورة في إحدى الإصدارات وعليها اسمي، ولكن ما بدأت ألقي عليها نظرة حتى تحول السرور إلى غضبٍ شديد، وأسى عميق.

لقد عبث بالمقال عابث جاهل فأضاف إليه أشياء منكرة، وحذف منه أشياء مهمة، ووضع بعض فقراته في غير موضعها. وبينما كنت مشغولاً بكتابة خطاب إلى الجهة المسؤولة عن ذلك الإصدار، إذا بي أفاجأ بفاجعة أخرى، أرسل لي أحد الأصدقاء قصاصة من جريدة عربية فيها كلام زعم كاتبه أنه تلخيص للبحث الذي قدمته، فإذا هو كلام من اختراع كاتبه لا علاقة له بموضوع المحاضرة، وإذا هو من نوع الكلام الذي يمكن أن يكتبه الإنسان من غير بحث ولا جهد ولا عناء، وإذا به يتضمن عبارات لا يجوز لمؤمن أن يتفوه بها.

لكن الكاتب بعد كل هذا الافتراء كان كريماً معي، فزعم أنني أعمل في جامعتين اثنتين في وقت واحد، ونسبني إلى قسم علمي في هاتين الجامعتين، وهو قسم لا وجود له في أية جامعة من جامعات البلد الذي ذكره، ولا أظن أن له وجود في أي بلد عربي، بل ولا غير عربي. لست أدري لماذا يستهين كثير من الصحفيين العرب هكذا بقضايا الفكر؟ أهو شيء يُدربون عليه؟ أهو مرض خاص بهم، أم هو بلوى عامة في صحافة العالم كله؟ وما الحكمة فيه؟ ماذا يستفيد الصحفي أو تستفيد الصحيفة من نسبتها لإنسان كلاماً لم يقله حسناً كان أو سيئاً؟ ألا يعلم هؤلاء الصحفيون أن بعض الناس يحنو على إنتاجه الفكري حنوه على إنتاجه العضوي، فيؤلمه أن يشوه ويؤلمه أن يجعله بعض الناس سبباً في الإضرار به، والله تعالى يقول: ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، كما يسوؤهم أن يُنسب إليهم ما لم ينتجوا حسنا كان ما نُسب أم سيئاً، فالله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

لكن الشكوى إلى الله.

* * *

بهدوء عن الدستور

جريدة الوفاق صفحة. الاربعاء ١٧محرم ١٤١٩هـ الموافق ١٣مايو ١٩٩٨م

الدين النصيحة كما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه نصيحة لولاة الأمر أولاً ثم لبقية إخواننا المواطنين الذين يستفتون الآن في الدستور، إن هذا الدستور ليس من الإسلامية في شيء.

هل أقول هذا لأنني مثالي يتغافل عن الواقع ولا يضع اعتباراً للظروف؟ كلا، فإنني أعلم أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنه أمرنا أن نتقيه سبحانه ما استطعنا. لكنني أعلم كذلك أنه أمرنا بالاستمساك بالدين كله من حيث الاعتقاد، وحذرنا من تحريفه وتبديله ففرق بين أن يقول الإنسان هذا دين الله، لكنني لا أستطيع في هذا الظرف الذي أنا فيه أن أعمل به كله، فسأعمل لذلك بكذا وكذا مما أستطيع العمل به منه. فرْقٌ بين هذا وبين أن يُغير الدين ويبدله ليناسب أهواءه الطارئة، ثم يقول للناس هذا دين الله، فاقبلوه واعملوا به ودافعوا عنه.. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. ثم إنني أعلم أن المشكلة الكبرى التي تجعل من العسير على الدولة الالتزام بأحكام الإسلام كاملة هي وجود عدد كبير من غير المسلمين في جزء مهم من أجزاء البلاد، لكن بدلاً من أن يعترف كاتبوا الدستور بهذه المشكلة ويجتهدوا في إيجاد حل دستوري أصيل لها يكون مرضياً للمسلمين وغير المسلمين تغافلوا عنها فوقعوا في تناقض شديد، فهم يفترضون تارة أن الناس جميعاً مسلمون، فيضعون مادة يرضى عنها المسلمون، ثم يتذكرون غير المسلمين فيضعون مادة أخرى يعتقدون أنها ترضيهم وهم واضعون إلى جانب ذلك اعتباراً كبيراً لِعين الغرب التي تراقبهم لترضى عن الدستور بقدر قربه من أهواء حضارتها، أو تسخط عليه بقدر بعده عنها. ففي الدستور مواد لا مسوغ لوجودها إلا هذا، أعني أنها لم تكتب إرضاءً للمسلمين أوغير المسلمين من السودانيين، وإنما كتبت إرضاءً للغربيين وللمؤمنين بقيمهم من بعض المسلمين. أكتب إذن لأقول ما هذا بالدستور الذي يرضى

عنه المسلم، لا لأقول أكرهوا إخواننا في الجنوب على الخضوع لأحكام الإسلام، فأنا مؤمن بأنه بإمكاننا أن نضع دستوراً يحفظ للأغلبية المسلمة حقها في أن تحكم بتعاليم دينها ما استطاعت من غير تحريف ولا تبديل، ويمنح الأقلية غير المسلمة في الجنوب فرصة لأن يكون حكمها وفق أعرافها. وقد تكلمت عن ذلك في مناسبات سابقة بعد صدور نص الاتفاقية وقبل ظهور مشروع الدستور اقترحت في أن أقدم فيه اقتراحاً وصفته بأنه محض رأي قابل للأخذ والرد والتعديل والتقويم، أعيد نشره في بداية هذا المقال بعد أن أجريت عليه تعديلات اقتضاها مشروع الدستور.

اقتراح دستوري لحل قضية العلاقة بين الدين والدولة في السودان:

القضية التي يسعى هذا الاقتراح لحلها هي أن المسلمين يريدون دستوراً لا يفرض عليهم علمانية تجبرهم على التخلي عن جزء من دينهم بينما يريد غير المسلمين دستوراً لا يفرض عليهم أحكام دين لا يؤمنون به.

فكيف نحل هذا الإشكال؟:

التصور الشائع الذي أقره هذا الدستور يقضي بأن يكون هنالك مجلس تشريعي واحد يجمع المسلمين وغير المسلمين ونظام قضائي واحد يختار القضاة فيه باعتبارهم مواطنين وبغض النظر عن دينهم، وأن تكون الشريعة الإسلامية وما أسماه الدستور بإجماع الأمة استفتاءً ودستوراً وعرفاً هما مصدرا التشريع.

يَرِد على هذا التصور ما يلي:

أولاً: إذا اشترطنا العرف أن يكون عرفاً موافقاً للشريعة فلا نكون قد حللنا الإشكال، لأن العرف الموافق للشريعة هو جزء منها ذكرناه أم لم نذكره. فنكون كأننا فرضنا على غير المسلمين أحكام دين لا يؤمنون به.

ثانياً: وإذا اشترطنا كما يبدو من ظاهر نص المادة أن يكون عرفاً ارتضته أغلبية الشعب من مسلمين وغير مسلمين فما أظن أن هنالك عرفاً كهذا. وإن وجد فلن يحل الإشكال.

ثالثاً: وأما إذا قلنا إنه العرف الذي يرتضيه غير المسلمين فسيكون لا محالة متناقضاً مع الشريعة. فكيف يكون لنظام قانوني واحد مصدران متناقضان؟

قد يُقال إن حل الإشكال هو أن تكون الشريعة هي المصدر الأول للقوانين المتعلقة بالمسلمين ويكون العرف هو المصدر الأول للقوانين المتعلقة بغير المسلمين.

هذه بلا شك خطوة أحسن نحو الحل، وهو الذي فهمه معظم الذين يدافعون عن الدستور من غير أن يتمعنوا في نصوصه أو يأخذوها مأخذ الجد ليكتشفوا أنه ليس فيها هذا الذي يظنون. ولكن حتى لو صرح الدستور بما قالوا فسيَرِد عليه.

رابعاً: أنه ما دام المجلس واحداً فسيكون من حق المسلمين أن يشاركوا غير المسلمين في مناقشة القوانين المستندة إلى أعرافهم وفي التصويت على إجازتها. والحق نفسه سيكون لغير المسلمين بالنسبة للقوانين الإسلامية، وكلا الأمرين غير مُرضٍ من وجهة النظر الإسلامية كما أن أولهما قد لا يكون مرضياً من وجهة نظر أصحاب الأعراف.

خامساً: أما عدم اعتبار الدين في اختيار القضاة فسينتج عنه أن يحكم قاضٍ غير مسلم بين خصمين مسلمين بقوانين إسلامية! أو يحكم قاضٍ مسلم بين خصمين غير مسلمين بقوانين عرفية لا تقرها الشريعة الإسلامية. هذا مع أنه لا يجوز لمسلم أن يحتكم -في الظروف العادية- إلى قاضٍ غير مسلم، كما لا يجوز للقاضي المسلم أن يحكم بغير ما أنزل الله وإن كان الخصمان غير مسلمين. هذه مسألة فصل فيها الله عز وجل بقوله مخاطباً رسوله ﷺ والمسلمين من ورائه ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾: يعني غير المسلمين ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، والقسط إنما هو الحكم بما أنزل الله، وهل يحب ربنا سبحانه من لا يحكم بما أنزل؟ وهو الذي يقول ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ما الحل إذن؟

الذي أراه وأعرضه للمناقشة والنقد والتقويم.

أن ينص الدستور على أن السودان يتكون من ولايات إسلامية وولايات غير إسلامية (أو عُرفية أو غير ذلك لكن لا أرى أن يُقال جنوبية).

كل ولاية تكون غالبيتها من المسلمين فهي ولاية إسلامية، وكل ولاية تكون غالبيتها من غير المسلمين فهي مُخيرة بين أن تكون إسلامية أو غير إسلامية.

وعليه تكون للبلاد ثلاثة مجالس تشريعية، مجلس للولايات الإسلامية، وآخر للولايات غير الإسلامية، وثالث اتحادي يتكون من المجلسين بنسبة الولايات التي يُمثلانها.

ينص الدستور على أن القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع في الولايات الإسلامية، وأن الأعراف (أو ما شاء أن يختار أصحابها) هي مصادر التشريع في الولايات غير الإسلامية، ولا يحدد للقوانين الفدرالية مصادر معينة لكن يشترط فيها بالطبع أن لا تكون مخالفة للمبادئ العامة التي حددها الدستور باتفاق الطرفين.

تسري قوانين كل مجلس على كل المواطنين الموجودين في الولايات التابعة له بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية. لكن يستثنى من ذلك قوانين الأحوال الشخصية حيث تكون لها محاكم خاصة يتولى فيها قضاة ينتمون إلى الدين أو العرف الذي ينتمي إليه صاحب القضية. ويكون حكمهم بحسب قوانين المجلس التشريعي المناسب (أعني أن المسلمين يحكمون في الأحوال الشخصية بقوانين مجلس الولايات الإسلامية وإن كانوا موجودين في ولايات غير إسلامية، وكذلك الأمر بالنسبة لغير المسلمين في الولايات الإسلامية).

وعلى ذلك فإن الدستور العام يكون بمثابة وثيقة اتفاق وصلح وتعاون بين المسلمين وغير المسلمين باعتبارهم مواطنين في دولة واحدة، يريد كل فريق فيها أن ينظم حياته وفق معتقداته.

الأدلة على أن الدستور ليس إسلامياً:

أعود لقولي إن هذا الدستور الذي يعرض علينا ليس بالدستور الذي يرضى عنه المسلم، وعندي على ذلك أدلة سأذكرها، لكنني لا أريد أن أكتفي بمجرد النقد، بل سأقدم في آخر المقال اقتراحات لتعديل الدستور حتى يكون إسلامياً. أكرر أنني أعني بالدستور الذي أريده أن يكون إسلامياً صرفاً الدستور المناسب لحكم الولايات الإسلامية لا الدستور العام الذي أرى أن يكون بمثابة الصلح بين المواطنين في جُزأي البلاد كما قدمت.

إن من أدل الأدلة على تناقض هذا الدستور وعدم وضوح هويته، تناقض أقوال كبار المسؤولين المدافعين عنه في وصفهم له. فبينما يصفه بعضهم بالإسلامية مستدلاً بنصه

على حاكمية الله وعلى جعل الشريعة الإسلامية مصدراً تشريعياً، يقول عنه رئيس المجلس الذي أجازه والذي هو من أكثر المادحين له، يقول في مقابلة مع جريدة الشاهد الدولي اللندنية السودانية "إن الدستور أرسى دعائم الوحدة الوطنية بالتأكيد على سلطة الدين وليس الإسلام فحسب" –العدد ٢٣ بتاريخ ٤ أبريل ١٩٩٨- وهو ذا نائبه يرد بنفي الإسلامية عن الدستور رداً على الذين اتهموه بها من المفاوضين الجنوبيين، لست أدري ماذا سيقول له الذين غلوا وازبدوا عندما ذكرنا وذكر غيرنا لهم هذه الحقيقة؟

يقال لرئيس المجلس إنه من المعروف لكل من له أثارة من علم بالإسلام أنه دين لا يقبل الشركة، فإذا لم تكن السلطة التشريعية العليا له بل شركه فيها دين غيره، لم يكن ذلك التشريع إسلامياً فلا يكون الدستور الذي أقر هذا الشرك إسلامياً.

على أن ما قاله هذا الرجل ليس بصحيح فالسلطة العليا في هذا الدستور ليست لأي دين من الأديان المعروفة، وإنما هي لبعض المبادئ العلمانية بل لأسوأ تلك المبادئ.

دعنا إذن من كلامه ولنعد إلى ما كنا بصدده من بيان عدم إسلامية هذا الدستور، فنقول إن هذا الدستور الملفق المتناقض لا يمكن أن يكون إسلامياً.

أولاً: لأنه بينما يتحدث عن الشريعة يماشي عرف الدساتير العلمانية السائدة في العالم فيعد الدستور هو القانون الأعلى للبلاد الذي يحكم كل قوانينها وتصرفات حكامها، والذي ينبغي لذلك على المواطنين أن يحترموه ويلتزموا به.

ثانياً: لأنه يساوي بين المبادئ الإسلامية وبعض المبادئ العلمانية، وهي مساواة تتناقض مع الإسلام ومع العلمانية كليهما.

ثالثاً: لأن بعض مواده تجعل لأسوأ مبادئ العلمانية الهيمنة على أقدس المبادئ الإسلامية.

رابعاً: لأن فيه نصوصاً تتناقض تناقضاً صريحاً مع بعض النصوص الإسلامية القطعية الثبوت والدلالة.

خامساً: لأن فيه تحريفاً لبعض المبادئ الإسلامية بتفسيرها تفسيراً يتناسب مع المبادئ العلمانية.

سادساً: لأن فيه نصوصاً تتعارض مع مقاصد الإسلام العامة وتتنافى مع الأهداف التي تتحراها السياسة الشرعية الإسلامية.

وإليكم الآن بعض تفاصيل ما أجملنا.

أولاً: الدستور باعتباره القانون الأعلى:

سار واضعو هذه الوثيقة على السنة السائدة في الدساتير العلمانية باعتبار الدستور هو القانون الأعلى للبلاد الذي يجب على الناس احترامه ولا يجوز مخالفته. فكما بدأ الدستور الأمريكي بعبارة "نحن شعب الولايات المتحدة، رغبة منا في أن نرسم ونضع هذا الدستور للولايات المتحدة" يبدأ مشروع دستورنا بقوله "بسم الله خالق البشر.. نحن شعب السودان قد وضعنا لأنفسنا هذا الدستور نظاماً للحياة العامة نتعهد باحترامه وحمايته" هذا مع أنه من المقتضيات الأولية للإيمان بالله وبرسول الله ﷺ أن لا يعترف المسلم لأي قانون سواهما بأنه مساوٍ لهما أو أعلى منهما سلطة في تنظيم الحياة.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠]، وعليه فإن المسلم لا يلتزم التزاماً مطلقاً بكل كلام يقوله بشر ما غير الرسول ﷺ مهما كانت منزلة ذلك البشر من العلم والفضل. ولذلك قال الإمام مالك: (كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر)، ويشير إلى قبر النبي ﷺ. فالدستور بمعنى القانون الأعلى إنما هو نصوص الكتاب والسنة. هل معنى ذلك ألا نكتب دستوراً؟ كلا، ولكن معناه أن نعترف في دستورنا الذي نكتبه بأنه هو نفسه محكوم بنصوص الكتاب والسنة. إننا كثيراً ما نتحدث عن التأصيل، فأنّى يكون تأصيل إذا بُني دستور البلاد على التقليد؟ وإذا تزاحمت فيه المبادئ العلمانية مع المبادئ الإسلامية بل إذا كانت فيه الغلبة للأولى على الثانية؟

ثانياً: حاكمية الله وسيادة الشعب:

في هذا الدستور مادتان (الرابعة والخامسة والستون) يحسب المتحمسون له أنه يكون بهما إسلامياً خالصاً، أعنى المادة المتعلقة بحاكمية الله وتلك المتعلقة باعتبار الشريعة مصدراً من مصادر القانون، لكن نظرة دقيقة إلى صياغتها تكشف أنه ذكر مع كل منهما مبدأ آخر علماني يفسره أو ينقضه أو يقلل فاعليته.

أما المادة الرابعة فتنص على أن (الحاكمية في الدولة لله خالق البشر والسيادة فيها لشعب السودان المستخلف يمارسها عبادة لله وحملاً للأمانة وعمارة للوطن وبسطاً للعدل والحرية والشورى وينظمها القانون).

أول ما يلاحظ على هذه المادة التي طار فرحاً بها من لم يتأملوا الدستور أنها جاءت من باب المبادئ التي لا أثر قانوني لها. ويلاحظ عليها ثانياً أنها لم تكتف بإقرار حاكمية الله تعالى بل ذهبت لتُفسر هذه الحاكمية تفسيراً علمانياً وإن كانت الألفاظ المستخدمة فيه ألفاظاً إسلامية، وإليكم بيان ذلك:

إن عبارة الحاكمية لله تعني عند المسلمين أن ما حكم به الله في كتابه أو في سنة نبيه ﷺ هو الحكم الذي لا يجوز لأحد أن يخالفه أو أن يشعر بحرج منه حتى في دخيلة نفسه قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، لكن الله تعالى لا يأتي ليحكم بين الناس بذاته سبحانه، والرسول ﷺ تُوفي، فلم يعد بيننا، فصار المعنى العملي لقاعدة حاكمية الله تعالى هو أن تكون الكلمة العليا لنصوص الكتاب والسنة. وهذا أمر من الخطورة بمكان يجعله جديراً بأن يحتل المكان الصدارة في المواد الملزمة وأن يكون أثبت ثوابت الدستور التي لا تقبل تبديلاً ولا تعديلاً.

لكن الذي حدث هو أن المادة ذكرت ضمن المبادئ المواجهة ثم أضيف إليها ما يُفسد معناها ويخرجها عن مقتضاها.

بدأت المادة بعبارة (الحاكمية لله خالق البشر) فقلنا هذا حق. وتوقعنا أن يذكر بعد ذلك عبارة مثل: (فالكلمة العليا الحاكمة على هذا الدستور وعلى سائر القوانين إنما هي لنصوص الكتاب والسنة) ولكن المادة مضت مع الأسف لتقول: (والسيادة لشعب السودان المستخلف يمارسها...) لماذا تذكر سيادة المخلوقين هكذا في نفس واحد مع حاكمية الخالق سبحانه؟ ثم ما المقصود بالسيادة هنا؟

لقد كان من الممكن أن يفصل بين حاكمية الله وسيادة البشر وأن تعطى السيادة معنى لا يتنافى مع حاكمية الخالق سبحانه، لكن الذي حدث أنها ذكرت مع

حاكمية الله وأعطيت معنى يتنافى معها، إن سياق الكلام ونصوص الدستور الأخرى تدل على أن المقصود بالسيادة هنا السلطة التشريعية، فكأن المادة تقول لنا إن الحاكمية لله ديناً واعتقاداً أما في الواقع السياسي فالحاكمية للشعب. وسنرى دليل ذلك في المادة الخامسة والستين التي تجعل حكم ما يسمى بالشعب أصلاً مساوياً لحكم الله والمادة ١٣٩ التي تجعل حكمه فوق حاكمية الله. لكن مبدأ حاكمية البشر الذي يسمى أحياناً بسيادته مبدأ علماني بل هو ركيزة العقيدة العلمانية؛ لأنه أهم لوازم القول بإقصاء الدين عن الدولة لأن الدولة إذا لم تلتزم بحكم الله تعالى لم يبق لها إلا أن تلتزم بحكم البشر. ولذلك تجد هذا المبدأ منصوصاً عليه صراحة أو ضمناً في كل دستور علماني. فالفقرة الثانية من المادة الثانية من الدستور السوري مثلاً تنص على أن السيادة للشعب ويمارسها على الوجه المُبيّن في الدستور. فالسيادة هنا بمعنى الحكم أو الحاكمية، أما السيادة بمعنى استقلال البلد وعدم تبعيته لغيره فشأن آخر ولذلك ذُكرت في الدستور السوري في مادة أخرى هي المادة الأولى التي تنص على أن الجمهورية العربية السورية دولة ديمقراطية شعبية واشتراكية ذات سيادة.

حاكمية البشر هي إذن كما قلنا لازم من لوازم العلمانية أياً كان نوعها، فالعلمانية الدكتاتورية وعلمانية ما يسمى بنظام الوصاية تجعلان هذا الحق لفرد أو لبضعة أفراد، والعلمانية الديمقراطية تجعله للشعب كله وهنالك علمانية ثالثة واسعة الانتشار في العالم الثالث لا سيما العربي منه علمانية نفاقية لا تؤمن بمبدأ حكم الشعب لكنها لا تجرؤ على إنكاره بعد أن أصبح من العقائد الراسخة الواسعة الانتشار، فتلجأ لذلك إلى منافقته فتعترف به شفاهاً وتخالفه عملاً، تجري انتخابات لتقول إن الشعب هو الذي اختار لكنها تزيفها لتأتي باسم الشعب بمن تريد، تجري استفتاءات لتقول إن الشعب هو الذي أفتى لكنها تزيف فتواه لتفتي بما تريد.

ولكن إذا كانت حاكمية الشعب أو دعوى حاكمية الشعب أصلاً لازماً لمبدأ إقصاء الدين عن الدولة فما بالها يُعترف بها في دستور يقرر بأن الحاكمية لله؟.

* * *

دارفور

الاثنين ٢٨ ذو الحجة ١٤٢٥هـ / ٧ فبراير ٢٠٠٥م شبكة المشكاة الإسلامية

دارفور منطقة شاسعة من مناطق السودان تقع في الجزء الغربي منه المجاور لدولة تشاد تقدر مساحتها بمساحة فرنسا. تسكنها قبائل متعددة كلهم مسلمون يتحدثون العربية لكن بعضهم أكثر عربية من بعض من حيث اللسان وبعض العادات. ظلت بينهم بين الحين والحين خصومات ومعارك محدودة لكن الأمر تفاقم أخيراً حين تمرد بعضهم على الحكومة باسم حركة سياسية كان أساسها من قيادات خارج السودان حتى وصل الأمر بالمتمردين إلى أن اعتدوا على بعض المراكز الحكومية، وأحرقوا بعض الطائرات الواقفة بالمطار. وكانت حجتهم في هذا أنهم مظلومون وأن الحكومة مسؤولة عن تخلف منطقتهم. يبدو أن الحكومة استعانت بالقبائل الأكثر عربية واستغلت خصومتهم القديمة ضد إخوانهم هؤلاء؛ فهجموا عليهم وأحرقوا كثيرًا من قراهم واضطروهم للنزوح إلى المدن التي كانت أكثر أمنًا وإلى بلدة تشاد التي يوجد بها أيضًا النوعان من هذه القبائل.

تعترف الحكومة بأن المنطقة من أكثر مناطق السودان تخلفاً لكنها تقول إن التمرد لا مسوغ له، لأن هذا وضع ورثته الحكومة وأنها عملت أكثر مما عملت الحكومات السابقة. فالرئيس يقول إنه كان بالمنطقة سبع مدارس فقط يوم جاء هو إلى السلطة وإنه بها الآن مئتا مدرسة، ولم يكن بها جامعة وبها الآن ثلاث جامعات، وإنها بدأت في مشاريع لحل مشكلة المياه.

ماذا تفعل الحكومة؟ كثير من الدول الغربية تطالبها بأن تجرد تلك القبائل العربية (المسماة بالجانجويد) من السلاح، وتقول إن وراء الحرب محاولة لما يسمى بالتطهير العرقي، وتهدد الحكومة بأنها ستتدخل إذا لم تستجب لطلبها. لكن الحكومة تعلم أن مواجهتها للقبائل هذه بالسلاح لن تحل المشكلة بل ربما جعلتها تتفاقم، وربما فتحت الباب لتدخل دولة أجنبية وزيادة الفتنة كما حدث في حرب جنوب السودان. لذلك فإنها تفضل اللجوء إلى المفاوضات والصلح. أما الكلام عن التطهير العرقي فكلام فارغ يعلم كل زائر للخرطوم زيفه؛ فالعاصمة الآن سودان مصغر فيها كل قبائل السودان وكل أطياف سمرته. وإذا كان الناس في السودان حكومة وشعبًا رضوا بمصالحة مواطنيهم في الجنوب، بل رضوا بأن يكون أحدهم النائب الأول لرئيس الجمهورية، فكيف يسعون لتطهير البلاد من إخوان لهم يتفقون معهم في الدين واللسان؟

طالب يذكر طرائف من مناقب
شيخه العلامة عبد الله الطيب

المختار الإسلامي
١٦ شعبان ١٤٣٧هـ الموافق ٢٣ مايو ٢٠١٦

هذه ذكريات عن شيخنا الراحل الأستاذ عبد الله الطيب غفر الله له وأحسن مثواه، أضيفها إلى ذكريات غيري من طلابه الكثر المحبين المعجبين؛ عسى أن تكون كلها مادة يرجع إليها من يكتب سيرته وينشر بين الناس فضله، وهي ذكريات في أمور شتى لا تخلو من طرافة أرسلها بغير تكلف كأنها (ونسة) في أحد مجالسه العامرة، وغني عن القول بأنني إذا ما رويت عنه كلاماً فلا أذكره بألفاظه نفسها كلها - أنَّى لي ذلك وقد طال العهد؟ - وإنما أذكر فحواه وبعض ألفاظه.

أول ما يخطر بالبال تعليق الدكتور طه حسين على ديوانه أصداء النيل، ذلك الثناء العاطر من عميد الأدب العربي على ديوان شاب سوداني غير مشهور ثناء قرأه مئات الأدباء في العالم العربي وعجبوا له، أثنى الدكتور طه على الديوان لكنه أخذ على صاحبه استعماله لبعض الكلمات الغريبة بل الوحشية، لكن السودانيين ضحكوا كثيراً عندما رأوا قائمتها كانت كلمات معروفة في العامية السودانية أذكر منها الآن كلمة (الطخا) بمعنى السحاب التي ينطقها أهلنا: (التخا) على عادتهم في استثقال الطاء في بعض الكلمات وتحويلها إلى تاء كقولهم: (بتيخ) بدلا عن بطيخ. كما قال ود الماحي في سيرة الرسول ﷺ، ضلتو؛ أي أظلته التخايي.

لست أدري لماذا شاعت في عاميتنا أمثال هذه الكلمات التي كانت تعد فعلاً من الألفاظ الوحشية حتى قال الشاعر:

إنمـــا الحيزبـــون والـــدردبيس ... والطخـــا والنقـــاخ والعلطبـــيسُ
لغـــة تنفـــر المـــسامع منهـــا ... حـــين تـــروى وتـــشمئز النفـــوسُ

لكن لعل الذي أغرى شيخنا باستعمال هذه الألفاظ أنه كان له اهتمام عجيب بالعامية السودانية ومعرفة مفرداتها وتراكيبها، وكان يرى أن لغة القرى أثرى وأفصح من اللغة التي اعتادها أهل المدن، وكان يضرب لذلك مثلاً بقول الناس في القرى: «سمح وزين»، وقولهم في المدن: «كويس» لا يزيدون عليها.

وقد ظهر إتقانه للعامية السودانية في تفسيره المشهور للقرآن الكريم الذي كان المواطنون في شتى أنحاء القطر يلتفون حول المذياع للاستمتاع بالسماع إليه.

أما العربية الفصيحة فقد كان ابن بجدتها ومالك ناصيتها، لا تكاد تخفى عن علمه مفردة من مفرداتها، ولا عن حفظه قصيدة ولا نظم من نظمها، ولا عن اطلاعه أو دراسته كتاب مهم من كتبها.

حدثني الصديق الدكتور مالك بدري أن شيخنا ألقى محاضرة في بيروت فاستشهد فيها بالعشرات من أبيات الشعر من ذاكرته حتى إن أحد أساتذة اللغة بالجامعة الأمريكية- أظنه قال: إنه الدكتور إحسان عباس -قال مازحاً: ما ذا نقول لطلابنا غداً؟ هل نقول لهم إننا مثله أساتذة لغة عربية؟

تحولت العربية الفصيحة عنده إلى ما يشبه السليقة فكان إذا حاضر بها في القاعة يتكلمها كلاماً لا تكلف فيه، حتى إنك لتظن أنه إنما كان يتكلم بالعامية إلى أن ترجع إلى ما كتبته عنه لتجده عربياً فصيحاً. وكان إذا ألقى القصيدة من الشعر العربي - حتى الجاهلي منه العصي الفهم - ألقاها بطريقة يطرب لها المستمعون، وكان طلاب الجامعة كثيرًا ما يعبرون عن إعجابهم بالتصفيق الشديد حين يستمعون إليه ينشد بعضها في المناسبات العامة.

درسنا عليه في السنة الثانية من كلية الآداب عدة قصائد من كتاب المفضليات، ولا زلت أذكر شرحه الممتع لإحدى القصائد الصعبة التي أشار إليها الصديق الدكتور الحبر نور الدايم في مقاله الماتع عن شيخه الذي كانت صلته الأدبية به أوثق من صلتنا؛ لما يجمعه وإياه من حب العربية وإتقانها وبراعته في شعرها . تلك هي قصيدة المرار بن منقذ في وصف فرسه .التي من أبياتها:

ببعيد قدره ذي عذر ... صلتانٍ من بنات المنكدر

سائل شمراخه ذي جبب ... سلط السنبك في رسغ عجر

قارح قد فر عنه جانب ... ورباع جانب لم يتغر

فهو ورد اللون في ازبئراره ... وكميت اللون ما لم يزبئر

شندف أشدف ما ورعته ... فإذا طؤطئ طيار طمر

استعنت على تذكر مفرداتها- من باب الطرفة - برسمة أسميتها حصان المرار، تشير الأسهم فيها إلى أوصاف الحصان بتلك الكلمات الواردة في القصيدة، فكانت كأنها درس في علم الأحياء، وكان بعض الأصدقاء يستعيرها للمذاكرة، والغريب أن أستاذنا العلامة لم يكن يعرف معاني هذه الكلمات النادرة بالعربية فحسب، بل كان يعرف ترجماتها الإنجليزية، تلك اللغة التي كان متقنًا لها مطلعًا على آدابها، والتي كانت له فيها نظرات ومقارنات بينها وبين العربية.

منها ملاحظته لكثرة ما في قصائد شكسبير من تشبيهات وتعبيرات يقول: إنها شديدة الشبه بما في الأدب العربي، وأنه لا مثيل لها أصلاً في الأدب الإنجليزي .لم يكن شيخنا بالطبع من مؤيدي نظرية شيخ الزبير التي تقول إنه الاسم الحقيقي لشكسبير.

كان شيخنا علامة النحو العربي الذي لا يشق له غبار، كان مفتوناً بالكتاب لسيبويه يقرؤه كالورد اليومي كلما ختمه بدأه، حتى رأيته يحمله معه ويقرؤه في المسجد الحرام؛ تبركاً به ! أذكر أنه كان يقرأ في طبعة قديمة، فقلت له: هنالك طبعة جديدة بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون - كنت قد اطلعت عليها لأمر يتعلق بالفلسفة -، لكنه أعرض عن كلامي، وقال: إنه يفضل الطبعات القديمة ويراها مباركة، وكان هذا ديدنه فعلاً مع كل الكتب العربية، فكان لا يقرأ من تفسير الإمام الطبري مثلا إلا طبعة بولاق، ويراها مباركة.

شهد لبراعة شيخنا في فهم الكتاب لسيبويه علماء كثر من خارج السودان، حدثني صديق سعودي هو الدكتور تركي العتيبي أستاذ علم النحو بجامعة الإمام، فقال: إن شيخنا جاءهم أستاذا زائراً، وقال: كنت أعمل في رسالتي الماجستير عن أحد نحويي الكوفة المتقدمين، ومن خلال الدراسة اعترضتني نصوص مشكلة في الكتاب لسيبويه راجعتها في الشروح فلم أظفر بطائل ...فلما جاء د .عبد الله الطيب - رحمه الله تعالى- عرضت عليه هذه النصوص، فأفادني في بعضها إفادات رائعة دونتها في نسختي، وعرضت قوله على شيخي عظيمة فاستحسنه وسر به . وكان د . عبد الله الطيب أقرأ المعاصرين لكتاب سيبويه.

وكما كان شيخنا محبًا للعربية وعلومها كان أيضا محبًا لأهلها من الأحياء والأموات. من ذلك أنه كان شديد الإعجاب بتلميذه صديقنا الدكتور جعفر ميرغني .. جاء ذكر جعفر في أحد اجتماعات مجلس الكلية- لست أذكر الآن مناسبته-، فقال

عنه شيخه: إنه لولا التقيد باللوائح لعينته الآن محاضراً- وهو الذي يسمى في اصطلاح الجامعات العربية أستاذا مساعداً -ثم قال عنه كلمة أحرجت بعض أساتذة اللغة العربية، قال: إنه الآن- وكان قد تخرج لتوه - أعلم من بعض الأساتذة.!

وكان الأستاذ يضيق فعلاً بشكليات اللوائح، كان هنالك عالم قراءات مصري نال إعجابه، فعينه أستاذا مساعداً بالجامعة رغم أنه لم تكن له شهادة دكتوراه.

قال لي: إن كل كتاب من كتب هذا الرجل يساوي دكتوراه، وتعيين الدكتور عبد الله للرجل حلَّ له مشكلة كبيرة، فقد بدأت الجامعات الأخرى- حتى المصرية منها - تقبله أستاذا بناءً على أنه كان كذلك بجامعة الخرطوم حسب ما يقتضي الاتفاق بين الجامعات العربية، وحدثني ذات مرة أنه ذهب إلى مصر فوجد العلماء الحقيقيين هم الذين لا يحملون هذه الألقاب العلمية من دكتور وأستاذ وغيرها ! وقد وجدت مثل هذا الموقف من الألقاب عند غير شيخنا من كثير من العلماء الراسخين في علومهم على اختلافها . فما الدكتوراه عندهم إلا شهادة كالشهادات الابتدائية أو الثانوية أو الجامعية ينالها المرء ثم يتخطاها فلا يفخر بها ولا على التسمي بها . إنما يفعل ذلك بعض الضعفاء الذين يحاولون التزيي بها حتى لو لم يكونوا قد نالوها حقيقة باعتبارها حلية اجتماعية، وما مثلهم في ذلك إلا كما قال الرسول ﷺ: **(المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)** [1].

قرأت -وأنا بالقاهرة سنة أربع وخمسين ميلادية - مقالاً للأستاذ العقاد، يرد فيه على نقدٍ انتقده إياه شيخنا، وكان رداً فيه بعض الحدة، لكنني سررت عندما لمست من أستاذنا بعد سنين عدة أن ذلك لم يفسد العلاقة بينهما، بل عبر لي عن إعجابه الشديد بثقافة العقاد الموسوعية، قال إنهم استمعوا في مجمع اللغة إلى محاضرة لأحد المختصين بعلم الجيولوجيا ذكر فيها عن بعض الصخور أنها تكون كذا وكذا من الألوان، فسأله العقاد: وحكى دكتور عبد الله صوته في إعجاب (إلا تكون كذا أيضا) وذكر لوناً نسيته الآن. فأجابه المختص بأنها لا تكون كذلك، لكن العقاد جاء إلى جلسة المساء وهو يتأبط مرجعه الذي يثبت صحة ما قال!

---

(١) رواه البخاري.

ولم تكن العربية عند علامتها عبد الله الطيب مجرد فن يتذوقه، أو لسان يعبر به، بل كانت كالمرجع الذي يهتدي به في كثير من شؤون حياته، لعلَّ صديقنا الدكتور إبراهيم الحاردلو يذكر كيف أنه أمتعنا في يوم قضيناه معه في تجوال في مدينة برايتون الإنجليزية، كيف أنه كان كلما ذكر زعيمًا سودانيًا أو أمرًا سياسيًّا قال فيه رأياً، ثم أتبعه مستشهدًا بما يعرف من شعر العرب ونثرها وأخبارها، وكانت استشهادات في غاية الطرافة لولا الحياء لذكرت بعضها.

وكم كان يحزنه زهد الناس في العناية بالعربية، وكان كثيرًا ما يقول آسفًا إن بعض المثقفين عندنا يودون أن لو كان لسانهم إنجليزيا لا عربياً، وإنني لأذكر هذا التعليق كلما زرت الخرطوم فوجدت ازدياداً حتى في الأحياء الشعبية - في نسبة اللافتات المكتوبة بالإنجليزية أو المكتوبة كلماتها الأجنبية بحروف عربية لا يفهم المواطنون منها شيئاً.

كان شيخنا معنيًا في دراسته بالجودة لا الكثرة، كان ينتقي من كل علم في غير اختصاصه كتابًا يقرؤه عدة مرات ويجيد فهمه، من ذلك أنه كان يكرر قراءة كتاب برتراند رسل في تاريخ الفلسفة الغربية، وكتاب توينبي المسمى دراسة للتاريخ، وهكذا . وكان كثير القراءة لتفسير الجلالين حتى إنه ليكاد يحفظه.. وقد وجدت هذا أيضا منهج شيخنا الشيخ عبد العزير بن باز علامة عصرنا في علوم الشرع.

قال لي تلاميذه إنه قرأ صحيح مسلم بشرح النووي ستين مرة ! وإنه قرأ البداية والنهاية ست مرات، وهكذا . وحسبك بمرة من مرات ابن باز؛ إنها تساوي مرارًا من مرات غيره.

كان يعرف عن نفسه أن العربية طبعه حتى قال لي ذات يوم -ونحن نتكلم عن الفلسفة- إنه درس بعض مقرراتها أثناء عهد الطلب ببريطانيا، وإنه جودها لدرجة أن الأستاذ اقترح عليه أن يختص بها .قال لكنني قلت لنفسي: الطبع ولا التطبع.

وعلى ذكر الفلسفة، دخل عليَّ الأستاذ ذات يوم في مكتبي- وهو عميد لكلية الآداب-؛ ليسألني: أليس لك الآن محاضرة في القاعة الفلانية؟ استنكرت أن يأتي عميد الكلية ليحاسبني في مكتبي على عدم الذهاب لمحاضرة، فما هكذا يعامل الأساتذة

بجامعة الخرطوم، قلت- ولا بد أنه رأى آثار الإنكار على وجهي-: «بلى ولكنني نسيت بسبب انشغالي بهذا البحث»، فابتسم وقال: «الآن صرت أستاذاً»، فانطلقت أسارير وجهي وابتسمت، وقلت: «لماذا؟» قال: «لأن الأستاذ الحق هو الذي تشغله بحوثه عن أموره الأخرى»، ثم شرح لي أنه إنما جاء ليستشيرني في مسألة فلسفية أشكلت عليه هو وطلابه، كان هذا من تواضعه الجمِّ الذي لم يكن يتكلفه أبدًا . وكان من تواضعه وكرمه أنه كثيرًا ما يدعو طلابه إلى منزله ثم يطلب من الشعراء منهم أن يباروه في تأليف قصيدة في موضوع يختاره، أذكر أن هذا حدث مع الصديقين عمر عباس عجبنا زعيم الطلاب وخطيبهم المفوه أكرم الله نزله، والدكتور ناصر السيد شاعرهم المطبوع أطال الله عمره في طاعته.

وإذا كان مثل غفلتي تلك عن المحاضرة من السمات اللازمة للأستاذية، فقد كان هو صاحبها الذي لا يبارى .كان يقطع التذكرة من تذاكر قطار لندن الذي يسير تحت الأرض ليذهب إلى إحدى المحطات فيغفل عن النزول بها ويتجاوزها بمحطاط كثيرة لانشغاله بشيء يقرؤه أو يفكر فيه.

دخلت عليه في مكتبه ذات يوم وكان قد فرغ لتوه من اجتماع مع رؤساء الأقسام فيما أظن، فوجدتهم جميعاً يضحكون، فلما سألت أخبرني أحدهم بأنه حدث بين العميد وأحد الأعضاء خلاف، وأن العميد غضب وانتهر العضو قائلاً:" ياجرزلدا ".. فانفجر الناس ضاحكين وضحك هو وانتهت المشكلة بفضل ذكر اسم الزوجة الحبيبة.!

زلت منه مرة كلمة عن محمود محمد طه حاسبه عليها بعض إخواننا حساباً عسيراً، لكنني أشهد أن الرجل لم يكن محبًا لمحمود، ولم يكن من أنصاره، لكنه قال ما قال بسبب السياسة التي لم يكن ذا باع فيها، قال لي ذات مرة إنه لا يحب محموداً؛ لأنه لا يحب الرسول ﷺ. وكان يقول لنا تشجيعاً على نقدنا لمحمود أنتم وحدكم الذين تستطيعون نقده، ويعني بـ(أنتم) نحن أصحاب التوجه السني .قلت: لماذا؟ قال: لأن هؤلاء الشيوخ الذين يهاجمهم ينسبون إلى بعض شيوخ الصوفية ما يدعي محمود لنفسه، فهم لا ينكرون أن يصل الإنسان مثلا وصولا يرفع عنه أحكام العبادات والحلال والحرام، لكنهم ينكرون أن يكون محمود قد وصل إلى هذه الدرجة .وعلى ذكر محمود،

دخلت عليه ذات يوم في مكتبه فحكى لي قصة طريفة، قال: إنه كان معه قبل قليل أحد القساوسة- ذكر لي بلده الأوروبي لكنني نسيته -وأنه أخبره أنه جاء ليتشرف بزيارته ويتحدث إليه .قال الدكتور عبد الله فقلت له: لست أنا الذي تريد .إنك تريد رجلاً آخر اسمه محمود محمد طه وعرفته من هو . قال فاعترف بأن محمودًا كان من طلبته، لا عبد الله الطيب، قلت لشيخنا: لكن كيف عرفت أنه إنما يريد محموداً، ولا يريدك أنت؟ قال: ما ذا يبتغي قس أوروبي عند رجل همه اللغة العربية وهم لا يحبونها ولا أهلها، إنه يريد هذا الذي يقول ما يرضيهم.!

وتصديقا لكلام شيخنا التقيت أنا في الرياض بقس كبير من علمائهم كنت قد قرأت بعض أجزاء من كتاب له عن وجود الخالق مترجماً إلى الإنجليزية، سُرَّ لما أخبرته بذلك، فلما عرف أنني سوداني كان أول ما سألني عن محمود محمد طه، فأجبته بكلمة صعق لها . قلت: هذا ليس مسلماً!

كان مما أعجب له في شيخنا أنه مع معرفته الواسعة بالعربية وعلومها والتفسير والتاريخ إلا أنه كان في باب الفقه مالكيًا مقلدًا تقليد العوام، بل كانت حججه لتسويغ هذا التقليد هي حجج العوام، لكنني عرفت السر في ذلك بكلام قاله لي هو عن نفسه في إحدى زياراته للرياض .كان يقرأ في كتاب المسند للإمام أحمد فاعترف بأنه كان مقصرًا في اهتمامه بعلم الحديث، وأنه بدأ الآن يتدارك ذلك، فسررت لذلك أيما سرور.

لقد كان شيخنا فخر السودانيين يعتز به شبابهم ويحتفلون به ويكرمونه حيثما حل في بلد يسكنونه .رأيناهم يكرمونه في المدن البريطانية، والأمريكية، والبلاد العربية وسمعنا عن تكريمهم له في غيرها.

هذا بعض ما جادت به عن شيخه ذاكرة طالب تجاوز السبعين، أرجو ممن يطلع عليها ممن يعرف ما لا أعرف عن بعض ما ذكرت أن لا يتردد في تصويبها . فمعاذ الله أن نظن بأنفسنا عدم الخطأ أو أن نستنكف عن التصويب .تلك جوانب من حسنات الفقيد غفر الله لنا وله ذنوبنا وتقصيرنا وإساءتنا، ورحمنا وإياه رحمة واسعة، وجزاه الله خيراً كثيرًا على اهتمامه بلغة الكتاب العزيز والرسول الكريم، وعمله على نشرها والانتصار لها.

* * *

عدو العدو أصديق دائماً هو؟

الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م شبكة المشكاة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد:

من القواعد الباطلة التي تتحكم أحياناً في سلوكنا البشري ما يكون مضمراً لا يفصح عنه الإنسان حتى لنفسه، لأنه ربما لا يكون هو واعياً به، بل ربما أنكره إذا ما رآه مصرحاً به، لذلك كان كشف هذه القواعد السلوكية المضمرة والإفصاح عنها ومناقشتها من أحسن وسائل التقليل من شرها، وإقناع الناس بعدم الخضوع لها.

من هذه القواعد الباطلة أن عدو العدو هو دائماً صديق، أو أن صديق العدو هو دائماً عدو .كل منا يعرف بعقله ومن تجربته أن هذا ليس بصحيح .لأنه يعرف أن العدوين قد يشتركان في أمر يجعل كلاً منهما عدواً له، ولأنه يعرف أن الأمر الذي يتعاديان بسببه قد لا يكون له علاقة بذلك الأمر الذي جعل كلاً منهما عدواً له، ولأنه يعرف أن من يصادق عدواً لنا قد يصادقه لأمر لا علاقة له بالأمر الذي جعله لنا عدواً . لكننا في حياتنا الواقعية كثيراً ما نسير على هذه القاعدة التي نعلم بطلانها من الناحية العقلية والتجريبية.

من أضرار هذه القاعدة الباطلة أنها تفقد الفرد أو الجماعة أو الدولة الاستقلال في اتخاذ المواقف، بل تجعل عدوها- من حيث لا تشعر -هو الذي يقرر لها مواقفها، لأن موقفها سيكون دائماً هو الموقف المضاد لمن تراه عدواً لها، فثناء إعلامه على جهة ما يدعو للارتياب في أمره وهجومه عليها يدعو للثقة بها والثناء عليها.

من أضرارها أن العدو إذا عرف هذا الضعف في من تُسيِّره هذه القاعدة الباطلة، أمكنه أن يستغلها أسوأ استغلال .فما عليه ليجعله يعادي جهة ما إلا أن يُظهر الود نحوها ولو كان في الباطن خصماً لها، بل قد يكون هذا العداء الظاهر بترتيب معها، وما عليه لكي يجعلها ترتاب في أمر فرد أو جماعة أو دولة إلا أن يظهر الود نحوها والثناء عليها ولو كان في الباطن عدواً لَها.

إنَّ العقلاء الجديرين بالنجاح في عملهم هم الذين يتخذون مواقفهم بمقياس مبادئهم وبمراعاة لمصالحهم، ولا يجعلون غيرهم يقرر لهم ذلك سلباً أو إيجاباً .إن ديننا يحذرنا من أن يحملنا بغضنا لعدو على الاعتداء الظالم عليه، فكيف لا يمنعنا من أن نجور في حكمنا على غيره فنعاديه وهو يستحق الموالاة أو المناصرة، أو نواليه أو نناصره وهو يستحق المعاداة والمواجهة. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فليكن اجتماعكم القادم بالمكسيك

الشبكة العنكبوتية

انعقد مجلس الأمن - في شأن قضية دارفور - بنيروبي، وكانت هذه إحدى المرات النادرة التي يجتمع فيها خارج مقره بنيويورك.

انعقد ليكون قريبًا من السودان، وليضغط على حكومته والمتمردين عليها لكي يصلوا إلى حل وفاق!

وبما أن في العالم مشكلة أظلم بكثير من مشكلة الخلاف بين حكومة السودان والمتمردين سواء بدارفور أو بجنوب السودان.

فنقترح على مجلس الأمن الموقر أن يكون اجتماعه القادم بالمكسيك ليكون قريبًا من الدولة التي هي سبب تلك المشكلة.

ونقترح على الرئيس عنان أن يلقي في بداية ذلك الاجتماع كلمة قصيرة يقول فيها بعد إلقاء التحية على الأعضاء:

يشرفنا أن نجتمع اليوم بجوار الدولة التي كنا نجتمع دائمًا بداخلها لأن الاجتماع بداخلها حجب عنا فيما يبدو رؤية المشكلات التي هي سبب فيها، نجتمع لا لنضغط عليها فالضغط بالأصابع على الحديد يؤثر على الأصابع الضاغطة لا الحديد المضغوط عليه لا سيما إذا كان الحديد ساخنًا.

إننا نجتمع لنناقش مشكلة فريدة من نوعها، تبين لي الآن أنها أكبر بكثير من مشكلة دارفور التي وصفناها بأنها أكبر كارثة عالمية. إن أجل المشكلة الدار فورية يوشك أن ينتهي قبل بلوغها العام.

لكن مشكلتنا هذه مزمنة وستبقى آثارها لأعوام. مشكلة السودان مشكلة داخلية بين مواطنين ينتمون إلى أرض واحدة كل منهم حريص على خيرها وعلى نصيبه من خيراتها.

لكن مشكلتنا هذه بين دولة واحدة ودول أخرى لا تجمعها وإياها أرض ولا لغة ولا دين ولا حضارة ولا تاريخ.

لكنها تقول رغم ذلك إنها خطر على مصلحتها الوطنية، وهي في سبيل درء هذا الخطر المزعوم.

لا تبالي باستعمال أقوى ما عندها وعند حلفائها من أسلحة الدمار غير الشامل لتخرب تلك البلاد، وتقتل رجالها ونساءها وأطفالها.

ولا تفرق بين مدني وعسكري، ولا مسجد ولا مطار ولا مكتبة ولا قلعة. ولا متحف ولا ترسانة.

ثم إنها تقول إنها إنما تفعل كل هذا لتضفي على تلك البلاد نعمة الديمقراطية والاستمتاع برؤية صناديق الاقتراع.

هل سمعتم بديمقراطية تفرض على الناس بالقوة؟ أليست الديمقراطية هي حكم الشعب؟

أوليس المقصود بالشعب المواطنين في أرض معينة؟ كيف إذن تأتي حكومة شعب آخر لتفرض على شعب غير شعبها نظامًا سياسيًا تقول إنه اختاره. وحكامًا تختارهم هي ليختارهم هو؟

إنني أخشى من هذا السلوك إذا استمر من غير احتجاج قوي من مجلسكم هذا أن يكون داء ينخر في الأسس التي قامت عليه فكرة هيئة الأمم وسائر المؤسسات الدولية.

مندوب الصين:

لكن ماذا نفعل يا سيدي الرئيس إذا كانت هذه الدولة تعتقد أنها هي روح العالم. وأن ما كان في مصلحتها فهو في مصلحته، وما لم يكن فهو في ضرره.

وأن كل نظام ترتضيه في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو حتى الترويح فهو وحده النظام الي يتناسب مع الجنس البشري.

وعليه فإن كل محاولة لإحداث نظام مخالف لنظامها هي حرب على ذلك الجنس لا عليها وحدها. وأنها حينما تحاربه إنما تعمل ذلك لمصلحة.

***

لهذا كان اهتمامنا بفكر الشيخ

مجلة منار السبيل شعبان ١٤١٤ يناير ١٩٩٣

ميزة الشيخ أنه سلط ما حباه الله به من أنوار الرسالة المحمدية، وما منحه من مواهب فطرية، وما حلاه به من فضائل خُلقية على مشكلات عصره الواقعية والعلمية.

فكان قوله في معظمها هو القول الفصل الذي يشهد له صحيح الأدلة النقلية، وصريح الحجج العقلية، وضوح الصياغة البيانية وجمال القيم الخلقية العلمية.

من المفكرين الإسلاميين الذين سبقوا شيخ الإسلام ابن تيمية أو عاصروه من كان ذا معرفة واسعة بالفكر الفلسفي وما اتصل به آنذاك من علوم رياضية وطبيعية وكيماوية وفلكية ومنطقية وغير ذلك، لكن بضاعتهم في العلوم الشرعية كانت مزجاة، لذلك تأثروا بكثير من نواحي الفكر اليوناني المخالفة للإسلام، بل إن منهم من جعل هذا الفكر أساساً له، وحاول أن يفسر الإسلام في نطاقه، فجره هذا إلى إنكار بعض أصول الدين أو تأويلها تأويلاً تعطيلياً. ومنهم من كان ذا معرفة جيدة بالعلوم الشرعية من لغة وتفسير وحديث وفقه وأصول فقه، لكنه يجهل العلوم الفلسفية والكلامية وما اتصل بها جهلاً كاملاً، لذلك لم يستطع أن ينقدها، أو يبين زيفها ويقي الناس شرها .بل إن من هؤلاء العلماء الأفاضل من كان سبب فتنة لبعض الناس لأنه لم يميز بين ما في الفكر اليوناني من حقائق يؤيدها الدليل العقلي أو الحسي، وما فيه من عقائد فاسدة، وآراء باطلة ولا سيما في مسائل الإلهيات، فحكموا على الجميع بالبطلان ومخالفة الإسلام.

وفي أمثال هؤلاء العلماء يقول أبو حامد الغزالي: «ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية، لا يبقى معها ريبة، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها... إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيها وإنما يسترب في الشرع».

وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه، وهو كما قيل: (عدو عاقل خير من صديق جاهل).

ومنهم من جمع بين الاطلاع الواسع على هذه العلوم وكان مع ذلك من علماء الشريعة المرموقين، لكن علمه بسنة الرسول ﷺ وبأقوال السلف كان قليلاً. بل لم يميز بين صحيح الأحاديث والآثار وضعيفها. ولم يكن فهمه لمسائل العقيدة هو الفهم السلفي الصحيح الذي تدل عليه النصوص والآثار. ومنهم من تفرغ للعبادة والذكر والاهتمام بأحوال القلوب ومقومات السلوك، ولم يُرد أن يشغل نفسه بالأمور العامة، ولا سيما مجادلة أهل الباطل.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أعطاه الله تعالى نصيباً وافراً من كل خير أعطاه لهؤلاء المفكرين والعلماء، فقد كان رحمه الله رجلاً حاد الذكاء، سريع القراءة والكتابة والفهم. وكان بحراً في علوم القرآن والسنة، ذا اطلاع واسع على آثار الصحابة وما جاء بعدهم من الأئمة، متضلعاً في العلوم العربية حتى قيل إنه استدرك عدة مسائل على سيبويه، مطلعاً على أصول الفقه وفروعه وأقوال المذاهب اطلاع العالم المختص.

وكان ذا معرفة دقيقة بالمذاهب الكلامية وأقوال الفرق، حتى لقد قال هو عن نفسه إنه جادل الفلاسفة وعمره أربعة عشر عاماً! وكان عالماً بعقائد اليهود والنصارى ومذاهبهم، غواصاً في علوم عصره الرياضية والطبيعية والفلكية والتاريخية.

وكان إلى جانب هذا العلم الواسع وذاك الذكاء الخارق، رجل عبادة وزهد، وكان مع عبادته وزهده ذا اهتمام كبير بقضايا عصره العلمية والعملية، السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والاجتماعية والاعتقادية والتربوية وما شئت من قضايا. وكان مع جهاده بالقلم واللسان مجاهداً بالسيف والسنان.

ميزة ابن تيمية أنه سلط ما حباه الله به من أنوار الرسالة المحمدية، وما منحه من مواهب فطرية، وما حلاه به من فضائل خلقية، سلط كل هذا على مشكلات عصره الواقعية والعلمية، فكان قوله في معظمها هو القول الفصل الذي يشهد له صحيح الأدلة النقلية، وصريح الحجج العقلية، ووضوح الصياغة البيانية، وجمال القيم الخلقية العلمية.

* * *

نذر الشر تقترب

الأحد ٠٩ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ/ ١٩ ديسمبر ٢٠٠٠م
شبكة المشكاة الإسلامية

في الثلاثين من شهر أغسطس من هذه السنة كتبت صحفية اسمها "جولي فلنت" مقالاً بجريدة الإندبندنت البريطانية قالت فيه إنه على مجلس الأمن أن يقرر أن حكومة السودان لم تف بمتطلبات قراره بشأن دارفور، ويجب عليه أن يسمي المجرمين بأسمائهم وهم:

نائب الرئيس علي عثمان محمد طه.

ووزير الحكم الفدرالي نافع علي نافع.

ووزير الدفاع بكري حسن.

ورئيس المخابرات صلاح جوش.

يجب أن يمنعوا هم وأسرهم من السفر الدولي، وأن تجمد أرصدتهم، وأن تكون لجنة عالمية للتحقيق في جرائم الحرب.

يجب أن تفرض عقوبات على صناعة النفط السوداني، وعلى كل ممتلكات الحزب الحاكم. والمقاطعة التي كانت موجهة ضد الجنجويد يجب أن يعلن توجيهها إلى الحكومة. ثم تقول إنه إذا لم تفعل الأمم المتحدة شيئاً من هذا فلا بد من عمل فردي للضغط على حكومة الخرطوم. بقي أن يعلم القارئ أن كاتبة هذا المقال هي كاتبة تقرير منظمة Human Watch عن دارفور.

وفي مجلة أمريكية مختصة بعرض الكتب اسمها:

The New York Review of Books

كتب جون رايل مقالاً طويلاً بعنوان مأساة دارفور. ومع أن هذا الكاتب يعترف في مقاله بأن السبب الأساس لتخلف دارفور هو إهمال الحكم البريطاني لها لمدة خمسين عاماً.

ومع أنه يعترف بأنه لا يمكن التفريق بين العرب والأفارقة باللون، ومع أنه يعترف بأن الأفارقة و العرب يتزاوجون، ومع أنه يقول إن الحكومة الحالية لم تعد إسلامية، إلا أنه في النهاية يمضي إلى أكثر مما ذهبت إليه الصحفية البريطانية.

إنه يرى أنه لا حل للمشكلة إلا بأن تهدد الحكومة بغزو خارجي.

والمفهوم من كلامه أنه غزو يجب أن يكون أمريكياً أوروبياً لأن الصين ودولاً أخرى تقف مع السودان فلا يمكن أن توافق على غزو باسم الأمم المتحدة.

إنه يقول: «إنه ليس من المعقول أن تحصر مسؤولية الاستراتيجية العسكرية المطبقة بدارفور أو الجنوب في موظفين معينين في الأجهزة الأمنية السرية الداخلية، أو في المخابرات العسكرية. إذا كان هنالك من مذنب فيجب أن يكون السلطة العليا، القائد العام، رئيس الجمهورية».

ثم يجيء قرار باول بتصنيف ما يحدث في السودان بأنه يرقى إلى الإبادة الجماعية، وأن المسؤول عن هذه الإبادة هو حكومة السودان. وتسأل قناة الجزيرة الزعيم السوداني الصادق المهدي عن قول باول؛ فيجيب بأنهم كانوا قد نصحوا الحكومة فلم تستجب لهم.

يسأل عما يمكن أن يعمل فيجيب بأن المجتمع الدولي قد تولى المبادرة الآن. فهذا الزعيم السوداني يجعل قول باول هو مبادرة المجتمع الدولي. ويسأل زعيم سوداني آخر هو جون قرنق فيقول إنه يوافق باول على قوله.

ماذا بقي؟

لم يبق إلا أن تعد العدة لإزالة الحكومة السودانية بقوة قوامها الأمريكان والإنجليز كما حدث في أفغانستان والعراق.

وبمساعدة من قوى سودانية داخلية كما حدث في تلك البلاد. وإذا حدث هذا فلن يكون الحاكم الجديد السيد الصادق ولا السيد محمد عثمان بل ولا السيد قرنق كما لم يكن في أفغانستان أمثال رباني وسياف. سيكون الجديد – أجارنا الله- كرازاي سوداني.

* * *

نظرات فكرية في السياسة السودانية

جريدة الميثاق الإسلامي. الأحد ٤ أبريل ١٩٦٥م

لماذا نطالب بأن تكون للأحزاب فلسفة تسير عليها؟

لأن الحزب الذي ليس له فلسفة ليس حزباً، ولأن مهمة الحزب هي توضيح المبادئ التي يسير عليها والطريقة العملية التي تنفذ بها هذه المبادئ، كما أن الحزب الذي لا يملك فلسفة قد يكون مصدر خطر على الأمة؛ لأن عضويته تكون وسيلة لتحقيق المطامع والوصول إلى الحكم فقط وهذا النوع خطره على الأمة جد عظيم.

لماذا نحب أن نفرق بين الفلسفات والبرامج؟

إننا ينبغي أن نفرق بين الفلسفات والبرامج. فالفلسفات ليست تجميع بين مطالب وشعارات الناس وجعلها في قائمة واحدة ثم نقول إنها فلسفتنا فهذا ليس صحيحاً، كما أن البرامج ليست هي الفلسفة. فالفلسفة هي توضيح وجهة نظر في الحياة تكون ديناً للإنسان، لهذا كان يقول الرسول ﷺ كما في القرآن الكريم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. إذن الفلسفة هي تحديد وجهة نظر كاملة للحياة بصرف النظر عن نوعها، وتحديد وجهة النظر في الحياة تحدد السلوك العملي في الحياة. فالإجابة على أسئلةٍ كهل لهذا الكون إله؟ هل هذه الحياة نهاية النهايات... إلخ تحدد مبادئ أساسية في الحياة تؤثر على التطبيق العملي في الدنيا. لذلك مجرد تجميع المطالب والشعارات لا يغني، لأن فيصل التفرقة ليس المطالبة فقط بالشعارات ولكن الإيمان بها والعمل لها.

كثيراً من الناس وخصوصاً المثقفين يعتقدون أن هذه الشعارات التي تمثل واقعنا ليست موجودة في الدين. فهم يقولون لماذا لا ندع الدين وننظر إلى مشاكلنا الواقعية ونحملها عن طريق فلسفة الخطأ والصواب. ولكن -كما يقول الميثاق المصري إن تجربة الخطأ والصواب لا تجدي إلا في إطار نظرية. علينا أن نحدد الهدف ثم نسير عليه وترينا التجربة العملية صحة أو خطأ هذه الأشياء. أما البدء من لا شيء فغير ممكن وأي إ نسان ليست له وجهة نظر إما أن يكون خطراً على الحياة أو يكون ريشة في مهب الفلسفات التي تمر عليه لأنه لا يستطيع تكوين رأي. أما الذي له وجهة نظر وفلسفة في الحياة فيملك مقياساً يستطيع على ضوئه تبيان الأشياء. والمجتمع السوداني يرينا أن الاتجاهات الإسلامية والماركسية هي التي تملك فلسفات في هذا البلد. أما

مسألة الروح الإسلامية والتسامح... إلخ فهي أشياء لا تجدي إذا أُخذت مجزأة. ومن مميزات جبهة الميثاق الإسلامي أنها تعتبر الإسلام أساساً تبني عليه بنياناً، فكل رأي وكل عمل نريده أن ينبع من الإسلام وعلى هذا يكون مقياس الحزب الإسلامي. ومن تجربة الجمهورية العربية التي يجب أن يطلع عليها المثقفون في هذا البلد من ضمن اطلاعهم على تجارب البلدان الأخرى نرى أن مسألة تجميع الشعارات ومحاولة تجميعها في فلسفة قد فشلت ثم محاولة الجمع بين النظرية الماركسية والاتجاه الإسلامي في فلسفة اشتراكية متميزة عن الإسلام وعن الفلسفة الماركسية قد فشلت أيضاً. كل هذا دليل على أهمية الإيمان بفكرة واحدة متكاملة.

محنة المثقفين في هذا البلد: أما المثقفون في هذا البلد فيعيشون في محنة لأنهم لا يؤمنون بشيء. فهم لا يريدون الإيمان بالشيوعية، كما أنهم لا يؤمنون بالإسلام عن جهل به، ويحاولون الإيمان بقيم غربية غريبة عن مجتمعنا. ونحن نرى أن من يريد أن يكون جاداً لا بد أن يؤمن بفكرة ويعمل لها.

ماذا نريد؟ ما هي برامجنا العملية؟ هذا ما يسألنا عنه الناس:

أهم شيء نريده ونظن أننا قد نجحنا فيه أن نحدد الاتجاه الذي تسير عليه البلاد، وهذا من أهم الأشياء في فترات الانتقال، كما أن الحديث في التفاصيل في هذه الآونة لا يجدي كثيراً والمهم هو أولاً تبيان الاتجاه، واتجاهنا هو الإسلام ونحن نريد أن نبني حياتنا في كل جوانبها عليه..

نقول إننا قد نجحنا في تحديد الاتجاه إلى الآن ودليلنا على ذلك أن كل الليالي السياسية الآن تتكلم عن الإسلام بينما كان الحديث عن الإسلام في الماضي يثير الضحك ويوصف بالرجعية، ولكنه أصبح الآن بضاعة رائجة لحديث كل الناس.

ومع تحديدنا للاتجاه الإسلامي العام حاولنا أن نحدد اتجاهات جوانب الحياة الإسلامية في السياسة والاقتصاد والاجتماع ... إلخ ففي السياسة أوضحنا الشكل الدستوري الذي نريده من جمهورية برلمانية رئاسية تقوم على الحرية والشورى إلخ. أما الناحية الاقتصادية فقد تحدثنا عنها ولعلها من المسائل التي تريد كثيراً من الحديث بشكل عام وقبل أن نتحدث عنها نريد أن نوضح مهمة ومفهوم الدولة في الإسلام. فالحديث عن هذا يلقي بعض الضوء على كثير من المشاكل.

***

يوميات الميثاق: عن الصحافة والصحفيين

جريدة الميثاق الإسلامي. العدد
٩٠.٩ شعبان ١٣٨٥هـ الموافق ٢ ديسمبر ١٩٦٥

ليس من حق إنسان حزبياً كان أو غير حزبي أن يطلب من الصحافة أو يتوقع إلا تنشر إلا الخبر الذي يرضيه وأن لا يعبر محرروها إلا عن الرأي الذي يراه.

ولكن من حق كل إنسان على الصحافة كلها وعلى المستقلة منها بالذات أن تكون عادلة و أمينة، والعدالة تقتضي وضع الأمور أماكنها الصحيحة. والأمانة تقتضي كشف الحقائق من غير تحيز.

وبعد هذا، بعد أن توضع الأمور في أماكنها، وبعد أن تكشف الحقائق من غير تحيز، بعد هذا للمحرر أن يرى في كلمته ما شاء من آراء فآراؤه لا تعدو أن تكون آراء فرد من سائر الناس.

ولكن بعض صحفنا المستقلة لا تفهم مهمتها هذا الفهم المستقيم. إنها تخلط بين واجبها الأساسي كأداة عادلة أمينة لاطلاع المواطنين على الحقائق التي يبنون عليها آراءهم، وبين مهمتها الثانوية كوسيلة للترويج لآراء المحررين واتجاهاتهم.

ومن ثم فأنت ترى معظم الأخبار مسوقة بطريقة تؤيد وجهة النظر التي تعبر عنها كلمة المحرر.

خبر عن هيئة أساتذة الجامعة يبرز بالعناوين الكبيرة وخبر آخر عن مجموعة أخرى تمثل الأساتذة الحقيقيين تمثيلاً أصدق يوضع في ركن قصي لا يكاد يُرى.

لماذا؟ لأن المحرر كان يود أن لو لم يظهر هذا الخبر.

إنني مؤمن بحرية الصحافة، لكنني مشفق على صحافتنا المستقلة، مشفق عليها لأنني أعلم أن كل أمر يقوم على الظلم والافتراء فلن يحيا طويلاً في أمة مفطورة على كراهية الظلم والخيانة. مشفق عليها لأنني أعلم أنها بهذا

السلوك الظالم تعطي المتضررين منها سلاحاً لهدمها. يومذاك سيقل عدد العاطفين عليها.

❖ إنني أكاد احتقر كل إنسان منَّ الله عليه بشيء من وعي وأعطاه نعمة القراءة إذا كان لا يزال يتساءل:

هل الشيوعية إلحاد أم ليست إلحاداً؟

لا أحتقره لجهله ولكن لكسله وانحطاط همته..

لأنني أتوقع من كل إنسان تعلم القراءة وأعطي شيئاً من علو الهمة أن لا يبقى حائراً مرتاباً في أمر من السهل عليه أن يجد جوابه في أقرب لمكتبات.

ويبلغ الأمر حد الطامة الكبرى حين يأتي التساؤل من وكالة للأنباء لا من فرد عادي.

قالت: وكالة أخبار الخرطوم للسكرتير العام للحزب الشيوعي إن عدداً لا يستهان به من السودانيين تساورهم الشكوك حول العلاقة بين الإسلام والشيوعية.

ولم تناقشه حين قال لها: «إن السبب في ذلك هو الاستعمار الذي ألقى في روع الشعوب المسلمة أن الاشتراكية والشيوعية ضد الأديان!!».

لم تقل له إننا نعلم إن الشيوعية ضد الأديان وأن ما جاء في كتابكم الفلاني وعبر عنه الفيلسوف العلاني.

وذهب بي الخيال إلى صحفيين ومعلقين آخرين في بلد بعيد عن بلدي الكريم إلى صحفيين بريطانيين رأيتهم يناقشون القادة والوزراء نقاش العالم الخبير الذي لا يقبل الإجابة إلا بعد تمحيص وأخذ ورد يحرج القادة والوزراء.

وقلت لماذا يعجز محررونا عن أن يكونوا كأولئك.

* * *

المقالات متنوعة التى نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

١) أخرجوهم فإنهم مسلمون:

مجلة البيان ١٣٩ ربيع الأول ١٤٢٠ يوليو ١٩٩٩م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن سبب إخراج المسلمين من كوسوفا، وأن هذا هو كان هدف الطائفة الحاقدة من الصرب ممثلةً في رئيسها الدكتاتور المغرور المستكبر الكذاب ميلوسيفتش ومن معه هو إخراج المسلمين جميعاً من كوسوفا، بل ومن أوروبا كلها إن أمكن، بل ومحوهم من على ظهر الأرض إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢) تم......تم.......تم أسلوب جديد ركيك:

مجلة البيان ١٩٩ ربيع الأول ١٤٢٥ أبريل / مايو ٢٠٠٤م

تحدث الشيخ في هذا المقال عن أسلوب تم...تم...تم، وأنه اسلوب ركيك وأن نصحح هذا الخطأ الذي رسخ في أذهاننا سنين عدة، إن أول خطوة هي أن نكون مقتنعين بخطئه وقبحه، ثم إذا كان الواحد منا كاتباً فعليه أن يراجع ما كتب ليحذف منه كل ورود لكلمة تم بهذا المعنى الغالط، وإذا كان مصححاً في صحيفة أو دار نشر فعليه أن يفعل مثل ذلك. ثم على الأساتذة ولا سيما مدرسي اللغة العربية أن ينبهوا طلابهم إلى هذا حتى لو كانوا هم أنفسهم من الذين يرتكبون هذا الخطأ.

٣) عبر من فتنة دارفور:

مجلة البيان ٢٠٤ شعبان ١٤٢٥ سبتمبر أكتوبر ٢٠٠٤م

وفي هذه المقالة تحدث الشيخ عن بعض العبر والدروس من الفتنة التي حصلت في دارفور في السودان.

٤) المواطنة والهوية:

مجلة البيان ٢١١ ربيع الاول ١٤٢٦ مايو ٢٠٠٥م

في هذا المقال يبين الشيخ العلاقة بين المواطنة والهوية فيذكر أن المواطنة انتساب جغرافي، والهوية انتساب ثقافي والمواطنة انتساب إلى أرض معينة، والهوية انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة، ثم يذكر العلاقة بينهما فيقول حفظه الله: الهوية لازمة للمواطنة؛ لأن المواطنين لا بد لهم من نظام سياسي، وعلاقات اقتصادية واجتماعية، وقوانين تضبط هذه العلاقات، وكل هذا إنما يبنى على معتقدات وقيم ومعايير؛ أي على هوية معينة.

٥) وانفصل الجنوب:

مجلة البيان ٢٥٨ جمادى الأولى ١٤٣٢ أبريل ٢٠١١م

تحدث الشيخ عن انفصال جنوب السودان عن شماله، وذكر -حفظه الله- أن هذا من أقوى الشواهد على أضرار حال التمزق الذي تعيشه الأمة العربية؛ ذلك لو أنها كانت أمة واحدة، بل لو كان بينها من الائتلاف ما بين الدول الأوروبية لما تجَرأ أحد على اقتطاع جزء منها.

ثانياً: كتب ودراسات

صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي

وهذا الكتاب قام بإصداره مركز البيان، وهو عبارة عن مجموع مقالات في مجلة البيان وموضوعات أخرى سبق أن نشر بعضها في كتب وبعضها في مجلات عربية وإسلامية، وقد قسمت هذه المقالات والموضوعات إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: الحضارات...صراع أم تعايش؟

ويحوي الموضوعات التالية:

١- العولمة وصراع الحضارات:

وهو عبارة عن مقال نشر في مجلة البيان العدد١٦٩، رمضان ١٤٢٢الموافق نوفمبر ديسمبر ٢٠٠١م وأشرنا إليه في قسم المقالات.

٢- موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى:

وهي عبارة عن محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مهرجان الجنادرية الحادي عشر عام ١٤١٦بعنوان موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى رؤية شرعية، وقد قامت الإدارة العامة للحرس الوطني بطباعة هذه المحاضرة مع مجموعة من المحاضرات ضمن إصدرات المهرجان الوطني للتراث في كتاب عام ١٤١٧-١٩٩٧م بإشراف الدكتور عبد الرحمن السبيت.

وقد صدر الدكتور محاضرته بسؤال والاجابة عنه وهو: هل صدام الحضارات أمر لازم؟ وذكر الاختلاف في ذلك، ثم تحدث عن طبيعة العصبيات الثقافية والموقف الإسلامي من الحضارات من حيث المبدأ:

١-الموقف من المعتقدات.

٢-الموقف من المعتقدين.

(أ) من المسلمين.

(ب) من غير المسلمين.

ثم ختم الدكتور المحاضرة بالموقف في الظروف الراهنة لخصها في أربعة واجبات:

١-الدعوة إلى الحق.

٢-إعداد القوة الرادعة.

٣-الجنوح للسلم وحل المشكلات بالتفاهم والعدل والقسط.

٤-تبادل المنافع.

٣- صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية:

وهو عبارة عن بحث قدم لمؤتمر عقد في قاعة الصداقة بالخرطوم في ١٧رجب ١٤٢٣الموافق ٢٤سبتمبر ٢٠٠٢م.

بدأ الشيخ بحثه بسؤال ما الحضارات التي يقال إنها تتصارع الآن؟ وخلص الشيخ إلى أنه ليس هناك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية؛ لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي توجد به حضارة إسلامية. ثم يسأل الشيخ فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ والاجابة هي أن مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا ألا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. فهم يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء للحضارة الإسلامية التي كانت سائدة، ومما يزيدهم خوفاً قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هزم. ثم يورد الشيخ سؤالاً: ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟

من الضمانات: الدعوة إلى الانفرادية وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

ثم تحدث الدكتور عن كيفية تعامل الغرب مع المسلمين ولاسيما العرب منهم؟ ثم ذكر المواقف التي ينبغي أن تتخذ لدرء الخطر الإسلامي منها:

١- محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام.

٢- معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب. ثم أشار الدكتور إلى القضية الفلسطينية وأثرها في عداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة الأمريكية، كما أشار إلى الفكر الأمريكي المعارض وأثرها

المحدود في أمريكا الواسعة، ثم ختم البحث بالبعث الإسلامي الحضاري وأن المسلمين ما زالوا بحمد الله قادرين إلى العودة والاستمساك الصحيح بدينهم.

٤- علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم:

وهو بحث مقدم إلى مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة والتي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ٢٠٠٣م.

تحدث الدكتور في هذا البحث عن علاقة الغرب الاستعماري بالعالم وقسم الدكتور الاستعمار لقسمين:

الاستعمار الغربي القديم وذكر مسوغات الاعتداء على الشعوب وأراضيها والتي منها:

أولاً: العنصرية. ثانياً: نشر المسيحية. ثالثاً: التنافس والتكاثر بين الدول الغربية. ورابعاً: الضرورات الاستراتيجية التي أدى إليها ذلك التنافس بين الدول المستعمرة وخامساً: الطمع المادي. وذكر الدكتور أن هذه المسوغات كلها غير مقبولة خلقاً وغير قائمة على أسس علمية.

الاستعمار الغربي الجديد وذكر الدكتور أبرز منظري الاستعمار الجديد. وهما البريطاني روبرت كوبر والأمريكي هنري كسنجر .

ويرى كوبر أن الدول في العالم ثلاثة أنواع أرقاها ما أسماه بالدولة فوق الحديثة، ثم الحديثة، ثم قبل الحديثة. ويلخص كوبر الدولة فوق الحديثة في المسائل التالية: إزالة الفوارق بين الشؤون الداخلية والشؤون الخارجية، التدخل المتبادل فيما كان يعد شؤوناً محلية لكل دولة، رفض العنف وسيلة لحل المشكلات، اعتماد الأمن على الشفافية والانفتاح، عدم أهمية الحدود.

ثم يختم الدكتور بحثه بالسؤال: ماذا نفعل نحن المسلمين والعرب بخاصة إزاء هذه الأفكار الجديدة التي بدأت تكون واقعاً جديداً؟

وذكر الدكتور أن هناك سبباً أساسياً يتعلق بالدين، وأسباب أخرى تتعلق بالتقدم المادي.

٥) ودوا لو تكفرون كما كفروا:

وهو مقال ذكروا في الكتاب أنه نشر في مجلة البيان العدد١٧١ذو القعدة ١٤٢٢ ولم أعثر عليه في إصدارات مجلة البيان، وإنما نشر في موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس على الشبكة العنكبوتية بتاريخ ٢٩شعبان ١٤٢٤الموافق ٢٠٠٣م.

يقول الدكتور في هذا المقال يتساءل كثيرٌ من المسلمين اليوم عمّا إذا كانت الحرب الأمريكية الغربية على ما يسمونه بالإرهاب حرباً دينية؟ الإجابة تعتمد فيما أرى على المقصود بالحرب الدينية. فإذا كان المعني بها أن الغرب يريد أن يحارب الإسلام باسم المسيحية، أو أنه يريد نشر المسيحية؛ فإن حربه ليست دينية؛ لأن الواقع أن إيمان الغربيين بالمسيحية أو اليهودية صار أضعف بكثير مما كان عليه في الماضي، بل إن جمهرة كبيرة من قادتهم ومسؤوليهم لم تعد تؤمن بها ولا بأمثالها من الأديان. بَيْدَ أنهم -وحتى الملحدين منهم- لهم نوع من الانتماء إلى هاتين الديانتين باعتبارهما جزءاً من تاريخهم ومكوناً مهمّاً من مكونات حضارتهم التي يفاخرون بها ويعُدُّونها خيرَ حضارةٍ عرفتها البشرية. ثم يقول الدكتور إذاً ماذا يريدون منا؟

قادة الحضارة الغربية يريدون منا معاشر المسلمين أن نلبي لهم ثلاثة مطالب:

أولها: أن تكون العلمانية منهج حياتنا كما هي منهج حياتهم، وأن لا يحتلّ الإسلامَ إلا مكاناً ضيقاً في إطارها.

ثانياً: لكن هذه العلمانية يجب أن تكون ليبرالية ديمقراطية في السياسة، رأسمالية حرة في الاقتصاد، إباحية في القيم.

ثالثاً: أن تكون هذه العلمانية العربية أو (الإسلامية) خادمة لمصالح الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية؛ وذلك لأن الدولة قد تحقق ذينك الشرطين السابقين، لكنها تكون مع ذلك دولة قوية مستقلة منافسة للدول الغربية.

٦- تصور إسلامي للتعايش السلمي:

وهي مقالة نشرت في ٢٦يونيو ٢٠٠٧م ولم يذكر مصدرها.

وذكر الشيخ في هذه المقالة أن التعايش السلمي مع الأديان غير الإسلامية مبدأ إسلامي أصيل دلت عليه النصوص، وطبقه المسلمون طوال تاريخهم، ثم ذكر الشيخ

الحقائق والمبادئ الإسلامية التي قام عليها هذا المبدأ، ثم ذكر الشيخ -حفظه الله- تاريخ التسامح عند المسلمين، وأسباب الحروب الإسلامية، وأشكال الظلم الذي دعا الإسلام لمحاربته.

ثم ختم مقالته بالحاجة إلى التعايش السلمي في عصرنا.

٧- أصول إسلامية للعلاقات الدولية:

وهو بحث مقدم لندوة الإسلام في شرق آسيا حضارة ومعاصرة، تايبيه بتايوان ١٤٢٥ الموافق ٢٠٠٤م.

وهذه الورقة كما أشار الدكتور هي في الأصول الإسلامية التي تؤسس عليها العلاقات الدولية، فهي أشبه ما تكون الآن بما يسمى بفلسفة العلاقات الدولية، ثم تحدث الشيخ عن التصور الإسلامي للإنسان، وذكر شيئاً من الآثار السياسية لهذا التصور الإسلامي للإنسان، ثم ختم هذه الورقة بمسوغات الإذن بالقتال في الإسلام.

القسم الثاني: -أسس الفكر الغربي ونقدها:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- نقد الفكر الغربي بمنهج علمي:

وهو بحث نشر في التقرير الاستراتيجي للبيان ١٤٣١الموافق ٢٠١٠م وقد ذكر الشيخ في هذا البحث مميزات المنهج العلمي في نقد الفكر الغربي، ثم تحدث عن الفكر الغربي، والحركة التنويرية، ولماذا وقف التنويريون من الدين ذلك الموقف شبه العدائي، ثم تحدث الشيخ عن القيم الغربية، ثم عن الديمقراطية، وضرورة العلم والأمانة، وأنهما شرطان لا يمكن أن يكون الحكم محققاً للغاية منه إلا بهما، ثم تحدث عن الرأسمالية وعلاقة الديمقراطية بالرأسمالية والليبرالية، ثم ختم بحثه بالحديث عن الفكر العلمي عند الغربيين.

٢- عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية:

وهي ورقة كتبت لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام الذي عقد في الكويت من ٢٢-٢٤ يناير ٢٠٠٧م ذكر الشيخ في مقدمة بحثه أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن

الإسلام هو الآن العدو الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ثم يذكر الشيخ أن هناك عناصر مشتركة تمثل القيم بينهم، وذكر أنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك، ثم تحدث الشيخ عن الفكر اليوناني، والديانة اليهودية والديانة النصرانية والحضارة الرومانية وحركتا الإصلاح والبعث وحركة التنوير والليبرالية والديمقراطية والعلوم الطبيعية، ثم تحدث الشيخ عن طبيعة القيم الغربية، وختم بحثه بالعمل الذي ينبغي على المسلمين فعله.

٣-الدعوة الإسلامية والغزو الفكري:

وهو بحث قدم هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عقد في الخرطوم ٢٢-٢٦جمادى الأولى عام ١٤٠١الموافق ٢٨مارس -١أبريل ١٩٨١م بمناسبة القرن الخامس الهجري، وقد نشر قبل ذلك في مجلة هذه سبيلي العدد الخامس ١٩٨٣/١٤٠٣م التي تصدر في المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم طبعته رابطة الشباب المسلم العربي (اللجنة الثقافية) سلسلة البحوث والدراسات عام ١٩٨٧م في كتيب صغير، وقد أشرنا إليه من قبل.

القسم الثالث: البعث الإسلامي:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام:

وهو بحث قدم لمؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي عام ٢٠٠٥م.

في هذا البحث بدأ الشيخ حديثه عن الوحدة الكاملة المثالية للمسلمين، وهي أن يكونوا كما كانوا في عهد النبي ﷺ أمة واحدة ذات عقيدة لا يخالطها شرك وعبادة خالية من كل بدعة وخلق حسن وعمل صالح، ثم ذكر الشيخ مشروع لمحاربة الإسلام اسمه "Muslim World Outreach" وأشار الشيخ إلى تكتيك السي آي إي الأمريكية، ثم تحدث الشيخ عن مسؤولية العلماء ومسؤولية الحكومات ومسؤولية المنظمات الإسلامية الرسمية ومسؤولية المنظمات الإسلامية الشعبية ومسؤولية الإعلام.

٢- حوار حول صراع الحضارات:

وهو مقابلة أجرتها مجلة الفيصل مع الدكتور جعفر شيخ إدريس العدد ٢٥٧ والحوار مع الشيخ حول الحضارة الغربية، وكيف ستكون العلاقة بين الإسلام والغرب.

* * * * *

حوار حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي

مقابلة مع مجلة البيان العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣الموافق١٩٩٢م والعدد ٥٦ ربيع الآخر ١٤١٣الموافق أكتوبر ١٩٩٢م.

وهي حوارات كما هو عنوانها حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي .

٢- ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟

وهو بحث قدم لمؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الذي نظمته وزارة الإرشاد والأوقاف بالسودان في الخرطوم عام ٢٠٠٣م.

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ -وفقه الله- عن قوى الحضارة الغربية.

١-القوة الصلبة.

٢-القوة اللينة.

٢- المستقبل لنا:

مقالة في مجلة البيان العدد٢٣٩ رجب ١٤٢٨ الموافق يوليو٢٠٠٧م، وقد أشرنا لها في قسم المقالات.

* * * * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * * * *